أجزاء القول

حازم صاغية

تعريب الكتائب اللبنانية

الحزب، السلطة، الخوف



دار الجديد

حازم صاغية

تعريب الكتائب اللبنانية

الحزب، السلطة، الخوف

دار الجديد

دار الجديد
١٩٩١

الطبعة الأولى

ص. ب: ١١/٥٢٢٢ بيروت ـ لبنان
تلفون: ٨٦٣٣٧٥.
التنضيد: علي حمدان
ماكيت: حسين فتوني

إلى ندى، ابنتي


مقدمة

طفت على التفكير السياسي العربي حَدَاثِيَّـةٌ مُبَسَّطَةٌ تـرى إلى «الدولـة» من خلال خطٍّ تصـاعدي يحجبُ المجتمـعَ المعني الذي هـو قيد الـدرس، كما يُسـدِلُ الحِجابَ على تعقيداته وتراكيبه وثقافاته.

ولئن ظنَّ أصحابُ هذه النزعة أنَّهم يستعيرون «النموذج الأوروبي»، باستلهامٍ قوميٍّ ساذج، أو ليبراليٍّ حَسَنِ النوايا، أو ربَّما ماركسيٍّ أمينٍ لمراحله الخمس، فإنَّ تاريخانيتهم كانت تدفعهم غالباً إلى تبرير القمعِ الذي يُنْـزَلُ بالمجتمـع، والمصادرةِ التي تتعـرَّضُ لها السياسةُ، من دون أنْ يلوحَ أيُّ بشير بالتقدم الموعود.

وهكـذا لم يكن مستغربـاً أنْ يقودَ تجـاهلُ المجتمـع وحجبُ ارتباطِـهِ بـالسيـاسـة وصدورِها عنه، إلى التسامح مع «تأديبه» لأنَّ التقدُّمَ مثل أسنان المشط تماماً.

ولم يشذ تناولُ لبنان عن هذا التناول العربي الجامع للمسائلِ والمواضيعِ والبلدان فَصِيرَ إلى تطويبِ الشهابيّة خطوةً «حديثة»، وأحياناً «تقدميّة»، وبالطبع «إنمائيّة»، فيما تمَّ التغافل عن الواقع اللبناني بطوائفه ومناطقه، وعن الإطار العربي الإستبدادي الـذي نَمَتِ التجربةُ الشهابيّةُ في كنفه، فكانت محاولةً للتَّكَيُّفِ معه والإستجابةِ له.

وتَبَعـاً لهذه التـرسيمة الفخيمـة بات اكتشـافُ المصدر الـداخلي للعنف المـاروني (وعنفِ سائر الطوائف) في حرب ١٩٧٥ وما تلاهـا، نوعـاً من السحر الـذي لا سبيل إلى تأويله.

وكانَ للمفاجأة بالحرب «الهمجيّة»، بعد الإنماء والتحديث، أنْ سَهُلت لجوءَ الكثيرين إلى تحليـلات سِقْطِ المَتَاع، فقـال بعضهم بـ «الفاشيّـة» تعريفـاً جوهـرياً للكتـائب، ولجأ آخرون إلى «حروب الآخرين على أرضنا» مقـولةً أحـاديّةً وبسيطـةً لا تُغني ولا تُسمن من جوع عيوبِنا.

تزعم هذه الأسطـر، في المقابـلِ، محاولـةَ التناولِ لظـاهرةٍ سيـاسيةٍ مُحَـدَّدَةٍ هي الكتائب، بِوَصْفِها جزءاً من حالةٍ مُجْتَمَعِيّةٍ أعرضَ لها تاريخُهَـا الخاصُ بهـا، بِمَا في ذلـك الصلةُ بجوارٍ عربيٍّ لا يكفُّ عن التداخل معنا في السياسةِ والحربِ والثقافـةِ، وفي بعضِ المقدماتِ السوسيولوجية أيضاً.

غنيٌّ عن القول أنَّ هذه الأسطرَ لا تُفضي إلى «تأريخ» ولا إلى «بحث اجتماعي». فالسّاعي إلى التاريخ لن يجد ضالته هنا حيث لا يُؤخَذُ التحقيبُ بأيِّ اعتبار. أمَّا الساعي وراء البحث الإجتماعيِّ فلا بدَّ أنْ يُقْلِقَهُ غيابُ الكثير من المحاور الأساسية في السياسة اللبنانية وفي تجربة الكتائب تحديداً.

غير أنَّ هذا العملَ يحاول الإستعانةَ بما يوفره له التأريخ والبحث الاجتماعي للوصول إلى رصد المسار الكتائبي ما بين النشأة والتَّحَلُّل: النشأةِ في وسط طائفيٍّ يميل إلى التمدينِ (Urbanization) والتَّرَسْمُلِ والاندراجِ في حياة برلمانية تعدديّة من دون أنْ تضمحلَّ مصادرُ إمداده الريفيّة والصوفيّة، وإلى التَّحَلُّلِ من ضمن الإرتداد اللبناني العام، بما فيه المارونيِّ، إلى السُّوِيَّةِ الدمويّة العشائرية المغايرةِ للطائفية والرَّسْمَلَةِ والسياسة.

ولم يَغِبْ عن هذا المسار تضافُرُ عاملين كُتِبَ لهما أنْ يتكاملا، مرّةً في نحوٍ صراعيٍّ ومرّةً اخرى في زيٍّ من التحالف. امّا الأوّل فتمثَّلَ في البيئة الأهليّة اللبنانيّة، والمارونيّةِ في هذا المجال، التي نما تقدُّمُها ودمويَّتُها الريفيةُ (اي عروبتُها) نمواً متجاوراً، وامّا الثاني فتمثَّل في العروبة النضالية بتركيبها وعقائدها، بثقافتها وسلاحِها.

لقد كانت الطائفةُ المارونية الطائفةَ الأولى من حيث أسبقيةِ التَّشَكُّلِ الاجتماعيِّ والقِيَمِيِّ، ولأنَّها الطائفةُ الأكملُ طائفياً والأبكرُ في التَّحوُّل عن العلاقات الدموية البحتة، بدت سبَّاقةً في إنتاج نخبةٍ سياسية مستقلّةٍ عن ملكيات الأرض الكبيرة ومُسْتَنِدَةٍ إلى مهنٍ ومعاييرَ أشدَّ حداثة، مِمَّا ساد العالم العثماني وعصبيّاتِه الدموية. هذا، على الاقل، ما نَمَّت عنه الطائفة المذكورة في جبلها وفي مدينة بيروت: فبينما انزوى مشايخُ آل حبيش، وراح الدور الذي لعبه المشايخُ الخازنيون يتراجع في صورة شبه منتظمة، تصدَّر الحياةَ السياسية للموارنة في هذا القرن «المحامون» إميل أده وبشارة الخوري وكميل شمعون وحميد فرنجية و«الصحافي» شارل حلو و«الصيدلي» بيار الجميل و«رجل الأعمال» بيار أده و«الموظف» إلياس سركيس ممن لم ينقطع أيٌّ منهم عن المدينة في نَحْوٍ او آخر.

ومن طَرَفَي المتن السياسي او هامِشَيْه، نجح اثنان في أن يتسلَّلا إلى ذروة الهرم: فؤاد شهاب الآتي من صفوف المؤسَّسة العسكرية، وسليمان فرنجية القادم من خارج أيِّ تراتب اجتماعي يمكنُ وصفه بالحداثة. فكان لتسلُّل شهاب ومن بعده فرنجية أثرٌ بعيدٌ على الحياة السياسية للموارنة ومن ثَمَّ للبنانيين جميعاً.

بَيْدَ أنَّ نجاحَ الطائفة المارونية الجبلية ـ البيروتية في إقامةِ نصاب سياسي، مُتَّصِلٍ بالتعريف بعلاقات الصلب الاجتماعي، وبالتالي محدودِ القدرةِ على التَّفلُّت الاستبدادي من ضغوطِ «القاعدة» ورقابتِها وامتحانِها وقنواتِ تَدَخُّلِها، هذا النجاح لم يكن غير تتويجٍ لتحولات شكَّلت في حصيلتها عمليةَ مصالحةٍ بين الكتلة المارونية الجبلية

و«العصر» الذي يتحرك على إيقاع السيادة والامتداد الأوروبيين.

فتَبَعاً لأقَلِّيَّتِهِم المذهبية حيال المنطقة المحيطة، وتَعَاظُمِ عددهم في الجبل بنتيجة الإنقلاب الديموغرافي الذي أصاب العدد الدرزي، وتبعاً لاستعدادِهِم للخروج على أنظمة القِيَمِ والعلاقات العثمانية السائدة، غيرِ المُلْزِمَةِ لهم، تمكَّن الموارنةُ البيروتيون والجبليون من النسج مبكراً على المنوال الأوروبي، وذلك بسهولةٍ نسبيّةٍ قياساً بسائر الطوائف اللبنانية الأقلُّ تفلُّتاً من الرابطة العشائرية:

- تعليميّاً، ترتبت نتائجُ بالغةُ الاهميّة على اتِّحاد كنيستهم برومية في أواخر القرن الثاني عشر. ففي مقابل المصالحة مع لغةِ المنطقة كما بدأت تُؤَسِّسُها زجليات ابن القلاعِيِّ الذي توجَّهَ في ١٤٧٠ للدراسة في إيطاليا، كانت الصِّلةُ المبكرةُ بالفاتيكان تُنشىء المرتكزات المحلية للتيار الثقافي المُتَّجه لاحقاً إلى السيادة الكونية. ففي ١٤٣٩، مثلاً، تمثَّلَ البطريرك الماروني في مَجْمَع فلورانسا، وفي ١٦٥٤ اقيم في رومية معهدٌ خاص بالموارنة، وفي القرن التالي سمح الأمير فخر الدين المعني الثاني للإرسالية الكبوشيَّة الكاثوليكية بالعمل في مدينة صيدا. ولم تقتصر نتائج هذا الإرتباط على التمهيد للتكاثر العددي اللاحق الذي أصاب عددَ الإرساليات الأجنبية، الدينية ومن ثُمَّ العلمانية، في الجبل الماروني، بل تعدته إلى انهيار «الكُتَّاب» كوحدةٍ تعليميةٍ، ونشوءِ «المدرسة»، الوطنيَّة والأهليَّةِ، كوحدة حديثةٍ نازعةٍ إلى الشمول والتعميم. وفي مقابل الصِّلة بالغرب وتكاثر الإرساليات ونشأةِ المدرسة، كان يظهر ويتعزز طاقم ماروني لا يتوافر مثيلٌ له في الطوائف الأخرى.

- اقتصادياً وتنظيمياً، تَحَصَّل للموارنة في القرن التاسع عشر ارتباطٌ وثيقٌ بالسوق العالمية في شكلها وحدودِها يومذاك، عبر القطاع الزراعي في الجبل الذي ارتبط بصناعةِ الحرير. وبينما كانت اوروبا تتهيأ لتوسُّعٍ اقتصادي يلفُّ العالمَ بأسره ويكسُر كلَّ سورٍ صينيٍّ قائمٍ او محتمل، وَجَدَ موارنةُ الجبل في تربية دود القز وفتح الكرخانات ما يتكفَّلُ بهدمٍ تدريجي للإقتصاد المنزلي المكتفي، المعزولِ والمبعثر.

بدورِهَا استطاعت الكنيسةُ، ولا سيّما مع وصول «العاميِّ» بولس مسعد إلى كرسيها البطريركيِّ، منتصفَ القرن الماضي، انْ تُشَكِّلَ جسداً عضوياً يجمعُ إلى قيادَتِهِ الروحيةِ والأيديولوجيةِ قيادةً اقتصاديةً تعملُ على تَثْجيرِ الإنتاج الزراعي وتعميمِ الربح والعمل المأجور، وأخرى سياسةً تُمارس دورَها في التأثير وصنعِ القرارِ التَّجَمُّعِيِّ. وكان لذلك كلِّه انْ اسهم في هزِّ الصلب الاجتماعي عبر التحركاتِ العاميةِ والفلاحية، التي توّجهتها حركة طانيوس شاهين بما حظيت به من رعايةٍ كَنَسِيَّةٍ وعطفٍ فرنسي. وبيَن النتائج البعيدة التي افضى إليها هذا التَّحوُّل تحريرُ الإحتمالِ السياسي من وطأةِ «الإستبدادِ الشرقي» لملاّكي الارض.

وكانت من العدَّة التنظيمية التي امتلكتها الطائفةُ المارونية مبكراً، المطبعةُ والصحيفةُ والنقابةُ والحزبُ، التي لم تحل صِيَغُهَا وأشكالُها النواتِيَّةُ دون التدليلِ على وجودِ نبضٍ مجتمعيٍّ مستقلٍ عن «السلطة» وقرارهـا المفروض من المنصـة العلويـة. ففي ١٨٥٣ أُنشئت «المطبعـة الكاثوليكية» (وكـانت المطبعة الأميـركية قـد نقلت في ١٨٣٤ إلى لبنان)، وفي ١٨٥٨ صدرت صحيفة «حديقة الأخبار» لخليـل خوري، وقبـل الحرب العالمية الأولى لعب الموارنـةُ في جبل لبنـان والمهاجـر والمنافي أدواراً تفـوق بكثير أعدادَهم في إنشاء الجمعيات المناهضة للعثمانيين، وفي ١٩١٩ تأسس «اتحـاد العمال العام».

□ ايديولوجياً وقِيَمِيّاً، راحت تسودُ «نخبةَ» الوسطِ المسيحي عموماً، والمارونيَّ خصوصاً، أفكارٌ مناوئةٌ للعالَمِ العثماني وقِيَمِهِ وتراتبه المـوروثِ وأشكالـه التنظيمية. فلم يكن من المصادف أنْ يظهر مع حلول العـام ١٩٠٢ أوّلُ كتاب عـربي عن الثورة الفـرنسية هـو «نبذة» أمين الريحاني التي وُضعت في نيويورك مُسْتَشْهِدَةً بتاريخ ميشليه وتاريـخ دي توكفيل، ومُسَاجِلَةً ضد كارليل. أما العملان المبكران الآخران حول الثورة نفسها، فكانا «١٤ تمـوز» للماروني يـوسف إبراهيم يـزبك، وتـرجمة الأرثـوذكسي الطرابلسي فـرح أنطـون لروايـة اسكندر ديمـا «نهضة الأسـد». في هذا المنـاخ نشأت وتبلـورت أفكارُ «المسـاواةِ» و«الأخُوَّةِ» والتسـامحِ الـديني، فضلاً عن الإنكبـابِ النهضوي على بعث اللغة العربية وتجديدِها في أوسَاط المثقفين الموارنة.

□ سياساً، بعد إنشاءِ المدرسة، والإرتباطِ بالسُّوق العالمية، والتمهيدِ لسياسةٍ بديلة تـدور حول محور الفئـة الإجتماعيـة الصاعـدة، وشيوعِ الأفكـارِ المغايـرةِ للتقليد، تـوافرت مقدماتُ المصالحة بين الكتلةِ المارونية الجبليةِ والواقعةِ السياسية المعـاصرة مُمَثَّلَـةً بفكرة «السيادة» التي تتمتع بها الدولةُ حديثةُ الولادة. فموارنـةُ الجبل، تَبَعـاً لتكوينهم هذا والعناصرِ التي أُشيرَ إلى بعضهـا، كانـوا أقدرَ من عـرب السلطنة الآخـرين على طَرْحِ «المتصرفية» ونيلها، وبعد ذلك طَـرْحِ فكرة «الـدولة العـربية» بعـد العملِ على أحياءِ لغتها وثقافتها في مواجهة الرابط الديني، وفي طورٍ لاحقٍ طَرْحِ اللبنانيّة وريـادةِ صوغها في دولةٍ ذات سيادة.

فمن الإنهيار الدرامي للسلطنة العثمانية والإمبراطورية الهابسبورغيـة النمسويـة ـ المجرية، إلى الإنهيـار غير المصحـوب بأيَّـةِ درامية لـ «الـدولة» العـربية الشـريفية في دمشق، راحت تَتَّضِحُ مبكراً الوجهةُ السياسيةُ السائدةُ في عالمِ ما بعـد الحرب العـالمية الأولى. وكانت أبرزُ معاندة تتعرض لها الوجهةُ المذكورة محـاولة البـلاشفة الـروس الذين أرادوا أنْ يحـافظوا بـالقسر والحـديد على وَحْـدَةِ الإمبـراطـوريـة القيصـريـة، متعددةِ الجنسيات والقوميـات واللغات والأديـان، غيرَ عـابئين بالـوعود السـابقة عن «حق تقـرير المصير» (الشيء الذي بدأ ينهار ويتصدَّعُ مع مُسْتَجِدَّاتِ العهدِ الغورباتشوفي).

وبهذا المعنى كان «لبنانُ الكبير» في ١٩٢٠ إنجازاً تَقَدُّمِيّاً ينمُّ عن المدى التحديثي الذي قطعه التشكيل الطائفيُّ الماروني في الجبل وبيروت، تماماً كما كانت المتصرفية إنجازاً تقدمياً يُعادلُ الإعلانَ عن نشأةِ هذا التشكيل.

غير أنَّ الإرتباطَ بالوجهةِ الغالبةِ على نطاقٍ دولي والنسجَ على المنوال الأوروبي، لا يُعفيان الطرفَ المُرْتَبِطَ والناسجَ من تلقّي آثارِ المحيط الجغرافي ـ الثقافي الذي يبقى جزءاً منه، ولو تميَّزَ عنه واختلف. فموارنةُ الأطراف الريفية لم يُصِبْهُمْ ما أصاب جَبَلِيِّي الموارنةِ إلاّ في حدودٍ طفيفةٍ ومبعثرةٍ، فيما المنطقةُ العربية ـ الإسلامية عارضت إسلاسَ القيادِ لأوروبا معارضَتَها التَّيَمُّنَ بمنجزاتِها ومساهماتها، اقلَّهُ في الحقلين السياسي والإيديولوجي ـ القِيَمِيّ.

وقد زادت حِدَّةُ هذه المعارضة مع إنشاء دولة إسرائيل في ١٩٤٨ بدعم الغرب، الراسمالي والشيوعي في آن معاً، بما فاقم المرارةَ العربية والإسلامية حيالَ الغلبةِ الغربية والنتائجِ المترتبة عليها.

الاّ أنَّهُ ومنذ مطلع القرن كانت المشكلةُ السياسيةُ (والشرعية الدستورية)، قد بدأت تختصر النزاعاتِ المتشعّبَةَ بين العالمِ الذي تمضي السيادةُ الغربية ومفاهيمُها في صوغه، وبين المناهضةِ العربية ـ الإسلامية له بالاعتماد إلى عمق أهليٍّ لا ينضب. ففي مقابلِ الدُّوَلِ النهائيه ذات الحدودِ المرسومةِ والسياداتِ المطلقةِ، رفعت الجمهرةُ العربية والإسلامية، ولا سيما في بلدان سورية الطبيعية وخصوصاً لبنان، دعواتٍ مُتَّصِلَةً إلى وَحَدَاتٍ إندماجيَّةٍ، دينيةٍ أو قومية، لا تعترف بالدولِ الناشئةِ ولا تُقِرُّ بحدودها وسياداتها. وفي مقابلِ السلوكِ التدريجي لطريق المؤسسات والتعدد السياسي، كان الإحباطُ الوافدُ من الارياف، بما فيه إحباطُ الموارنة انفسِهِم، يُلقي بثقله على صدر المدينةِ ووعودها، ويُشيع فيها تصوراتٍ قاطعة وصدامية لا تعوزها الجاذبية الجماهيرية. وكان للهزائمِ العسكرية الموجعة أمام «الغرب» أولاً، وأمام إسرائيل تالياً، أنْ جعلت دعواتَ التوحيدِ تجمع إلى مجافاتِها المسارَ السياسيَّ والدستوري العصري، حِدَّةً واحتقاناً لا يُخفيان عمقَهُما المُتَوَتِّرَ، فتردُّ على ذلك بالتوتر نفسِه اقليّاتٌ قوميّة ودينية لا تكتمُ ذعرها من أنْ تَتَوَجَّهَ شفرةُ الإحتقان الاكثريُّ نحوها.

في الحالاتِ كافة كان لهذا الإحتكاكِ بالخارج الذي يتمُّ استدخالُه في الوضعِ اللبناني عبر قنواتٍ متعددة، سياسيّةٍ وثقافيّةٍ واقتصادية، قُدرةُ شَحْذِ الأسُس الداخليّةِ والأهليّة للعنف اللبناني، وهو ما لم يستطع برلمانٌ طَرِيُّ العودِ أنْ يستوعبَهُ ويتغلّبَ عليه.

فبين النُّمُوِّ الطبيعي المُفضي إلى تَطَوُّرٍ حديثٍ، شرطُه المُضِيُّ في احتضانِ الصلةِ المتعددةِ الأبعادِ بالغرب ورعايتِها، وردَّةِ الفعلِ السلبية مرة، والتوافقية ـ الحِمَائِيّة مرةً أخرى، تجاه التياراتِ العاصفةِ في محيطٍ مُنَاهض للغرب، ترعرعت التجربةُ السياسيّةُ

المارونيّةُ في النصف الثاني من هذا القرن، وتبلورت نُخْبَتُهَا.

وتَبَعاً لهذا الإستقبال المتفاوت لعناصرَ متفاوتةٍ أصلاً، اتسمت التجربةُ الأخيرة بميلٍ إلى التَّوَطُّدِ السياسيِّ مشوب بإغراء النزوعِ الإرتدادي الدائمِ نحو آليات عملٍ أوثق صلةً بالإستبداد والتكوين العشائري الذي لم تَطْوِهِ كُلِّيّاً يدُ النسيان، منها بالمجتمعِ السياسيِّ وإملاءاتِه وفروضه.

فكُلَّما تَعَزَّزَت الدولةُ في الجوارِ العربيِّ وتعزز ميلُها الدستوريُّ التدريجي على حساب نزعاتِها الإيديولوجيةِ العاصفةِ، الدمجيةِ أو التحريرية، تَعَزَّزَ الخيارُ المديني للمارونية استمراراً في محاكاة الغرب وسط مناخٍ سلمي هادىء يُتيح نشرَ المُحاكاة، يوماً بيوم، على المساحة اللبنانية برمَّتها. وكلما طغت الراديكاليةُ والتيّاراتُ شِبْهُ التوتاليتارية والثورية في الجوار العربي، احتكم الموارنةُ إلى المخزونِ الريفي والإرث الشرقي الذي يُراوح بين الاستبدادِ المُنَظَّمِ والعنفِ المُفَتَّتِ، مؤدياً في الحالين إلى تعطيلِ السياسة والنشاط الدستوري.

إنَّها، بلغةٍ أخرى، تحدّي البرلمانية وصعوبةُ الحزبية في عالم ليس فقط «غيرَ» أوروبيٍّ، بل أيضاً مناهضٌ لأوروبا. وهما صعوبةٌ وتَحَدٍّ مطروحان على الموارنة ضد الإستبدادِ الشرقي بما فيه استبدادُهُم هم أيضاً حينما ينجحُ الشرق في إيقاظ شَرْقِيَّتِهِم.

وربَّما كان حزبُ الكتائب أبرزَ الظاهراتِ السياسية المارونية التي حملت في آن معاً جرثومة الإستبدادِ الشرقيِّ وجرثومة مناواته، فكانت الأولى تَنْزَعُ بها إلى «الميليشيا» والثانية إلى «الحزب».

ح. ص.

الفصل الأول

الشهابية
و«المارونية السياسية»

ربّما كان «حزب الكتائب اللبنانية» الذي ساهم في الحياةِ البرلمـانية وبنـاءِ تجربـةِ التعايش في جانب، وَحَضْنِ العنف الـذي يُؤسِّسُ لـ «البديـل» عن السياسـة والدولـة في جانبٍ آخر، أوضـحَ تعابيـرِ التّمزُّق في الـوعي السياسي المـاروني، لا سِيَّما عنـد جمهرةِ الفئات الإجتماعية الوسطى، إن لم نَقُلْ في الخيار التاريخي للكثرة المارونية الجَبَلِيَّة.

لكن ما تختصرُهُ التجربةُ الكتـائبيةُ لا يكتمـهُ التركيبُ الـذي انطوت عليـه مؤسَّسةُ رئاسة الجمهورية في لبنان، بوصفها أبرزَ مؤسسات النخبة السيـاسية المـارونية وأهمَّهـا في زمنِ السِّلم، أي ما بين ١٩٤٣، تاريـخ نيل الإستقـلال الوطني، و١٩٧٥ سنـة اندلاعِ الحرب الأهلية ـ الإقليمية التي استطالت.

فبشـارة الخوري وكميـل نمر شمعـون وشارل حلـو، وهم الـرؤسـاء الثـلاثـة غيـرُ «المُنْقِـذِينَ» وغيرُ المَـدْعُوِّينَ، لحظـةَ اختيارهم رؤسـاء، لصدًّ «خطـر خارجي» أو لتـدبير تعايشٍ صعب معه، يجمعُ بين تجاربهم السياسيةِ صدورُها عن مقـدماتٍ حـديثة نسبيّـاً، تُفصِحُ عن علاقاتٍ اجتماعيةٍ متقدمة وتُحاول محـاكاةَ السيـاسة في معنـاها الغـربي، كما تتضافرُ فيها وتنعكسُ المستوياتُ المتعددةُ والمستقلَّةُ للنشاط الاجتماعي.

فالثلاثةُ ينتمون إلى مناطق الجبل الأكثر تمديناً وتَعَرُّضاً لفعل الإرساليات والإرتبـاط المالي والإقتصادي بالغرب، كما للإختلاط الطائفي والثقافي الأشدَّ إلحاحاً على التسويات التوافقية وتَطَلُّباً لها. فإذْ يُلاحظ البرت حوراني، في معرض التمييز داخـل «الإيديـولوجيـا المارونية» أنَّ إيديولوجية الشمـال، وهي المارونيـة التي أرَّخَهَا الـدويهي، ترقى إلى طـورٍ سابق على التعايش مع الدروز كما سَجَّلَتْهُ تجربةُ الجبل، بدءاً بـالإمارة المعنيـة في القرنِ السابع عشـر، فإنَّ المـارونيةَ الجبليـةَ هي مارونيـةُ المناطق التي هـدمتها حـروبُ القرنِ التاسع عشر الأهْلِيَّةُ، أو كادت تهدمها، بما وسمها بميلٍ إلى الإعمار والهدوء والتوافق دلَّ عليه الإستقبالُ المارونيُّ الجبليُّ لإصلاحاتِ المُتَصَرِّفِ داود بـاشا، عـدوِّ يوسف بـك كرم الشمالي(١). فبشارة الخوري من رشميا، إحـدى أكبر القـرى المارونيـة في قضاء عـاليه

(١) راجع: Albert Hourani, «Ideologie of the mountain and the city. Reflections on the lebanese civil war», in: Roger Owen (ed.), *Essays on the crisis in Lebanon*, Ithaca press, 1976.

بحسب التصنيف الإداري المعمول به حتى ١٩٩٠، وكميل شمعون من دير القمر، إحدى اكبر واهَمِّ قرى قضاء الشوف، وشارل حلو من بعبدا التي هي، بحسب التصنيف الإداري، نفسِه، عاصمةُ قضاء المتن الجنوبي الذي يُسَمَّى ايضاً قضاء بعبدا. ولئن عَرَفَتْ منطقتا عاليه والشوف شديدتا الإختلاط تقاليدَ التَّعايش (والنزاع) الماروني ـ الدرزي، وهي ما كانت قد اسْتَتَبَّت وتبلورت قبلَ زمنٍ على تعاظمِ زعامةِ كمال جنبلاط في العهدِ الشهابي، فإنَّ المتنَ الجنوبيَّ جمع إلى الطائفتين هاتين لوناً ثالثاً وفَّرَتْهُ الطائفةُ الإسلاميّةُ الشيعيّةُ التي أقام بعضُ أبنائها في غربِ القضاء المذكور، جنوبِ العاصمةِ بيروت.

والثلاثةُ اختاروا مِهَناً تُشيرُ إلى صلةٍ وثيقةٍ بتراتب اجتماعيٍّ جديدٍ ومعاييرَ منفصلةٍ عن معاييرِ المجتمع الزراعي وقيادتِه المُوكَلَةِ إلى كبار مُلّاكي الاراضي أو زعماءِ العشائر، وهو المسار الذي افصحت عنه الحياةُ السياسية اللبنانية مع بلوغها أعلى درجاتِ تطورها في انتخابات ١٩٧٢ النيابية العامة قبل ثلاث سنوات على انفجار الحرب.

ففي تشريحٍ لبرلمان ١٩٧٢، وَجَدَ إيليا حريق انّه لم يَعُدْ هناك سوى ٧ نواب من اصل ٩٩ يُمَثِّلون ما اسماه بـ «الأرستقراطيين التاريخيين»: درزيان (كمال جنبلاط ومجيد ارسلان) وشيعيان (صبري حمادة وكامل الأسعد) وسُنِّيّان (سليمان العلي وطلال المرعبي) ومارونيٌّ واحد (هو إلياس الخازن)[٢]. لكن بينما كان «الأرستقراطيون التاريخيون» من غير الموارنة هم القادةُ السياسيون والأهليون لطوائفهم، ولا سيّما عندَ الدروز والشيعة، فإنَّ الماروني بينهم (الخازن) كان مُجَرَّدَ نائب عاديٍّ يبحثُ عن مقعد له في «لائحة قوية» تُشَكِّلُها الأحزابُ والقوى المارونيّةُ الفاعلةُ.

على أيّةِ حالٍ، فقد سَبَقَ لبشارة الخوري انْ اختارَ المحاماةَ مبكراً، وهو ما فعله شمعون بعد انْ مارس الصحافة في «لو ريفاي»[٣]، وهو ايضاً الخيارُ نفسُه الذي وقع عليه حلو وإنْ تَفَوَّقَ وجهُهُ الصحافيُّ الذي جَعَلَهُ رئيساً لتحرير جريدة «لوجور» على وجهِهِ كمحام[٤].

بلغة اخرى، فإنَّ احداً من هؤلاء الثلاثة لم يتقدّم إلى الحلبة السياسية بوصفه مجرَّدَ ناطق بلسانِ المجتمع التقليدي وتراتبِهِ. حتّى بشارة الخوري الذي كان «نسبياً

اعاد ا. حوراني نشر هذه الدراسة في كتابه: *The emergence of the modern Middle East*, Macmillan, 1985, p. 170-179.

(٢) انظر: إيليّا حريق، **من يحكم لبنان؟**، دار النهار للنشر، بيروت ١٩٧٢، ص ١٧ ـ ١٨. عن العلامات الأخرى على هذه الوجهة وعلى منحاها إلى الشيوع والتعميم، انظر الارقام الواردة في: غسان سلامة، **المجتمع والدولة في المشرق العربي**، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٧، ص ١٣٩ ـ ١٤٠.

(٣) انظر سيرته كما وزعها «حزب الوطنيين الأحرار» ونشرتها الصحف اللبنانية في ١٩٨٧/٨/٨.

(٤) انظر، مثلاً لا حصراً، ناجي كريم الحلو، **حكام لبنان ١٩٢٠ ـ ١٩٨٠**، الطبعة الأولى، ١٩٨٠، لا ذكر للدار، ص ١٢٥ ـ ١٢٦.

لحبيب باشا السعد، ومُتَحَدِّراً مثلَهُ من أسرة الخوري صالح، أصحابِ الإقطاع في الجرد في أواخر عهد الإمارة»[٥]، كان أيضاً إلى إتقانه المُمَيَّز للُغة العربية كتابةً وخطابةً «محامياً لامعاً، مثقفاً ثقافةً إفرنسيةً عاليةً، وموظفاً احتلَّ أرفعَ المناصب الحكومية»[٦]. أمَّا كميل شمعون فيبدو أنَّ عائلتَهُ تتخلَّفُ حجماً وتأثيراً ونفوذاً عن عائلاتٍ دَيْرِيَّةٍ عدَّة، وخصوصاً عمُّون التي برز منها مثقفون وسياسيون بارزون في أواخر القرن الماضي وفي هذا القرن، كاسكندر وسعيد عمّون المؤيدين لـ «القضية العربية» والثورةِ الهاشمية الكبرى[٧]، ومن بعدهما وزير الخارجية وحليف كمال جنبلاط ضد شمعون، فؤاد عمّون. وما ينطبق على أسرة عمون، ينطبقُ بنسبة أو أخرى على عائلتي نعمة وافرام البستاني[٨]، اللتين شكَّلَتَا قُطْبَيْ الإنقسام التقليدي الأهلي في دير القمر[٩].

وفي صُنعِ السياسي الماروني لنفسه بما أسبغَ على سلوكِهِ وشخصِهِ مِسْحَةً من العصامية، وُجِدَ رافدٌ نضاليٌّ مبادرٌ على تفاوت تأثيره، ولا سيّما عند الإثنين الأكبرِ سنّاً، أي الخوري وشمعون. فالأخير انتسب إلى عائلة عارضت العثمانيين وتعرَّضت للنفي الذي شمله هو أيضاً في صباه، فيما عاش الأوَّل المرحلةَ المذكورة طالباً في باريس بما لا يُخفي اختياراً سياسياً وثقافياً ضمنياً من منظور تلك الحقبة. وقبل ذلك كان رئيسٌ لاحق آخر هو إميل إدّه (الذي تَدَرَّجَ الخوري في مكتبه للمحاماة) أحدَ أبرزَ المعارضين للعثمانيين والهاربين من طُغيانهم، وسط رموزِ النخبةِ المارونيةِ المبكرةِ التي ضمَّت أيضاً الرئيس اللاحق ألفرد نقّاش، المحامي المتأثِّرَ بميشال شيحا ونجلَ أحد أوائل المصرفيين اللبنانيين.

وإذا كانت الجامعةُ اليسوعية آخر المحطات التي سبقت الإنخراطَ في الحياة العامة عند شمعون وحلو، بما ينمُّ عن هوية ثقافية ـ دستورية تبحث عن تبلورها، فإنَّ الخوري انتقل منها إلى باريس، كما سبقت الإشارة، ليكمل دراسة الحقوق، في وقت كانت معه هذه الدراسة تقتصر على أعدادٍ غير كبيرة.

(٥) كمال الصليبي، **تاريخ لبنان الحديث**، دار النهار للنشر، الطبعة الثالثة، ١٩٧٢، ص ٢١٦.

(٦) فيليب حتّي، **لبنان في التاريخ منذ أقدم العصور التاريخية إلى عصرنا الحاضر**، ترجمة أنيس فريحة، مراجعة نقولا زيادة، دار الثقافة بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين، بيروت ـ نيويورك، ١٩٥٩، ص ٦٠٤.

(٧) انظر، مثلاً لا حصراً: جان سرور، **جمعية التضامن الأدبي والحركات الشعبية أيام الإنتداب الفرنسي**، ١٩٨٥، لا ذكر للدار، ص ٧٧.

(٨) من أصل ٢٠ ثرياً في دير القمر هناك واحد فقط من آل شمعون يأتي ترتيبه سابعاً. وعند تعداد «زعماء العائلات الكبيرة» ترد الأسماء التالية: جرجس بو غندور نعمة ومسعود افرام البستاني في حارة الخندق ومنطقة سوق الميدان لجهة الشرق. وفي منطقة سوق الشالوط وحارة الدلفانة لجهة الغرب: بكوات آل عمون. وكانت العائلات الصغيرة في دير القمر ويسمونها أقليات تطيع هؤلاء طاعة عمياء». شكري البستاني، **دير القمر في أواخر القرن التاسع عشر ـ محاولة تخطيطية اجتماعية اقتصادية**، منشورات الجامعة اللبنانية، معهد العلوم الاجتماعية، ١٩٦٩، ص ٦٥ ـ ٧٠ و١٥٨.

(٩) راجع مقالة جوزف نعمة في **النهار** ٢/٩/١٩٨٧.

وبدوره، ترافق وُلوج باب الحياة العامَّةِ مع تعديلات أُدخلت على ممارسة العمل السياسي. فمنذ ١٩٢١ أسِّس عدد من المثقفين والمهنيين والمحامين والمصرفيين والملاكين المسيحيين «حزب التّرقي» الذي ضمت قيادتُهُ جان دي فريج ونعّوم باخوس وإميل إدّه وإميل قشّوع وإميل عرب وسليم اصفر وميشال شيحا وشكري قرادحي وبشارة الخوري والفريد نقّاش والفونس زينيه ويوسف الجميّل مطالباً، بـ «الإبقاء على الإستقلالِ السياسي للبنان الكبير مع الإنتداب الفرنسي» و«الدفاع عن التقاليد الوطنية والحريّات الدينية» و«التمثيل النيابي للبلاد في ظل نظامٍ يُحَدَّدُ لاحقاً، على أنْ تُؤخَذَ بعينِ الإعتبار في تنظيم البلاد عناصرُ الكفاءة والجدارة فقط»(١٠). بعد ذلك أسِّس المحاميان الجبليان بشارة الخوري وإميل إدّه حزبي «الكتلة الدستورية» و«الكتلة الوطنية» في ١٩٣٤ و١٩٣٧، وانخرط شمعون وحلو في الحزب الاول، أو في اجوائه، ليؤسِّسَ أوَّلُهُما في ١٩٥٩ «حزب الوطنيين الأحرار».

صحيح أنَّ هذه الأحزاب وُلدت وعاشت كأوعية للتحالفات الأهلية، القرابيَّة والمناطقية والطائفية، إلَّا أنَّ إنشاءها لم يُخْفِ بعضَ الدلالات اللافتة وذات المغزى. ففي حدود كونها استئنافاً للنزاع الجنبلاطي ـ اليزبكي، ومن قبله القيسي ـ اليمني، جاء تكوين الاحزاب المذكورة ليحسمَ في أمر انتقال قيادةِ الأطراف الأهلية، المتحالفةِ والمتصارعةِ، إلى الطائفة المارونية. غير أنَّه جاء يحسم ما حسمه في حيِّز يتراوحُ بين «الأهليَّة» المُعَبِّرَةِ عن الولاءات العصبيّة المُتَوَارَثَةِ، وبين «المدنيّة» التي تَفِدُ تدريجاً في اشكالٍ سياسيّةٍ وثقافيّةٍ ومؤَسَّسيةٍ متأثرةٍ بالغرب الأوروبي، الأمر الذي شكَّل مصدَر الطابع الإنتقالي شبه التقليدي وشبه الحديث لهذه الأحزاب، وكان ذلك عشيَّة نيل الإستقلال وبناء الدولة الوطنية في ١٩٤٣.

والراهنُ أنَّه بمجرد إرساء هذا الحيِّز الإنتقالي الوسيط الذي يجمعُ بين الحزبية والفيدرالية العصبية المُوَسَّعَةِ، كان السياسيُّ المارونيُّ يُعلن ضرورةَ عدم الإقتصار على المقدمات «السياسية» الخام والمُعطاة سلفاً (الأرض، الدم).

من ناحيةٍ اخرى، وعلى تفاوتِ الثلاثة في صلتهم بـ «الشعب»، لم تَغِبْ عن أيٍّ منهم حقيقةُ ارتباطِ السياسةِ بالمدينة حيث التشريعُ ومراقبةُ أعمالِ السلطةِ التنفيذية، وحيثُ الرأيُ العامُّ وصنعُ القرار ونقدُه كتابةً وسجالاً. ولئن كان شارل حلو، بهذا المعنى، الوحيدَ الذي «لم يَبْنِ زعامةً له. فهو «رئيسٌ بيروتي» بكل ما يعنيه ذلك لشخصيّة مارونية، اي ابن المدينة التي لا تُبنى فيها زعامة» بحسب تعبير ميشال ابو جودة(١١)، فإنَّ الثلاثةَ

(١٠) Marwan Buheiry, *Beirut's role in the political economy of the French Mandate. 1919-1939*, Centre for lebanese studies, Oxford. p. 15-16.

(١١) في افتتاحية له في النهار ١٣/٩/١٩٨٧. كذلك انظر مقابلة احمد زين مع النائب بيار حلو، قريب شارل حلو، في السفير ١٠/١١/١٩٨٧.

تساووا في اختيارهم البيروتي لزوجاتهم، معطوفاً على اختيارِ هويّة مسيحية أوسعَ من تلك المارونية. فبعد اقتران إميل إدّه بلودي سرسق الأرثوذكسية البيروتية، إقترن بشارة الخوري بلور شيحا الكاثوليكية البيروتية التي عُرفَ شقيقُها ميشال بأنّه كانَ الأبَ الروحي لشارل حلو. كذلك اقترن هذا الاخير، هو ايضاً، بنينا طراد الأرثوذكسية البيروتية بدورها، وكميل شمعون بزلفا ثابت البيروتية برغم مارونيتها غير المتأصلة(١٢).

فإذا صحَّ، تَبَعاً للفرضية الأنتروبولوجية الواسعة الشيوع، أنَّ الزيجاتِ الخارجيةَ تُوَطِّدُ التحالفات وتُوَسِّعُ رقعتَهَا، صحَّ أنَّ هذه الزيجات تنمُّ عن رغبةٍ أكيدة عند الثلاثة في تعزيز مصادر قوَّتهم المُعْطاةِ بمصادرَ أخرى منشؤها الثروةُ أو المكانةُ الدينية أو الموقعُ العلمي، وفي شقٍّ ممر إلى «الصالون البيروتي» وإضافةِ عنصر جديدٍ إلى المُقَدِّماتِ الأهليّة الخام.

وليسَ مِنْ دون دلالة أنَّ الإنحيازَ للمدينة واقتصادِها وخدماتِها في العهدين الإستقلاليين الأوّلين، خصوصاً العهد الشمعوني، هو ما اعتُبِرَ أحدَ المآخذ الشعبوية على الرئيسين «الليبراليين». فتطوير العاصمة الذي يتمُّ «على حساب الإهتمام بالأطراف» هو الحُجَّة التي شَهَرَهَا الكثيرون إلى أن بلورها العهدُ الشهابي اللاحق(١٣).

من خارج السياسة

لم يَكُنْ مصادفاً، في المقابل، أنَّ الرئيسين الآخرين اللذين أمْلَتْ رئاستَهُمَا ظروفٌ غلب فيها الخارجي على الداخلي، الأوّل بعد أحداث ١٩٥٨ والثاني بعد أحداث ١٩٦٩، صدرا عن وسط مختلف يصعب وصفه بـ «السياسي» بأيِّ معنًى حديثٍ أو ديمقراطي للكلمة.

فالرئيس فؤاد شهاب وَصَلَ إلى الرئاسة من موقعِه في قيادةِ الجيش، وكان صعودُ نجمِهِ يحملُ ملامحَ بونابرتية أو بالأحرى ديغولية(١٤)، لجهة تلخيص الحياةِ السياسية والإمساكِ بتناقضاتها بعد بلوغ التوازنات التي تِوَجِّهُهَا عواملُ خارجية، مدى متقدماً.

(١٢) يجمع عارفو آل ثابت عل تربيتها البروتستانتية الانكلو ساكسونية، وابوها يدعى «نقولا» الاسم غير المألوف بين الموارنة.

(١٣) انظر مثلاً لا حصراً، Nadim Shehadi, *The Idea of Lebanon*, Centre for Lebanese Studies, Oxford, 1978, p. 10-11.

(١٤) عرف عن شهاب اعجاب بديغول شاركه إيّاه عدد واسع من مثقفيه والمحيطين به. فميشال اسمر، مثلاً، وهو مؤسس «الندوة اللبنانية»، التي رفدت الشهابية بعدد من الشرّاح والمستشارين وضع ونشر منذ ١٩٣٨، أي قبل عقدين على وصول ديغول إلى رئاسة بلاده، كتاب «فرنسا المُحَارِبَة وشخصية الجنرال ديغول»، *Ibid.*, p. 13 n.

أما الثاني، الرئيس سليمان فرنجية، الذي جاء من إحدى أشدِّ المناطق المارونية احتضاناً للعلاقات الدموية المُوَسَّعَةِ، زغرتا، فلا ينطبقُ عليه ما ينطبقُ على شقيقه الاكبر حميد، الذي مثّل لوناً من المصالحة بين ملكية الأرض والمواصفات السياسية المدينية، أي الأكثرَ حداثةً في الحدود اللبنانية للكلمة. وهذا الفارقُ هو ما لا تني تؤكِّدُهُ الصورةُ الشائعة عن سليمان فرنجية كما اعتاد انصارُه ومؤيدوه على رسمها ـ صورة «شعبية» يعيش صاحبُها بين الأهل في زغرتا وعلى سويَّة عيشهم وفهمهم للعالم المحيط، على الضِّدِّ من «بيروتية» حميد الذي كان محامياً سَلَكَ في تدرُّجه التعليمي والمهني وجهةً مُشابهة لوجهة سياسيي الجبل.

ولئن عبَّر حميد، الذي كان أحد المحاضرين الثابتين في «الندوة اللبنانية»، عن بَرَمِهِ بـ «التزلمية» (Clientalism) التي رأى أنَّها «تُقْعِدُ النظامَ البرلماني إذْ تجعل عضوَ البرلمان مُعتمداً على دعم ازلامه اعتماده على خدمات الدولة كي يرضي بها ازلامه»(١٥)، فإنَّ سليمان يندرج في خانةٍ كاملةِ الاختلاف والمغايرة.

لقد كان الأخير مجرَّد ملَّاك زراعي لم تتوسط بلوغه إلى السياسة أيَّةُ حياة جامعية او مهنية، ولا اتَّسَعَت مداركُه لأيَّةِ صلة بالمدينة ومسائلها الاكثرَ تعقيداً من العالم الأبْرَشِيِّ الضَّيِّق للريف.

وعن العزلة في زغرتا، التي تُعادل مِهَنِيَّةَ المؤسسة العسكرية في حالة شهاب، نجمت نزعةٌ خارجية تُعَزِّزُ عند الرجلين ميلاً إلى تبسيط التعقيد القائم، مُتَّجِهَةً إلى اقتحام السياسة ومُسْتَجِدَّاتِ المدينة بِعُدَّةٍ إصلاحية فجَّة او مرتجلة، لكنَّها في الحالين فقيرةٌ(١٦).

ولم يكن بلا دلالة أنَّ منطقتي زغرتا وكسروان التي ينتمي شهاب إلى إحدى بلداتِها الكبيرةِ نسبياً، غزير، تلتقيان، برغم اختلافاتهما، على كونهما منطقتي صفاء ماروني بعيد. فإذا اعتمدنا مثلاً، التقسيمَ الإداريَّ والانتخابيَّ المعمول به حتى ١٩٩٠، وجدنا أنَّ قضاء زغرتا يحظى بثلاثة نواب موارنة يمثلونه في البرلمان، فيما يحظى قضاء كسروان بأربعة موارنة لا شريك لهم من طائفة أخرى.

من ناحية ثانية، فإنَّ قضاء عاليه، ومنه بشارة الخوري، له، بحسب التقسيم إياه، نائبان مارونيان، ونائبان درزيان، ونائب أرثوذكسي. وقضاء الشوف، ومنه شمعون، له ثلاثة نواب موارنة ونائبان درزيان ونائبان سنِّيان وآخر عن الروم الكاثوليك، فيما يحظى قضاء بعبدا أو المتن الجنوبي، ومنه حلو، بثلاثة نواب موارنة ونائب درزي وخامس شيعي.

(١٥) *Ibid.*, p. 29.

(١٦) كانت «حكومة الشباب» السلامية في اوائل عهد فرنجية عدته الإصلاحية.

ومع مشاركة جونيه وبعض قضاء كسروان سائرَ مناطق الجبل الماروني تَعَرُّضَهُ للتأثيرات الأوروبية الوافدةِ وإنماءَهُ العناصر الداخلية لاستقبالها، تميَّزت تلك المدينة وذاك القضاء باتّصالٍ جغرافي مباشر مع الجرد الشمالي الأقلّ تقدماً. لكن إذا كان التمايزُ المذهبي لدير القمر عن جوارها الدرزي، الذي كانت سوقه الحرفي والتجاري، قد حفَّز وُجهَتَهَا المتقدمةَ المغايرةَ والمتعايشةَ في آن معاً، فإنَّ الإتّصالَ الجغرافيَّ ـ الطائفيَّ لكسروان قد ثقل على نموها مُخَفِّفاً من تأثيرات جنوبها المَتْنِيِّ عليها. كذلك كان لهذا الموقع أنْ جعل منها محطةَ تطوُّر وسيط بين الشمال والجنوب المارونيين، وفي الوقت نفسه مَحَجَّةً شهيرة لـ «العداء للغريب»[١٧].

هذا الضيق لم يكنْ بعيداً، بين اشياء اخرى، عن قيامِ الرئيس شهاب بنقلِ القصر الجمهوري من القنطاري، في «بيروت الغربية»، المدينة والعاصمة، إلى صربا في كسروان حيث كان يقيم[١٨]. وهذا الإنتقال، الذي سار عليه الرؤساء اللاحقون، ليس ذا اهميّة شكليّة فحسب، إذْ الراسمالية اللبنانية لم تبلغ ما بلغته بفعل مُقَدِّمَاتِها الجبليّة الأولى فحسب، بل أيضاً بفعل مدينة بيروت منذ اتَّسَعَ دورُها في القرن الماضي بنتيجة توسُّعِ التجارة مع اوروبا ووصولِ الملاحة البخاريّة، حتى اعتبر البرت حوراني أنَّ الإزدهارَ اللبناني هو حصيلةُ «العلاقة بين بيروت وجبل لبنان»[١٩].

ليس من غير المألوف أنْ ترفدَ مارونيّةٌ كهذه، شبهَ خالصةٍ وشبهَ مُكتفيةٍ، في كسروان كما في زغرتا، ميلاً قطعيّاً في الثقافة الشعبية المحلية يستبعدُ دورَ السياسة في إحداثِ التوافق وتركيبِ المجتمع التعددي. امَّا التجربةُ الشخصيّةُ، التعليميّةُ والمهنيّةُ، للرئيسين شهاب وفرنجية، فكان لها أنْ زَكَّت هذا الإستعدادَ المشار إليه.

فكما التحقَ الأوّل مبكراً بالجيش الفرنسي، يوم كانت الشروطُ العلميّةُ لذاك الإلتحاقُ بسيطةً نسبياً، فإنَّ دراسةَ الثاني توقّفت عند المرحلةِ الثانوية في كليَّة الآباء اللعازاريين في عينطورة[٢٠]، وفي مرحلةٍ تاليةٍ اقترن شهاب بروزات نواريه وهي فرنسيةٌ، واقترن فرنجية بالمصرية إيريس هنديلي، فكانت الخارجيَّةُ التَّامَّةُ لهاتين الزيجتين تعبيراً عن ميل مخالفٍ لما ساور زملاءهم الثلاثة الآخرين الذين توجُّهوا بأبصارهم نحو «الصالون البيروتي» والفرصِ السياسية التي ينطوي عليها.

(١٧) وهنا، على الأرجح، مصدر كلمة «الغريب» التي يُقال على نطاق شعبي واسع إنَّ اهل جونيه درجوا على إطلاقها على كل من يقيم بينهم، حتى لو استغرقت اقامته سنوات طويلة.

(١٨) بطريقته يروي كميل شمعون أنَّ السياسة اللبنانية في عهد شهاب «تقلصت حتى اصبحت بحجم تلك السياسة التي كان يمارسها (...) من مكتبه المتواضع في ذوق مكايل حيث حكم طوال ست سنوات من ضمن الجدارن بعقلية خاصة هي عقلية معاون في الجيش أو رقيب في الدرك». عن: انطوان خويري، **كميل شمعون في تاريخ لبنان**، دار الأبجدية، ١٩٨٧، ص ١٢٧.

(١٩) Albert Hourani, *Political society in Lebanon*, Centre for Lebanese Studies, Oxford, p. 11.

(٢٠) انظر ناجي كريم حلو، حكّام لبنان، سبق الاستشهاد، ص ١٤٣.

بلغةٍ أخرى، في مقابل المنحى العام الذي مثّله الخوري وشمعون وحلو، والناهض على تعزيز السياسة وتضمينها وَشَبْكِهَا بعناصرَ اجتماعيةٍ تمنحها سِمَتَهَا العضويَّة، أو تُفاقِمُ مثلَ هذه السِّمَةِ وتُكَرِّسُهَا، نحا شهاب وفرنجية، تَبَعاً للمقدمات التي صَدَرا عنها وَعمِلا على عَكْسِهَا وتفعِيلها، منحى إنقاص السياسةِ والإمعانِ في تفريغها، بما يُهَيِّؤها للإحالة إلى قرارٍ إجرائيٍّ بيروقراطيٍّ مع الأوَّل، وإلى مزاج شخصيٍّ لا تتحكَّمُ به الضوابط مع الثاني.

وليس من المبالغة أنْ يُقال انْ لا سياسةَ الأوَّلِ الذي كان صعودُه إلى الرئاسة في ١٩٥٨ ردّاً توافُقِيّاً على تحدي المحيط، هو الذي مهَّدَ لصعود الثاني الذي كان في ١٩٧٠ ردّاً على التحدي إيَّاه من الطينة نفسها. فعن طريقِ العزلِ والفيتو وصوغِ الحياة البرلمانية بموجب الهوى الرئاسي، أسَّسَ فؤاد شهاب للإحتقانِ الماروني الذي عاد لينفجر بلا قيود مع سليمان فرنجية، مُستفيداً من الظروف التي خلَّفَتْهَا هزيمةُ ٥ حزيران العربيَّةُ وارتداءِ التَّحدِّي العربي زيّاً اهليّاً صريحاً تمثَّلَ في فصائل «المقاومة الفلسطينية».

ففي المرَّةِ الأولى، مع شهاب، كان الإنقلابُ على السياسة في شكلٍ دولتي (etatist) مبالَغٍ فيه، وفي الثانية اكتسبَ الأمرُ شكلَ انقلابٍ على الدولة التي جَعَلَ تَفَتُّتُ المجتمعِ ينتقلُ إلى سُدَّتِها بلا رادع او ضابط.

تكوين الرئاسة

ربَّما كان لعراقة النَّسب الشهابي معطوفةً على فقر فؤاد شهاب الذي حمله في صباه إلى العمل «مُبَاشِراً» في محكمة جونيه[٢١]، انْ مهَّدت لميلٍ حاد لم يَكْتُمْهُ الكثيرُ من السِّيَرِ الأرستقراطية التي تَعَرَّضَ اصحابُها للتفسخ والانهيار في غيرِ مكانٍ من العالم وفي غير حقبةٍ زمنية. ففي دراسته حول «ازمة الأرستقراطية» الإنكليزية، لاحظ لورانس ستون انَّ البيوريتانية (puritanism) في القرن السابع عشر تركت تأثيرات حادة على مُتَفَسِّخي تلك الأرستقراطية مِمَّن «أخذهم بعيداً التيارُ الصاعُد لدعايتها ضد الهَدْرِ والتبذير والقمار والشرب» كما أُخذوا بـ «عبادةِ الفضيلة»[٢٢]. وفي رصده لِتَطَوُّرِ التوتاليتارية في اليابان يرى بارينغتون مور انَّ خَفْضَ مرتبات طبقةَ الساموراي المحاربةَ في مطالع القرن التاسع عشر ومَنْعَ المحاربين من ممارسة ايِّ نوع من التجارة بما دفع بهم إلى العوز، جعلا هذه

(٢١) المرجع السابق، ص ١٠٥. كذلك انظر الياس الديري: **من يصنع الرئيس؟**، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، الطبعة الأولى، ١٩٨٢، ص ٢٢٧.

(٢٢) Lawrence Stone, *The crisis of aristocracy, 1558-1641*, (abridged ed.), Oxford University press, 1974, p. 88.

الطبقة عند أواخر القرن الماضي «على استعداد لأيِّ مشروعٍ عُنْفِيّ»(٢٣).

وفي جبل لبنان الماروني نفسه هناك مُقَابِلٌ سابق على الشهابية في الأرستقراطية الكسروانية التي أفضى تراجُعُها السياسي إلى خياراتٍ قصوى اعتمدتها «نخبتُها». فيوسف الخازن، أحد أبرز أعيان عائلته في النصف الأوَّل من القرن، كان أحدَ الموارنة النادرين المتعاطفين مع الفاشية كما كان يُذيعُ أحد البرامج من إذاعتها في روما(٢٤)، أما قريبُهُ فريد الخازن فكان قد سَبَقَهُ في إبداء الولاء للقومية العربية كما رمز إليها الأمير فيصل في دمشق والذي كان الخازن مُقَرَّباً منه(٢٥). وفي الوقت نفسه تقريباً كان الخازنيون يواجهون التحدي المتعاظم لبقايا زعامتهم في كسروان كما مثَّله «حزب الشعب» أو «الجبهة الشعبية» بقيادةِ حبيب بيطار وجورج زوين وبولس نجيم ونعوم باخوس المُتَفَرِّعِينَ عن عائلات عامية وفلاحية صاعدة(٢٦).

ربُّما كانت لتجربة الجَدُّ، أي المير بشير الشهابي الثاني، تأثيراتُها القويَّةُ على عقل الحفيد الشهابي. فبشير كان أيضاً من فرع شَهَابِيٍّ غزير، عرف طفولةً اتسمت بالقسوةِ والحرمان ومارس لوناً من الاستبداد مصحوباً بالحدِّ من نفوذ الكُبَرَاء مالكي الأرض والسلطان. وبمعالجةٍ تجمعُ بين التُّقِيَّةِ والمكر في تعاملها مع المشكلةِ الطائفيَّة البادئةِ والمتفجرةِ عهد ذاك، ظلَّ انتماؤه الطائفي والمذهبي، برغم الترجيحات، واحداً من الأمور التي يصعب فيها الجزم بصورة قاطعة.

يبقى أنَّ التأثيرين المحتملين (التفسخ وتجربة الجَدِّ) قابلان، فضلاً عن نتائج أخرى، للإفضاء إلى الوجهة التي سلكها الرئيس فؤاد شهاب إبَّان رئاسته، خصوصاً لناحيةِ الموقف من السياسة والسياسيين.

فالسياسيُّ الماروني الوسطي هو، في واحد من وجوهه، رمزٌ للصعود الإجتماعي بعد تراجعِ موقع الأمراء والأرستقراطيين وذهابِ ريحهم. وهو، في وجه آخر، وتبعاً للتَّكوين شبه الفيدرالي الذي نهضت عليه علاقاتُ الطوائف والمناطق و«الحصص» في

(٢٣) Barrington Moore Jr., *Social origins of Dictatorship and Democracy*, Penguin University Books, 1974. p. 236.

ومن اجل تجربة اخرى حديثة وقوية التأثير تربط بين سَوْق تركيا نحو التقدم وتفسخ السلطنة العثمانية ودور الجيش كمراة تنعكس عليها بحدة آثار التفسخ، انظر دراسة ريتشارد ل. تشامبرز عن «البيروقراطية المدنية» والاتاتوركية في: R.E. Ward and D.A. Rustow (ed.), *Political modernisation in Japan and Turkey*, Princeton University Press.

(٢٤) انظر: الشيخ الخازن، **الدولة اليهودية في فلسطين**، تقديم وتعريب وتعليق الدكتور غسان الخازن، دار مختارات، ١٩٨٧، ص ١٠٩ فصاعداً.

(٢٥) من مقابلة شخصية مع منح الصلح في بيروت.

(٢٦) Marwan Buheiry, «Bulus Nujaym and the Grand Liban ideal 1908-1919», in: M.B. (ed.), *Intellectual Life in the Arab East. 1908-1939*, American University of Beirut. 1981, p. 68.

لبنان الحديث، تذكيرٌ دائم بالرجالات الذين تصدّى لهم الجَدُّ الشهابي حين حاول أنْ يُطلِقَ مشروعاً مبكراً للصهر والتذويب.

لقد كره فؤاد شهاب السياسيين ممن أطلق عليهم تسميةَ «أَكَلَةِ الجبنة» كما بات معروفاً جيداً، بقدر ما كره السياسة التي لا بُدَّ من مُداراتها بالتُّقِيَّةِ والمَكْرِ على ما فعل الأميرُ الجَدُّ. ذلك أنَّ اللعبةَ البرلمانيةَ لا تُوصِلُ، من زاوية نظر عداليَّةٍ ومهنيّةٍ، إلاَّ إلى تعادلٍ يقودُ بدوره إلى إنسدادٍ كما حصل في ١٩٥٢، حين تسلَّم شهاب رئاسة الحكومة وروادَتْهُ فكرةُ «تحديد عدد الصحف» كما يروي موظف كبير في الحكومة عايش عن قرب عدداً من رؤسائها[٢٧]، وهو ما تكرَّر على نطاق أوسع في ١٩٥٨ مع تسلُّمِه رئاسة الجمهورية.

فما ينبغي البحثُ عنه، كما تدلُّ التجربتان اللتان أعقبتا حالَتَيْ توازنٍ أهليٍّ وسياسيٍّ، هو «الحلُّ» الآتي من خارج السياسةِ ومؤسَّسَتِها البرلمانيّةِ الدستوريّةِ، ومن خارج «لعبتِها»، الكلمة التي تثير اشمئزازاً بعيداً عند أصحابِ الوعي العداليِّ والأخلاقيِّ الخالص. ذلك أنَّ بلوغَ اللعبة طورَ التعادل والإنسداد يعني، بحسب هذه النظرة، خطأَ اللعبة نفسِها والحاجةَ إلى تغييرها، أو على الأقلِّ إلى التَّدَخُّلِ الخارجيِّ لتنظيمها، لا النظرَ إليها بوصفها حاضناً طبيعيّاً للتناقض الذي لا يُحَلُّ إلا عبر استئنافِ اللعبةِ إيَّاها.

بطبيعة الحال كانت حدَّةُ التحدي الراديكالي ـ الوحدوي الزاحفِ من «الجمهورية العربية المتحدة» وسياستُهَا المناهضةُ للغرب، عنصراً طاغياً في دفع الأفكار الشهابية نحو هذه النهايات الحاسمة. وهنا لا بُدَّ من مُجافاة التحليل «الداخلي» البحت بالمعنى التقني للكلمة، أي ذاك الذي لا يَلْحَظُ حجمَ القدرة على استدخالِ الوضع العربي في الوضع اللبناني. ومُجافاة هذا التحليل تُفضي بدورها إلى رفض إرجاعِ الإنهيار الشمعونيِّ وصعودِ شهاب في ١٩٥٨، أو الأزماتِ اللبنانية اللاحقة، إلى مجرَّدَ عوامل لبنانية مقطوعة الصلةِ عن تفاعلاتها مع الجوار ومسائله وقواه.

فمن نتائج التحدي الناصري أنَّه بَدَلَ أنْ تكون السياسةُ الخارجية أحد تعابير التوازن السياسي في الداخل، كما هي الحال في أيِّ مجتمع برلماني مستقرٍّ، راح التوافقُ مع المحيط، وهو محيطٌ مضطرب وضعيفُ الصلة بالحياة الدستورية وإملاءاتها وثقافتها، يُساهم في تكييف الحياة السياسية في الداخل عن طريق القرار الفوقي المُعَطِّلِ لها. هكذا تكفُّ المؤسسةُ التشريعية الأولى (البرلمان) عن أنْ تكون مؤسسةً أولى، فيُكتَفَى بالمحافظةِ على طابعها الصُّوريِّ وما هو شكليٌّ من لعبتها، فيما يُصار إلى نقل السلطةِ

(٢٧) انظر صلاح عبوشي، تاريخ لبنان الحديث من خلال ١٠ رؤساء حكومة، دار العلم للملايين، ١٩٨٩، ص ١٦٨.

الفعلية إلى «أجهزة» تُنَاطُ بها المهامُ التنفيذيّـةُ تحت إمرةِ رئيس الجمهورية وإشرافه. وبَدَلَ السياسةِ في معناها الأساسي الذي يُسبِغُ الاولويَّةَ على ترتيب شؤون البيت الوطني الداخلية من تعليم وطبابة ومواصلات وغيرها، مُشَرِّعاً بما يُلائم هذا المسار ومُراقباً وضع القرارات المتصلة به موضعَ التنفيذ، بَدَلَ ذلك تَحظى السياسةُ الخارجيَّةُ بتوكيدٍ مُبَالَغٍ فيه[٢٨] ومُبَالغٍ بالتأثيرات المترتبة عليه، يُوازيه التوكيدُ على «الإنماء» بما يستدعيه من تسريعٍ شبه إنقلابي لحركةِ التَّطَوُّرِ الاجتماعي، ونزعةٍ إلى حرق مراحلها التي شكّلتها حِقَبٌ تاريخية مديدة. وبمثل هذا التسريعِ الذي يطمحُ بتغيير المجتمع وإعادة صوغه عبر التَّأثير في شتّى جوانبه، إستندت الشهابيةُ إلى مشروعٍ وصفه وضّاح شرارة بأنّه «لا يَقِلُّ عن مدِّ جذورِ الدولـةِ إلى قلبِ المجتمعِ، وإرساءِ السيطرةِ السياسيةِ على حصونِ وخنادقِ المجتمعِ الأهلي»[٢٩].

وإذا كان الإنسدادُ والمأزقُ هما ما ينتظران «عقلانيَّةَ» السياسة في آخر مطاف محتم، فإنَّ نكهةً مُخَفَّفَةً من السِّحر والصوفية صالحةٌ لأنْ تُشَكِّلَ علاجاً نافعاً بقدر ما تنمُّ عن إزدراءٍ بالعلنيّةِ والإنكشاف المُفْتَرَضَيْنِ للسياسة، وبتعريضها الدائمِ لاحتكاكِ العلاقة بالشعب وطلبِ رأيه. وفي حدود المعاني التي تحملها الرواياتُ الشعبية، لا يبدو عديمَ الدلالة ما جرى عليه اللبنانيون حينذاك حين راحوا يُقارنون الخباء الشهابيَّ بأيام حكم كميل شمعون الإستعراضية، وزياراته المُتَعَدِّدَةِ للخارج، واستقبالاتِه المتكررة لملوك العالم ورؤسائه، وحضورِه بين الناس، وتألُّقِهِ، وزوجته زلفا، من دون إسباغ أيِّ تقديسٍ بيرنيٍّ عليها. وربَّما كان ما يُلِحُّ في التَّنبيه وجودُ جون كيندي وزوجته جاكلين في البيت الأبيض خلال بعض سنوات مكوث شهاب في قصر صربا.

أمَّا في حدود التَّسحير المطلوب، فُعرفَ الرئيس شهاب بمواصفات مطابقةٍ لدوره، كالصّمت وعدم مخاطبة الناس إلاّ لِماماً والعزوفِ عن الظهور العامِّ حتى أطلق بعض مناصريه لقب «القديس»عليه، فكان في ذلك، وهو الذي لم يُنجب ابناء، «اباً» وطنيّاً لا يَسَعُ الشعبَ ـ الأبناء إدراكُ الأسرار الخطيرةِ التي تجولُ في ذهنه، ولا السُّمُوُّ إلى مصافِ نزاهته وعدالته الخالصتين المُتَرَفِّعَتَيْنِ عن كلِّ تناقضٍ ترابي.

ويبدو انَّ السيرةَ الشخصية ـ السياسية لشهاب قدَّمت إسهاماً آخر في هذا التصوّر المصنوع من موادَ فعليّةٍ ليست ضئيلة. فهو حين تولّى رئاسة الحكومة (١٩٥٢)

(٢٨) تُلاحظ حنّة ارندت انَّ مثل هذا الإهتمام شبه الآحادي بالسياسة الخارجية بدا في الأصل تعبيراً عن انقلاب راديكالي نفذته الثورة الفرنسية ضد التصور اليوناني للسياسة، وتحول بعد ذلك إلى احد تقاليدها. وقد أسفر هذا الإنقلاب عن إعدام الملك لويس السادس عشر بصفته خائناً ومتعاوناً مع قوى اجنبية لا بصفته طاغية او مستبداً. انظر Hannah Arendt, *On Revolution*, Pelican Books, 1982, p. 91.

(٢٩) وضّاح شرارة، السلم الأهلي البارد ـ لبنان المجتمع والدولة ١٩٦٤ ـ ١٩٦٧، معهد الانماء العربي، ١٩٨٠، ج ١، ص ٢٩.

تولّاها مع تعليقِ الحياة السياسية أواخرَ عهد بشارة الخوري وقيام «الثورة البيضاء» وذلك في صورة استثنائية تُمَهِّدُ للإنتقال الدستوري. لكنَّه في عام ١٩٥٨، ومع نشوء المأزق مجدداً نتيجةَ النزاع الأهلي ـ الإقليمي لذاك العام، تحوَّل إلى منقذٍ أوحدَ يُناطُ بشخصه الإستئنافُ الدستوريُّ. وما ظلَّ خافياً يومذاك من هذا الدور الإنقاذي ظهر على نحو جَلِيٍّ بعد عودته عن استقالته في ٢٠ تموز ١٩٦٠[٣٠]، ليتعزَّزَ بعد المحاولةِ الإنقلابيةِ الفاشلةِ التي قادها «الحزب السوري القومي الاجتماعي» في آخر أيّام العام ١٩٦١[٣١].

بمعنى آخر لم يشذ نهوض شهاب لِلَعِبِ دور البطلِ المنقذِ عن الشروط التي غالباً ما تَحُفُّ بهذا الدور وأدائه، وأبرزُها، كما رأينا، تعليقُ السياسة عند ظهور مأزَقِهَا. عند ذاك فقط تَشْخَصُ الأبصارُ إلى مؤسسةٍ أخرى، غير سياسية، وأوفرُ المؤسَّسات حظاً هي تلك العسكرية.

وفي الحالةِ اللبنانيةِ مثَّلت الأخيرةُ، من خلال شهاب، موقعاً مُتعالياً عن الشعب من دون أن يصطبغ بسلوكيات «القمع الوضيع» المعهود في المؤسَّسات العسكرية الأميركيةِ اللاتينية. ولم يكن هذا، في أحد وجوهه، غيرَ استئنافٍ لذهنيّة المُنْتَدِبِ الفرنسيِّ التي هي أيضاً، وتعريفاً، منقطعةٌ عن المجتمع وبالغةُ الإثارةِ لإعجاب شهاب وانبهاره. فالأخيرُ، بحسب شهادةِ ضابط زامله منذ ١٩٥٥ «كان مُتعالياً يحتقرُ النَّاس. هو أمير ولواء جاء من عند الضباط الفرنسيين. ينظر من هذا المنظار إلى الناس (...) لا يُؤمن إلَّا بالفرنج. الرأيُ الوحيدُ الذي يأخذُه في اعتباره هو رأيُ الضابط الفرنسي ليه الذي جاء به شهاب في ١٩٥٥ وعيَّنَهُ قَيِّماً في الجيش، وقد ابقاه إلى جانبه حين أصبح رئيساً للجمهورية وحتى ١٩٦٤»[٣٢]. وكان من الطبيعي أن يبدو هذا الموقف الانتدابيُّ (الخارجيُّ) الخالصُ موقفاً خَلَاصِيّاً ينأى بصاحبه عن التناقضاتِ المباشرةِ والمُلِحَّةِ وعن التعامل معها انطلاقاً منها بالتحديد. وهذا على الأقل ما تقوله تجربةُ انتساب غابي لحود، القطب الشهابي لاحقاً، إلى المؤسّسةِ العسكرية. فقد اختار لحود الجندية «لِمَا كانت تُمَثِّلُهُ من ابتعاد عن السياسة». وهو يمضي في قصِّ تجربته: «كنتُ اتألَّم من التناحر الدستوري ـ الكتلوي. الشيخ نديم الخوري، شقيق الشيخ بشارة، كان يُقيم في بيت الدين، والمطران البستاني المُقَرَّبُ من إميل إدّه كان مَقَرُّه هناك. عند كلِّ الشباب الرافضين للتناحر السياسي التقليدي كان الجيش وفؤاد شهاب يمثِّلان هذا الإبتعادَ. الشاب الذي يُريد أنْ يكون مُسْتَقِلاً، عليه بالجيش»[٣٣].

(٣٠) وهناك صورة شهيرة للنواب وهم يرفعونه على اكتافهم احتفالاً بالعودة.

(٣١) من اجل وجهة نظر سورية قومية ـ شمعونية عملاً بالتحالف القائم يومذاك، انظر: فؤاد عوض، **الطريق إلى السلطة**، لا ذكر للدار.

(٣٢) انظر حازم صاغية: **موارنة من لبنان**، المركز العربي للمعلومات ١٩٨٨، ص ٣٤.

(٣٣) المرجع السابق، ص ٣٢٠ (الشهادة المذكورة لفؤاد عوض).

الانمائية الاقطاعية(٣٤)

سبقت الإشارة إلى بعض المقدمات التي صَدَرَ عنها وعَكَسَهَا فؤاد شهاب، وبينها كسروانيّةٌ شِبْهُ مكتفيةٍ ترفد المَيْلَ القطعيَّ الذي لا يطرَحُ على ذاته التوافقَ بصفته مَهَمَّةً تنبثقُ من نسيج العلاقات الاجتماعية. بَيْدَ أنَّ هذه السِّمةَ لا تكتملُ دلالاتُها من دون الإشارة إلى سِمَةٍ أخرى صاحبت الشهابيّةَ وتركت بصماتِها عليها.

فالعائلةُ العريقةُ التي مِنْهَا شهاب، جمعت إلى قضائها الإداري المغلقِ امتداداً عَشيرياً يجد جذره في تَوَزُّعِهَا على عدد من المناطق والطوائف اللبنانية. وأغلبُ الظنِّ أنَّ فرعيها الكسرواني الماروني والمسلم السني المقيم في حاصبيّا أبرزُ تلك الفروع المُتَوَزِّعَةِ وأهَمُّها. لكنَّ المحيطَ الواسع للعائلة الشهابية لا يقومُ والحالُ على ما هي عليه، على الروابط التي تؤسِّسُ لنشاطٍ سياسي يُسَوِّغُهُ الإنقسامُ الطائفيُّ والتقسيمُ الإداريُّ المعمولُ به. فإمكانُ الجمع بين شهابية كسروان المارونية وشهابية حاصبيّا السنيّة، مثلًا، في «مشروعٍ» سياسي منسجمٍ ومتكاملٍ يَبْقَى إمكاناً معاقاً إنْ لم يكن مُستحيلاً بفِعْلِ الإختلافين الجَلِيَّيْنِ، الطائفي والجغرافي ـ الإداري. وهذه الإستحالةُ، إذا ما أُرفِقَت بالتَّمَسُّكِ العائلي، تقودُ بدورها إلى تعزيز الإتجاهات المُجافِيَةِ للسياسةِ ومقدِّماتِها، اتَمَثَّلَ ذلك في إيثار «ماضي» القوَّةِ والوَحْدَةِ والإمارةِ على «حاضر» ضَعْفِ العائلة وتناثُرها، أمْ تَمَثُّلَ في ارتباطِ «الأصل» و«النسب» بذاك الماضي الذهبي الذي يُثيرُ حنينَ العودة والبعث.

ولئن كان في وُسع هذه الإتجاهات أنْ تُساعد في تغليب ما هو غامضٌ ومُداوِرٌ، وربما صوفيٌّ، على العملِ السياسي المحكومِ بمعطيات الوَحْدَةِ السياسية ـ الإدارية، فإنَّ في وُسعِها أيضاً أنْ تُزَكّي ميولاً أشدَّ تبلوراً في موقعها المجافي للسياسة، والسياسةِ في خصوصيتها اللبنانية على نحو مُحَدَّد.

فالعائلةُ النَّواتيّة الصغرى التي انبثقَ عنها معظمُ السياسيين الموارنةِ الجبليين، إنْ لم يكن كلُّهم، لن تكون مدعاة لغير المقتِ والإشمئزاز المسكونين بانحيازٍ لزمن العشيرةِ المُوَسَّعَةِ وقوَّتِها و«سياستِها»، أي الزمنِ السابقِ على صعود الطوائفِ بصفتها هذه حيث «كان يُمكِنُ تفسيرُ معظم التاريخ السياسي (...) على ضوءِ العلاقات بين عائلاتٍ ثلاث، الشهابيين السنة، والجنبلاطيين الدروز، والخازنيين الموارنة»(٣٥).

(٣٤) نسجاً على منوال «الاشتراكية الإقطاعية» وهي التسمية التي اطلقها كارل ماركس على كراهية الراسمالية لا حباً بالاشتراكية، التي يفترض بحسب ماركس ان تتلوها، بل حباً بالإقطاعية التي سبقتها.

(٣٥) Albert Hourani, *Political Society...*, *op. cit.*, *p. 8.*

بهذا، فإنَّ الموقفَ من العائلة الصغرى، التي هي الصِّلةُ والوسيطُ بين الفرد والطائفة، سينسحبُ على «الطائفة» التي تنهضُ السياسةُ اللبنانيةُ على اعتمادِها وَحْدَةً لها وأساساً. إذْ غَنِيٌّ عن القول إنَّ «العشيرةَ» كانت الضحيَّةَ لهجومٍ مزدوج شنَّتْهُ العائلةُ النَّواتيَّةُ من موقعِ الصلب القاعدي، كما شنَّته الطائفةُ من موقعِ الصياغةِ المؤسَّسِيَّةِ للمجتمع وعلاقاته.

لقد تضمَّنت الشهابيةُ ردّةً ضد الطائفةِ والطائفيةِ بما هُما تعبيرٌ عن مستوى اجتماعيٍّ متقدِّم بالقياس إلى روابط الدم والقرابة. وكانت هذه الردَّةُ تنطلق من تَصَوُّر سابق عليهما، ولو ظلَّ مُضمراً، بقدر ما كانت انقلابيّةً تُحاول «صهرَهُمَا» عبر المؤسّسةِ العسكرية التي اوْكَلَت لها مَهَمَّةَ إنشاء «الوَحْدَةِ الوطنية».

لكنَّ الشهابية حملت ايضاً، إلى ذلك، روحَ المحليَّةِ الضَّيِّقَةَ التي لا تجدُ لها في كسروان غير الطائفية، التي لم تنفصل عن عشائريتها تماماً، وعاءً وتعبيراً هُما وعاءُ الأمرِ الواقع وتعبيرُهُ. فكانت بهذا كله، تُحاول وَحْدَةً بسيطةً، ماضويّةً، مَرْجِعُهَا المضمرُ الدمُ والنسبُ، من غير أنْ تختفي في محاولتها آثارُ مارونيّةٍ اصابها البَرَمُ وَوَسَمَهَا الضِّيقُ بِمَيْسَمِهِ.

هكذا شكَّلت المؤسَّسَةُ العسكرية مكمَن القوَّة وحافظةَ الهويةِ الشهابيتين في آن معاً. فالمؤسَّسةُ المذكورة نموذجيّةٌ تقليدياً في «غزو» السياسةِ من خارجها وفي العمل من وراء ظهر المجتمع، وذلك جَرْياً وراء «مصلحة» المجتمع التي لا يعرفُها افرادُه كما تقولُ سائرُ النَّزَعَاتِ الإستبدادية في صورة مُحَوَّرَةٍ.

فالأمراء الشهابيون درجوا، اصلاً، على إيثار «الوظيفة على ايِّ عمل آخر. وقلَّ انْ تجد دائرةً في الدولة إلَّا وفيها شهابيٌّ او اكثر»[٣٦]. وبالنسبة للجيش تحديداً، فمنذ بداية تأسيس الإنتداب الفرنسي للمؤسسةِ العسكرية «كان أكثر المتطوعين من الأسر القديمة ولا سيَّما الشهابيين (الأمراء فؤاد، عادل، جميل، بهيج، لويس، عبد القادر...)»[٣٧]. وبعد نيل الإستقلال في الأربعينات، كما في عَهْدَيْهِ الأوَّلَين، تَبَوَّأ هؤلاء ارفعَ مناصب المؤسّسة العسكرية. ففي ١٩٤٥ عُيِّنَ فؤاد شهاب قائداً للجيش، وفي ١٩٥٤ عُيِّنَ جميل قائداً لمنطقة لبنان الشمالي، كما عُيِّنَ عادل قائداً لمنطقة البقاع، وعبد القادر لنيابةِ رئاسة الأركان، وهنري لقيادةِ الفوج المضاد للطائرات، ولويس لقيادةِ الشرطة العسكرية، وبشير لرئاسةِ قلم الموظفين المدنيين في الجيش[٣٨]، اي أنَّ المؤسّسَة العسكرية حملت، من وجهة نظر العائلة الشهابية على الأقل، واحداً من ملامح الجيش الأمبراطوري الذي يُعْهَدُ

(٣٦) ... عيتاني. **مذكرات بيروتي**، وثائق ودراسات لبنانية ٣، جامعة بيروت العربية. ١٩٧٧، ص ٢٣.

(٣٧) الياس الديري، **من يصنع الرئيس؟**، سبق الاستشهاد، ص ٢٥٢.

(٣٨) عن فؤاد عوض، **الطريق إلى السلطة**، سبق الاستشهاد، ص ٥٦ و٥٨.

إليه بعثُ مجدٍ أو أحياءُ دولةٍ تَعَاوَرَتْهَا عـواملُ الضَّعْفِ والتَّـردِّي، فيما كـانت رابطةُ الـدم إحدى ضمانات «الخلاص» بمعناه النضالي، وربَّما الصوفي أيضاً.

لقـد شكَّل هـذا السلكُ عِشّـاً آمناً لا يَقي فقط من تَقَلُّبـات الزمن التي حملت بعضَ أبناء العامَّةِ إلى الصدارة الإقتصادية والسياسية، بل يُمَهِّدُ أيضـاً للردِّ على تلـك التقلبات عبر السيطرة على مصدر القوَّة وما يزخرُ به من مكانة. وبمِثْلِ هذا الردِّ، الذي لا يستأذن العـلاقاتِ نفسهـا ولا يمرُّ بقنـواتها، يُعـاد الإعتبارُ إلى نقـاءٍ «أصليٍّ» بل «طبيعيٍّ» عَمِـلَ «الخطأ» الإجتماعيُّ على تهديده بالتلوث وإضعافِ السَّطوة.

والراهنُ أنَّ فؤاد شهاب الذي تنتمي والدتُه أيضاً، السيدة بديعة حبيش، إلى عائلة ارستقراطية عـانت هي الأخرى تقلبـات الزمن المـاروني وصعودَ العـامَّة، لم يقتصـر في ستعمال حُكْمِه، فضلاً عن الاستعمالات الأخرى، في الوُجْهَةِ هذه. فقد أُعيدَ الإعتبارُ إلى صنفٍ من الأرستقـراطيين، خصوصـاً منهم الإداريين والموظفين، إمّـا عبر تـرفيعِهم في الإدارةِ أو عبر فتح بابِ البرلمان أمامهم، بما لا يتركُ مجالاً للشكِّ حول المواد التي وُظِّفَتْ في غزوِ السياسة من خارجها. فالمير عبد العـزيز شهـاب، قريبُ الـرئيس وصاحبُ الآراء الصارمةِ في الإصلاح الإداري، أصبح واحداً من أركان السيـاسة اللبنـانية في سنـوات الحُكْم الشهابي. وعبد العزيز، وهو حفيدُ خليل بن بشير الشهابي، لم يُعْرَفْ بـأيَّةِ سـابقةٍ سياسية، إذ اقتصرت حياتُه العامَّة على النشاط الإداري كمُحَقِّقٍ في جبل لبنان وبيـروت، ومحافظٍ للشمال والجنوب، ومفتشِ دولة ومدير للداخلية، قبل أنْ يصبحَ نائباً في انتخابات ١٩٦٠ العامّة التي كانت الإنتخاباتُ الأولى التي يُجريها العهدُ الشهابي[٣٩]. وربّما كـانت حالة عبد العزيز (وآخرين) تعبيـراً عن تقريب المسـافات بين الإدارة والبـرلمان على مـا تفعل الأنظمةُ الميَّالةُ إلى الدَّمج والتوحيدِ وإفراغِ المؤسّسة التشريعيةِ من مضمونها.

وفي النواة الشهابية للدائرة الأرستقراطيـة الأوسع، عُيِّن عـادل شهاب في ١٩٥٩، أي في العـام الثاني لـوصول فؤاد شهـاب إلى رئاسـة الجمهوريـة، قائـداً للجيش، ورُقِّيَ موريس شهاب في العامِ نفسِه ليُصبح مديراً عامّاً للآثـار، فانطـوت الخطوتـان على دلالةٍ رمزية تجمع قوَّةَ الجيش إلى وَزْنِ التاريخ وذاكِرَتِهِ الحافظةِ، وهمـا قوَّةٌ وذاكـرةٌ لا تستقيمُ من دونهما شهابيّةٌ تَجِدُ في الأمير بشير مُسْتَنَدَهَا وجدُّها الأعلى. وفي سنـة ١٩٦٤، وهي الأخيرةُ في عمر الولاية الشهابية دون أنْ تكونَ الأخيرةَ في عمـر النفوذ الشهـابي، أُلْحِقَ شكيب شهاب بوزارةِ الإعلام، وتولّى حارث شهاب رئاسةَ دائرة الرقابة في الوزارة نفسِها،

(٣٩) الياس الديري، من يصنع الرئيس؟، سبق الاستشهاد، ص ٥١٤. كذلك أنظـر الفصل المتعلق بعبـد العزيـز شهاب في الكتاب نفسه، بالنسبة لموقفه من الإصلاح ولاعتراض كمال جنبلاط في ١٩٦٨ على نقص شعبيته ممـا حال دون اصطحـابه معـه على اللائحـة بعد ان كـان اصطحبـه في دورتي ١٩٦٠ و١٩٦٤ النيـابيتين. والجدير بالذكـر أنَّ العام ١٩٦٨ هـو الذي سجَّـل الظهور العلني لعـلامات الضعف الشهـابي وكذلـك بدايـة الإنفكاك الجنبلاط العلني عنها.

وكان إيف شهاب قد عُيِّنَ، قبل عامين على ذلك، عضواً في مجلس الدولة الأعلى[٤٠].

أمّا النواةُ الأعرضُ قليلاً والتي تضمُّ شهابيِّي حاصبيا السُّنَّةَ، فحظيت بمقعدٍ انتخابي لخالد شهاب عن القضاء المذكور في ١٩٦٠، وكان سبق لخالد شهاب، في ١٩٥٢ و١٩٥٣ أنْ شكَّل الحكومتين اللتين عرفتا بـ «حكومَتَيْ الموظفين» فضمَّت الأولى فضلاً عن شهاب، كُلًّا من موسى مبارك وجورج حكيم وسليم حيدر، واقتصرت الثانية على حكيم وحيدر[٤١].

وفي ١٩٦٤ حلَّ سهيل شهاب، إبن خالد، في المقعد النيابي الذي احتلَّه والدُه، قاطعاً الطريقَ على زعاماتٍ بورجوازيةٍ صغرى وعائلاتٍ بدأت تظهر لها أدوارٌ محليّةٌ عن طريق التجارة أو الوظيفة أو التعليم كعائلات ماضي وسويد وغيرهما[٤٢].

وفي نطاقِ الدائرة الأرستقراطية نفسها اختيرَ الشيخ فريد الدحداح في ١٩٥٩ رئيساً لمجلس الخدمةِ المدنية، وأخذَ يشترك، منذ ذلك الحين، في حضور جلسات مجلس الوزراء[٤٣]. وإذا كانت عائلة الخوري قد نجحت، بِسَبَب من صلتها ببيروت و«صالونِها»، في تشكيل إحدى حلقات الإتِّصال بين الأرستقراطيّة ذات المنشأ الريفي وبين المصالحِ والسياساتِ الأكثرَ حداثةً في المدينة، فإنَّ شهاب لم يقتصر في محاولةِ إنعاشها ومدِّها بعناصرِ الإستمرار بعد رحيل الشيخ بشارة. وربُّما كان هذا الإنعاشُ أحَد مصادر التشبيه الدارج بين الشهابية والدستورية، وهو تشبيهٌ يُشْتَقَى من «الإعتدال» الداخلي والسياسةِ العربية للإثنتين. فقد جيء بخليل بشارة الخوري نائباً عن دائرة عاليه في دورات ١٩٦٠ و١٩٦٤ و١٩٦٨[٤٤]، امَّا شقيقُه ميشال، فـ «يعود دخولُه الحياةَ السياسية عمليّاً إلى الرئيس فؤاد شهاب الذي كلَّفه خلال عهده القيامَ بمهمات سياسية واقتصادية في الخارج والداخل»[٤٥].

وما ينطبقُ على خليل وميشال الخوري ينطبقُ برغم الإختلافات والتفاصيل، على كثيرين كالشيخ فؤاد حبيش صاحب «دار المكشوف» الذي أعاد إحياء داره عبر ما وفَّرَتْهُ

(٤٠) انظر البطاقات الشخصية لعادل وموريس وشكيب وايف وحارث شهاب في ارشيف جريدة السفير وفي الـ *Who's who in Lebanon?*

(٤١) انظر ناجي كريم الحلو، **حكام لبنان**، سبق الاستشهاد، ص ٩٥ ـ ٩٦.

(٤٢) من مقابلة شخصية مع محمد ابي سمرا (من قضاء حاصبيا) في بيروت.

(٤٣) الياس الديري، **من يصنع الرئيس؟**، سبق الاستشهاد، ص ٦٠٨.

(٤٤) يطرح التلوث الذي حفَّ بشخص خليل الخوري اسئلة جدية على نقاء الشهابية واختياراتها، وبالتالي إمكان تعايش المتناقضات في حالاتها القصوى (نزاهة ـ فساد) حين تنهار الضوابط السياسية والدستورية. هذه الحالة التي تكررت على نحو اشدّ سطوعاً في تجارب توتاليتارية أو دولتية متعددة وجدت صياغتها الشعبية على شكل التمييز بين نزاهة القائد الأب وفساد المحيطين به.

(٤٥) الياس الديري، **من يصنع الرئيس؟**، سبق الاستشهاد، ص ٤١٧.

له مطبوعاتُ الجيش والدولة(٤٦)، والمحامي الشاب فاروق أبي اللمع الذي كَـان قريبـاً من مجموعةِ الشهابيين الشُّبَّان، وحقَّقَ لاحقـاً مع الـرئيس الشهابي إليـاس سركيس صعـودَ نجمِه إلى المديريّةِ العامّةِ للأمن العام. وبحسب رواية أبي اللمع نفسِه عن بدايات حياتـه العـامة، تعـرَّض بُعَيْدَ تـدرُّجِهِ كمحـام في مكتب أدمون ربـاط، «لتجربـةٍ ذات مغزى»، إذْ استدعاه قريبُه فؤاد شهاب، وكان قد انتُخِبَ لِتَوِّهِ رئيساً، وسألَهُ ما إذا كان يُوافق على أنْ يكونَ سكرتيراً له(٤٧).

كذلك تمَّ استحضارُ الزعامة الخازنية في انتخابات ١٩٦٤ عبر نيابةِ الياس الخازن، بعد أنْ كان بدا أنَّ النائبَ الراحل كلـوفيس الخازن هـو آخر حبّـات العنقود. وفي ١٩٦٨ فَرَضَ بعثُ الشهابية للزعـامة الخـازنيّةِ تـرشيحَ خـازنيٍّ غير شهـابيٍّ على لائحةِ «الحلف الثلاثي» يُواجه المُرَشَّحَ الشهابيَّ الياس ويقتسمُ معه أصوات العائلة الكبيرة. ولم تكن بلا دلالة مواصفـاتُ كلٍّ من المـرشحين، إذْ الياس ذو التعليم الثـانوي يملـك مرآبـاً لتصليح السيارات، فيما خصمُه فيليب الخازن طبيبٌ تخـرَّجَ من اليسوعيـة وتخصص في فرنسـا واقترن بابنة نائب البترون كميل عقل، كما عَمِلَ في الحقل المصرفي(٤٨).

وفي حـدود الصلـة بين هـذه العـودة (Restoration) الأرستقـراطيـة وأداتِهـا في المؤسَّسة العسكرية، وصل إلى بَرْلَمَانَيْ ١٩٦٠ و١٩٦٤ نـائبان مـارونيان همـا ضابطـان متقـاعدان: جميـل لحود الـذي حلَّ محـلَّ قريبـه المحامي سليم لحـود في قضـاء المتن الشمالي، ورشدي فخر (ومن بعده شقيقه فخر فخر) الذي أزاح منافسيه من آل الضـاهر في قضاء عكّار.

وإذا كان جميل لحود هو من عُهِدَ إليه أمرُ الغرفةِ العسكرية في رئاسة الجمهوريـة، المنصب الذي استُحْدث في بدايةِ عهد شهاب وأُلغي مع تراخي القبضة الشهابيـة أواخر عهد شارل حلو(٤٩)، فإنَّ سليم الذي هزمه قريبُه «اللواء»، صادر عن تقليدٍ سيـاسـي عريق نسبيّاً في المتن وفي العائلة التي درجت على إيكال أمـورها السيـاسية للمحـامين. وبهذا المعنى كانت الهزيمةُ بمثابةِ انقلاب تُساعِدُ الشهابيّةُ على إنفاذه داخلَ العائلةِ السيـاسية والمنطقةِ المُتَقَدِّمَةِ.

أمَّا في عكّار، ففي مقابل انتمـاء فخر إلى عـائلةٍ صغيـرةٍ في قريـة عندقت، انتمى المرشحان الفاشلان، المَلّاك ميشال الضاهر والمحامي مخايل الضاهر، إلى العائلة الأكبر في القرية العكّارية الأكبر: القبيات. أهمُّ من ذلك أنَّ القريةَ هذه كـانت سبّاقـةً في رعايـةِ

(٤٦) من المقابلة مع منح الصلح، سبق الاستشهاد.
(٤٧) عن حازم صاغية، موارنة من لبنان، سبق الاستشهاد، ص ٤٠٨.
(٤٨) انظر بطاقتي الياس وفيليب الخازن في أرشيف جريدة السفير. كذلك الـ *Who's who in Lebanon?*
(٤٩) عن وضّاح شرارة، السلم الأهلي البارد، سبق الاستشهاد، ج ١، ص ٢٤٨.

نوى «الإقتصاد الرأسمالي» في عكّار استناداً إلى زراعة التوت، وفي احتضانِ التعليم الإرسالي في أقصى الشمال اللبناني. كذلك بذلت عائلةُ الضاهر أحد الشهداء الذين أقدم جمال باشا على تصفيتهم في ١٩١٦(٥٠) بما وَسَمَ تجربَتَها ببعضِ عناصرِ المَيْسَمِ الجبلي المُتَقَدِّمِ.

وفضلاً عن عوامل أخرى تقعُ خارج هذا المُتَنَاوَلِ، عملت الأصولُ الإجتماعية لأرستقراطِيِّي السياسة اللبنانية (بحسب تصنيف إيليا حريق) على إشاعة علاقاتٍ تتراوحُ بين الدفءِ والحرارةِ في ما يتَّصِلُ بنظرتهم إلى العهد الشهابي ونظرةِ العهد الشهابي إليهم. فكمال جنبلاط وصبري حمادة كانا من دعائمِ العهد الذي لم يُعَارِضْهُ مجيد ارسلان وكامل الأسعد إلاَّ بعد أنْ أصابه الوهن. وبينما عملت الشهابيةَ على إنعاش الزعامة الخازنية، كما رأينا، فإنَّ سليمان العلي المرعبي الذي جيء به إلى النيابة والوزارة في ١٩٦٠، ما لَبِثَ، بتَدَخُّلٍ من الأجهزةِ، أنْ استُبْدِلَ في ١٩٦٤ و١٩٦٨ بابن عمِّه بشير العثمان المرعبي، كما استُبْدِلَ علي عبد الكريم المرعبي ببهيج القدور المرعبي.

ويكتسبُ هذا النهجُ كاملَ معانيه إذا ما قيسَ بأزمة هؤلاء الأرستقراطيين مع العهد الشمعوني الذي قلَّص عددَ أعضاء البرلمان للحؤول دون الدائرةِ الإنتخابية المُوَسَّعَةِ، ركيزةِ القوَّةِ السياسية لكبار الملاّكين، حتى إذا كانت انتخابات ١٩٥٧ العامَّةُ عجزَ معظمُهُم عن الوصول إلى البرلمان. أي أنَّ التجاوزَ الشمعونيَّ على العملية السياسية، وهو تجاوزٌ بالتعريف تنعكس فيه مصاعبُ البرلمانية في بلدان العالم الثالث الناشئة، جاء تَقَدُّمِيّاً من زاويةِ الممارسة السياسية والتحوير التمثيلي، قياساً بمثيله الشهابي الأشدِّ زعماً لـ «التَّقَدُّمِيَّةِ».

والحقُّ أنَّ صورةَ الرِّدَّةِ الشهابية على السياسة لا تتمُّ من دون استذكار بطلِها الآخر الذي وقف جنباً إلى جنب الأمير العائد. وذاك البطلُ ليس سوى الموظف النزيه ذي المنابت الشعبية التي تُقَرِّبُهُ من البؤس، والذي استطاع بفعلٍ من عصاميَّتِهِ البورجوازية الصغيرة، أنْ يَشُقَّ طريقَ النجاح من دون أنْ يجني ثراءً ينقلُهُ من نعيم النقاء والإستقامة إلى جحيم التلوث.

فالياس سركيس، كأبرز مُمَثِّلي هذا البطل، عَمِلَ في شبابه كاتباً في إدارة سكك الحديد، وفي خلال عمله درس ونال الجزء الثاني من البكالوريا الفرنسية واللبنانية، ليشُقَّ، مِنْ ثَمَّ، طريقَهُ التعليميَّةَ وسط ظروفٍ صعبةٍ، وطريقَهُ المهنيَّةَ عبر خطٍ غيرَ مُلْتَوٍ(٥١).

(٥٠) عن مخطوطةٍ غير منشورة لكاتب هذه الأسطر تحمل عنوان **السياسة دون مجتمعها ـ النموذج العكاري**.
(٥١) انظر الياس الديري، **من يصنع الرئيس؟**، سبق الاستشهاد، ص ١٢٢.

وَمِثْلُ هذا البطل الذي يكون «سكرتير» الأمير وكاتمَ اسراره، كما كان سركيس حيال شهاب، يَجْمَعُهُ برئيسه موقعٌ وموقفٌ مُشْتَرَكانِ من الراسمالية والسياسة التي تتقاطعُ مع مصالحها وتُعَبِّرُ عنها. فالأمير وريث طبقةٍ احتماعية «سابقةٍ على» الإثنتين، والسكرتيرُ فَرْدٌ لم يَصِلْ إليهما. وعن هذه القطيعةِ في وجهيها، يتعزَّزُ الإرتدادُ الأخلاقيُّ عند كليهما على النحو الذي صاغته الإنمائيَّةُ الشهابية بعد حقبة الرخاءِ والإزدهارِ الشمعونيين، ومن خلال «التنظيم» البيروقراطي لهذين الرخاء والإزدهار.

«المجتمع الجديد»

لم يكن «النهجُ» الذي مثَّلَهُ فؤاد شهاب غريباً عن أجواء بعض المسيحيين من ذوي الصلة بالنشاطَيْن الثقافي والسياسي. فالكثيرون من تلامذةِ ميشال شيحا مِمَّنْ قالوا بالليبرالية القصوى وَفَتْحِ الأبواب جميعِهَا أمامَ نموِّ القطاعات التجارية والمصرفية مع الحدِّ الادنى من التشريع، هَالَهُم اكتشافُ «الأطرافِ» اللبنانية وتخلُّفِها، فيما حَمَلَهُمْ «الفسادُ» الذي وُصِفَ به العهدُ الإستقلاليُّ الأوَّلُ على إعادةِ تأويلِ شِيحِيَّتِهِم الأصلِيَّة.

فمن على منبر «الندوة اللبنانية» وفي وقت يرقى إلى ١٩٥٤، أي قبل أربع سنوات على انفجار النزاع الذي أكَّدَ للشِّيحِيِّينَ ضرورةَ إعادةِ التأويل، أعلن فيليب تقلا عن أهميّة وضع الإنماء في موضع النقيضِ للسياسةِ والإيديولوجيا والبديلِ عنهما. فقد رأى تقلا، المثقّفُ والسياسيُّ الكاثوليكيُّ الذي أصبح بعد ست سنوات وزيرَ الخارجية الشهابي الدائمَ، أنَّه «مِمَّنْ يؤمنون أنَّ شقَّ طريقٍ وفتحَ مدرسةٍ ومدُّ قسطلٍ للماء وريُّ مساحةٍ من الأرض وتشييدَ بناءٍ وإنشاءَ مصنعٍ وإنصافَ الضعيفِ من القوي، والفقيرِ من الغني، أشَدُّ وقعاً وأكثرُ إقناعاً وأقربُ إلى الغاية التي ننشد، من مايةِ جدالٍ حول الفينيقية والعروبة، وألفِ حوارٍ حول الإتحادِ والإنعزالِ، والأولويةُ لتلك المناطق التي عادت إلى لبنان بعد نأي»[٥٢].

لكنَّ فؤاد شهاب حوَّل تلكَ التَّصَوُّراتِ المبعثرةَ إلى نظامٍ أو «نهج» يُنْتَجُ لوضعه موضعَ التنفيذ طاقمٌ سياسيٌّ - إداريٌّ شاب، وتُمْتَحَنُ على ضوئه المواقف أو تُتَّخَذُ القرارات.

والنظام أو «النهج» هنا يتعدَّيان «العهد» الذي هو الوَحْدَةُ الزمنية - السياسيّة التقليدية للحياة السياسية في لبنان. أي أنَّنا للمرةِ الأولى في تاريخ لبنان الحديث أمامَ موقفٍ يَقْرُبُ من يَعْقُوبِيَّةٍ (Jacobinism) الموقفِ الحزبي بحيث لا يُعبأ بدورةٍ دستورية تحكُمُها بدايةٌ ونهايةٌ مُحَدَّدَتانِ خاضعتان للإستفتاء الشعبي، وهو ما جلاه استنكافُ

(٥٢) فيليب تقلا، «احاديث في السياسة اللبنانية»، في: محاضرات الندوة، ١٥ شباط ١٩٥٤، ص ١٨٠.

شهـاب عن خوض انتخـابات الـرئاسـة في ١٩٧٠ مُعَلِّلاً ذلـك لا بحسابـاتٍ سياسيـة أو برلمانية، بل «ببيانٍ سياسيٍّ اقتصاديٍّ ضِدَّ طغمـةِ النظام وجـدار المال» بحسب صيـاغة ميشال أبو جودة[٥٣].

ففؤاد شهاب برغم «تشديده على أهميَّةِ الطوائف في حياة لبنان وضرورةِ المحافظة على التوازن بينها»، إعتبرَ أنَّ «مشكلةَ لبنان الاساسيَّـةَ، اليومَ وغـداً، مشكلةٌ اجتمـاعية». وتَبَعاً لِمَا نقله عنه الباحثُ السياسيُّ الفرنسيُّ موريس دو فـرجييه، رأى وجـوبَ «أنْ ينشأ في لبنان توازنٌ إجتماعيٌّ ليس له وجود»، مُضيفاً بشيء من الجزم: «كان هذا هدفي وأنـا في الحكم»[٥٤].

وما قاله شهاب لدو فرجييه بعد انتهاءِ عهده، سَبَقَ أنْ أوردَهُ في خطاب رسميٍّ ألقاهُ حين كـان رئيساً، فحضَّ على بنـاء «المجتمعِ الجـديد» الـذي من دونه يفقـدُ الإستقلال «كثيراً من نوره ومجده وقُدْسِيَّتِهِ»[٥٥].

وتلوحُ هذه الدعوة إلى «مجتمع جديد» يتمُّ بلوغُهُ بالإنماء والتقنية والعدالة، شبيهـةً بدعواتٍ أخرى كثيرةٍ لجهة إغفالها التجربة التاريخية للمجتمع المذكور، وهو ما يرقى إلى «خصوصية» هذا المجتمع. فالإلحاحُ على التَّغيير، في إصراره كما في افتراضِـهِ استواءَ المجتمعِ على قاعدةٍ واحدةٍ، يستـدعي التقليلَ من وزن التنـاقضاتِ الـداخليةِ وتـاريخِها، وأحيـاناً تَجَـاهُلَهَا، الشيء الـذي رأيناه في عَيِّنـاتٍ كثيرةٍ من الأدبِ السيـاسي النضالي، القومي واليميني واليساري على السواء.

هذا التقليلُ من وزن التناقضات هو ما أملى على شَهَابِيٍّ كمنوال يـونس سبقَ له أنْ دَرَسَ في دمشق وكان مُقَرَّباً من أجواء حزب البعث العربي، أنْ يُؤَسِّسَ في ١٩٥٩ «حركةَ التقدم الوطني» التي «وَضَعَت أُسُسَ الإصـلاح الاجتماعي الـذي نادى بـه فؤاد شهاب». ولم يَفُتْ يونس أنْ يلاحظ أنَّ «الإصلاح مُلِحٌّ بما لا ينتظرُ تكـوينَ رأيٍ عامٍّ وبـرلمان، وأنَّ علينا أنْ نستفيدَ من حُكْمٍ وحاكم يتبنيان هذا البرنامج الإصلاحي»[٥٦].

والواقع أنَّ الطـائفةَ المـارونية التي كـانت السَّبَّاقـةَ في التَّشَكُّلِ كطـائفةٍ بـالمعنى التاريخي للكلمة، كانت، إستطراداً، السَّبَّاقَةَ في إنتاج المعرفةِ بالواقع الطائفي الصريـحِ،

(٥٣) النهار ١٩٨٧/٩/٢٧.

(٥٤) نشرت النهار في ١٩٧٣/٤/٢٩، أي بعد أربعة أيام على وفاة شهاب، مقابلة دوفرجييه معه.

(١٠) عن وضّاح شرارة، السلم الأهلي البارد، سبق الاستشهاد، ج ١، ص ٢٩.

(٥٦) عن حازم صاغية، موارنـة من لبنان، سبق الاستشهـاد، ص ١٠٥ ـ ١٠٦. ويُلاحظ أن قـادة «حركـة التقدم الوطني» هذه كانوا «زعماء» يفتقرون إلى القاعدة الشعبية النيابية (الطائفية)، بحيث أمّنت الشهابيـة لبعضهم موقعهم الجديد من خلال توزيرهم أو فرضهم أعضاء في لوائح «الأقطاب» أو تسميتهم موظفين إداريين كبار. وهذا يسري على يونس وفؤاد بطرس وسليمان الزين وباسم الجسر وحسن صعب ومحمد الجارودي وجوزيف مغيزل.

او على الاقلّ، الشفَّافِ، وبالعلاقاتِ المُتَرَتِّبَةِ عليه. ومن هنا فإنَّ هذا الإنتاجَ، الذي لم يبرأ من الإيديولوجيا والزَّيْفِ بطبيعة الحال، كان في وجهه الآخر تعبيراً عن تَطَلُّعٍ اقَلَّيٍّ مُـزْمِنٍ إلى الحصـول على الإعتراف الـذي تنجم عنه «ضمـاناتٌ» يُسَمِّيهـا المعـارضـون للـدورِ السياسي الماروني الراجحِ «امتيازات».

في المقـابل ضَمـرَتْ الطَّائفيَّـةُ في اللغةِ الشهـابية «حتى انَّ ذَمَّهـا قلَّ تـداولُهُ في الخُطَب». وبحسب صياغة احمد بيضون «كـانت شَبَحاً اليفـاً ومخيفاً في آن، يعـرف اهلُ السلطة انَّها اساسُ نظامِهِم ولا ينسونَهَا لحظةً، على انَّهم يُؤثرون الثَّوْرِيَةَ عنها بِمَا يجعلها غيرَ بغيضةٍ»، أي بالوَحْدَةِ الوطنية، وَيُوَرُّونَ عن الطـوائف بـ «العائـلاتِ الروحيـة» وكأنهم يُسَمَّون اماني لا حالاتٍ قائمة»[٥٧].

بلغةٍ اخرى، فيما عمدت المارونيّة الثقافية السائدة إلى رعاية «السياسة» في معناها اللبناني المُحَدَّدِ الذي يعترفُ بقيام الطوائف وتعددها، كانت الصِّيَغُ الثقـافيَّةُ والسيـاسية الاخـرى، بما فيهـا الشهـابيـة، تُلِحُّ على «سيـاسة» تنفي هـذين القيـامَ والتعـدُّدَ وتُطـالب بالتضافر عند مصلحةٍ مُوَحَّدَةٍ، إجتماعيةٍ او وطنيةٍ، هي دائماً بؤرةٌ لـ «المجتمع الجـديد». ولئن اتَّخَـذَت دعوةُ «الحـزب السوري القـومي الاجتماعي» إلى العلمنـةِ الإجرائيـة لـونـاً إنقلابيّاً حاداً شديدَ التعارض مع المؤسَّسات الدستوريـة، فضلاً عن التكـوين المُجْتَمَعِيِّ، وذلك استناداً إلى النزعة التـوليفيّةِ التي عبَّـر عنها انطـون سعادة حين اعتبـر انَّ «جميعَ السوريين مسلمونَ لربِّ العالمين»[٥٨]، فإنَّ الشهابيـةَ استطاعت بفعـلٍ من موقعهـا حيالَ المؤسسات وشكلِ صعودها الدستوري، انْ تُزاوِجَ بين انقلابيَّتِها ومُؤَسَّسِيَّتِهَا الدستورية التي راحت تفقدُ الكثيرَ من المضمون لمصلحة الشكل العملاني.

بهـذا المعنى تحديـداً لم يكن المُصَـادَفِ انْ تصطـدمَ الشهـابيـة بـ «المـارونيـة السياسية» الجبلية، حاضنةِ السياسة اللبنانيـة بحسب ما سبق الإلمـاح. وفي وقتٍ لاحقٍ روى احدُ «اقطاب» النهـج الشهابي انَّ «الإخـوان»، وهي التسميةُ التي يُطلِقُهَـا المُتَحَدِّثُ على رجالِ الاجهزة مِمَّن احاطوا بالرئيس شهاب، كانوا «يعملونَ على تعيين الحكوماتِ في العهـد المحكي عنه. كـانوا يُعـاملون اصحـابَهُم من النوّاب السـائرين معهم على النهـج الشهابي بأسلوب غيرِ منصف». وقد امتدَّت المعاملةُ هـذه، المُعَبِّرَةُ عن إخـلالٍ صريـحٍ بأعراف الحياة البرلمانية حتى ١٩٧٠ حيث «فُوجِئنا بشهاب يُعلن في بيانٍ قصيـر عزوفَـهُ عن ترشيح نفسه للرئاسة، لاسبـاب ذكرهـا باختصـارٍ مُفيدٍ، وأُعطيت لنـا كلمةُ السـر انَّ المرشحَ العتيدَ هو الياس سركيس»[٥٩].

(٥٧) احمد بيضون، ما علمتم وذقتم ـ مسالك في الحروب اللبنانية، المركز الثقافي العربي، ١٩٩٠، ص ١٣.

(٥٨) انظر مساجلةَ انطون سعادة الهجائيةَ مع «الشاعر القروي» رشيد سليم الخوري في: جنون الخلود ١٩٤٠ ـ ١٩٤٢، منشورات عمدة الثقافة في الحزب السوري القومي الاجتماعي.

(٥٩) «السيد محمد صفي الدين يتذكّر»، الحلقة العاشرة، الشراع ١٢/١٠/١٩٨٧.

هكذا راحت الحملاتُ الانتخابية، وبخاصة في دوائر «الاقطاب» الموارنة الجبليين، تتعرَّضُ لمُدَاخَلاتٍ جَلِفَةٍ وفَجَّةٍ، بهدف إنجاح المرشحين الشهابيين المناوئين لهؤلاء الأقطاب. فمثلاً، أثناء انتخابات جبيل الفرعية في ١٩٦٥، أي في السنة الأولى لعهد شارل حلو الذي كان لا يزال خاضعاً للوصَايَةِ والنفوذ الشهابيين، «أوقِفَ منذ بدء الإقتراع مخاتيرُ قرى الخاربة وعبيدات ومزرعة السياد (...) وفي أفقا عُلِّق الاقتراع»[٦٠]، فكان إيقافُ المخاتير بهدفِ إضعاف معنويات المؤيدين لريمون إده ممن ردّوا على هذه المحاولةِ التدخلية بتعليق الاقتراع. وتعرَّض موكبُ إدّه للرصاص وهو في بلدة لاسا «فأثار الحدثُ مجدداً مسألةً إداريّةً سياسيّةً حرص ريمون إدّه على إعطائها مكان الصدارة في نقدِهِ لأساليب الحكم التي اتَّبَعَهَا الرئيس السابق، هي مسألةُ إخضاع قوى الأمن لقيادةِ جيش «سياسيّةٍ»، فطالبَ وفدٌ من أهالي جبيل المناصرين لإدّه، رئيسَ الجمهورية بسحبه قوى الأمن، واتَّهَمَ الوفدُ أفراداً من الدرك بنصبِ الكمين في لاسا فردَّ أنصارُ نُهاد سعيد بالمطالبةِ بإنزال الجيش»[٦١].

واستمرت حتى ١٩٦٨، آخر سنوات الزخم الشهابي، محاولاتٌ مشابهة. فَجَرَتْ واحدةٌ لاغتيال كميل شمعون حامت معها «الشبهات حول «الأجهزة» إيَّاها بصفتها الدافعةَ إلى ارتكابها وقطعِ الطريق عليه في جونيه أثناء الحملة الانتخابية»[٦٢]. وفي تذكير لاحقٍ بهذه الحادثة، وُجِدَ من يتَّهِمُ الشهابِيَّيْن الياس الخازن وموريس زوين اللذين وقفا ضدَّ «الحلف الثلاثي» في انتخابات ذاك العام، بقَطْعِ الطريق[٦٣]بطبيعة الحال لم تَكُنْ مداخلاتٌ كهذه حَكْرَاً على العهد الشهابي، إذْ مارسها عَهْدَا الخوري في ١٩٤٧ وشمعون في ١٩٥٧ على نطاقٍ واسع، بما يعكسُ حداثةَ التجربةِ السياسيةِ البادئةِ في ١٩٤٣. لكنَّ أبرزَ الفوارق أنَّ المداخلاتِ في العهدين المذكورين لم تستند إلى مشروعٍ متماسكٍ وتعبِّرْ عنه، ولم ترتبط تالياً بجهازٍ تنفيذي، كما لم تتوجه إلى طائفةٍ بعينها هي التي تحتضن العمليَّةَ السياسيَّةَ في لبنان. وفي ما خَصَّ خلافَ شمعون مع الزعامات الإسلامية منذ ١٩٥٦، لعبت مسألة الناصرية الدور الأساسي في ذلك، الأمر الذي ما لبث أن وجد تعبيره في حرب أهلية كانت لها مثيلات في العراق وجزئياً في سورية والأردن[٦٤].

(٦٠) وضّاح شرارة، **السلم الأهلي البارد**، سبق الاستشهاد، ج ١، ص ٣٥٦.

(٦١) المرجع السابق، ص ٣٥٤.

(٦٢) انطوان خويري، **كميل شمعون...**، سبق الاستشهاد، ص ١٦.

(٦٣) انظر مقالة أمجد اسكندر في **المسيرة** ٢٤/١٠/١٩٨٧.

(٦٤) من ناحيته يروي النائب الشيعي الشمعوني كاظم الخليل أنّ «الرئيس شمعون بذل (في عهده) لبعض المرشحين مساعدات المعنوية وكانت كافية لنجاحهم، كما استعملها ضد اخصامه وكانت كافية لفشلهم». ويُضيف الخليل: «وأنا من الذين يعتقدون أن المساعدات المعنوية في الانتخابات في البلدان الديمقراطية التي تعتمد النظام البرلماني والحزبي عمل مبرر». عن انطوان خويري، **كميل شمعون...**، سبق الاستشهاد، ص ٢٣٤.

غني عن التذكير بأنّ شمعون وإدّه كليهما كانا قد رَسَبَا في انتخابات ١٩٦٤ النيابية العامة مِمَّا خلّف شعوراً مارونياً ـ جبلياً يجمعُ المرارةَ إلى الإحتقان. وكان ما يُفاقِمُ حِدَّة هذا الشعور استمرارُ «الفيتو» على تمثيل نواب «حزب الوطنيين الأحرار» الشمعوني في الحكومة طوالَ عهد شهاب ومعظم عهد حلو، مع العلم بأنّ مثل هذا الفيتو الذي تمسَّكت به اكثريّةٌ نيابية شهابية في صورة أو اخرى، هرطقةٌ دستورية اقربُ إلى تقاليدِ الجماعات العشيرية و«سياساتِها» في النَّبْذِ والطردِ منها إلى التقاليدِ البرلمانية.

بروفيل الزعيم الشعبي

إصطدم الإصلاحُ الشهابي، إذن، بالطائفة التي هي قاعدةُ السياسةِ والإصلاحِ في الحياةِ اللبنانية، اصطِدَامَهُ بالرقعةِ الجغرافية (الجبل) التي هي ركيزةُ هذين الإصلاح والسياسة، والنموذجِ الذي كان حَرِيّاً تعميمُهُ على سائر المناطق المتعرضة لاتِّساع عَمَلِ المركز واشتمالِهَا بـه. ولئن كانت التحالفاتُ العربيَّةُ للعهد الشهابي، وخاصة الطرفُ الناصريُّ الذي اصطدم بـ المارونية السياسية» وبالدولةِ اللبنانية في ١٩٥٨، وما تفرَّع عن ذلك من دور شهير لعبه السفيرُ المصري عبد الحميد غالب في التأثير على مُجْـرَيَات الحياة السياسيةِ في لبنان، لئن كانت هذه التحالفاتُ حاسمةً في تقرير الـوُجْهَةِ الشهابية وإذكائها، فقد اكتملت بذلك العناصرُ الداخلية والخارجية التي ترسم للدولة الموعودة مساراً شِبْهَ انقلابي:

فهي ليس الدولة التي تُبنى بالتراكمِ والتدريجِ انطلاقاً من قاعدتِها ومركزِ قوَّتها التقليديين، بل تلك التي تُبنى بالتناحرِ مع هذين القاعدةِ والمركز، وبالعمل على تطويعِهما. وهي، استطراداً، لا تَتَشَكَّلُ بوصفها محوراً يدورُ من حوله النشاطُ السياسيُّ، بل تنشأ وتنمو كمصدرٍ تنبثقُ عنه السياسةُ، وتردُّ إلى الحدود الضَّيِّقَةِ التي تُتِيحُها.

تكامل هذا التخريبُ للسياسة في رُكنها الماروني، مع اعمالِ تخريب اخرى وفدت من اركان متعددة. فالإنقلابيةُ طاولت ايضاً احدَ ابرزَ مُقَدِّماتِ الصيغة التي نهضت في ١٩٤٣ على قُطبين قَوِيَّيْن مَثَّلَتْهُمَا المارونيةُ الجبلية (بشارة الخوري) والسنية البيروتية (رياض الصلح). ولم يكن هذا النهوضُ اعتباطياً، إذْ عبَّر عن انبثاقِ الراسماليةِ والإزدهارِ اللبنانِيَّيْن عن وَحْدَةِ الجبل وبيروت، تعبيرَهُ عن اللونين الشرقي والغربي للبنان الذي نَمَا في كنف الصِّلَةِ المزدوجةِ بالإقتصادات الغربية والأسواقِ والرساميلِ العربية معاً.

لقد استبدلت الشهابيةُ السُّنِّيَّةَ البيروتِيَّةَ، كما مَثَّلَتْهَا زعامةُ صائب سلام، بخليطٍ من السُّنِّيَّةِ الطرابلسية (رشيد كرامي) والدرزية الجبلية (كمال جنبلاط) اللتين لا تتوافرُ فيهما الشروطُ التي تَطَلَّبَتْها الصيغةُ او عَكَسَتْها. فإذا اضفنا إلى ذلك إضعافَ المارونية الجبلية ـ البيروتية حيث نِيطَ بالشيخ بيار الجميل تمثيلُها، بَدَا جليّاً كيف انَّ الفراغَ الناجمَ

عن «حوار» الضعفاء و«تعايُشِهِم» لا يُمْكِنُ أنْ تَسُدَّهُ إلاّ «الدولةُ» نفسُها.

وحين تُؤخَذُ مُجْتَمِعَةً هذه الضرباتُ التي كِيلَتْ للسياسة، يُمكِنُ فهمُ الترتيب الذي اعتمدَهُ ريمون إدّه للمخاطر على لبنان حين أدرج، في تصريحٍ معروفٍ له، الشيوعيّةَ والصهيونيّةَ والشهابيّةَ في خانةٍ واحدةٍ[٦٥].

بدوره ترك تهديمُ الحياة السياسية آثارَهُ على المؤسَّسة العسكرية نفسها التي باتت، والحالُ على ما هي عليه، مُطَالَبَةً بأداء دور «سياسي» صارخ. وغنيٌّ عن القول إنَّ هذا ما يَشُذُّ، تعريفاً، عن وظائفها في بلدٍ دستوريٍّ، ليُلَبّي الميلَ الإنقلابيَّ بهذه النسبةِ أو تلك. فمنذ لحظة انتخابِ فؤاد شهاب رئيساً في ٣١ تموز ١٩٥٨ «اشتعلت العاصمةُ وبعضُ المناطق اللبنانية بنارِ الإبتهاج، واستعمل أفرادٌ من الجيش، للمرّة الأولى، الذخيرةَ الرسميةَ لإطلاقها في تلك المناسبة، مما شكَّل ظاهرةً جديدةً في تاريخ القانون والإنضباط العسكري» اللبنانيين[٦٦]. وفي استعادةٍ لاحقةٍ لتجربة ضابط انتسبَ في ١٩٥٠ إلى الجيش ورَأسَ أركانه في الثمانينات، قال اللواء محمود طي أبو ضرغم: «مع الأسف، بعد أنْ تَسَلَّم الرئيس شهاب الحُكَمَ انتقلت العدوى السياسية إلى الجيش»[٦٧]، فيما اعترفَ أحدُ كبار العسكريين الشهابيين بأنَّ الشهابية جعلت «لابسَ الثوب العسكري صاحبَ امتيازٍ يستطيعُ الدخولَ إلى الإدارات العامة وإنفاذَ مشيئته بسرعة»[٦٨]. ولم يتردَّد شهاب نفسه، وفي خطاب القاه أمام ضبّاط الجيش، في الحديث عن أنَّ مَهَمَّتَهُمْ «لا تنحصرُ في حمايةِ الحدود وصدِّ كلِّ مُعْتَدٍ غاشمٍ عنها فحسب، بل تتعدَّاها إلى الداخل حيث تعملون شعباً وجيشاً، على صَوْن وَحْدَتِنَا الوطنية»[٦٩]. بلغةٍ أخرى، فإنَّ عمليةَ الصهر لإنشاء «المجتمع الجديد» وإيكالَ هذه المَهَمَّةِ إلى الجيش عبر صوغِهِ الحياة السياسية وتشكيلها، تؤَسِّسان للظاهراتِ التي لم يَبْرأ منها أيٌّ من مجتمعات «العالم الثالث» التي تعرَّضت للتغييرِ الراديكالي والتجاوزِ على الدستورِ والمؤسَّسات، كأنْ يتمَّ تقريبُ الجيش، وهو أشدُّ المؤسَّساتِ الرسميةِ رسميةً، من منطقِ العلاقات الأهلية وسُنَنِهَا وتقاليدِها (إطلاق النار إلخ.)، ومِنْ ثمَّ احتمالُ تقريبه من إمكان التَّفَرُّعِ أجهزةً ومراكزَ نفوذٍ، أو أنْ يُصارَ إلى إحداثِ لونٍ من أدْلَجَةِ الجيش امتداداً لأدائِهِ بعضَ المَهَام السياسةِ، وهو ما تمثَّل في التجربةِ الشهابية بالدور الذي نيط به في إنجاز «الوَحْدَةِ الوطنية» جنباً إلى جنب مع «الشعب».

(٦٥) عن الياس الديري، **من يصنع الرئيس؟**، سبق الاستشهاد، ص ٢٢٧.
(٦٦) انطوان خويري، **كميل شمعون...**، سبق الاستشهاد، ص ١٢٦.
(٦٧) انظر المقابلة معه في **الوطن العربي** ١١/٩/١٩٨٧.
(٦٨) من مقابلة مع سامي الخطيب (لم يُذكر الاسم في حينه) استخدمت مادتها في: حازم صاغية، **موارنة من لبنان**، سبق الاستشهاد، ص ٢٧٨.
(٦٩) عن الياس الديري، **من يصنع الرئيس؟**، سبق الاستشهاد، ص ٢٥١.

هكذا كانت «الشعبية» شرطاً لا بُدَّ منه في إنجاز الإنقلاب الشهابي على السياسة. وعمادُ الشعبية في معناها هذا، إحلالُ العاطفة في موقع الصدارة من العمل السياسي بما تنطوي عليه من «هوًى» للشعب ومعاناته لا يُخفي «الشفقةَ» حيالها(٧٠). مِثْلُ هذا المضمونِ الجديدِ الذي يكتسبه المصطلحُ، يُحيل التعريفَ الاصليَّ للسياسة (التشريع، مراقبة اعمال السلطة التنفيذية، وكاستطرادٍ ضمني واسْتِتْبَاعِيٍّ: الإقامةُ في المدينة ـ الاغورا)، إلى مُسْتَمْسَكَاتٍ ومآخذ على السياسي الذي يَدْرُجُ وصفه، والحالُ على ما هي عليه، بأنَّه غيرُ عابىء بـ «الشعب»، أو على الاقل، بَعيدٌ عنه وعن همومِه.

وبَدَل المحامي والطبيبِ والتاجرِ ممن يُقيمون في المدينة، يصعدُ نجمُ المحامي والطبيبِ والموظفِ الذين يُقيمون بين الأهل ويَقومون بتلبية الخدماتِ المحليّةِ المباشَرَةِ لهم وحلِّ مشاكلهم العالقةِ في المحاكم والدوائر (المحامي والموظف الشعبيان)، أو التعاملِ معهم كمجرَّدِ أجسادٍ وأبدانٍ في صورةٍ شديدةِ العراءِ وعديمةِ التجريدِ لمفهوم «الخدمة» (الطبيب الشعبي). أمَّا إذا وصل احدُ هؤلاء الشعبيين إلى المجلس النيابي، فلن تكونَ مَهَمَّتُهُ التشريعَ ومراقبةَ السلطة التنفيذية، بل العملَ على إقامة الطرق والجسور والمدارس والمستوصفات بالنيابة عن الخِطَّةِ المركزية المُفْتَرَضَةِ للدولة «المُقَصِّرَةِ» تاريخياً، وغالباً من خلال علاقةٍ مباشرةٍ مع الدوائر الإدارية لا تُقَدِّمُ البرلمانيةُ فيها ولا تُؤَخِّر إلّا بوصفِها «وَجَاهَةً» مدغومةً من مصدرِ السلطة الأوَّل.

بمعنى آخر، يتمُّ هنا نَزْعُ سياسِيَّةِ السياسي بِرَدِّه إلى النطاقِ الأهلي على النحو الذي يستجيبُ، من جهةٍ، لعدالِيَّةٍ لم يكتمها ايٌّ من الحركاتِ الشعبية، ومن جهة أخرى، لماضَوِيَّةٍ يُلِحُّ فيها الطابعُ النوستالجي السابقِ على السياسةِ وعالمِها المديني، بينما يلوحُ الزعيمُ الشعبي بصفتِهِ يُصْلِحُ خطأ تاريخياً ارتكبته الدولةُ في مدى استمراريتها.

وغنيٌّ عن القول إنَّ سلوكاً كهذا كفيلٌ بتعزيزِ وَعْيٍ ابْرَشِيٍّ ضيِّقٍ، يتبادلُه الزعيمُ وجمهورهُ على السَّواء في ظلِّ ارتفاع يافطاتِ «الوَحْدَةِ الوطنية» ودعواتِها، كفالَتُه بتحويلِ الشكوكِ الأهليةِ الموروثةِ بالدولة وعمليةِ التراكمِ السياسي إلى يقين.

بدورها لم تبخلْ الشهابية بمثل هؤلاء القادة الشعبيين الذين رُبَّما كان ابرزُهم الدكتور انطون سعيد لا في كونه طبيباً شعبياً ولا في مجابهته أبرزَ البرلمانيين الموارنة واللبنانيين (ريمون إدّه) فحسب، بل في أنَّه جمعَ ايضاً بين تينك السِّمَتَيْن: العَدَالِيَّةِ الشعبية ونوستالجيا الماضي والبعثِ بمعناه اللبناني الذي أُشير إليه.

لقد وفدت عائلة سعيد المُتَوَسِّطَةُ عددياً من قريةِ مشان الصغيرةِ المُوَزَّعةِ بين آل سعيد وآل شمص الشيعية، إلى قرية قرطبا التي تُعَدُّ القريةَ الاولى عدداً في الجرد

(٧٠) راجع Hannah Arendt, *On Revolution*, *op. cit.*, p. 85-94.

الجبلي. ولمَّا كانت[٧١] هذه الأخيرةُ منقسمـةً تقليديـاً بين عائلتين كبيـرتين، كرم وصقـر، وكانت الثانيةُ الأكثرَ تَعَلُّماً، فضلاً عن كونها عـائلةَ التقليـدِ السياسي المحلي، تحـالف آل كرم مع فارس سعيد، والد انطون، الذي بنى صداقةً وطيدةً مـع جورج كـرم عميدِ عـائلته واحدِ مشايخ الصلح يومذاك.

هذا الإنقلابُ في داخل قرطبا الذي بداه فارس سعيد، وكرَّسَهُ ابنه انطون لاحقاً من خـلال تعيين أعدادٍ من آل كـرم في الإدارة إبَّان العهـدِ الشهابي، تـوافرت لـه عنـاصـر المقدمات القيادية اللازمة عبر جَمْعِ نُتَفٍ من العلاقاتِ والولاءاتِ والخدمات والإمكانات.

ففارس دَرَسَ الطبَّ عن طريق مِنْحَةٍ كَنَسِيَّةٍ فيما اصبح شقيقُـه رجلَ دين خـدم في فلسطين وعاد في ١٩٤٨ مُشْبَعاً بعـواطفَ مُضَادَّةٍ للصهيـونية. وتـزوج فارس من مـاري الخوري السخن التي كان والدُها يملك كرخـانةً للحـرير، وانتقـل الزوجـان من مشان إلى قـرطبا التي هي سـوقُ الحبوبِ والكـرخانـاتِ والتبادلِ والتجمـع السكـاني في منطقتهـا الجردية. وهذا كلُّه ما يفسِّرُ الأساس الاقتصادي ـ الاجتماعي الذي نهض عليه تَصَدُّرُ آل صقر للقرية وجوارِها.

لكن على عكس سائر الاطباء يومذاك، آثر فارس البقاء في قرطبا وممارسةَ التطبيب بمعناه الإنساني الخدماتي في وسط فلاحيٍّ، فكان بالمقايضةِ يتقاضى أجره بيضاً وخبـزاً وسلعاً أخرى مِمَّا جعله «محبـوباً جـداً»، وذا علاقـاتٍ وثيقة بـالقرى المجـاورة وأعيانِهـا، خصوصاً الوجيه الشيعي في «بـلاد جبيل» السيـد أحمد الحسيني. ولئن كـان فارس قـد تعاطف مع ستالين، لا مع النازية ولا مع حلفاء ستـالين الغربيين، خـلال الحرب العـالمية الثانية، فإنَّ نجلَهُ انطون بدا في شبابه قـريباً من «الحـزب السوري القـومي الاجتماعي» وعلى صداقةٍ وطيدةٍ بالـدكتور عبـدالله سعـادة، أحدِ اركـان الحزب المـذكور. وقـد عَمِلَ انطـون، بعد دراستـه الطبَّ، في حلب ودمشق فضـلاً عن امـاكنَ متعددةٍ من لبنـان، فكان مُنفتحاً على التيارات الناصرية والعروبية ومُتَعَاطِفاً مع «الثوار» في حرب ١٩٥٨ الأهلية ـ الاقليمية. بَيْدَ أنَّه ظلَّ باستمرار يكرهُ مظاهرَ الثراءِ والترف وتستفِزُّهُ «غطرسةُ» ريمـون إدّه و«علاقتُهُ بالمدينة والمصارفِ والصالونات وآل سرسق».

واقترن انطون بنهاد جرمانوس يوم كانت طالبةَ طبٍّ في سنتهـا الأولى. ونهاد، التي كان والدُها محامياً ووالدتُها ذات نشاطـاتٍ إجتماعيـةٍ في بيروت، تنتمي إلى عـائلةٍ تملـك قريةً صغيرة هي مجدل العاقورة. فمشايخُ آل جرمانوس تعلموا مبكراً ونالَ بعضُهُم مـواقعَ مرموقةً في الهرم الإداري، من دون أنْ يكونوا، لجهةِ العدد، عائلةً كبيرة.

بعـد هذا الإنقـلاب الذي احـدثه فـارس وانطون سعيـد في قرطبـا، جَـامعَيْن إلى

(٧١) المعلومات الواردة حول جبيل وآل سعيد من مقابلة مع ماري كلود سعيد (من قرطبا) اجريت في بيروت.

الشعبية نُتَفاً فلسطينيةً وستالينيةً وقوميةً سوريةً وناصريةً، وصِلاتٍ بالشيعة واخرى بمصادر الثروةِ في العاصمة برغم التحفظِ عن المدينة وعائلاتِها ومصارفِها، بعد ذلك وتتويجاً له، تَقَدَّم انطون سعيد ليقودَ انقلاباً آخرَ في قضاء جبيل ضد ريمون إدّه.

ففي انتخابات ١٩٦٤ العامة شكّلَ سعيد لائحةً ضمَّت إليه اثنين من ابناء البيوتات «الدستورية» القديمة: الطبيب شهيد الخوري من عمشيت في الساحل، والمحامي السيد علي الحسيني ابن السيد احمد الحسيني عن المقعد الشيعي. ولم تكن بلا دلالةٍ انْ تُتْرَكَ رئاسةُ اللائحة لمُمَثِّلِ الجرد، انطون سعيد، بَدَلَ انْ تكون كما جرى العُرْفُ لمُمَثِّلِ الساحل الاكثَرَ تقدّماً. إلّا انَّ عمشيت الساحليّةَ التي مثَّلها شهيد الخوري، كانت قبل تراجعِها السياسي امام قرطبا الجردية، قد خسرت موقِعَهَا لمدينة جبيل التي تُشارِكُهَا ساحِلِيَّتَها، والتي مثَّلها على راس اللائحة المقابلة ريمون إده. فعمشيت هي بلدةُ عائلتي لحود وزخيا الدستوريَّتَيْن اللتين ارتبطت أولاهما بالتقليدِ والوجاهةِ في معناهُما العثماني، واهتمت الثانيةُ بالثقافة الفرنسية ونوعيّةِ الحياة الباذخة. وقد انصرفت العائلتان على السواء إلى لونٍ من الإنفاق المُوَسَّعِ غير الإنتاجيِّ على بناءِ القصورِ البَكَوِيَّةِ التي اقام ارنست رينان في أحدِها، والتَّفَنُّنِ في استعمال أوقات الفراغ، فيما تُرِكَتْ جبيل تنمو كمدينةٍ للتداول الراسمالي الصغير والمشاغل والحرف والكفاءاتِ الحديثة، يقصدُها منذ عشرينات القرن سكان البلدات والأرياف المجاورة بمن فيهم اهلُ عمشيت(٧٢).

بهذا المعنى انطوت لائحةُ انطون سعيد في وجهها الماروني على إحباطٍ مزدوجٍ كان من نتائجه استبعادُ مدينة جبيل، مركزِ القضاءِ، عن التمثيلِ، ومن ثُمَّ الإنقلابُ على دورها، وإخضاعُ تمثيل الساحل، عبر عمشيت، للتمثيل الجردي. وبالمعنى نفسه افْصَحَ بعثُ زعامة آل الحسيني في قضاء جبيل الذي يعيشُ شيعتُه ضمنَ محيطٍ مارونيٍّ غامر، عن دلالةٍ لا يجوز التقليلُ منها. ففي واحد من وجوهِهِ كان هذا البعثُ رداً على الإرهاص الماروني داخلَ شيعة جبيل، مُمَثَّلاً في وصول احمد إسبر إلى البرلمان في ١٩٦٠ على لائحة إدّه. وإسبر، الذي انتمى إلى «الكتلة الوطنية» محامٍ من قرية حجولا الصغيرة، لا يمتُّ بصلةٍ إلى العائلاتِ الشيعية التقليدية كالحسيني وعلّام، كما تشدُّه إلى بيروت روابطُ امتن من التي تَشُدُّهُ إلى جبيل.

ويتَّضِحُ طابع الردِّ على الإرهاص الماروني في قرية علمات، اكبرِ القرى الشيعية الجبلية، التي شابت علاقَتَهَا بقرية إهمج المارونيةِ المجاورةِ توتراتٌ تقليديةٌ لم تَخْلُ من مِثْلِها علاقاتُ القرى المتجاورةِ. لكن بينما كانت «شعبيَّةُ» إدّه هي الراجحةُ في إهمج، وَقَفَ اعيانُ علمات مع «الحزبيّةِ» المناهضةِ لعميد «الكتلة الوطنية»، باستثناء المحامي

(٧٢) من مقابلة مع الهام كلاب (من عمشيت) اجريت في بيروت.

محمد حيدر احمد ومجموعةٍ من عائلته مِمَّن لم يُكْتَبْ لهم انْ يُشَكِّلوا ما هو اكثـرَ من اقليَّة العائلة(٧٣).

وفي تقرير لا يخلو صوابُه من التعميم لاتجاهات التصويت في ١٩٦٤، نـالت لائحةُ انطون سعيد اكثريَّة اصوات الفقراءِ والشيعةِ، امّا إدّه الذي أُخِذَ عليـه تقليديـاً الإستهتارُ بشؤون القضـاء، فأيَّـدَهُ الميسورون والمتعلمـون وخاصَّـةً ابناءُ «قـرنة الـروم» (٧ قـرى ارثوذكسية) التي تُعْرَفُ بالعلمِ والإنتماءِ إلى شرائحَ اجتماعيةٍ ميسورةٍ، كما ايَّدَتْهُ اكثريَّةٌ كبيرةٌ في مدينةِ جبيل نفسِها.

وبلغة اخرى، وقفت في صفِّ إدّه القاعدُة الأقلُّ احتياجاً إلى «شقِّ طريق» و«إقـامةِ مستـوصفٍ»، والأقدرُ على متـابعةِ الشـأن العام بعينٍ لا تطغى عليهـا النظرةُ العـاطفيّةُ ـ الأبْرَشِيَّةُ للأمور. وفيما اكَّدَ اغلبُ المُقْتَرِعِينَ لصالحِ إدّه على مواقِفِـه السياسيـةِ العامَّـةِ على الصعيد اللبناني، اكَّدَ الآخرون على الخدماتِ التي لَبَّتْهَا وسوفَ تُلَبِّيها لائحةُ خصومِهِ التي ضمَّت طبيبين شعبيين ومحامياً شعبياً، كلُّهم شهابيون.

(٧٣) من مقابلة مع حسان حيدر (من علمات) اجريت في بيروت.

الفصل الثاني

المدني أولا
أم السياسي؟

لم يكُنْ «الـزعيمُ الشعبي» المُعَبِّرَ الـوحيدَ عن التحـوّل الذي أحـدثَتْهُ الشهـابيةُ في تركيب النخبةِ المارونية ورموزها. فالانطلاقةُ الواسعةُ التي نَجَحَ «حزبُ الكتائب اللبنـانية» في إحداثِها خلال بعض سِنِيِّ العهد الشهابي، ومن بعدِهِ خلال عهدِ شارل حلو، بـرَزَت في اهميَّتِها وفي تأثيراتِها اللاحقةِ كلُّ نتيجةٍ اخرى على هذا الصعيد.

صحيحٌ أنَّ الحزبَ الذي تأسَّس في ١٩٣٦، خـلال النزاع الـدائر حـول المعاهـدة اللبنانية ـ الفرنسية وفي مناخ الردِّ على مؤتمراتِ الساحل الإسلامية البادئـة في ١٩٣٣، لم يكن عند نشأته طائراً يُغَرِّدُ خارج سربه. فالفترة نفسها سجَّلت ظهـور أحزاب مشـابهة في طرحها لم يُقَيَّضْ لهـا الاستمرارُ، كـ «حـزب الوحـدة اللبنانيـة» الذي تـرأسه تـوفيق لطف الله وأخذت عليه الكتائب المبالغةَ في مُحـاباةِ إميـل إده، وحزب «الجبهـة القوميـة» الـذي ترأسـه يوسف السـودا وكان بين مؤسِّسيـه، فضلاً عن آخـرين، الشيـخ يـوسف الجميّل، لينضم في ١٩٤٤ إلى الكتائب ويذوب فيه[١].

لكن الشَّبَهَ بين الكتائب وزمنها، معطوفاً على قُدْرَتِهَا على الإستمرار، لم ينجحـا في انْ يؤمِّنا لها تمثيلاً حكومياً حتى تشكيل «الحكومة الرباعية» في ١٤ تشرين الأول ١٩٥٨. قبل ذلك كان قد عُيِّنَ كتائبيان وزيرين، فجيء بجان سكـاف عضواً في الحكـومة المـوقَّتة التي اشرفت على انتخابات ١٩٥٣ العامة، وتولّى جـوزيف شادر وزارةَ المـال في حكومـة سامي الصلح في آذار ١٩٥٨ والتي لم تَعِشْ طويلاً لأنَّها شكَّلت يومذاك «محاولـةً يائسـةً قـام بها نظـامُ شمعون المنهـار»[٢]. وبهذا المعنى كـان توزيـرُ سكاف ذا مَـرَدٍّ شخصيٍّ خصوصاً أنَّ العادة جرت على اختيار وزراءٍ «حياديين» للحكومات التي تُجري الانتخابـاتِ العامّةَ، بينما جاء توزير شادر تعبيراً عن حالة نزاعٍ اهلي عَكَسَتْهَا حكـومةٌ لم يعتـرفْ بها قِطَاعٌ واسع من البلاد، ولم تُعَمِّرْ بالتالي.

(١) انظـر: **تاريـخ حزب الكتـائب اللبنانيـة**، دار العمل للنشـر، ج ١، ص ٥٢ ـ ٥٦. ويشير العـدد الخاص من العمل الصادر في ١٩٨٦/١١/٢٣ والمعنون «خمسون سنـة في خدمـة لبنان» ص ١٠٢، إلى ان مؤلف هـذا الكتاب هو جان شرف.

(٢) John.P.Entelis, *Pluralism and party transformation in lebanon. AL KATA'IB 1936-1970,* Leiden, E.J. Brill, 1974, p. 148 n.

امّا في ١٩٥٨، فلم يكن بلا دلالة أنَّ «ثورةً مضادةً»، من ضمن حدودِ الشّرعية، غير المُسْتَقِرَّةِ حتّى ذلك الحين، هي التي ساقت الحزبَ إلى التمثيل الحكومي، علماً أنَّ الرئيسَ شهاب لم يَبْدُ مضطراً إلى اعتماد الكتائب «غطاءً مارونياً» لحُكْمِهِ، حيث أنَّ علاقتَهُ لم تكن قد تدهورت، بعد، بريمون إدّه وسليمان فرنجية[٣] والبطريرك المعوشي.

فاللجوء إلى «ثورة مضادة» أظهر حاجةَ الحزب إلى تَجَشُّمِ عملٍ غير مألوفٍ ولا استمراري، بأيّ معنى دستوري، من أجل دخولِ الحياةِ السياسية من بابها العريض. أيْ أنّه دلَّ على أنَّ أخذَ الكتائب في حسابات السياسات العليا لم يُصبح أمراً بديهياً وتلقائياً، برغم القفزةِ الضخمةِ التي حَقَّقَتْهَا لها مشاركتُها في حرب ١٩٥٨ الأهليَّة ـ الاقليميَّة.

وبمعزل عن الروايات التآمرية، التي ربّما احتوت قدراً من الصحة، حول دور شهاب في دَفْعِ الكتائب إلى الثورة المضادة، فما يُمكنُ قولُه، بناءً على التجربة اللاحقة، إنّه كان يرتاحُ إلى التعاملِ مع الحزب المذكور قياساً بالسياسيين الموارنة. ويبقى من اللافت إسراعُهُ، وهو العسكريُّ الذي يحملُ «حلّاً قوياً» ودعماً إقليمياً ودولياً من خارج القوى المتصارعة ومن فوقها، إلى تَلَقُّفِ الثورةِ المضادة التي كانت ذريعتُها المباشَرَةُ اغتيالَ الصحافي الكتائبي فؤاد حداد (أبو الحِنّ).

ابعدُ من ذلك ما نمَّت عنه «الثورة المضادة» من استعدادٍ كتائبيٍّ لسلوكِ المسلكِ غير الدستوري، لا حين تضعفُ الدولةُ فحسب كما في ١٩٧٥ بل حين تقوى أيضاً كما في حالةِ الصعود الشهابيِّ في بداياته، وهي مسألةٌ تعودُ بنا من جديد إلى مصاعب بناء دولةٍ دستورية في «العالم الثالث» العاصفِ بالإيديولوجيات الثورية والتحريرية والدُّمْجِيَّةِ. ذلك أنَّ انعكاسَ هذه التحديات الخارجيةِ على بلد مُنْقَسِمٍ اهلياً وفاقدٍ اصلاً لتقليدِ الدولة، يتجاوزُ المؤسَّسةَ الأخيرة، ضَعْفاً او قوَّة، إلى سائر التنظيمات الشعبية والأهلية.

لقد بدأت نظريةُ الإستبدال الكتائبي، أو بالأحرى الإستبدال بالكتائب، كتعبير صريح عن بعض أوجه التشابه بين الشهابية والكتائبية، وإنْ كان الكلامُ هنا سيقتصرُ على الشروط والمناخات التي تمَّ في ظلِّها اكتشافُ هذه الأوجه وتفعيلُها.

(٣) في الحكومتين الشهابيتين اللتين شكلهما صائب سلام، عُيّن سليمان فرنجية وزيراً للبرق والبريد والهاتف، وذلك ما بين أول آب ١٩٦٠ و٣١ تشرين الاول ١٩٦١. لكن رينيه معوض ما لبث أنْ احتل الوزارة نفسها في حكومة رشيد كرامي التي دامت ما بين ٣١ تشرين الأول ١٩٦١ و٢٠ شباط ١٩٦٤. وتبعاً للتوازنات الدقيقة التي حكمت عهد شارل حلو، أُبعد الإثنان عن حكومات العهد إلى ان شُكِّلت حكومة عبدالله اليافي الشهيرة في ٨ شباط ١٩٦٨ لتشرف على الانتخابات التي كُسِرَت بنتيجتها شوكة «المكتب الثاني» وكان فرنجية وزير داخلية هذه الحكومة، فلعب دوراً بارزاً في كسر الشركة.
اهم من ذلك، الخدمات التي اتاحها العهد الشهابي لمعوض الذي انشأ مكتباً خاصاً به لطالبي العمل في القطاع العام كما انفتحت أبواب كازينو لبنان أمام من يريد توظيفهم من ابناء عائلته والزغرتاويين المحيطين به وبها. انظر: حازم صاغية: **موارنة من لبنان**، سبق الاستشهاد، ص ٩٥.

فـالكتائبُ في تصـدّيها لِأنْ تُشَكِّلَ «الغطـاء المـاروني» لم تسلـك خطَّ «المؤامـرة» بالمعنى البسيط والآحادي للكلمة، بل إنَّ الـوُجهةَ الإستبـدالية لم تكن سلطـويةً بحتـة إذْ ربطتْهَا بالصلب الاجتماعي نفسِه وشـائجُ متعـددةٌ ومتفاوتـةٌ كان من تَجَلِّيَـاتِهَا ونتـائجها امتدادُ الكتائب نحوَ الأطراف.

ففي أحَدِ جوانبه نَجَمَ هذا الامتدادُ عن جاهزيةِ الحزب الموالي للشهـابية لمـواكبة نتائج التطورات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية. فقد آلت الشهـابيةُ إلى إحـداثِ درجةٍ ارفع من توحيد السوق وتوسيعِها وربطِ أطـرافها بـالمركـز الذي سهـرت الشمعونيـةُ على إنمائه، فراحَ مع العهد الجديد يُزَوِّدُهـا بالمـدارس والطرقـات وشبكات المـاء والكهربـاء، فضلاً عن المخافر طبعاً. وفي موازاةِ هذه الدرجة من التوحيدِ المـادي تَحَصَّلَتْ درجةٌ من التَّوحيد الثقافي التي تَعَدَّتْ بعض الكتب المدرسية إلى الصحف، وبالأخَصِّ منها صحيفة «النهار» التي أضحت لسانَ المعارضة من الشمال إلى الجنوب. ومن دون أنْ تَخْفَى آثـارُ التوحيد على العادات والمآكل، فإنَّها طالت الأغنيةَ والفولكلـور حتى بَدَا الأخَـوَان رحباني وفيروز، مثلاً، وكأنهم «على موعدٍ مع الإنطلاقة الشهـابية». ولم يَفُتْ أحـدَ دارسي الأغنية اللبنـانية الـربطُ بين «ازدهار نشـاط الرحـابنة ـ فيـروز» وبين «تَوَسُّـع فعاليـة مؤسَّساتٍ إعلاميةٍ (الإذاعة، التلفزيـون) وأخرى سيـاحيةٍ وفنيـةٍ (مغارة جعيتـا، مهرجـانات بعلبـك الدولية) وثالثةٍ عسكرية ـ سياسية (الجيش)»[٤].

في هذه الحدود لم يقتصر الإستبدال الكتائبيُّ على التزايدِ العددي لمُمَثِّلي الكتائب في الندوة النيابيةِ منذ ١٩٦٠ فصاعداً، ولا على وضعِ الكثير من «الوزارات التنمَوِيَّة» في عُهْدَتِهِم، إذْ طالَ أساساً امتـدادَ التمثيلِ الكتـائبي من الحيِّز الضيق البيـروتي ـ الجبلي إلى بعض المناطق الريفية وشبه الريفية في الأطراف.

على أيَّةِ حال، فـ «الثـورةُ المضادة» جعلت الأمـورَ أسرعَ انعكـاساً على الصعيـد السلطـوي بقدر مـا مهَّدت لكثيـر من التَّحُّولات الإيجـابية لمصلحـة الكتـائب وانتشـاره. فالحكومةُ الرباعية التي كانت ثانيةَ حكومات العهد الشهابي أناطت بـالشيخ بيـار الجميل، مؤسِّسِ حزب الكتائب ورئيسِهِ الأعلى، تمثيلَ نصفِ المـوارنة، وتـالياً نصفَ المسيحيين، لاقتصـار التشكيلـة على مسلمين سُنِّيَّيْن (رشيـد كـرامي وحسين العـويني) ومسيحيين مارونيين (ريمون إدّه وبيـار الجميل). وقـد عُهِدَ إلى القيـادي الكتائبي بـوزارات الأشغال العامَّة والتربية الوطنية والصحة العامَّة والزراعة، أي مُعْظَمِ الحقائب التي تضطلـعُ بتلبيةِ الخدمات من جِهَةٍ، وبالتأثيرِ في الصُّلْب الاجتمـاعي، بوَجْهَيْـهِ المادي والثقـافي، من جهةٍ أخرى.

(٤) محمد ابي سمرا، ظاهرة الاخوين رحباني ـ فيروز، رسالة اعدت لإنجـاز شهادة ديبلـوم علوم اجتمـاعية في علم الاجتماع الثقافي، الجامعة اللبنانية، معهد العلوم الاجتماعية، الفرع الأول ١٩٨٥، ص ١٧ و١٨.

ولا تكتملُ صورة «الثورة المضادة» التي جاءت الحكومةُ الرباعية لتستجيبَ لها، من دون ملاحظةِ مسألتين يصعبُ التقليل من أهمِّيّتِهما:

الأولى، أنَّ الإتيان ببيار الجميل ليكونَ «متراسَ المسيحيين» في مقابل رشيد كرامي «متراس المسلمين»، بحسب تسمية ريمون إدّه الشهيرة، أحَلَّ قَفَا الميثاق الوطني مَحَلَّ وَجْهِهِ. إذْ بعدَ أنْ كان «المعتدلُ» المسيحيُّ المارونيُّ (بشارة الخوري) و«المعتدلُ» المسلمُ السنيُّ (رياض الصلح) رَمْزَيْ العلاقة التوافقية، بات «مُتَطَرِّفا» المسيحيين والمسلمين رَمْزَيْ التوافق الشهابي في زمن الصعود الناصري ـ السوفياتي في المنطقة، الأمر الذي اتَّخَذَ لاحقاً كاملَ أبعاده في الثنائية الكتائبية ـ الجنبلاطية من دون أنْ يكتُمَ هذا التركيبُ السلبيُّ احتمالاتِ «انفجاريةٍ مُلِحَّةٍ» بدأت تَتَحَقَّقُ في ١٩٧٥.

الثانية، طبيعةِ التَّمثيل المسيحي في الحكومة التي قامت «الثورة المضادة» لاستبدالِها. فَمَسيحِيّو الحكومةِ المذكورة شملوا الـوَجْهَيْن التقليديين فيليب تقلا وشارل حلو، وكان ثانيهما أحدَ المشاركين في تأسيس حزب الكتائب إبّان بداياته الأولى، ويوسف السودا، أحد مُنَظِّري الرواية التاريخية للمارونية اللبنانية، وفريد طراد. أي، بِحَسْب وضّاح شرارة، «مُمَثِّلَيْن عن الدستورية» التاريخية وعن المارونية «المعنويّة». ويوضِحُ الكاتب معنى الأخيرة المنسوجَ على منوال «الصهيونيّة المعنويّة»، فـإذا هي «تلك التي لم تندمج في مؤسساتٍ سياسيةٍ مناضلةٍ ولا تملك جذوراً محليّةً مُتَأَصِّلَةً، بل شاركت في بلورَةِ المنحى العامِّ الفكري والشعوري للمارونية»[٥].

استمرَّ المنحى نفسُه مع الحكومة الشهابية الرابعةِ التي شكَّلَها صائب سلام في أول آب ١٩٦٠، وهي الأولى بعد الانتخاباتِ العامَّةِ التي أجراها العهدُ الجديدُ، فَمُثِّلَت الكتائبُ بوزيرين من أصل أربعة وزراء للموارنة، إذ أُمْسِكَ بيار الجميل بمقاليد وزارة المال بينما جُعِلَ موريس الجميل وزيراً تُحَدَّدَ اختصاصاتُه بمرسومٍ لاحق. وفي الحكومة الشهابية الخامسة التي شكَّلَها أيضاً سلام في ٢١ أيار ١٩٦١ ولَم تَضُم سوى ثمانية وزراء إثنان منهم مارونيان، تولّى بيار الجميل وزارَتَيْ المال والصِّحَّة العامَّة، ليُعَيَّنَ في الحكومةِ التاليةِ التي شكَّلها رشيد كرامي في ٣١ تشرين الأول من العام نفسِه، وزيرَ دولةٍ مُكَلَّفاً مهامَ وزارة الأشغال العامَّةِ والنقلِ والمعاونة بالدراسات الرامية إلى تنظيم الشؤونِ المالية العامة. وكان لهذه الحكومة، التي أجْلَتْ صائب سلام عن الحُكْم إلى ما بعد انهيار الشهابية، أنْ استمرّت حتى ٢٠ شباط ١٩٦٤، لِتُعَدَّ أطولَ الحكومات اللبنانية عُمراً حتى العام ١٩٨٤.

وفي موازاةِ استمرارِ النفوذ الشهابي استمراراً فعلياً في السنوات الأربع الأولى

(٥) وضاح شرارة، السلم الأهلي البارد، سبق الاستشهاد، ج ١، ص ٣٢ هـ.

من عهد شارل حلو، تولّى الجميل وزارة الداخليـة في حكومـة عبدالله اليافي التي شُكّلت في ٩ نيسان ١٩٦٦، عِلْماً انَّ الظروفَ السياسيةَ التي احاطت بتصفيـةِ الشهابيـة والدورَ الكتائبي في هذه التصفية، فَتَحَا لاحقاً مزيداً من الابواب امامَ المارد الـذي اخرجـه فؤاد شهاب من القمقم.

وإذا ما تَذَكَّرْنَا انَّ الـزعامـةَ المسيحية، والمـارونيةَ الجبليـةَ الاحدثَ عهـداً بنوع خـاص، لم تَعُدْ تـرتكزُ إلى المـوقع «الارستقـراطي» تَبَعاً لتسميـة إيليا حـريق[٦] ولا إلى ملكيّـاتِ الارضِ الكبيرةِ تـالياً، فَهِمْنَـا كيفَ انَّ «الحُكْمَ، بخلافِ مـا حَصَلَ ويحصُـلُ في الطَّرف الإسلاميِّ، هو الذي يُتيـحُ للقياداتِ المسيحيَّـةِ انْ تُشَكِّلَ او انْ تُؤَلِّفَ «سُـلالاتٍ، وعائلاتٍ تتوارثُ النفوذَ والحُكْمَ»[٧] تَبَعاً لتعبيره عما يَمُورُ به الصُّلْبُ الإجتماعيُّ. وهكذا لم تتلكأ الكتائبُ في تثبيتِ نفوذِها والتمهيـد لانتشار جغـرافيٍّ نحوَ مسيحيي الاطـراف، في استعمالِ الخدمات والمنافعِ التي يُتيحُها الحُكْمُ ووزاراتُهُ[٨]، علماً انَّها كانت تُضْطَـرُّ بين الفينةِ والاخرى إلى التَّدَخُّلِ لضبطِ هذا الإنتشار.

لكن ماذا عن التَّحَوُّل الذي بدأ يتعرضُ له حزبُ الكتائب نفسُـهُ من طريقِ الامتـدادِ إلى هذا الجمهورِ الجديد، والذي مَثَّل العام ١٩٥٨ مُنْطَلَقَهُ؟

الرعيل الأول

شكَّـلَ كتائبيـو الرعيـلِ الاوَّلِ مِمَّنْ احاطـوا بالشيـخ بيار الجميـل في الثلاثينـات والاربعينـات، وَسَطاً مُتَعَلِّمـاً شبه مـدينيٍّ، اكانَ ذلـك في بيروت او في حـاضراتِ الجبـل المزدهرةِ المحيطةِ بالعاصمة، ايْ في تلـكَ الرقعـةِ المُمْتَدَّةِ من بيـروت إلى ما بعـد بكفيا في الشمال الشرقي، ومنها نحوَ بعبدا وعاليه وبحمدون في الجنـوب الشرقي، فضـلاً عن الخطِّ الساحليِّ الممتدِّ من جونيه، ومنها إلى الداخل الكسرواني غيرِ المُوغِلِ في جُرْدِيَّتِهِ، حتّى جنوبِ بيروت[٩]. واستطـاعَ التقدُّمُ الإقتصـاديُّ والتعليميُّ ان يُوجِـدَ بُقَعاً لـه خارجَ

(٦) راجع الفصل الاول.

(٧) وضّاح شرارة، **السلم الاهلي البارد**، سبق الاستشهاد، ج ١، ص ٥٢.

(٨) لا يخالف ذلك ما لاحظه باحث عربي، بما يصح انْ يكون شهادة لمصلحـة الإدارة اللبنانيـة برغم كـل الطعون التي تعرضت لها، من انه برغم انَّ الكتائب «شغلت معظم الوزارات التنمـوية بـالتتابـع، فإنّـه بمجرد ان يُجلى الحـزب عن هذه الـوزارات حتى يصبح من الصعب تـوقع استمـرار نفوذه الإداري». Frank Stoakes, «The supervigilantes — The lebanese Kataeb party as a builder, surrogate, and defender of the state», in: *Middle Eastern Studies*, october. 1975.

(٩) انظر في بعض الاصول «البورجوازيـة» لهذه المنطقـة: سليم نصر وكلـود دوبار (تعـريب جورج ابي صـالح)، **الطبقـات الاجتماعيـة في لبنان، مقـاربة سـوسيولـوجية تطبيقيـة**، مؤسسة الابحـاث العـربيـة، ١٩٨٢، ص ٦٧ ـ ٦٨.

هذه الرقعةِ: في الشمال الشرقيِّ كدير القمر، وفي زحلة شرقاً، وفي جزّين ومشغرة إلى الجنوب الشرقي، إلّا أنَّ هذه البُقَع بقيت بُؤَراً مَوْضِعِيَّةً في وسطها ومحيطِها[١٠]. فهذه الرقعةُ هي مساحةُ «الطائفةِ» كدلالةٍ اجتماعيةٍ ـ اقتصاديةٍ، بالقياس إلى شمالها وجنوبها الاوغلِ في العلاقات العشائرية، حيث لم ينضمَّ الأوّلُ إلى إمارة الجبل إلّا في القرن الثامن عشر وبهذا غايره في المقدّماتِ التي أفْضَتْ إلى راسماليته وحداثتِهِ، فيما الثاني (الجنوب) لم تَتَنَصَّر زعامتُهُ الشهابيةُ إلّا في الجزءِ الأخيرِ من ذاك القرن، بما عَنَاهُ التَّنَصُّر يومذاك من خيارٍ يفيض عن الضفاف الدينية والمذهبية[١١].

وحتى العام ١٩٥٨، تاريخِ توسُّعِ الحزب شعبياً ووطنياً بِفِعْلِ مساهمته في «الثورة» و«الثورة المضادة»، استمرَّ نموُّهُ محكوماً بالوُجْهَةِ الغالبةِ لحركةِ التَّقَدُّمِ اللبناني انطلاقاً من اقتصادٍ تغلبُ عليه الخدماتُ. وهكذا ضمَّ إلى قاعدةٍ بورجوازيةٍ صغيرةٍ غيرِ بعيدةٍ عن مصادرِ الإزدهار المُتَعَاظِمِ آنذاك، قيادةً بورجوازيةً أعلى كعباً من دون أنْ تندرجَ في الطاقم السياسي الحاكم.

فالنخبةُ القيادية ـ الكتائبية لِطَوْرِ ما قبلَ الإمتداد، هي النخبةُ التي وَضَعَهَا طابعُها المدينيُّ وشبه المديني على جوارِ المرافقِ والمؤسّساتِ والعلاقاتِ الوازنَةِ والمُؤَثِّرةِ في الحياةِ العامة.

صحيحٌ أنَّ المجالَ السياسي الضَّيِّقَ نسبياً آنذاك، لم يكن بابُه مُشْرَعاً بالكامل أمام أفرادِها الحزبيين، ممن كانوا هم ايضاً، وكما سنرى لاحقاً، مُتَرَدِّدِينَ في ولوج هذا البابِ، لكنَّ المواصفاتِ الاجتماعيَّةَ والتعليميَّةَ لهؤلاء الافراد جعلتهم رجالاتِ صفٍّ ثانٍ مُحتمَلين أو مُرَشَّحين للإنتقال إلى الصدارةِ، في حالِ تحقيق أيِّ تحديثٍ سياسي للنظام.

بهذا المعنى بدا مثلُ هؤلاء مُستفيدين تلقائياً من أيِّ تقدُّم تُصيبُهُ الحياةُ السياسيةُ، في استقبالِها لعملِ المؤسَّسات واستيعابها لقوى صاعدةٍ شابَّةٍ ومتعلمة. واستطراداً يُمكنُ القولُ إنَّ هذه الخلفيَّةَ الاجتماعيةَ للكتائبيين عَزَّزَتِ الفكرةَ الكتائبيةَ الأصليّةَ حول العملِ من داخلِ النظامِ تعزيزَهَا فكرةَ استبعادِ العملِ الانقلابيِّ.

يُمكننا الإستدلالُ على البيئة المدينية للكتائبِ عند العودة إلى تأسيسها في ٢١ تشرين الثاني ١٩٣٦. ففي محاولةٍ من بيار الجميل للحدِّ من آثار الصراعِ الكتلويِّ ـ الدستوري على الحزب الوليد، تَشَكَّلَت «إدارةٌ خُماسيَّةٌ» ضمَّت بعضَ ألْمَعِ شُبَّان التَّيَّارَيْن المذكورين (جورج نقّاش، شارل حلو، شفيق ناصيف، إميل يارد، فضلاً عن الجميل) مِمَّنْ كانوا جميعاً ابناءَ البيئةِ البيروتية الجبليّةِ إيَّاها. ولئن لم تستمرّ هذه الإدارة غيرَ أشهر،

(١٠) انظر، بين مراجع اخرى، المرجع السابق، ص ٣٨ ـ ٤٥.
(١١) Albert Hourani, *The emergence...*, *op.cit.*, p. 174.

مُبَايعَةً، في ٢٩ نيسان ١٩٣٧، بيار الجميل «رئيساً أعلى»، فإن تركيبَ الحزب ظلَّ يُؤَكِّدُ على اختلافٍ واضحٍ يُمَيِّزُ نخبَتَهُ عن مثيلتها في «الحزب السوري القومي الإجتماعي» الذي نشأ قبلَهُ بأربع سنوات واعتُبِرَ خصماً له ونقيضاً. فالأخيرةُ غَلَبَ عليها الطابعُ الريفي والتعليمُ المحلي الذي اضعفَ صِلَةَ معظمِ افرادِها باللغة الأجنبيِّة، كما غَلَبَ عليها الإنتاجُ الصغيرُ أو الهامشيُّ، إلى الحدِّ الذي جعل زعيمَهَا انطون سعادة يُعَيِّرُ البيئة التي نما فيها الكتائب بـ «الدعاوةِ» المصنوعة في فرنسا «التي تُنْشَرُ غالباً باللغة الفرنسية في الصُحُفِ والكتبِ اللبنانية الأرستقراطية»[١٢].

كذلك يُمْكِنُنَا الإستدلالُ على الطابعِ المديني للكتائب في النجاحات المبكرةِ التي احرزها الكتائبيُّ جوزيف شادر في الوصولِ إلى البرلمانِ عن مدينة بيروت تحديداً. فشادر، الأرمنيُّ الكاثوليكيُّ المتأثِّرُ بليبراليةِ ميشال شيحا والذي أضحى نائباً في ١٩٥٣ للمرة الأولى، وُلد في بيروت في ١٩٠٧[١٣]، ودرس في الفرير والجامعة اليسوعية حيث نالَ إجازةَ الحقوق من اليسوعية، وطانيوس سابا الذي وُلد في مدينة عاليه في ١٩٠٨، درس في الفرير وعَمِلَ في التِّجارة حيث أصبح من كبار مستوردي الأدوية الحديدية ورئيساً لشركة سونابور وعضواً في جمعية تُجَّار بيروت، وراشد الخوري ابن مغدوشة الذي وُلد في مدينة صيدا في ١٩٠٧، درس في اليسوعية وتَخَصَّصَ في الطبِّ الجراحيِّ، وعبده صعب الذي وُلِدَ في حمَّانا في ١٩١٣، تزوَّجَ من رينيه جورج حيمري، وكان قد درس في الفرير ثم تَخَصَّصَ في العلوم المصرفية والإقتصادية حيث حصل على ديبلوم في التجارة. وقد تولّى صعب إدارةَ «بنك سوريا ولبنان» ونيابةَ رئاسة مجلس إدارة «شركة مواقف بيروت» وعضويَّةَ مجلس إدارة شركة «كونتري كومباني» كما شاركَ صالحة وصمدي بعض اعمالِهما. أمَّا إلياس ربابي الذي قَدِمَ من قرية جديتا المُخْتَلَطَةِ في ريف زحلة، فدرس بدوره في الجامعة اليسوعية في بيروت، ثم عَمِلَ موظَّفاً في المكتبة الشرقية للآباء اليسوعيين، ومن ثم مُدَرِّساً لِلُغاتٍ في مدرسة حلب للروم الكاثوليك ومن بعدها في الجامعة اليسوعية. ومنذ ١٩٥٨ عَمِلَ ربابي في السِّلك الديبلوماسي فَمَثَّلَ لبنان بصفته سفيراً في بلدان عِدَّة. امَّا لويس أبو شرف وهو من حمَّانا، (أو بحسب رواية أخرى من معلّقة زحلة)، فَدَرَس في الحكمة وعَمِلَ في تدريس الأدب العربي في القسم الفرنسي للجامعة الاميركية وفي اليسوعية وغيرها من المدارس والكليّات الإرسالية، وقد اقترنت كريمتُه بنجلِ نائب مرجعيون اللاحق رائف سمارة. ومن جزين انتقلَ بازيل عبّود إلى الجامعة اليسوعية حيث درس الطب، فيما درس انطوان جزّار، نجل التاجر مارون جزّار،

(١٢) سعادة، اعداء العرب اعداء لبنان، (طبعة حزبية لم يحدد تاريخها ولا دار نشرها، بل اكتفي بتوقيع «لجنة النشر» في آخر مقدمتها)، ص ١٢١.

(١٣) المعلومات الواردة عن سير أفراد الرعيل الكتائبي الأول من ارشيف جريدة السفير والـ *Who's who in Lebanon?*

الذي وُلد في طرابلس في ١٩٢١، الحقوقَ في اليسـوعية واصبـحَ محاميـاً لبلديّـةِ بيروت وعضواً في نقابة مُحامِيِّهـا. وفي بكفيا وُلِـدَ جورج عميـره الذي دَرَسَ في مـدرسة الآبـاء اليسوعيين في بلدته واقترنَ بمي طانيوس سـابا كمـا اصبح نـائباً لـرئيس مجلس إدارة «بنك أدكوم».

على الصَّعيدِ القاعِـدِيِّ، شَرَعَتِ الكتـائب تغرفُ من نتـائجِ التَّحـوُّلاتِ الإقتصاديّـةِ والماليّةِ التي حَضَنَتْها مدينة بيروت في العشرينات، مـع نشأةِ لبنـان الكبير، والتي راحت تتعاظَمُ في صورةٍ متواصلةٍ على مـدى العقودِ الأربعـةِ التاليـة. فالمـدينةُ التي كـان بيار الجميل، في ١٩٢٩، يعملُ في إحدى صيدليّاتها ذاتِ الملكيّـةِ العائليـة، حوت آنـذاك ٦٢ فندقاً و٣٢ مطعماً و٢٦ مقهى و١٠ وكالاتِ سفرٍ و١١ مخزنـاً سياحيـاً و٧ وكالاتٍ إعـلانية و٤٥ شركةَ تأمين و٥٢ مصرفاً و٤٣ مركزاً للاعْتماد وتبديلِ العملات و٢٧ مطبعةً صحافية و١٠ سينماتٍ، كما عاش فيها ١١١ محامياً و٢١ مضارباً عقارياً و٢٣٩ طبيباً و٥٧ مهندساً معمارياً و٣٢٤ مفاوضاً صناعياً و١٩٤ مفاوضَ عمولاتٍ[١٤]. اي أنَّ الفترةَ التي سبقت نُمُوَّ الكتائبِ سجَّلت تَوَسُّعـاً نسبياً للبـورجوازيـة الصغرى الحـديثةِ بمـوظّفيها ومُسْتَخْـدَمِيها وكَتَبَتِهـا وإداريِّيها ومُحَـاسِبيها وبعضِ أصحـابِ مِهَنِهَـا الحُـرَّةِ، فيمـا كـانت التطـوراتُ الاقتصاديَّةُ إيّاها تؤولُ إلى ضمورٍ تدريجيٍّ مديدٍ للبورجوازيـة الصغرى القـديمةِ بصغـارِ مُزارعيها وصغارِ تُجّارها وحِرَفِيِّيهاً. وشيئاً فشيئاً راحَ تَوَسُّعُ التعليمِ وتَوَسُّعُ اجهزةِ الدولةِ الناشئةِ، بعد الانتدابِ كما بعد الإستقـلال، يصُبّانِ في هـذه الوُجهـة، الأمرُ الـذي ترتبت عليه نتائج عدّة:

• فقـد تجاوزت الكتـائبُ التنظيماتِ المسيحيَّـةَ العديـدَة ذاتَ الطابـعِ الحِرَفِيِّ والتي تأسَّسَ الكثيرُ منها في المَهَاجِرِ مع بداياتِ القرنِ اي خارجَ أيَّةِ دورةِ حياةٍ مَعْيُوشَةٍ، ذلـك أنَّ انتسابَ الكتائب للبـورجوازيـةِ الصغرى الحـديثةِ جعلهـا، مِثْلَهَا، «لا تعيشُ في عـالمِ الترابِ والأشجارِ واللحمِ والخضارِ والنّعلِ والجلدِ والشحمِ والحديدِ. إنّها تعيشُ في عالم قِوَامُهُ الحبرُ والورقُ»[١٥]. كما تجاوزت الكتائبُ للسُّبَبِ نفسِه تنظيمـاتٍ إسلاميـةً مشابهـةً شـاطرتهـا الأربعينات وبعض الخمسينـات، لكنّها عـاشت دائماً ضعيفـةً ضَعْفَ القطـاعِ الإقتصادي والتعليمي الأكثرِ ركوداً الذي نهضت لِتَمْثِيلِهِ ومحاكاتِهِ.

بَيْـدَ انَّ ما سَبَقَ لا يَفُـكُّ اللغزَ الكتـائبيَّ بأكملِـه، خصوصـاً حين نتذكَّـر انَّ المُدُنَ العربيّةَ بما فيها بيـروت لا تتغلَّبُ على أحيائهـا وحاراتهـا، أي على ما هـو ريف و«ارض» فيها.

(١٤) Marwan Buheiry, *Beirut's role...*, *op. cit.*, p. 10.

(١٥) احمد بيضون، ما علمتم وذقتم، سبق الاستشهاد، ص ٩٩.

فأسطورةُ «الأرض» الآخذةُ بِخِنَاقِ المسيحيين الجبليين، لا تندَحِرُ تماماً أمامَ «عالمِ الحبرِ والورق» إلّا بعد انقضاءِ سنـواتٍ مديـدةٍ من الاستقرار الـذي يطرُدُ الخـوفَ الأقَلّيَّ ويتركُ الأساطيرَ ترتـاحُ فضلاً عن الإزدهـار الذي يعمـلُ تدريجـاً على إحلال الاعتبـارات الإقتصاديّة والمِهَنيَّة في موقع الصدارة.

بهذا المعنى لم ينطوِ الطابعُ المدينيُّ الذي أُشير إليه، على قطيعـةٍ كاملـةٍ مع ريفـه اللصيقِ به جغرافياً، الشيء الذي نجده عند مَدِينِيٍّ كميشال شيحا أعلى كعباً من الكتائبِ في التَّمدين البورجـوازي وأضعفِ منها صلـةً بعالم الـريف. فإذا كـان شيحا ذو الأصـلِ العراقي والمنظِّرُ الأبرزُ للراسماليةِ اللبنانيةِ الحديثةِ، قد نَدَّدَ بما اعتبرَهُ إفسادَ الجبل، وهو ما دفع أحمد بيضون إلى أنْ يستخلصَ من نصوصه «صورةً مُرَكَّبَةً عن عقل التاجر وطبع الجبليّ»(١٦)، جازت للكتائبِ دعواتُها شِبْهُ القوميّةِ واهتماماتُها شِبْـهُ العسكريّـةِ وتعويلُهـا على النَّزْعَتَيْن العائليةِ والأخلاقيةِ، مِمّا تحتويه رواسبُ الفكر الريفي.

واقعُ الأمر أنَّ المصدرَ الريفيَّ البعيدَ، والذي ربّمـا شَكَّلَ قـاسماً مشتـركاً لـلإنتاج السياسي - الفكري عند مسيحيي لبنان، هـو المسؤولُ في حالـةِ الكتائب عن التَّصَـوُّراتِ البسيطةِ وشبهِ الصوفية التي رافقتهـا، بحيث ظلَّت الكتائبُ مـوضوعَ تجـاذب بين عنصر مدينيٍّ مُلِحٍّ وآخرَ ريفيٍّ متفاوتِ الإلحاح، حتى أنَّ العنصرين كثيراً ما تَدَاخلاَ وتشابكا في الظاهرةِ الواحدة. وأخطرُ ما آلت إليه تلك التَّصَوُّراتُ امتناعُ إمكانيّةِ النظـرِ إلى السياسـةِ بصفتِها المستقلّةِ عن الأخلاق، مع ما يُفضي إليه ذلك من استنكافٍ أخلاقيٍّ عن السياسةِ وإحالةِ الأخيرةِ إلى الدولةِ «الحاميةِ» للأقَلِّيَّةِ الخائفة.

فَعَمَلُ الكتائبِ، بحسب الخرافةِ الإيديولـوجيّةِ الاولى، يتحقُّقُ في المجتمـعِ، ويكونُ «في خدمة لبنان» بما يُزيحُ عن «الخدمةِ» تجريدَهَا السياسيَّ المتـروكَ للدولـة، كما يُـزيحُ مردوداتِها العـامَّةَ التي لا تظهـرُ نتائجُهـا إلَّا على المدى البعيـد. فالكتـائبُ في سنواتهـا الاولى «وَزَّعَتِ الطحينَ على الفقيـر. كانت أبـا الفقير. حملت الثَّلـجَ على اكتـافهـا لبيعـه بأسعارٍ أدنى من المعمل عندما لم يَسْتَطِعْ الشعبُ أنْ يَتَحَمَّـلَ غلاءَ سعـرِ الثَّلجِ. وعنـدما ضربتْ لبنان موجةُ التيفوئيد تحوَّلَتِ الكتائبُ مُمَـرِّضَـةً حملت الإبـرةَ ودارت لتطعيم الناس ضـدَّ هـذا المـرض». ويمضي الكتـائبيُّ المتحمسُ والمُثَبِّتُ عنـد مجتمـعٍ بسيطٍ وأَوَّلِيِّ الخدمات: «كان الشبابُ يدورون على المنازل ليجلبـوا التبرعـاتِ مِنْ سمن وطحين وحليب وعدس وحمص وفول وحنطة وحلويات وصابون، ثم قبل الميلاد بيومين نجمَعُ هذه الأشياء ونُوَزِّعُها على الفُقَرَاء»(١٧).

(١٦) احمد بيضون، الصراع على تاريخ لبنان، او الهوية والزمن في اعمال مؤرخينا المعاصرين، منشورات الجامعة اللبنانية، قسم الدراسات الفلسفية والاجتماعية، بيروت ١٩٨٩، ص ٩٨ و٩٨ هـ.

(١٧) انظر العدد الخـاص من العمل الصـادر في ١٩٨٦/١١/٢٣ بعنوان «خمسـون سنة في خـدمة لبنـان» وفيه

والواقعُ أنَّ سائر النشاطاتِ على تَعَـدُّدِهَا، امْكَنَ في العُـرْفِ الكتائبي إدراجُهَـا في خانةِ «الخدمة»، إذْ «قَضَت الظروفُ في الماضي انْ نخـدمَ اجتماعيـاً ففعلنا، ولمّـا قضَتْ الظروفُ بعد ١٩٥٨ انْ نخدمَ سياسياً دخلَ الشيخ بيار الجميـل المجلس النيابي...»(١٨). وباستثناءِ وجهِ العنفِ (الذي طـرا على «الخدمـة» منذ ١٩٧٥) يُقَـدِّمُ الكتائبيـون وَجْهَهُم الخدماتي الجامعَ إلى دَوْرَي التطبيب والتمريض، دَوْرَيْ البنوّة المتلهفةِ إلى خدمـة الأهل والأبوَّةِ المُحْسِنَةِ إلى الأبناء. اي، ذاك الوجه المضاد لِمَا هو شائعٌ شعبياً عن «الزعـامات التقليدية» بوصفها طُفَيْلِيَّةً تأخذُ كلَّ شيء من دون انْ تُعطي شيئاً، فيما «البديلُ» الكتائبي يخدمُ جماعَتَه ويُكَمِّلُ الدولةَ في الوقت عينه، من دون انْ يُخِلَّ بمبدأ إحالةِ السياسة إليهـا كما تدلُّ موالاةُ الكتائبِ الـدائمةُ لـرؤساء الجمهـورية، وشخصيّـةُ بيار الجميـل الزاهـدةُ بالسلطة وشِبْهُ الصوفيَّةِ.

وإغراءُ إحالةِ السياسة إلى الدولة وتوفيرِ الحماية تالياً من طريقها، هو مـا يُمْكِنُ انْ تُؤَجِّجَهُ عند الجماعةِ الأقَلِّيَّةِ ظروفُ السكن في مدينة انتقاليةٍ مُتَغَيِّـرَةٍ بناسِهـا وأطوارِهـا، من غيـر انْ تبرأ، شـأنَ كلِّ المـدن الشرقيـة، من انقسامِهـا وانقسامِ سكّـانهـا طـوائفَ وجماعاتٍ مذهبية.

هذه العواملُ جعلَتْ الدخولَ في المدينـة مزيجـاً من الإقبال والإدبـار في آن واحد، فإذا كانت البيروتيّةُ او القربُ من بيروت عنصراً داعياً إلى التفاؤل ومُسَهِّلاً للإندماج، فإنَّ بيروت هي «أحياء» و«حارات» اولاً بأول. ثم إنّ مارونيَّةَ البيـروتي أو القريب من بيـروت لا تفعلُ غير تجديدِ الخوفِ وتعقيدِ الاندماج، بحيثُ يَبقى الولاءُ العصبيُّ حَذِراً مستنفِراً على إيقـاع تسارعِ سكّـانيٍّ واختلاطٍ يصعبُ هضمُـهُ بسهولـة. وهذا ليس بحـالةٍ غـريبـة أو استثنـائيةٍ حيثُ سبق لبعض السـوسيولـوجيين الذين درسـوا أوضاعَ الهجـرةِ الـريفيـة العربية إلى المدن والإقامةِ فيها، انْ وجدوا فئاتٍ تُقْبِلُ على الإندماج والتّمدين من دون انْ يَتَخَلَّصَ اصحـابُها «من بعض التقـاليدِ المـزروعة في أعمـاقهم، كمـا لا تعني (عـلامـاتُ الإندماج والتّمدين) انعدامَ الضغوطِ عليهم لكي يُصبحوا «انغلاقيين» في مسائلِ القرابـةِ والدينِ والسُّلالة»(١٩).

فمـا بين ١٩٢١ و١٩٣٢ تَضَاعَفَ عـددُ سكّـان بيـروت، من دون انْ يتجـاوز عَـدَدُ المـوازنة في هـذا العـام الأخيـر ٢٨٩٩٥ نسمـة من اصـل نَيِّف و١٦١ الفـاً(٢٠). إلَّا انَّ تزايدَهُم اللّاحقَ وتزايدَ تمدينهم لم يُؤَدِّيا إلى تأسيس وُجهَةٍ معاكسةٍ، حيث تضافَرَ التوتـرُ

شهـادات عدد من اوائـل الكتائبيين. [من الآن فصـاعداً يُشـار إلى العـدد المـذكـور بـ: العمـل ـ خمسـون سنة...].

(١٨) من مقابلة مع جورج سعادة في **المسيرة** ٢٨/١١/١٩٨٧.

(١٩) عن سعد الدين إبراهيم، «مُدن العالم العربي» في ـ **إساات عربية**، العدد ٦، نيسان/ابريل ١٩٧٥.

(٢٠) Marwan Buheiry, *Beirut's role*..., op. cit., p. 9 &11.

في المنطقة العربية بتداخُلِه مع التركيب السُّكَّانِيِّ والأهليِّ، مـع تَخَلُّفِ القانـون الإنتخابي الذي يُرْجِعُ الموارنةَ البيروتيين إلى أريافهم لحظةَ التصـويت. فموارنـةُ المدن لم تتجـاوز نسبـةُ عددهم «الـرسمي» ٦,٧ بالمئـة من سكُان المـدن(٢١). فيما حَظِيَتْ بيـروت بنـائبٍ مارونيٍّ واحدٍ لم تَحْظَ بمثله صيدا أو طرابلس.

ولَئِنْ لازم التوتُّرُ والإحباطُ بيئةً كهذه، فإنَّ القانونَ الذي ارْجَعَ ابناءَهَا إلى الأريـاف لحظةَ اتِّخَاذِهِم قرارَهُم السياسيَّ، حَكَمَ على «سياستِهِم» بالبقاءِ مُتَخَلِّفَةً عن همومِ المدينة وتشابكِ علاقاتها الحديثة.

بدايات «السياسة»

سيطر هذا الإزدواجُ على المـرحلة الكتـائبية الأولى مـا بين ١٩٣٦ و١٩٤٣، بحيثُ راى فيها أنتليس مرحلـةً يطغى عليها «ارتبـاطٌ قويٌّ جـداً، إن لم نَقُلْ مُتَعَصِّبٌ، بمفهـومِ لبنان المستقل الذي تُكَوِّنُ القوميةُ المـارونيةُ قـوميَّتَهُ الـدافعةَ المُمَيِّـزَةَ»(٢٢). لكنَّ تناقضَ الموقعِ الديني والذهنيّةِ المسكونةِ بالـريفيّةِ هـو ما خـرج إلى العلن مع حقبـة الإستقلال التي يعتبرُها التأريخُ الرسميُّ للحزب بدايةَ التحوُّلِ إلى حزب سيـاسي ونشوءِ «الظـاهرة الكتائبية». فهذا التَّحْقِيبُ يُسَمِّي مرحلـةَ ١٩٣٦ ـ ١٩٤٥ مرحلـةَ «الإعداد والتنظيم لخلق توجيهٍ لبنانيٍّ صَرْفٍ» تليهـا مرحلـةُ «اللجوءِ إلى مـا تواطـأ العُرفُ والعـادةُ على تسميته «سياسةً» كوسيلةٍ من وسائلِ الخـدمةِ الـوطنية»(٢٣). وعَمَـلاً بـ «السياسـة» هذه خـاض الكتائبيون معركَتَهُم الانتخابيةَ الأولى في ١٩٤٥ وكانت معركةً فرعيّةً في جبـل لبنان حيث لا يكتم الإختيارُ تعيين مناطقِ القوّةِ النسبيةِ للحـزب. امَّا طَـرَفَا المعـركةِ فكـان احدُهُمـا فيليب تقـلا «التقليدي» الـذي سعى إلى الحلول محـلَّ شقيقـه سليم، القطبِ الاستقـلاليِّ المتوفي لِتَوِّهِ، والآخرُ الكتائبي إلياس ربابي الذي جَمَعَ إلى عدمِ الإنتماء إلى جبـل لبنان كونَهُ أحدَ خطباء حزب الكتائب.

ولم يكن اختيارُ ربابي الذي نال ١٣٣٠٠ صوت في مقابـل ٢٢ الفاً نـالها منـافسُهُ الفائزُ، بلا دلالاتٍ رمزيّة وفعليّة. فقـد اختارت الكتـائبُ لتمثيلِ الجبـل وجهاً صـادراً عن منطقـةٍ اقلَّ تقـدماً منـه، وكأنّهـا تلجأ إلى قـانون ثـأريٍّ متخلِّفٍ في الـردِّ على القـانـون

(٢١) عن غسان سلامة، **المجتمع والدولة في المشرق العربي**، سبق الاستشهاد، ص ٢٤٠.

(٢٢) John. P. Entelis, *Pluralism...*, *op. cit.*, p. 74.

(٢٣) فيما اعتبر أنطـوان معربس أنّ مـرحلة التحـول إلى حزب سيـاسي هي «نتيجة تطـور طبيعي وجدت الحـركة نفسها فيه تساهم بفعالية في بناء الدولة الحديثة»، ذهب كريم بقرادوني، وبطريقته، إلى أنَّ العـام ١٩٤٥ هو الذي سجل الإنتقال من «الحركـة السياسيـة» إلى «الحزب السيـاسي» أو «حزب الجمـاهير»، **تـاريخ حـزب الكتائب اللبنانية**، سبق الاستشهاد، ج ١، ص ٩. وكذلك الجزء الثاني ص ٢٠٣ ـ ٢٠٤.

الإنتخابي المتخلفِ بدوره لجهةِ إرجاعه أبناء المدنِ إلى مناطقهم الأصليّةِ في الريف. أمّا الذي تَصَدَّت لخصومته، فيليب تقلا، فكان أحدَ وجوهِ «الطبقة السياسية» بقَدْرِ ما كان، حتى تلك اللحظةِ على الأقلّ، وسيطَ ثقافةٍ وتجربةٍ مَدِينِيَّتين مُتقدِّمَتَيْن على الحصيلةِ الجبليّةِ او المُتَوَسِّطِ الجبلي.

من ناحيتها مثَّلت الخطابيةُ الكتائبيةُ التي كان ربابي (الريفي الزحلاوي) ولويس ابو شرف (الحمّاني) مُؤسِّسَيْها، صلةَ وصلٍ وظيفيةٍ بين عُنْصُرَيْ الإزدواج الكتائبي مع انحيازٍ مؤكَّدٍ للعُنْصُرِ الريفي. فقد استعارت من المدينيةِ الهادئة والحَداثية البورجوازية الصغيِّرة الحدَّ الأدنى الإقناعيَّ الذي تُمَثِّلُهُ الخَطَابةُ، وفصاحةُ الكلام ونخبويُّتُهُ في مُجْتَمَعٍ لا يزالُ شفويَّ الثقافةِ، عَامِّيَّها. لكنّها استعارت من الريفية مخاطبةَ الجمهور على نحوٍ يستعجلُ العمليةَ المؤسَّسِيَّة ويستبقُ إيقاعها التدريجي. وفي الخُلاصة صِيَر عبر الخطابة وقِيَمِهَا إلى طردِ الخوفِ الأقلّيِّ تَوَهُّمِيّاً، وإلى التَّوَحُّدِ الديماغوجي مع الأهل، أو في هذه الحالةِ، الطائفةِ التي التَبَسَت بالعشيرةِ حينَ أُريدَ دفعُها إلى التّراص والتَّجَمُّع.

في ١٩٤٧ رشَّح الحزبُ أربعةً من وجوهه هم جوزف شادر عن بيروت، والياس ربابي وجوزيف سعادة عن جبل لبنان، وجاك شديد عن لبنان الشمالي، من دون أنْ يُسْعِفَ الحظُّ أيّاً منهم. أمّا في ١٩٥١ فتقدَّم خمسة مرشحين هم بيار الجميل عن المتن وجوزيف شادر عن بيروت وضاهر مطر عن كسروان وجان سكاف عن زحلة والبقاع والبير الحاج عن عكار، ونجح الحزبُ في إيصال ثلاثة من مُرَشَّحِيهِ هم شادر وسكاف والحاج. ولئن دلَّ اختيارُ المناطق على الإغراء الكتائبي المبكرِ بالتمدد إلى ما يتعدّى الرقعةَ الأصليَّةَ في بيروت والجبل، فإنَّ هزيمة بيار الجميل المدعومِ من الدستوريين بفارق ١٤٩ صوتاً كانت غَنِيَّةَ الدلالات، خصوصاً لجهةِ الخصم، بيار إدّه، الذي دعمه حزبُه، حزبُ الكتلة الوطنية ومعه كميل شمعون وكمال جنبلاط فضلاً عن السوريين القوميين الإجتماعيين[٢٤]. وإذا ما قرانا هذا الإصطفافَ من زاوية التطوراتِ التي ستحصلُ بعد اشهر، وجدنا أنَّ القوى الصاعدةَ سياسياً (شمعون وجنبلاط) هي التي أيَّدت أحدَ رموز السياسةِ اللبنانية (بيار إدّه) في مواجهة الترشيح العاميِّ المَزْعِيِّ من الشيخ بشارة الخوري عشيَّةَ سقوطِهِ.

في ١٩٥٣ امكن إيصالُ شادر وحده إلى البرلمان، أمّا المرشحُ الآخر الذي قدمته الكتائب عن بيروت فكان موريس الجميل الذي حالفه الفشلُ في مواجهة أحد الرموز السياسيين ورئيسِ الجمهورية السابق الفرد نقاش، وقد اقتصر الترشيحُ عامذاك على كتائبيين اثنين فقط نظراً إلى خفض عدد المقاعد النيابية إلى ٤٤.

(٢٤) انظر، بين مراجع اخرى، Michael. W. Suleiman, *Political parties in Lebanon — The challenge of a fragmented national culture*, Ithaca, New york, 1967, p. 214 & 234.

بعد أربع سنوات، ومع رفع عدد النواب مجدداً إلى ٦٦، تقدَّم خمسة مرشحين من الكتائب هم جان سكاف الذي خانه هذه المرة حظُّه السابقُ، وجوزيف شادر الذي فاز وَحْدَهُ عن بيروت الثانية، وعبده صعب الذي انسحب في المتن الجنوبي، وموريس الجميل الذي هُزِمَ بفارق ضئيل في المتن الشمالي، ووليم حاوي الذي لم يَنَلْ كمرشح ارثوذكسي أصواتاً تُذكر في بيروت الأولى.

يتَّضح ممَّا تقدَّم أنَّ المرحلةَ «السياسية» السابقة على ١٩٥٨ تميَّزت بالإتجاهات المتضاربة التالية:

١ ـ كان فوزُ جوزيف شادر المُتَكَرِّرُ يشي باستمرارِ الأرْجَحِيَّةِ البيروتيَّةِ ـ الجبليَّةِ للحزب ويدلُّ على إمكاناتٍ لنموٍّ تدريجي هادىء وغيرِ انقلابيٍّ في هذا الحيِّز.

٢ ـ وكانت المحاولاتُ الفاشلةُ لإطاحة السياسيين (تقلا، نقَّاش، إدِّه) تنمُّ عن وجهة متعجلةٍ للحلول محلَّ زعاماتٍ لم تتجاوزها السَّويَّةُ العامَّةُ للمجتمع اللبناني، ولا استطاعَ حزبُ الكتائبِ أنْ يستوعِبَهَا ليكونَ حزبَ أعيانٍ على الطراز المسيحي الديمقراطي. وربُما كان من تعابيرِ الفشلِ في هذا الميدان الإنسحابُ المبكرُ للمؤسِّسِيْنَ الأوائلِ (حلو، نقاش إلخ.) الأكثرِ انشداداً إلى المدينةِ والبورجوازيَّةِ و«الصفُّ الأوَّلِ»، من الحزب الذي تُرِكَتْ قيادتُهُ لبيار الجميل وحده.

٣ ـ تواضعُ التقدُّمِ في اتجاه الأطراف ومَحْدُودِيَّةُ النتائجِ التي أحرزها هذا التقدُّم، خصوصاً أنَّ النائبين جان سكاف والبير الحاج، وكما سنرى لاحقاً، وَصَلا إلى البرلمان لاعتباراتٍ عائلية وشخصيةٍ أكثرَ منها حزبية.

بَيْدَ أنَّ التَّوَسُّعَ الذي أعقب ١٩٥٨ هو ما شَرَعَ يشدُّ الحزبَ في وُجهةٍ مختلفة. فحينذاك التقت مناطقُ الإحباطِ المسيحي، الكاملةُ الريفية وذاتُ الذاكرة المريرةِ عن التعايش، مع التحديثِ الذي أضفاه العهْدُ الشهابيُّ على الحياةِ اللبنانية وأفادت منه الكتائب بطرقٍ شتَّى. فمعظمُ مناطق الإمتداد يقعُ ضِمْنَ دوائرَ أعرضَ للسُّكْنِ الإسلاميِّ حيثُ العلاقاتُ الأهليةُ السائدةُ والمُتَوَارَثَةُ يصعبُ ضبطُها بأعرافٍ و«قوانين» التعايشِ والميثاق (فكيف حين نُضيف، منذ أواخر الستينات، عُنْصُرَ السلاحِ الفلسطيني المنتشرِ بكثافةٍ، والمنظورَ إليه كأداةِ تقويةٍ للمسلمين ومواقعهم؟).

هكذا كان للتكوينات المحليةِ أنْ ابتعلت التَّوَسُّعَ الوطنيَّ للشهابية ولوَّنَتْهُ بلونها، بحيثُ تَكَرَّرَ مرَّة أخرى ما تحدَّث عنه دومينيك شيفالييه حول لبنان ما بعد ١٩٢٠، إذْ أسهم تجاورُ الطوائف «في المحافظة بقوَّةٍ، وداخلَ كلٍّ منها، على الخصائصِ الجوهريةِ للحياةِ العائليةِ والطائفيةِ»(٢٥).

(٢٥) عن سليم نصر وكلود دوبار، **الطبقات الاجتماعية في لبنان**، سبق الاستشهاد، ص ٣٢.

لا يقتصرُ امر تلك الطوائف على هذا الجانب، إذ إنَّ ما عزَّزَ المَيْلَ إلى ترجمة الواقع الاجتماعي ـ الاقتصادي فيها وعياً ولغةً تناحُريَّيْن، هو بالضبط رسوخُ التكوينِ العشائريِّ الجامعِ، حيث حالت محدوديَّةُ التقدُّمِ دون ظهور النُّوى الطائفية على ما عَهِدْناه في الجبل. فالزعاماتُ الاهليَّةُ ـ السياسيَّةُ المُتَصَدِّرَةُ، إسلامية كانت أم مسيحية، تضرب جذرها في ملْكِيَّات الأرض الواسعة والعلاقات الدموية المُوَسَّعَةِ، وبعضها متوارَثٌ عن «نظام الإلتزام» العثماني، كما يُمكننا أن نرى في بشري وزغرتا وتنورين وعكار وغيرها.

بهذا المعنى عَمِلَ التَّقَدُّمُ الذي طَرَأَ على المعارف والمواصلات، وتقديسُ النزعةِ التكنوقراطيةِ والكفاءةِ التنظيميةِ، على توفير الأدواتِ الحديثةِ التي تَصُبُّ فيها ولاءاتٌ حادةٌ وانقلابيةٌ تتُّجهُ شفرتُها نحو الآخر الطائفي بِقَدْرِ ما تتجه، تحويراً، نحو زعاماتٍ تآكلَتْ المقدّماتُ الإقتصاديةُ والتعليميةُ لِتَصدُّرِها، من دون أن يكون الجمهورُ الطائفيُّ قادراً على الحلولِ مَحَلَّها. وفي وَسَطٍ كهذا راحَتْ كتائبيةُ الأطرافِ تُشَابهُ البيئاتِ التي نما فيها السوريون القوميون والشيوعيون من حيث الحِدَّة التَّوْكيديَّة والتعصُّب العقائديّ[٢٦]. فراح ينفجرُ الإزدواجُ الذي ظلَّ هادئاً متعايشاً في المدينةِ لا تُهَدِّدُهُ الفولكلورية العُنْفِيَّةِ لشبَّان الكتائبِ حينذاك.

قياديّ الجيل الثاني

كانت من العلاماتِ المبكرة على النَقْلَةِ التي حَقَّقَتْها الكتائبُ في ١٩٥٨ وكَرَّسَتها الشهابية لاحقاً، الإنتخاباتُ الفرعيةُ التي جَرَتْ في جزين في ١٩٥٩ بسبب وفاة نائبِها فريد قوزما. فقد استطاعَ مرشَّحُ الكتائب الدكتور بازيل عبود أن ينتزعَ المقعدَ من مارون كنعان «التقليدي» وذي الهوى الشمعوني، ليصبحَ مُمَثِّلاً للموارنة مِمَّنْ يُشَكِّلون ثُلثَيْ مقترعي البلدة المجاورة للشوف، مهدِ الشوكةِ العسكريّةِ الجنبلاطية.

وفي موازاةِ ذلك، وربما لضبطِ النموِّ العشوائي في الأطراف، شهد العامُ ١٩٦٠ عمليةَ تجديدٍ للبطاقاتِ بحيث صُفِّيَتْ عضويةُ حوالي ١٥ الف منتسب جديد، الكثيرون منهم جنوبيون[٢٧]. وهكذا، فإلى حضورِ الحزب في ١٩٦٢، في معظم المناطقِ المسيحية من بيروت و٤٥ بالمئة من قرى الجبل، وَجَدَ مُمَثِّلين له في ٢٥ بالمئة من قُرى وبلدات الشمال و٢٨ بالمئة من قُرى وبلدات الجنوب و٢٢ بالمئة من قُرى وبلدات البقاع[٢٨].

(٢٦) بدأت أواخر الستينات تسجل ظهور اصوات مارونية ريفية تتحدث ايضاً عن «الحرمان» و«البؤس» وتطالب بـ «الاصلاح»، وكانت «حركة الوعي» الطلابية احد ابرز اصوات هذه النزعة الشعبوية البورجوازية الصغيرة.

(٢٧) John. P. Entelis, *Pluralism...*, *op. cit.*, p. 109.

(٢٨) *Ibid.*, p. 109-110.

بدورها لم تَتْرُكْ سِماتُ كتائبيي الجيلِ الثاني مِمَّنْ انتقلوا إلى الصدارة الحزبية مع ١٩٥٨ وبُعَيْدَها، مجالاً للشكِّ بصددِ اختلافِ الهوية، أو بالأحرى الإفصاحِ عن تناقضات هويةِ الجيلِ الأوَّلِ، والتمهيدِ لهويةِ جيلٍ ثالثٍ سيظهرُ مع حرب السنتين.

فالسِّماتُ التي نجدها مبعثرةً او جزئيَّةً في جورج سعادة وجوزيف الهاشم وإدمون رزق وغيث خوري وغيرهم ممن سيتُمُّ التَّطَرُّقُ إليهم، نَجِدُها كاملةً ونموذجيةً في حالة جوزيف أبو خليل[٢٩] ابن بلدةِ بيتِ الدِّين الشوفيَّةِ الواقعة جنوبيّ الجبل المسيحي، وعلى الحدودِ بين شمال الشوف وجنوبه، وهي رقعةٌ تصطبغُ باللون الحادِّ للإختلاط الماروني ـ الدرزي الداعي للتشاؤم برغم كُلِّ الإحتفاليَّات الساذجةِ حولَ التعايش، خصوصاً وقد عانت منطقةُ الشوف فِصاماً حاداً بين التَّصَدُّرِ الإجتماعي والإقتصادي والتعليمي للمسيحيين وبين السَّطْوة الدرزية ومن ثَمَّ الزعامةِ السياسيةِ الجنبلاطية كما كَرَّسَتْها الشهابية. بكلمة، اختلف «التعايشُ» في العمق الشوفيّ عنه في الرُّقْعَةِ الممتدة ما بين الجبل الشماليّ وشماليّ الجبل الجنوبي بحيث بَدَتْ الهويةُ الدينيةُ والطائفية اقربَ ما تكونُ إلى هويَّةٍ وطنيةٍ، وهذا، على الأقل، ما يَصِفُ به ابو خليل طفولَتَهُ إذ «إنَّ انتِمائيَ الوطنيَّ كان يمتزجُ بانتِمائي الطائفي. فأنا مارونيُّ الدينِ والمذهبِ، ومن الذين نشأوا وترعرعوا حول كنيسةِ الضيعة ودَرَجوا على «خدمة القدّاس» وخدمةِ كاهن الرعية. ولم اكن لأميِّزَ بين الإنتماءين أو افرّقَ بينهما كما المواطنُ الكاثوليكي في إسبانيا مثلاً، او كما المواطنُ المسلم في مصر أو باكستان»[٣٠].

كان والد ابو خليل «مُعَلِّمَ عمار» «لم تُسْعِفْهُ أحوالُهُ الماديَّة لِتَعليم نَجْلِهِ الذي توقف عند مرحلة السرتيفيكا وجاء يعمل في صيدلية الشيخ يوسف الجميل، عمِّ الشيخ بيار، في بيروت. وفي العاصمة تَأَثَّرَ بالجوِّ الكتائبي النظامي والعمل الإستقلالي عشيَّة الحرب العالمية الثانية تَأَثُّرَهُ بأجواء الصيدلية التي تَسلَّمَ امْرَها الشيخ بيار المتعاطفُ مع الإستقلاليين. ومع ان الوَسَطَ العائلي لأبو خليل ومسيحِيَّ قريته كان يتعاطفُ مع التيّار السياسي الذي رَمَزَ إليه وقادَهُ إميل إدّه، فهو راح يُشارك في النشاطاتِ الوطنيةِ للكتائب إلى ان انتسبَ «رسمياً» في ١٩٤١، او كما يصفُ في مذكراته: «كنتُ في الرابعة عشرة من عمري عندما بداتُ أمشي في صفوفِ الكتائب مأخوذاً بشعاراتها، وفي السادسة عشرة عندما طَلَبْتُ الإنتماءَ إليها وهي لمَّا تَزَلْ حركةَ شبابٍ فَتِيَّةً. ولم اصبح «عضواً عاملاً» إلاَّ بَعْدَ سنتين تقريباً»[٣١].

شَرَعَ ابو خليل يتدرَّجُ في السُلَّمِ التنظيمي المعمولِ به آنذاك من «النقطة»

(٢٩) المعلومات الواردة عن جوزيف ابو خليل من مقابلة معه في بيروت ١٩٨٦ إلاّ حين يُشار إلى مرجع آخر.

(٣٠) جوزيف ابو خليل، «حرب لبنان ـ مراجعة ونقد ذاتي»، الحلقة ٥٩، الحياة ١٩٨٩/٩/١٥.

(٣١) المرجع السابق.

فـ «القِسْم» وصـولاً إلى مسؤولية المنطقـة بحسبِ الوحـدات التنظيمية الكتـائبيـة. وفي غضون ذلك بات يُجيدُ تحضيرَ الأدوية في الصيـدلية إلى جـانب عَمَلِه كمنـاضلٍ حـزبي، ليجـد أنَّ هذه المهـارةَ هي اعلى ما يُمْكن ان يَبْلُغَـهُ في الصيدليـة. ومـا لَبِثَ الحـزبُ أن اصبح طريقَهُ إلى توسيع افق ثقافَتِهِ الحزبية والسياسية، فيما كان السِّجالُ المتواصلُ مع «الحزب السوري القومي الاجتماعي» يَشْحَذُ بَحْثَهُ عن مداركَ اوسع وحججٍ اكثر إقناعاً.

في ١٩٥٢ انتقل ابو خليل إلى العمل في مصلحةِ الكهرباء وراح يدرسُ على نفسـه فَقَرَا برنامجَ البكالوريا التي أحرزَها إحرازه القسم الثاني منها بـالطريقـة نَفسها، وهـو ما فَتَحَ الباب أمامهُ، لاحقاً، للإنتسابِ إلى الجامعة اللبنانية حيث دَرَسَ، في أوائِلِ الستينات، ثلاث سنواتٍ في كليَّة الحقوق.

لكنَّ الدراسةَ الليليةَ والعملَ الحزبيَّ واعتقادَهُ انَّ شهادةَ المحامـاة لن تُفيدَهُ في مـا اختارَهُ لحياتـه، فضلاً عن اقتنـاعه بـأنَّ ما تُقـدِّمُهُ لـهُ الثقافـةُ الحزبيـةُ أجْدى وأهَمُّ من الشهادة الجامعية، كلُّ هذه العوامل حَدَتْ به إلى إيقاف الدراسة.

قبل ذلك، وخلال أحداث ١٩٥٨، حَصَلَ التحوُّلُ البارزُ في حياة أبو خليل الذي انشأ إذاعـةً كتائبيـةً بسيطةَ الأدوات بمُسـاعدة رفيقٍ وصـديقٍ له كـان على إلمامٍ بـالجـوانب اللاسلكية والكهربائية، وقد كان لهذه البادرةِ التي بَدَاتْ تَطَوُّعِيَةً أثَرُها البـارزُ، خصوصـاً مع تقوية البثِّ الإذاعي مِمَّا جعلَ صاحِبَهَا «ذا اسمٍ «في الحزب، كمـا عَمِلَ على تـأسيس علاقتِهِ اللاحقةِ بالشيخ بيار.

امَّا الخبرةُ الحزبيةُ التي استعملهـا في عمله الإذاعي،فكـان قد بـدا بإنمـائها من خلال نشاطه التنظيمي في مصلحة الكهرباء. فهناك بنى خليةً كتائبيةً واصـدر نشرةً تنطق باسمها، ويبدو أنَّ النشرةَ وصلت إلى الشيخ بيار فأعجبته واحَبَّ التعرُّفَ على مصدرِها.

بدوره أثَّرَ هذا التعارف في توليتِهِ «مصلحة الدعايةِ» في الحزبِ، ومن بعدِها منصبَ «معاونِ الأمين العام» حيث راح أبو خليل يعملُ قبلَ الظهـر في مصلحة الكهـرباء لتـأمين معيشته، وبعد الظهر في بيت الحزب المركزي. وحين وَجَـدَ انَّهُ لن يقـوى على الجمع بين النشاطَيْن، طلب ان يَتَفَرَّغَ في الحزب فكان له ذلك. ويبدو أنَّ جوزيف أبو خليل ومن بعده جـوزيف الهاشم، الكتـائبي الشـوفي هـو ايضـاً، كـانـا اول كتـائبيين يعـرفـان التفـرُّغ الحزبي[٣٢].

فَرَضَ التفرغُ على صاحبه «التَّعَمُّقَ بعلم الأحزاب» من الناحية التنظيمية خصوصاً، وهكذا انْكَبَّ على دراسة دساتيرِ الأحزابِ الأوروبيةِ وبُنَاها، وشَرَعَ يحاول، على ضوء هذه

(٣٢) هذه المعلومة الأخيرة وردت على لسان كريم بقرادوني في مقابلة معه في بيروت ١٩٨٦.

المعارف الجديدة، إحداثَ لونٍ من التجديد التنظيمي، جاعلاً «الأمانـة العامـة» اكثرَ دقـةً وجديةً في عملها، ومُشْرِفاً على إجراء أول إحصاءٍ تفصيليٍّ للحزبيين، مَطـالِعَ الستينـات، وهو الذي يتناولُ المواقِعَ والأعمارَ والأجناسَ والطّوائفَ والمِهَن والمناطق.

كذلك أنشأ أبو خليل دوراتٍ تدريبيةً لرؤساء الأقسام، ووضع دليلاً جامعاً لـلأقسام كلّها يَطالُ الجوانبَ التنظيميةَ والفنيةَ، وراح يضع جدولَ أعمالٍ مـوحَّداً لهـا بما يُجـانِسُ بين عملها وطرُقِ تفكيرِها وتَنَاوُلِها الأمورَ المطروحةَ، كما يُمْعِنُ في رَبْطِها بالمركز الحـزبي في بيروت، إذ المعروف أنَّ علاقةَ هـذا الأخير بـأطراف الحـزب لم تَكُنْ قبلَ ذلـك تتعدى زياراتِ الوفود الرسميةِ والخطابات الحماسية في المهرجانات الحزبية والوطنية.

مع أوائل الستينات بدأ أبو خليل يكتب تصريحاتِ الشيـخ بيار السيـاسيةَ، ومن ثم بياناتِهِ للمؤتمرات الحزبية السنوية، إلى أنْ تَسَلَّمَ في أيار ١٩٦٨ رئاسـةَ تحريـر صحيفة «العمل» فصار يكتبُ افتتاحيّاتِها الرئيسيّـةَ التي كان يكتُبُهـا إدمون رزق ورشـاد سلامــة. وهنا أيضاً عَمِل على تِحْديثِ الصحيفة التي لم تَكُنْ أكثَرَ من نشرةٍ حزبيـةٍ، فراحت تظهـرُ على صفحتها الأولى صُوَرٌ لجمال عبد الناصر أو كمال جنبلاط ممَّا أثار بعض الإمتعـاض عند مُتَزَمِّتي الحـزب، كما دَرَجَ على أن يُـوَجِّهَ، من ضمن استفتـاءاتٍ للأحـزاب الأخرى، أسئلةً لشيوعيين وسوريين قوميين لا يَتَرَدَّدُ في نشر إجاباتهم عنها.

من الـواضحِ أنَّ مـا تحمِلُهُ تجـربة أبـو خليل، كَعَيِّنَـةٍ تَمثيليَّةٍ على الجيـل القيادي الثاني، يربط بين عناصر متعددة. فهناك الأصـول الريفيـة حديثـةُ العهد بـالمدينـة حيث وَجَـدَتْ حِراكَهـا (Mobility) السياسيُّ الـذي لَعِبَ العملُ في صيـدلية الجميـل دَوْراً فيه، وهناك درجةُ الإنقطاعِ الجزئي والعابر (حيال الإستقلال) عن «سياسة» الأهل في القريـة من مؤيدي إميل إده، والتَّصالُحِ تالِياً معهـا في كلِّ كتـائبيّ ـ طائفيّ أكبـر، وهناك عمليـةُ إنتاجِ طاقمٍ نضاليٍّ صادرٍ عن منبتٍ اجتماعيٍّ شديـدِ التواضـع، صَنَعَهُ الحـزبُ صناعـةً شبهَ كاملةٍ، وذلك في مناخٍ تحْديثٍ حزبيٍّ يُواكِبُ التحـديثَ الشهابيَّ الـذي نما في كَنَفَـهِ، جاعلاً الفولكلورياتِ الكتائبيةَ الأولى، بما فيها الفولكلور العسكري، جزءاً من ماضٍ بسيطٍ ومُرشَحٍ للموت.

وعلى عكسِ الرعيل الأول جـاء أفرادُ هـذا الطاقمِ من مـوقعٍ يَنْتظـر كلَّ شيءٍ من الحزب الصانع. فالفردُ يَتَشَكَّلُ وَعْيُهُ وتَجْرِبَتُهُ وعِلْمُهُ على ضـوء وَعْيِهِ وتَجْـربَتِهِ وعِلْمِـهِ في الحزب وللحزب، وتتداخل مِهْنَتُهُ مع موقعِهِ الحزبي، فيما يـرتبط دورُهُ الشخصي، ومكانَتُـهُ الاجتماعية تالياً، بالدور الذي يوكِلُهُ إليه الحزب، فإذا مـا تَعَارَضَ أيُّ نشـاطٍ مع النشـاط الحزبي تَمَّ ترجيحُ الثاني من دون كبيرِ عناءٍ. وهذا كلُّه يمنحُ قيادِيَّ الجيـلِ المذكـورِ ولاءً مطلقاً للحزب أو رئيسِهِ المؤسس الذي «له فضل كبير عليّ» بحسب قول أبو خليل. وبقـدر ما تتداخلُ في صورة الحـزب كَوْنُـهُ مؤسَّسَةً سيـاسيةً وبيتـاً ومختبراً لـلافكار ومَصْـدَراً

للعلاقات الإجتماعية، يتداخل في صورة القائد المؤسس كَوْنُهُ زعيماً سياسياً وأباً وربَّ عمل. اي انَّ التَّحْديث التنظيميَّ الذي يُسَهِّلُ للحزب امتدادَهُ إلى الأطراف ويُقَوِّي قُدْرَتَهُ على مُجاراةِ التحوُّلِ الشهابيِّ والإفادةِ منه وعلى المواجهةِ مع احزاب وعقائدَ منافسة، يَفْعَلُ في اتجاهات مختلفة بل متضاربة: فمن ناحية يُؤدْلِجُ الحزبَ القَليلَ الادْلَجَةِ اصلاً ويُحيلُهُ مجتمعاً مُضاداً شاملاً وقائماً بذاته وبيئةً فِرَقِيَّةً (secterian) مُكْتَمِلَةً، من ناحية اخرى، وانطلاقاً من التكوين المجتمعي اللبناني المعروف، يُدْمِجُ الحزبَ بالمحيطُ الأهلي الماروني واللبناني تالياً، بما في ذلك قيمة الإرتباط بمرجع زعامي، مُقَلِّماً قُدْرتَهُ على الإحتفاظ بلون من النِخبَويَّةِ التي عرفها في البداية.

ابعد من ذلك كلِّه، إذا كانت التوتاليتاريةُ، في تعريفها الأشدِّ تكراراً، هي تَسْييسُ النشاط الإنساني بِرُمَّتِهِ وإلغاءُ «الفارقِ بين الإنتماءِ إلى مملكة الله والمُواطنية في دولةٍ ارضيّة»[٣٣]، فإنّ حياة ابو خليل التي لا تلبث ابعادُها المُفْتَرَضَةُ ان تنضمَّ في بُعْدٍ واحدٍ أحَدٍ، هي شهادةٌ غنيةٌ على تكوين الجيل الثاني وملامِحِه، او، على الأقل، إشارةٌ إلى مَسَارٍ مُحْتملٍ.

الانتخابات الشهابية

لقد نَمَتْ الكتائبُ في امتدادِها الريفي ضِمْنَ البيئاتِ الإجتماعية الأشدِّ إصراراً على اختراق الحياةِ السياسيةِ اللبنانية من خارِجها، وذلك من دون أن يتوافر من مقدمات الرِّيادة المدنية ما توافر في بيروت والجبل. وقد يكونُ بليغَ الدلالة الوصفُ اللاحقُ الذي كَتَبَهُ الصحافي الراحل سليم اللوزي في معرض التعليق على انفجار النزاع الكتائبي ـ الزغرتاوي في ١٩٧٨، حيث «في كل قرية يتجمع الناس الذين لا عائلات سياسية لديهم، والذين يُعَدُّون من العائلات المُسْتَضْعَفَةِ او المغلوبةِ على امرها، حولَ الكتائب. فيجعلون من هذا الحزب عائلتَهُمْ ويحاولون أن يَحْتَموا به من طغيان ابناء وأزلام العائلات»[٣٤].

هذا النمو خَضَعَ، في العهد الشهابي، لِتَحَوُّلاتٍ ذات نِسَب وأعداد ملحوظة، إذ فيما انخفضَتْ نسبةُ العضوية الكتائبية في جبل لبنان بين ١٩٣٦ و١٩٦٨ من ٨٠ إلى ٥٠ بالمئة، ارتفعت النسبةُ في الشمال من ٦ إلى ١٥ بالمئة، خصوصاً منذ ١٩٥٨ حيث كانت النسبة ٩ بالمئة فقط، وفي الجنوب من ٤ إلى ١١ بالمئة مروراً بنسبة ٦ بالمئة في ١٩٥٨، وفي البقاع من ٢ إلى ٤ بالمئة. امَّا في بيروت فارتفعت أيضاً من ٨ إلى ٢٠ بالمئة لأسباب إمّا غير بيروتية، ايْ كامنةٍ في تَوَسُّعِ الهجرة الريفية إلى العاصمة خلال

(٣٣) راجع J.L. Talmon, *The origins of totalitarian democracy*, Sphere books ltd., 1970, p. 1-24.
(٣٤) الحوادث في ١٩٧٨/٨/١١.

الستينات، وإمَّا غير مارونيــة مَرَدُّهـا «إقبالُ غيـر الموارنــة، من روم وكاثـوليك وأرمن على الدخول بعد ١٩٥٨ إلى الكتائب، وللمرة الأولى في حياة الحزب»[٣٥].

وفيما انخفضَتْ نسبة «البيروقراطيين وذوي الياقات البيضــاء» بين ١٩٣٦ و١٩٦٨ من ٤٠ إلى ٢٩ بالمئة، ارتفعَتْ نسبــة «مُزارعي الطبقــة الوسطى» من ٨ إلى ١٥ بــالمئة، و«مــزارعي الطبقة الـدنيا» من ٢ إلى ٦ بـالمئة[٣٦]، مِمـا يُشير إلى تنـامي البورجـوازية الصُّغرى القديمة عل حساب الحديثة و«جِبْرها وَوَرَقِها»، وهي وجهةُ سُرْعـانَ ما عَبَّـرَ عنها تَوَقُّفُ المجلة الكتائبية الناطقة بالفرنسية «أكسيون»، والمُوَجَّهَةِ إلى «النخبــة الثقافيـة في المجتمع» عن الصدور بدواعي العجز المالي[٣٧].

وبينما يُلاحِظُ انتليس أنَّهُ «غالباً ما كان التمثيلُ الكتائبيُّ في الأرياف يَتَعَـدَّى النفوذَ العادي للحزب، ولم يكن من غير المألـوف أن يبقى (التمثيلُ) لَصِيقـاً بعوامـلَ عاطفيـةٍ أو شخصيةٍ بَحْتَة»[٣٨] يتذكر منع الصلح تَحَوُّلاً شَهِدَتْهُ مدينةُ بيروت يومذاك لِصالِحِ انبعـاثِ أنمـاطٍ في التجمّع والتحـرُّك يصعب إسباغ النعتِ السيـاسي عليهـا. فقبـل ١٩٥٨ كـان «الشارعُ» كمصطلحٍ، يَعْني التأثيرَ على سوق الخضار في النورية والمَسْلـخ، ومَنْ يَتَحَكَّمُ به يَتَحَكَّم ببيروت وإضراباتها، «ولم يظهرْ في بيروت رأيٌ آخر إلا بعد حوادث ١٩٥٨ التي نَقَلَتْ بعض الأســواق الشعبية إلى المنــاطق المسيحية» فَـأَضْحى هنـاك شــارعٌ مسيحيٌّ يُضاهي مثيلَهُ المسلمَ[٣٩].

لقد بدا لكتائبيِّ الارياف، ومعهم، منذ ١٩٥٨، قِطاعٌ مُتَعَاظِمٌ من كتائبيِّي المدن، أنَّ الوصولَ إلى «جنَّةِ» الدولة وشرعيتها، والعملَ على تَحْدِيثِهما، هُما الخيارُ الـوحيدُ المتــاحُ لجَمْهَرةٍ مسيحيةٍ صادرةٍ أصلاً عن تراكيبَ اجتماعيةٍ «غيرِ حـديثة»، وغـارقةٍ في عَيْشٍ أو استِذْكارِ نزاعاتها الأهلية مع جِوارٍ أو «شارعٍ» مسلم.

ولَئِن جمعَتْ هذه الجَمْهَرَةُ إلى إحالة السياسة إلى الدولةِ والمُوالاةِ النِّظاميّة، رغباتٍ تحديثيةً معلنةً وانسداداً سياسياً وإحباطاً اجتماعياً وشعوراً بالحـاجة إلى الحمـاية، فهي استطاعت أنْ تُحَوِّر عداءهَا للمسلم عداءً لزعـامتها التقليـدية، أو العكس. فـ «العـدو» في شَكْلَيْهِ هو العائقُ دون جَنَّةِ الدولة والحداثة، فيما الشهابيَّةُ الشعبية المُعـاديةُ للتقليـديين،

(٣٥) من المقابلة مع كريم بقرادوني، سبق الاستشهاد.

(٣٦) عن عدد العمل الخاص في ذكرى التأسيس في ١٩٨١/١١/٢٩ والارقام منشـورة أيضاً في John. P. Entelis, *Pluralism...*, *op. cit.*, p. 114. وفي: وضّــاح شرارة، السلم الأهلي البـارد، سبق الاستشهاد، ج ١، ص ٤٩ هـ.

(٣٧) John. P. Entelis, *Pluralism...*, *op. cit.*, p. 117.

(٣٨) *Ibid.*, p. 118.

(٣٩) من مقابلة معه اجرتها المسيرة، العدد ١٦، نيسان/ابريل ١٩٨١.

طريقُ هذه الجَنَّة(٤٠).

لم تكن هذه المُسْتَجِدَّات، من تَوَسُّع ١٩٥٨ والتحالف مع الشهابية، إلى التعديل الذي طرأ على صورة الحزب وجَعْلِهِ حزباً شعبياً، ومن التراجع في النواة المارونية ـ الجبلية إلى التَّزْييفِ الذي أصاب مَسيحِييٍّ المدينةِ أنْفُسَهُمْ، لم تكن بعيدةً عن النتائج التي أظْهَرَتْها الإنتخابات النيابية الثلاثة التي أجراها العهدان الشهابيان في ١٩٦٠ و١٩٦٤ و١٩٦٨.

فمع انتخاباتِ ١٩٦٠ العامَّةِ انفتح البابُ واسعاً أمام القوة الكتائبية كي تعكس مساهَمَتَها في ١٩٥٨ على الصعيد السياسي. وإلى هذا اجتمعَتْ «الماكينةُ» الكتائبيةُ الشهيرة والتحديثُ الزعاميُّ النسبيُّ الذي طرأ على العهد الشهابي ومعه، وهما من تعابير نزعةِ تقديسِ التّنظيم التي ظهرت حينذاك، وأُضيفَتْ إليهما المرونةُ الإيديولوجية الكتائبية قياساً بالماضي. والراهنُ أنّ هذه المرونةَ التي شرع الكتائبيون يُبْدُونَها على إثْر مشاركتهم في السلطة عبر «الحكومة الرباعية»، كانت بالغةَ الدلالة في تعبيرها عن الحالةِ النفسية العامة للمسيحيين حتى ١٩٦٠، تاريخِ اتِّضاح الميولِ العامة للعهد الجديد(٤١). فقد ظهر استعدادٌ كتائبيٌّ للإعتدال في ظِلِّ الإجماعِ الوطنيِّ على الحياة السياسية وأساليبها الدستورية، وفي ظل تَوَهُّمِ اختفاء الخطر الخارجي. وكان مِثْلُ هذا الاستعدادِ مُقابِلاً ومُتَمِّماً لاستعدادٍ آخر إلى التطرّف والعنف لَحْظَةَ تَعَرُّضِ الحياةِ السياسيةِ للتصدُّعِ وشعورِ الأقلية باستحالة تَجَنُّبِ التهديدِ الأكْثَريِّ المُسَلَّحِ والراديكالي. أي أنَّ الإستعدادَ للإعتدال، الذي عَزَّزَهُ إقبالُ مسيحيين غير موارنة على الكتائب، لم ينفصل في آخر المطاف عن قوة الدولة والمحيطِ الذي يتيحُ لها القوة.

بهذه العوامل مُجْتَمِعَةً تمكَّنَتْ الكتائبُ في ١٩٦٠ من تحقيقِ قفزتها الكُبرى بإيصالها كتلةً نيابيةً إلى البرلمانِ تَضُمُّ إلى بيار الجميل وجوزيف شادر على رأس اللائحة التي شَكَّلَها الجميل وفازت كلُّها في دائرة بيروت الأولى، كلّاً من موريس الجميل عن المتن الشمالي ولويس أبو شرف عن كسروان وعبده صعب عن المتن الجنوبي

(٤٠) في وقت لاحق كتبت المسيرة الناطقة بلسان «القوات اللبنانية» (لا صلة لها بـ «المسيرة» التي استشهد بها اعلاه) في معرض استعراضها تاريخ الكتائب: «مع فؤاد شهاب كان ينتظر الكتائب عهد جديد. الكتائبيون لم يدعموا الرئيس الجديد فقط بل آمنوا به. وكان يُقال «الكتائبيون شهابيون اكثر من شهاب». وشخصية الرئيس شهاب اسهمت في هذه الموالاة. فالآتي من العسكر والزاهد بصراع المصالح بين القيادات، وجد في الكتائب حزباً غير متورط في الصفقات السياسية التي اوصلت لبنان إلى ثورة ١٩٥٨، ولا ينتمي إلى من يسميهم شهاب اكلة الجبنة». ا. اسكندر، «اي كتائب نريد؟»، **المسيرة** ١٩٨٧/١١/٢٨.

(٤١) مع انتخابات العهد الأول في ذاك العام ظهرت علامات التصدع في العلاقة مع إدّه والمعوشي ظهور العلامات الأولى على تفضيل رشيد كرامي (حليف القاهرة) على صائب سلام الذي راح يُحاول الجمع بين صداقتي القاهرة والرياض. ولئن تأخر استبدال سلام بكرامي في رئاسة الحكومة حتى ١٩٦١، فهذا ما رتّب تغييراً مارونياً آخر هو استبدال سليمان فرنجية برينيه معوض.

وبازيل عبود عن جزين. وقد لا يكون مجرَّدُ تعدادِ أسماء الفائزين كافياً للتدليلِ على حجم الإنتصار البارز الـذي أحرزه حـزب الكتائب. فـالجميل الـذي فارت لائحتـه بأكملهـا هزم اللائحةَ المعارضةَ التي تَـرَاسَها بيـار إده، شقيق ريمون إده الـذي سبق له أن هـزم بيار الجميل في ١٩٥١. ولم يَكُفَّ ريمون إده مُذَّاك، وهو ممثـل أحد أبـرز التيارات المـارونية، عن التذكير بأنَّ الجميل «اختلس» المقعدَ من شقيقه بمعونة شهاب والأجهزة، فيما صَوَّرَتْ الرواية الكتـائبية المعـركةَ ضـد إده كمعركـةِ «الشباب» ضـد «أهل الصـالون». وبحسب ملاحظة قيادي كتائبي لاحِقٍ عاش تلك المـرحلة عن قـرب كمناضـلٍ شابٍّ، فـإن تَعْبيرَيْ «الشباب» و«الصالون» كانا لإخفاء التحديدات الطبقيـة والاجتماعيـة الدقيقـة، فضلاً عن إخفاء العلاقة بين الحزب ومراكز السلطة والقرار[٤٢].

ويَظْهَرُ حجمُ «التحوّل الثوري» الذي اندفع إليـه الموارنـة بعد ١٩٥٨، وأرادَ جهـازُ الـدولة الشهـابيُّ تشجيعَهُ واستثمـارَهُ، وهو تَحَـوُّلٌ يتضمَّنُ تحويـرَ الطـائفي اجتمـاعيـاً وسياسياً، في أنَّ لائحة الجميل التي أطاحت أحد «التقليديين» الموارنـة (بيار إده) ضَمَّتْ عن الطائفة الأرثـوذكسية محـامياً وثيقَ الصِّلَـةِ بالمـراتب التقليديـة في طائفتـه هو فؤاد بطرس، ومليونيراً كاثوليكياً هو أنطوان صحناوي.

ولَئِنْ كـرَّرَ بازيـل عبود فـوزَهُ عن جزين بعـد أقلَّ من عـامٍ على انتخـابـات ١٩٥٩ الفرعية فقـد استطاع مـوريس الجميل المتحـالفُ مع اللـواء المتقاعـد في الجيش جميل لحـود، أن يتحدّى لائحـة الرئيس كميـل شمعون في المتن الشمـالي التي ضَمَّتْ القومي السوري أسد الأشقر، والطبيب الأرثوذكسي والقطب الكُتْلَـوي تاريخيـاً ألبير مخيبـر. ولم يَصِلْ من أعضاءِ هذه الأخيرة إلى البرلمان غيرُ اثنين هما شمعون ومخيبر فيمـا وصل من اللائحة الأخرى كلٌّ من لحـود والجميل ومـرشح الأرمن الطـاشناق. وهكـذا لم يكن عديمَ الدلالةِ أن يذهبَ ثلثُ التمثيلِ الماروني إلى شمعون والثلثـان إلى اللائحـة المقابلـة، وأن تَحْظَى الكتائبُ من خلال موريس الجميل بثلثِ مُجْمَلِ هذا التمثيل.

بلغةٍ أخرى، بَدَتْ الكتائب أوثقَ صلـةً بالشـرعية المـارونية، إذا صـحَّ التعبيرُ، في إحـدى أبرز قِـلاعها (المتن الشمـالي) من أيِّ تيّار مـارونيٍّ آخر، وذلـك من دون أن تفقد الاعتـرافَ بها كتيـار أساسي في القـلاع والمعاقـل الأخرى للمـارونيـة (أبـو شـرف في كسروان وصعب في المتن الجنوبي).

وربما كان أهمّ من ذلك كلِّه أنَّ بيار الجميل تَكَـرَّسَ منذ ذلـك الحين، رئيساً لـلائحة نيابية تفوز كلُّها في دائرة بيروت الأولى، وهو ما حصل تباعاً في انتخابات ١٩٦٤ و١٩٦٨ و١٩٧٢، مـع استثناءٍ واحـدٍ يؤكد القـاعـدةَ حصـل في ١٩٦٨ حين رَسَبَ فؤاد بطـرس

(٤٢) من المقابلة مع كريم بقرادوني، سبق الاستشهاد.

وانطوان صحناوي لِصالِح المرشَّحَيْنِ المنفردَيْنِ ميشال ساسين ونصري المعلوف المُقَرَّبَيْنِ من شمعون. ولمَّا كانت دائرة بيروت الأولى هي، ظاهراً فقط، خارجَ الإتفاقِ الإنتخابي بين أحزاب «الحلف الثلاثي» اعْتُبِرَ انَّ فشل بطرس وصحناوي، وهما شهابيان غير كتائبيَّيْن، من نتائج حجب أصوات الكتائب والطاشناق عنهما. وفيْ انتخاباتِ ١٩٧٢ انضَمَّ ساسين والمعلوف إلى لائحة الجميل وفازا بصفتهما عُضوَيْنِ فيها.

وتكريسُ الجميل زعيماً بلا منافس لبيروت الأولى يعني تَـزْعِيمَهُ، منذ ١٩٦٠، على إحدى أكبر دائرتين انتخابيتين في لبنان، إذ تشترك الدائرةُ المذكورة والشوفُ وَحْدَهُما في احتلال ثمانية مقاعد في البرلمان اللبناني تبعاً للعدد المعمولِ به من ١٩٦٠ (وحتى ١٩٩٠) وهو ٩٩ نائباً. لكن لِأنَّ نواب الشوف يتوزعون بين الزعامة الجنبلاطية الدرزية والزعامة المارونية، الشمعونية منذ ١٩٦٤، فضلاً عن تَوَزُّعِهِم الطائفي، وفيهم السُّنَّة والروم الكاثوليك ايضاً، فإنَّ بيروت الأولى، وكلُّ نوّابها مسيحيون على تعدُّدِ مذاهبهم، تبقى كُتْلَتُها اشدَّ تجانساً، وبالتالي اكثرَ فاعليةً وتأثيراً وتعبيراً عن «واجهة» التقدم المسيحي.

هكذا تحقَّقَتْ نقلةٌ مهمةٌ في تحويل الشيخ بيار الجميل زعيماً مارونياً على نطاق وطني، بالإستناد إلى دائرة انتخابية كبيرة في العاصمة نفسها. أيْ أنَّها، استطراداً، دائرةٌ تفوق مثيلاتها قدرةً في التأثير على القرار السياسي المركزي، كما تَفُوقُها إفصاحاً عن حاجات مدينيةٍ برغم تعرُّضِها للهجرة الريفية المُتَعاظِمَة.

واقعُ الأمر انَّ تبوُّءِ الجميل زعامةَ بيروت المسيحية لم يكن بعيداً عن تضافر ظروفٍ سياسية واجتماعية نموذجية. صحيحٌ انَّ الشهابيةَ لم يُزْعِجْها اختيارُ حليفها الجميل هذه الدائرةَ قاطعاً الطريقَ على القطب المنافسِ بيار إدّه، لكنَّ الصحيحَ ايضاً انَّ التحوُّلَ الذي احْدَثَتْهُ الهجرة الريفية للموارنة[٤٣] إلى بيروت وقيامَ «شارع» مسيحيٌّ فيها عَمِلا على تَزْكِيَةِ هذا الاختيار. وإذا كان قانونُ الانتخاب اللبناني قد حَدَّ من الآثار السياسية للهجرة بسبب الإقتراع في مكان الولادة لا في مكان السكن والعمل، فهذا ما عَوَّضَهُ المناخُ الجديد الذي لم يُعْدَمْ اشكالَهُ التعبيرية. وكان من هذه الأشكال ظهورُ الحماسة الأرمنية لاستقبال الظاهرة الكتائبية إيجاباً، الشيءُ الذي لم تَغِبْ عنه توجيهاتٌ خفيةٌ من الأجهزة، وفي المقابل، احتدامُ العصبيَّةِ الارثوذكسية في الأشرفية التي يَعْتَبِرُ أصحابُها أنَّهم السكانُ «الأصليون» و«الأصلاء» برغم إقدام بعضِ الأفرادِ الأرثوذكسيينَ على الإنضواءِ في الكتائب[٤٤].

(٤٣) انظر نتائج المسح التي قامت به مؤسسة «ماس» لحساب مجلس الانماء والاعمار ومديرية التنظيم المدني في منطقة بيروت المدينية وتعليق ميشال مرقص عليه في النهار ١٩٨٧/١١/٢.

(٤٤) من مقابلة مع جبران جايك (١٩٨٣) في بيروت.

في انتخابات ١٩٦٤ بدأت تظهرُ آثارُ التحولات التي نشأت في ١٩٥٨ على نطاقٍ آخر. صحيح أنَّ الحزب تَكَرَّسَ قوةً انتخابيةً وسياسيةً مارونيةً لا يُمْكِنُ تجاهُلُها. إلّا أنَّ انتخابات العام المذكور شكَّلَتْ تنبيهاً للكتائب إلى أنَّها مُرشَّحةٌ لخسارةِ بعض مواقعِها التقليدية في مناطق الجبل. ففيما نجح الدكتور راشد الخوري في قضاء الزهراني الجنوبي، مُلْحِقاً الهزيمة بالمرشَّح «التقليدي» يوسف سالم المتحالفِ مع الرئيس عادل عسيران والذي سَجَّلَ في مذكَّراته أنَّ المقدَّم توفيق جلبوط، أحد عُتَاة الأجهزة الشهابية، اجابه بعد ظهور النتائج: «يا سيدي لديَّ أوامر من المراجع التي هي أعلى مني. فاذهب إليها ولا تسألني»[٤٥]، كان الفشلُ من نصيب لويس أبو شرف المرشح عن كسروان، وعبده صعب عن المتن الجنوبي.

ولَئِنْ أعاد أحد القياديين الكتائب أسباب هذا التراجع إلى مواكبةِ الحزب لسياسة فؤاد شهاب، والذهاب بعيداً في هذه المواكبة[٤٦]، عِلْماً أنَّ السياسة المذكورة مرفوضةٌ من قبل موارنة الجبل الأكثر تقدّماً والأشدّ شعوراً بمُصادَرتِهم السياسية، فإنَّ هذا التفسير لا يلْبثُ أنْ يندرج ضمن نطاقٍ أعرض.

فالتَّحْديث الشهابي الذي ضغطَ الفوارقَ بين المُرَشَّحين للنيابة، لم يَحُلْ دون يقظة الوُجَهاءِ والأعيان الصّغار ويقظة مصالحهم المحلية الضيقة، بحسب ملاحظة انتليس[٤٧] التي تَنمُّ عن حَقْلِ التَّفَتُّتِ المجتمعي الخصب الذي لم يعجزْ التوحيدُ السلطوي عن مَحْلِه فحسب، بل زادَهُ نَمَاءً. وفي هذه الحدود فإنَّ الكتائب وقد أضْحَتْ شَعْبيَّةً تتجه إلى الأطراف و«حَزازاتِها» كما سنرى لاحقاً. وهنا يُمْكن أنْ نَقَعَ على بعض الحصاد الرديء من جرّاء التحالف مع الشهابية بما هو لقاءُ الطرفين على تغليب «الإنماء» على «السياسة»، و«المناطق» على «العاصمة».

في ١٩٦٨ تضافر عنصران جعلا حزب الكتائب يُوْصِلُ إلى البرلمان أكبرَ كتلة برلمانية وأكبرَ الكُتَلِ في تاريخ الحزب البرلماني، بحيث ارتفع عدد نوّابه من ٤ في ١٩٦٤ إلى ٩ نواب.

كان العنصر الأول أنَّ التحوُّلَ الشعبيَّ نحو الأطراف قد أتى ثمارَهُ التي زُرِعَتْ خلال السنوات الماضية، فوصل إلى البرلمان جورج عقل عن زحلة وإدمون رزق عن جزين وجورج سعادة عن البترون، والعدَدُ نفسُهُ، مع بعض التعديلات، عاود الوصولَ إلى برلمان ١٩٧٢ حيث حلَّ إدمون رزق عن جزين وراشد الخوري عن الزهراني وجورج سعادة عن البترون.

(٤٥) يوسف سالم، **٥٠ سنة مع الناس**، دار النهار للنشر، ١٩٧٥، ص ٤٢.
(٤٦) من المقابلة مع جوزيف أبو خليل، سبق الاستشهاد.
(٤٧) John. P. Entelis, *Pluralism*..., *op. cit.*, p. 142-143.

وكـان العنصر الثـاني أنَّ الكتـائب، التي استجـابَتْ لحملـة الإحـراج والمُـزايَـدَة الشمعونيين مارونياً[٤٨]، استجابتَها لِتَراجُعِ الشهابيَّة ولا سيّما بعد هزيمة الناصـرية في ١٩٦٧، اتَّبَعَتْ في الجبل نوعـاً من إعادة النَّظـر التي قادَتْهـا إلى المشاركـة في «الحلف الثلاثي» الشهير. بهذا المعنى أمْكَنَ للكتائب أن تحصُدَ ما حَصَـدَتْهُ في ظـلِّ أزْمَةِ خـوفٍ انتَجَتْها البندقيَّةُ الفلسطينيةُ، وأرْجَعَتِ الجبليين إلى سلوكٍ سياسيٍّ سابقٍ لما كان قد بـدأ يستقـر عليه السلـوك الجبلي، أيْ سابقٍ عَمَّـا أسْمَاهُ دوبـار ونصر «تقـاليـد الجبـل» ذي «التَّعَلُّقِ الثَّقافيِّ بالغرب»[٤٩]. ومن هنا بـدا «البرنـامج» الكتـائبي في ١٩٦٨ مُسْتَلْهَماً من روحيَّةِ الأطراف وميلِ العشيرة إلى التضامن، الأمر الذي بات يتجـاوب معه جيـلٌ طائفيٌّ راسمالي أخذَتْهُ طفرةُ الهوجِ والتَّطَرُّفِ كَرَدِّ فِعْلٍ أقَلِّيٍّ.

يبقى من الـلافت للنظر أنَّ التقـدُّم الانتخابيَّ الـذي حصل في الجبـل، حصـل من ضمن «الحلف الثـلاثي» ذي اللـوائـحِ المُـوَحَّـدَة، بمـا نَمَّ عن تجـانس التيـار العـريض لـ «الطائفة» كوحدة راسمالية تعيشُ مأزقَها الذي يَشُدُّها إلى السلوك العشائري، أمَّـا في الأطراف حيث لم تَتَشَكَّل لوائحُ مُـوَحَّدَةٌ لـ «الحلف الثـلاثي»، بل تَصَـارَعَ بعضُ مرشحي أحزابه الواحدُ ضد الآخر محكومين بمواصفاتهم العائلية والعصبية[٥٠]، فكان واضحاً أنَّ المعركة تدور في سَوِيَّةٍ «ما دون» طائفية وراسمالية.

وفي معزلٍ عن الكلام السَّهل الذي دَرَجَ لاحقـاً عن «الحرب الطـائفية» و«الطـائفية البغيضة»، ظَلَّ التطرّفُ الجبلي الذي اندرجت فيه الكتائب وقطفت ثمارَهُ في ١٩٦٨ تَطَرّفاً قابلاً لأن تَسْتَوْعِبَهُ اللعبةُ البرلمانيةُ، في مـا لو أُتِيـحَ عَزْلُـهُ (المستحيل طبعـاً) عن سائـر المناطق اللبنانية وتناقضاتها. وفي المقابل لاح التطـرُّفُ الطَّرَفيُّ تَتْـويجاً لعمليـةٍ نضاليـةٍ مديدةٍ تَتَّجِهُ نحو السلطة، وهي مُشْبَعَةٌ بـالإحتقان، مُسْتَعْصِيَـةٌ على البرنـامج السيـاسي و«لائِحَتِهِ المُوَحَّدَة»، ومتقاطعةٌ مع التراكيب العشائرية وحسـاسيات العصبيّـات. وبُرهـان ذلك أنَّ الأطراف هي التي خـاضت نزاع الطـوائف في صورة مسلحـة، فَرَفَـدَتْ الأحزاب الطائفية بمقاتليها الذين انتهى الأمر على أيديهم بتفجير الأحزاب نفسها. وحالة الكتـائب مع جيلها القيادي الأخير (إيلي حبيقة، سمير جعجع) لا تَتْرُكُ حاجةً لإيضاح مفارقةٍ مُرَّةٍ: فالتوحيد الحزبي في كَنَفِ التـوحيد الـوطني الشهابي آل إلى الكبت الـذي أفْضى بدوره إلى انفجاراتٍ وتذررات لا تُحْصى.

(٤٨) راجع وضّاح شرارة، **السلم الأهلي البارد**، سبق الاستشهاد، ج ١، ص ٣١ و٧٤ وما يلي.

(٤٩) سليم نصر وكلود دوبار، **الطبقات الاجتماعية في لبنان**، سبق الاستشهاد، ص ٣٤٥.

(٥٠) ففي البترون مثلاً خاض الكتائبي جورج سعادة معـركته ضـد لائحة ضمت الشمعـوني جان حـرب والكتلوي سايد عقل، وفي جزين خاض إدمون رزق معركته ضد تحالف الشمعوني مارون كنعان والشهابي جان عزيز.

بيئة الكتائب في الأطراف

أ ـ الجبل الطرفي:

خلال الثلاثينات والأربعينات والخمسينات[٥١]، لم يَنْمُ حزب الكتائب نُمْوّاً يُـذْكَرُ في الشوف، وهو جنوب الجبل حيث تختلط مـواصفاتٌ مـركزيـة واخرى طَـرَفِيَّة، لا بـالمعنى الجغرافي فقط، بل بالمعنى التاريخي والإجتماعي الذي عَبَّرَ عنه عهد القائمقاميتين.

وكما هو معروفٌ تَنَازَعَ القضـاء المذكـورَ انْقِسامُ يـزبكيٌّ ـ جنبلاطيٌّ انضـوى فيه الموارنةُ مَثَلُهُمْ مَثَلُ الدروز. وما كاد هذا الإنقسام يَضْمُر ويَتَراجَـعُ حتى أُعِيدَ إنتـاجُهُ في الإنقسام الدُستوري ـ الكُتْلَوي الحادّ حيث كان الشوفُ احدَ اشرسِ ميادينه. والواقع انَّ دورَ المحامي الدسـتوري كميل شمعـون أطَلَّ من ثقـوب هذا الإنقسـام فيما كـانت النُوى الراسمالية والتحديثية والصِلةُ بالمدينـة وانكِسارُ العـائلة المـوسَّعَة، تَنْقُـلُ النزاعـاتِ من سَوِيَّتِها العشائرية إلى سَوِيَّتِها الطائفية.

وفي أواخر الأربعينات وبينمـا كان شمعـون يَسْحَرُ الشـوفيين الموارنـة ويُشْعرهم للمرة الأولى بوجود زعامةٍ قويَّة لهم تُعادِلُ الزعامةَ الدرزيةَ المقابلةَ وتتفوَّقُ عليهـا، انتسب فيليب البستـاني إلى حزب الكتـائب، وهو ابن العـائلة الـديريـة التي ساءهَـا صعود نجم شمعون، محاولاً عن طريق الحزب أن ينافس ويَحِدَّ من صعوده.

لكنَّ هذا الوجـودَ الجنيني لم يُعَمِّرْ طـويلاً، إذ لم يَطُـلْ بقاءُ البستـاني في الكتائب، وهو البقاء الذي يَصْعَبُ افتراض ايَّةِ أسباب او حوافز قويّة وراءه. وهكذا لم تظهرْ الكتائبُ في الشـوف إلا في الستينات كقـوّة ملحوظـة، وكان ذلـك بجهودِ الحـزبيين المقيمين في المدن وابرزهم جوزيف الهاشم ابن الموظف في سلكِ الشـرطة وسليـلِ العائلـة الصغيرة في قـرية البُـرْجَيْن، الصغيرة بـدورها، من أعمـال اقليم الخـروب. ولئن أبـدى الهـاشم، المعروف بحِزْمِهِ على عقد أوسع شبكة من العلاقات الاجتمـاعية والصـلات الشخصية، إعجـابَهُ وتَمَسُّكَـهُ بأرومـةٍ هاشميـة تَرُدُّهُ إلى قـريش، فهذا لا يفعـل غير تـوكيد الطبيعـة البورجوازيـة الصغيرة التي سَلَكَهـا صعودُهُ: من الـدراسة في الحكمـة ثم دراسة الأدب العربي والتعليم في المدارس الـرسمية والخـاصة، إلى الصحـافةِ عبـر جريـدة «العمل» الحزبية وصولاً إلى تسلم أمانة سرِّ المكتب السياسي في الحزب.

(٥١) المعلومات الواردة عن الشوف استُقي بعضها من المقابلة المشار إليها مع جوزيف ابو خليـل والبعض الآخر من مقابلتين اجريتا مع جوزيف الهاشم وغـابي لحود واستخـدمت مادتهمـا في: حازم صـاغية، مـوارنة من لبنان، سبق الاستشهاد، ص ٣٢٧ ـ ٣٥٢.

لم يكن من دون دلالةٍ أنَّ ابن قرية البُرْجَيْن كـان نَجْمَ الكتائب في الشـوف، اي أنَّ الزِّيادةَ لم تنعقِدْ لِواحدٍ من أبناء القرى المارونية الكبرى كدير القمر ومنها شمعون وفؤاد الطحيني وفؤاد عمّون وبعض البساتنة، أو الجِيَّة ومنهـا آل قزي، أو الـدَّبيَّة ومنهـا الفرعُ الآخر من البساتنة مِمَّن كان إميل البستاني أبرزَ رجالاتهم، أو الدامور ومنها عزيز عون.

وهكذا، فالنُّمو الكتائبي النِّسْبِيُّ بين مـوارنة البُـرْجَيْن لم ينفصلْ، في الأصـل، عن محاولة الوقوع على تعبيـر سياسي مستقـل عن البلدات الكبـرى، استقلالـه عن بيوتـات السياسيين ولا سيّما منهم فرع بساتنـة الدبيـة المجاورة للبـرجين. يضاف إلى ذلـك أنَّ إقليم الخروب بِرُمَّتِهِ، ومنه البرجين، يعاني شعوراً مديداً بالهـامشية حيـال سائـر الشوف الذي انشطرَتْ زعامَتُهُ بين المختارة الدرزية (جنبلاط) ودير القمر المارونية (شمعون).

من هنا بدا ترشيحُ جوزيف الهاشم عن الشوف في انتخابات ١٩٧٢ تَجَرُّؤاً كتـائبياً غير مقبول على الزعامة الشمعونيـة، بحيث حَمِلَ الشيـخ الجميل على سَحْبِـهِ، لِيُعَيَّنَ بعد عامين رئيساً لديوان الوزير الكتائبي إدمون رزق.

ولئن لم يُعْـرَفْ للكتائب أيُّ نمـوٍّ في جرود كسـروان بين عائلـة صفَيْـر الكبيـرة أو العناصر التي حاولَتْ تجديدَ شباب آل الخـازن، بحيث استوردَ الحـزبُ مرشحَـه التقليدي عن القضاء المذكور (لويس أبو شرف) من خارِجِه، فإنَّ النشوء الكتائبيَّ في جرود جبيـل يضرب جَذْرَهُ في بعض صراعات القرن الماضي(٥٢). فمع «عاميـة لِحْفِد» في الثلث الأول من ذلك القرن، حَظِيَ آل الهـاشم بلقب «المشيخة» تبعـاً لمشاركتهم في العـامية. وبـدأت القرية مُذّاك تعيش انشطاراً نِصْفيّاً يَبْحَثُ عن تعبيراته وأوعِيَتِهِ: آل الهاشم أو «المشايخ» من جهة والعائلات الصغرى للأهالي من جهة ثانية.

ولمّـا كانت هـذه الأخيرةُ (عـائلات يـاغي وعرب وأبي يـونس ومهنا وأجبـابُها) قـد انْحَدَرَتْ إلى مصاف «الأهالي» بعد تبوُّئها مُقَدَّمِيَّةَ العاقورة السابقة على عامِّيَّةِ لِحْفِد، مَثَّل إقبالها على حزب الكتائب وسيطاً «حديثاً» لاستعادةِ ماضٍ قديم. لكنَّ إنهيار ذلك الماضي واتِّساعَ الحَيِّزِ الزَّمنيِّ الذي يفصل وَرَثَتَهُ عنـه، وصِغَر العـائلات بمـا يَحْرِمُ العَضَـدَ الذي ظلَّتْ تتمتع ببعضِهِ عائلةُ الخازن الكسروانيـة مثلاً، كـلُّ هذه العـوامل رَفَـدَت الاقبالَ على الكتائب بطاقةٍ راديكاليةٍ مُحْتَقِنَة.

كان أبرزُ الوجوه الكتائبية في جرود جبيل المحامي غيث خوري من قَرْطبا، وهـو من اسرة متواضعة حيث عمل ابوه قِنْدلَفْتاً. لكنَّ خوري هو ابن خال المرشّح والنائب الشهابي الطبيب أنطون سعيد(٥٣). وخلال المعارك الإنتخـابية لـلأخير في مـواجهة العميـد ريمون

(٥٢) المعلومات الواردة عن العاقورة وقرطبا من مقابلة مع ماري كلود سعيد اجريت في بيروت، سبق الاستشهاد.

(٥٣) هذا التجاور الكتائبي ـ الشهابي، مرة بالقرابة ومرة بالأفكار، هو ما يتكرر بصـورة لافتة. فـإلى قرابـة خوري

إدّه، لم يتلكّأ خوري عن الوقوفِ بحماسةٍ إلى جانب قريبِهِ الشعبوي ومحاولةِ التـأثير على حزبه لتكريس هذه الوجهة. وفي ١٩٦٨، ومع استثناء جبيل مثلها مثل دوائر الأطراف من التحالف الانتخابي الذي عقدَتْهُ أحزاب «الحلف الثلاثي»، خاض غيث خـوري الانتخابـات منفرداً فنال جزءاً من الأصوات التي كانت تقترع تقليدياً لصالح المـرشَـح الشهـابي، مما ساهم في إضعاف نهاد سعيد، أرملة انطون التي آثرت المضي في تحدي الزعامة الإدّية.

قبـل سنوات قليلـة كان قـد بدا ينشـأُ قَدْرٌ من الالتبـاس الانتخابي بين السعيـدية الشهابية والكتائبية بما هما في الترجمة المحليـة تيّاران منـاوئان لإدّه. ففي ١٩٦٥ وقبـل ان يَقِرَّ الاختيار على ترشيح نهاد سعيد لمواجهة عميـد «الكتلة الـوطنية» في الانتخـابات الفرعية لذاك العام، «رُشِّحَ، بين مَنْ رُشِّحَ، مسؤولُ فـرع حزبِ الكتـائب في المنطقة غيث خوري. وسعى الحزبُ إلى حَمْلِ كُلِّ الأطراف غير الكتلـوية، وفي طليعتهـا أنصار سعيـد الـدستوريين تقليـدياً على تـأييد مسؤولِ فَـرْعِهِ. لكنَّ ظـروفَ المنافسـة طَـوَتْ سـريعـاً المحاولة»(٥٤).

إلى العاقورة وقـرطبا في أعلى الجـرد، وُجِدَتْ الكتـائب في قرى الـوسط الجردي، كإهمج وجوارها. ذلك أنَّ تلك القرى لم تظهر فيها أيَّةُ زعامةٍ محليـة تبعاً لانحصـارها بين مدينتي جبيل وعمشيت في السـاحل وبين عـائلات الجـرد المُؤَثِّرة، خصـوصاً صقـر في قرطبا والهاشم في العاقورة وجرمانوس في مجدل العاقورة. ولما كانت «الحزبيـةُ» المؤيِّدةُ لريمون إده في هذه القرى الوَسَطِيَّة قد حَقَّقَتْ اكتفاءً «سياسياً» ما من طريق تأييدها هذا، بحثَتْ «الحزبياتُ» المناوئة لها عن مدخلها الخاص إلى الحياة والتعبير «السياسِيَّيْن».

ففي إهمج(٥٥)، وهي قريةٌ كبيرةٌ نسبياً ليست بعيدةً عن قرية علمـات الشيعية، نَمَـا حزبُ الكتائب في عائلة مَتَّى المتوسطةِ عددياً، وبالأخص في فرع أبي خليـل الذي عُـرِفَ أفرادُهُ بـ «القَبْضَنَة» وممارسة حِرْفَةٍ مُتَراجعة هي «العَمَار»، كذلك في فرع زَخْيا من عائلة

وسعيد، كان قطب شهابي آخر هو عبد العزيز شهاب أوّل امين صندوق لمنظمة الكتائب. راجع: **تاريـخ حزب الكتائب**، سبق الاستشهاد، ج ١، ص ٧٥ هـ. أمّا جوزيف مغيزل الذي كان من قياديي الكتائب وانشقّ عنها، فبات في ١٩٦٩ ابرز مؤسسي «الحزب الديمقراطي» الذي اتخذ من الشهابية «اساساً لمبادئه». انظر: فضـل شـرورو، **الاحزاب والتنظيمـات والقـوى السيـاسيـة في لبنـان، ١٩٣٠ ـ ١٩٨٠**، دار المسيـرة، ١٩٨١، ص ٤٢٧. وامّا القيادي الكتـائبي اللاحق إيلي حبيقـة، فهو «نسيب» القطب الشهـابي رينيه معـوض بحسب ميشال ابو جودة في **النهار** ١٩٨٧/٧/٩. وفضلاً عن التعاون الشهـابي ـ الكتائبي على صعيـد الحكم ككل، والدوائر الإنتخابية دائرة دائرة، تبقى تجربة تعـاون الرئيس الشهـابي الياس سـركيس وأجهزتـه مع الشيـخ بشير الجميل غنية الدلالات. راجع في هذا الصدد: كريم بقرادوني، **السلام المفقود ـ عهد اليـاس سركيس ١٩٧٦ ـ ١٩٨٢**، عبر الشرق للمنشورات، ص ٢١٥ فصاعداً.

(٥٤) وضّاح شرارة، **السلم الاهلي البـارد**، سبق الاستشهاد، ج ١، ص ٢٥٤. وفي الانتخـابات الاخيـرة، ١٩٧٢، خاضت الكتائب مجدداً معركة جبيل بغيث خوري منفرداً فنال ٢٠٧٢ صوتاً.

(٥٥) المعلومات الواردة عن إهمج من مقابلة مع جان بيار قسطنطين (من إهمج) أجريت معه في بيروت ١٩٨٦.

خليفة وهو افقرُ فروع العائلة واقلُّها تَعَلُّماً، يعمل ابناؤه فلاحين في ملكياتهم الصغيـرة أو بالأجرة عند الآخرين، كما يعملون «شَغّيلـة عَمّار» عنـد «مُعَلِّمي» العائـلات الأخرى لعـدم وجود «معلمين» في عائلتهم. ولَئِنْ بَقِيَتْ عـائلةُ التقليـدِ السياسيِّ المحليُّ في القـرية، أي بَكَوات آل الخوري ممن احتلَّ بعضُهُم مناصبَ إداريـة في العهد العثمـاني ورَبَطَتْهُمْ صِلة قرابة بآل الخوري في عمشيت، بمنأى عن الكتائب وتأثيراتها، فهذا ما لم يَحُلْ دون تَصَدُّرِ أحدهم وهو جورج خوري، المُوَظَّف في الهاتف، لِكَتائبيي اهمج.

وَيَنْعَكِسُ الحضور الكتائبيُّ في عائلات إهمج واجْبابهـا على خريطـة السُّكن وتوزّع الحارات، إذ بينما تُقيمُ عائلة آل الخوري في «حي الكنيسة» القـريبِ من ساحـة القريـة، تَسْكُنُ الاسَرُ التي نَمَا فيها حزبُ الكتائب في حي «مرج بـونا» الطـرفي، المجاور لخـراج غير مستثمر يفصل القرية عن قرية مشمش. ويبدو أنَّ الملامحَ الذكوريـة الحادة هي التي تَسِمُ هـذا الحي الذي يُكْثِـرُ ابناؤه التغني بـالقوة والـرجولـة، أو «القَبْضَنَة» و«المَـرْجَلَة» بحسب اللغة الشعبية لِتَجمعاتٍ لم يَنَلْ التقدم منها قسطاً يذكر.

ب ـ البقاع:

خاض جان سكاف، أحد نواب الكتائب الأوائل، معاركَهُ الانتخابية محكوماً بعوامـلَ واعتباراتٍ عائليةٍ رافقها استِنْهاضٌ للولاء الزَحْليِّ «الأصلي»، أي لمرحلة انقضت من تطوّر المدينة البقاعية. ومن ضمن هذا السياق انْدَرَجَ البُعْدُ الكتائبيُّ المحدود لمعاركه ولوصوله تالياً إلى البرلمان، فلم تكن كتائبيته أكثر جديـةً وتَجَذُّراً من كتـائبية فيليب البستـاني في الشوف(٥٦).

ففي عَقْدَي الأربعينات والخمسينات(٥٧)، تماثلَتْ مصالحُ الحـزبِ الصغير في زحلـة والباحثِ عن غطاء تقليدي له وسط الأكثرية واللون الكاثوليكيَّيْن، مع رغبة جان سكاف في التَّصَدُّرِ و«استعادة» الزعامة المحلية من قريبه البعيد جوزيف سكـاف الذي سبق لـوالده إلياس طعمه أنْ اسَّسَ لها في بيته. وجـان سكاف هـو، بالمعـايير التقليـدية الخـام، أشدُّ «اصالةً» من جوزيف الذي وفدت عائلَتُهُ من البقاع الغربي إلى المدينـة، وعمل والـدُه في البداية «مدير أعمال» العائلات الأرثوذكسية البيروتيـة المُتَمَلِّكَةِ في البقـاع. واستناداً إلى هذا الموقع وما يَسْتَجِرُّهُ من تَمَلُّكٍ وصلاتٍ حديثةٍ ومَدِينيَّـةٍ أُتيح لإليـاس طعمه أن ينتـزعَ الزعامةَ من «العائلات السبع» كـآل بريـدي وآل أبو خـاطر وغيـرهما، وينشىء الـزعامـةَ السكافية التي قُيِّضَتْ لها حياةٌ مديدةٌ في ما بعد.

(٥٦) بحسب جوزيف ابو خليل، في المقابلة المشار إليها اعلاه، تُحَمِّلَ بيار الجميـل «بصعوبـة» جان سكـاف، ولم يفت ابو خليل انْ يُذَكِّر برفض الجميل قبول طلبي انتساب من صلاح لبكي والشيخ بهيج تقي الدين إذ «برغم محبته لهما كان يخشى النظر إلى الحزب كوسيلة للزعامة».

(٥٧) المعلومات الواردة عن زحلة من مقابلة مع نجيب خزّاقة (من زحلة) أُجريت في بيروت ١٩٨٦، إلا حين يشـار إلى مرجع آخر.

وفي سيناريو لا يَعْدَم الشُّبهَ بسيناريوهات البعث من الماضي، تَحالفَ جان سكـاف مع آل بريدي وآل أبو خاطر وسائر الخصوم التقليديين لجـوزف سكاف(٥٨) وانضـوى في الكتائب ضد زعامة الأخير التي باتت «الزعامةَ التقليديَّةَ». وكان لهذين التحالف والإنضواء ان أدّيا إلى مصالحـةِ الولاء الـزُّحْلِيِّ الكاثـوليكي وعائـلاتِه مـع حزب الكتـائب ذي اللون المـاروني الجبلي والبيـروتي. بَيْـدَ انَّـهُ منـذ ان غـادر جـان سكـاف الحـزب في أواسط الخمسينات، انقشعَتْ الطبيعة العابرة وذات المُرْتكزات الهشّة للمصالحة المذكورة، وانكفأ كاثوليك زحلة عن الكتائب التي ظلَّت تُوَفِّرُ «الماكينـةَ الإنتخابيـةَ» لمن يخوضـون المعركـة ضد جوزيف سكاف.

لكنَّ الـوجه الكتـائبي الأبرز في ذاك القضـاء، بالمعنى التنظيمي والحَـرَكِيِّ للكلمة، كان دائماً الياس ربابي الـذي ينتمي ـ كما سبقت الإشـارة ـ إلى قريـة جديتـا الصغيرة المجاورة لمدينة زحلة. ولأنّ ربابي كان في واقع الحال وجهـاً حِزْبِيَّـاً بيروتيـاً، او مركـزيَّاً بحسب اللغة الفنية للاحزاب، فإنَّهُ بات همزةَ الـوصل بين المـركز الحـزبي في العاصمـة وبين جان سكاف، ومن ثم سائر الكتـائبيين الزحليين ممن اقتصـرت الحِزْبِيَّـةُ في عُرْفِهِمْ على كونها حركةً شبابيّةً استقلاليةً تُناهض جوزيف سكـاف ويَشوبُ مقـاصِدَهـا شيءُ من الغموض(٥٩).

مع تحوّل الكتائب في زحلة إلى حـزب ماروني منـذ أواسط الخمسينات، بـدأت تُثار غربة الكتائب عن «الواقع الزحلي». وفي تشريحٍ للانتخابات النيابية الفرعية التي حصلت في ٣٠ أيار ١٩٦٥ لمَلْءِ المقعد الماروني الذي شَغَرَ بوفاة النائب يوسف الهراوي، لُوحِظَ انّ المرشّح سعيـد عقل حصـل «على معظم الأصوات التي حملت اسمـه في عنجر حيث يشكِّل الأرمن الكثرة الغالبة، وفي المعلّقـة وعلي النهري حيث المسلمـون هم الكثرة، وفي الأحياء والأقلام التي تجمعُ أصواتَ المقترعين الكتائبيين»(٦٠).

هذه الغربةُ عن «الواقع الزحلي» وثيقةُ الصلة بحقيقـة أنّ العائـلاتِ المارونيـةَ قَدِمَ معظمُها من الجبل إلى المدينة البقاعية في أواخر القرن التاسع عشـر وأوائل العشـرين، ومن تعداد عيسى اسكندر المعلوف للأخَـوِيّات والجمعيـات المذهبيـة والأهلية في زحلـة

(٥٨) وهو التحالف الذي اثمر في وقت لاحق زعامة الموظف الشهابي جـوزيف أبو خـاطر. وليس من دون معنى انْ يُسمي الزحليون هذه العائلات «حزب الضد»، اي المضاد لجوزيف سكاف.

(٥٩) كرّرَ هذا الإنقسام واستأنف، بشروط مغايرة، انقسامات زحلية قديمة اشار عيسى اسكندر المعلـوف إلى أحد مصادرها حين تحـدّث عن انقسام الـزحليين منذ اواسط القـرن الماضي «إلى حـزبين، البعلبكي، نسبة إلى الأسر التي اصلها من بعلبك، والراسي نسبة إلى الاسر التي منبتها راس بعلبك». عيسى اسكنـدر المعلوف، **تاريخ زحلة**، طبعة ثانية منقحة ومزاده مع صور ووثائق، ١٩٧٧، منشورات زحلة الفتاة، ص ١٧٨.

(٦٠) وضّـاح شرارة، **السلم الاهلي البـارد**، سبق الاستشهاد، ج ١، ص ٣٥٢. هـذا وقد نـال عقل المـدعـوم من الاجهزة الشهابية يومـذاك ٨٨٣٣ صوتـاً فيما نـال جوزيف الهـراوي المدعـوم من جوزيف سكـاف ١٥٣٥١ صوتاً.

يُلاحَظ أنّ الموارنة تلكّأوا في هذا المضمار عن الـروم الكاثـوليك والـروم الأرثوذكس(٦١). وعملاً بالتراتب المُقَرِّ بهِ أهلياً، كانت أبرزُ العائلات المارونية الزحلية عائلةُ الهراوي تَتْلُوها عائلتا أبو طقّة وعقل.

ولا يَكْتُمُ الزحليون الكاثوليـك من «الأصَلاء» تعـالياً تقليـدياً حيـالَ الموارنـة الذين «قَدِمُوا مُتَـأخِّرين» والـذين، باستثنـاء حي «مار مطـانوس» الصغيـر في الجنوب، قطنـوا أطـراف زحلة الجنـوبية الشـرقية. وهـذه الأطراف تمتـدُّ من حوش الأمـراء في الجنـوب الشرقي حيث تُقيم أقليةُ شيعية ضَخُمَتْ الهجراتُ المتتابعةُ عددَها، إلى المعلقة المجاورة للكـرك المُسْلِمَةِ في الشمـال الشرقي، مـروراً بالمـدينة الصنـاعية(٦٢). أي أنّ المـوارنة، شأنُهم شأن الشيعة لاحقاً، أقاموا لـدى وفادتهم إلى زحلـة في الأنحاء الطَـرَفية، ومن ثَمَّ الأقل تعرضاً للتحولات العمرانية والرأسماليـة. فهذه المنطقـة (الجنوب الشـرقي) ليست فقط طَرَفِيَّةً، بل تنتهي على مقربةٍ منها حدودُ متصرفية جبل لبنان وذلك عند الصخرةِ التي تفصل المعلقة عن زحلة. كذلك فالشِّقُّ الجنـوبي القريبُ من حـوش الأمراء حيث مـدرسةُ الراهبات المارونية، هو جزءٌ من نصف زحلـة العتيق الذي صبَّتْ فيـه الهجراتُ السكـانية وأُنشئت السراي القديمة. لهذا كتب عيسى اسكندر المعلوف أنّ «البردوني يَقْسم المدينة إلى قسمين، القسم الجنوبي منهما أكثر عمرانـاً من الشمالي ولكن هـذا أحدث بنيـةً من ذاك»، مُذَكِّراً بأنّ «الأمير بشيـر الشهابي الكبيـر لما جـاء زحلة سنـة ١٨١٤ ورأى معظمَ أبنيتها في الجانب الجنوبي وليس في الشمال [...] تأسَّفَ لذلك وقال إنَّ البِنَـاء سيتكاثـرُ في هذه الجهة الشمالية وترتفعُ أثمانُ الأرض، فحقَّقَتْ الأيام صِـدْقَ قولـه هذا ولا سيَّمـا اليوم»(٦٣).

والمعروفُ أنّ المُتَوَسِّطَ العامَ للكتلة المـارونية التي يعمـل الكثيرون من أبنـائها في الوظائف والمهن الصغيرة منخفضٌ عن ذاك الذي يتمتعُ به الكـاثوليـك حيث تلعب ملكِيَّات الأرض والمهن الحرة دوراً ملحوظاً. أمّا عشـراتُ الكتائبيين الـذين عرفتهم المـدينة حتى اندلاع حرب السنتين فكـانوا يتـراوحون بين بـورجوازيين صِغـار مرتبطين بنطـاق عمل متراجع، وهامشيين لا تخلو هامشيَّتُهم من علامات الرَّثَاثَةِ الاجتماعية (قبضـايات، حُمـاة مواقف سيارات، إلخ.). ففيما لم تُقْبِل عائلةُ خزَّاقـة، مثلاً، على الكتـائب، وهي التي يملك أفرادها مُلْكيّات زراعية متوسطة ومصالحَ خاصة، ظهر الحزبُ بين فرع العائلـة المقيم في

(٦١) انظر عيسى اسكندر المعلوف، **تاريخ زحلة**، سبق الاستشهاد، ص ٢٣٣.

(٦٢) في حرب السنتين تحولت هذه المناطق المتجاورة ساحـات احتكاك صـدامي ومسلح. وفي البحث عن خلفيـة شعبوية لذاك النزاع، كتبت جريدة **السفير** عن «حزام بؤس حول زحلة» وعن «اعتـداءات يوميـة» من كتائبيي زحلة تواجهها «مقاومة دائمة» من قبل المعلقة والكـرك وحوش الأمـراء التي تشكل «حـزام البؤس» على غرار التسمية البيروتية الأم. انظر **السفير** ١١/١٢/١٩٧٥.

(٦٣) عيسى اسكندر المعلوف، **تاريخ زحلة**، سبق الاستشهاد، ص ١٧ ـ ١٨.

جديتا، وأفـرادُه هم فقراءُ العـائلة مِمَّن يعملـون في الفلاحـة والمهن الصغيرة، عِلمـاً أنّ جديتا «مزرعةٌ» لا يتعدى عددُ بيوتها أصابعَ اليـدين. ومن هؤلاء بَرَزَ فـوزي خزَّاقـة الذي يملك مطحنةً بدائية لطحن البرغل.

أمـا جورج عقـل الوجـه الكتائبي المـاروني في ١٩٦٨، فَتَجْلُ أحـد صغار مـلاكي الدبّاغات الذي ينتمي إلى عائلة صغيرة أصلُها من بسكنتا ومقيمة في حوش الأمراء حيث الوجاهة التقليدية لآل الهراوي. وعقل لم يصل إلى البـرلمان في ١٩٦٨ إلا على الـلائحة الشهابية التي شَكَّلَها يومـذاك جوزيف أبـو خاطـر بهدف إطـاحة جـوزيف سكاف. إلا أنّ الإنتقالَ من الكتائبية السَّطحية (الكاثوليكية) ممثَّلَةً بجـان سكاف إلى الكتـائبية الشعبيـة والعضوية (المارونية) ممثَّلَةً بعقل، لم يكن انتقـالاً قليلَ الـدلالات عَشِيَّةَ الإعـداد اللبناني الفلسطيني للحرب الأهلية ـ الإقليمية.

ج ـ الشمال:

في زغـرتا[٦٤]، حيث اتَّصَفَ النمـو الكتائبي بـدرجةٍ نسبيـةٍ من التعقيد، فـإنَّـه لم ينفصلْ عن التَّهْميش المديد الذي عانَتْهُ قـرى «الزاويـة» المحيطةُ بمـركز القضـاء والذي بداه يوسف بك كرم وأتَمَّهُ زعماء آل فرنجية. وقد أتى هذا التهميش ثمارَهُ المؤسَّسية مـع المجلس النيـابي السادس، وهـو المجلس الإستقلالي الأول في ١٩٤٧، إذ اختفى تمثيـلُ قرى الزاوية ليعودَ عودةً عابرةً مع وصول أنطوان اسطفان في ١٩٥١ إلى البرلمان.

منذ ذلك الحين انتقلت الزعامةُ بصورةٍ حصريةٍ إلى حميد فرنجية عِلماً أنّ العمليـةَ شابَها قَدْرٌ من التَّعَرُّج. فبعد فترةٍ طويلةٍ نسبياً على وفاة يوسف بك كـرم استطاعَتْ قـرى الزاوية أنْ تستعيدَ شيئاً من زخمها السياسي الذي أفْقَدَها إيّاه. فأُخْتِير يـوسف اسطفان في ١٩٢٩ عضواً في مجلس الشيوخ، الأمر الذي تكـرر بانتخـاب وديع طـربيه، وهـو من الزاوية أيضـاً، عن محافظـة الشمال في المجلس النيـابي الأول في ١٩٢٧، فيما عُيِّنَ في المجلس نفسه يوسف اسطفان نائباً. منذ ذلك الحين بدأ تمثيلُ الزاويـةِ السياسيُّ يشهـدُ انحسارَهُ التدريجي: ففي ١٩٢٩ انتُخِبَ قبلان فرنجية نائباً وتُرِكَ لاسطفـان مقعدُه الـذي سبق أنْ حصل عليه بالتعيين، وفي ١٩٣٢ انتُخِبَ حميد فرنجيةَ وحـدَهُ حتى إذا ما تـوفِّيَ شبل عيسى الخوري من بشري أمكن لنجيب الضاهر من الزاوية الفوزُ بمقعده البرلمـاني عن محافظة الشمـال. وبقصد الحَـدِّ من نفوذ حميـد فرنجيـة على يد الإنتـداب الفرنسي سَجَّلَ المجلس الرابع في ١٩٣٧ دخولَهُ إليه مصحوباً بنجيب الضـاهر ويـوسف اسطفان معاً كما عُيِّن زغرتاوي آخر هو جواد بولس. وكذلك كـان حالُ المجلس الخـامس المنتخب

(٦٤) المعلومات الواردة عن زغرتا من مقابلتين أجريتا مـع شوقي دويهي وسمير فرنجيـة، ١٩٨٦، في بيروت، إلاّ حين يشار إلى مرجع آخر.

في ١٩٤٣ حيث حقَّقَ مُؤَيِّدو الانتداب انتصاراتٍ ملحوظةً في الوسط الماروني إذ في مقابل اختيار حميد فرنجية اخْتِيرَ يوسف اسطفان وبطرس الخوري من الزاوية. وعندما قُتِلَ وهيب جعجع، من بشري، حَلَّ يوسف كرم، الزغرتاوي، محلَّهُ.

على أيَّةِ حال، فمن حميد انتقلت الزعامة إلى شقيقه سليمان، كما انتقلَتْ النيابة لِمَنْ يأتي به حميد، ومن ثَمَّ سليمان، على لائحتهما، علماً بأنَّ تاريخَ التمثيلِ البرلماني لزغرتا منذ ذاك العام لم يُسَجِّلْ سوى دخول أربعة زغرتاويين غيرهما إلى البرلمان، هم رينيه معوض ويوسف كرم وسمعان الدويهي وتوني سليمان فرنجية.

قبل ذلك وبرغم الضربة التي وجهها إليها يوسف بك كرم، حافظت عائلات الزاوية على كونها عائلاتِ التقليد السياسي، الأمر الذي سَمَحَ للإنتداب الفرنسي بإنعاشها كما بَرَّزَهُ. ومن علامات هذه المحافظة، كما يُشيرُ كتابُ تاريخ محليّ، أنَّه في ١٩٠٣، وحين كان المتصرف مظفر باشا يزور زغرتا كان يَحِلُّ «ضيفاً في دار المرحوم أمين بك طربيه»[٦٥] وأمين طربيه أحد مشايخ عائلته ممن كانت، في القرن التاسع عشر، أراضيهم «الواسعة سليخاً وفيها القليل من أشجار الزيتون»[٦٦].

إذا كان انهيارُ العالم العثماني وعلاقاتِه هو ما شكَّل الخلفيةَ البعيدةَ لانهيار موقع الزاوية، فإنَّ المقاومةَ التي أبدتها خلالَ الانتداب، ومدعومةً به، لم تُعْفَ من ممارسة العنف الزغرتاوي. ومن ناحيته لم يَنْجُمْ تَصَدُّرُ زغرتا عن تَحَوّلاتٍ داخلية عَرَفَتْها، بقَدْرِ صدورِه عن فَرْضِ الأمر الواقع بالعنف والقوة. فحين نُقِلَتْ في ١٩٢٥ الدوائرُ الحكوميةُ القائمةُ يومذاك من زغرتا إلى البترون، تَمَّ هذا النُّقْل وسط معارضةٍ زغرتاويةٍ حادةٍ تَرْجَمَتْ نفسها بمصادرة الوثائق والأوراق الحكومية والإقدام على ارتكاباتٍ عُنْفية. وما لبث أنْ استقرَّ واقعُ الحال على تسمية زغرتا «مركزاً لقائمقامية قضاء زغرتا ـ الزاوية ومركزاً لمحكمة صُلْحيةٍ تابعةٍ لها»[٦٧].

بدوره رَسَمَ العهدُ الاستقلالي النهايةَ السياسيةَ للزاوية وعائلاتِ مشايخِها الضاهر واسطفان وطربيه، من دون أن تُحْرِزَ النجاحَ محاولاتٌ انتخابيةٌ لاحقةٌ ارتبطت باسميْ الشيخين بطرس الخوري وطانيوس الشِّمْر. وزاد في حِدَّة التهميش السياسي أنَّ سكان الزاوية يفوقون سكان زغرتا عدداً فيما يتمثَّلُ القضاءُ كُلُّهُ، منذ ١٩٦٠، بثلاثة نواب كلُّهم زغرتاويون.

إلَّا أنَّ هذا البعد لا يستنفدُ العلاقةَ في سائر جوانبها. فأبناءُ الزاوية الذين دفعوا

(٦٥) سمعان خازن، **تاريخ زغرتا القديم والحديث**، مطبعة اديب طرابلس، ١٩٦٦، ص ١٨٥.
(٦٦) المرجع السابق، ص ٥٥.
(٦٧) انظر المرجع السابق، ص ١٤٤ ـ ١٥٩.

كلفة الإنهيار العثماني في منطقتهم، بادروا سريعاً إلى التعايش مع المُعْطيات الجديدة ومُقْتَضَياتِها، فكانوا الأسبقَ في الانفتاح على بيروت عَبْـرَ قنواتِ المصارفِ والشركاتِ والتجارةِ والتعليمِ وأموالِ الهجرةِ خصوصاً أموال قرية مزيارة.

وبرغم انكسار نظامهم العائلي الموسَّع الذي وَجَدَ ملاذَهُ في زغرتا، ظل أهل الزاوية موضوعاً للإستبداد الزغرتاوي الذي يلقى حمايَتَهُ في زعيم العائلة، لا سيّما حين يكون مُقَرَّباً من النافذين في السلطة أو يكون هو نفسُهُ جزءاً منها. وقد اتّخذَ هذا الاستبدادُ عدداً من الأشكال الفجَّة التي تَرْقى بداياتُها إلى أواخر القرن الماضي، متفاوتةً بين فَرْضِ «الخوّات» على عامّة الناس والأديرة والمَلاّكين في سهل الجديدة، ومن بعدهم المهاجرين، وبين التزوير و«البَلْص» في علاقات التبادل التجاري وتسجيل الأملاك واغتصاب الفتيات أو الزواج منهن غصباً عن أهلهن وأحياناً كثيرةً عَنْهُنَّ أيضاً.

لقد صدَرَتْ الكتائبية الزغرتاوية عن قرى الزاوية تحديداً، وهي التي يميلُ بعض الزغرتاويين إلى تسميتها بـ «المَزارع». وهكذا لبِسَتْ هي أيضاً لُبوسَ «البعث» و«العودة» الشعَبويَّيْن اللذين تخلَّتْ عنهما «بورجوازية» الزاوية التي وضعَتْ السياسةَ جانباً، لِتَسْتَقِرَّ في المدن وتنصرفَ إلى أعمالها، مذعورةً دائماً. وهكذا ففي مقابل «شيخ» كيوسف الضاهر، امتلأ الجسمُ الكتائبي بعناصر خلَّفَتْهُمْ بورجوازيَّتُهُمْ وراءها في القرى، ومعهم عددٌ من التلامذة الإبتدائيين والتكميليين مِمَّن انعكست عليهم آثار الشهابية و/أو آثار الاحتكاك بمدينة طرابلس المسلمة.

لقد كان الشيخ يوسف الضاهر أبرزَ هؤلاء الكتائبيين تقليدياً، وهو من قرية عرجس الصغيرة، تَبَوَّأَ في حزبه منصبَ «رئيس أقاليم الشمال» وربطَتْهُ بآل فرنجية صلة قرابية من ناحية أمه التي هي خالة حميد وسليمان. ولَئِن انتمى الضاهر إلى عائلة ذَوَى دورُها السياسيّ، فإنَّ الوجهَ الكتائبيَّ الآخر، جود البايع، كان مُدرِّساً في مدرسة الطليان في طرابلس[٦٨] جامعاً إلى احتقان المنطقة والطبقة الاجتماعية، موقعاً طائفياً لم تَكُفَّ أحداث الستينات عن شَحْذِ شفرتِهِ النِّضالية المسكونةِ بالسلوك العشائري حيالَ الإحساس بحصارٍ مطبق. ففي منتصف آذار ١٩٦٥، مثلاً، سارت تظاهرةٌ شهيرة في طرابلس تندِّدُ بتصريحات الرئيس التونسي بورقيبة وبسياسة ألمانيا الغربية المُمالِئَة لإسرائيل، وعندما حاذت التظاهرة «مدرسة الآباء الكرمليين التي تُعْرَفُ بالمدرسة الايطالية رَشَقَ متظاهرون نوافذ المدرسة بالحجارة. ولم تكن المدرسة، وتلامِذَتُها من القرى الجبلية المسيحية التي تحيط بطرابلس، قد أوْقَفَتْ الدراسة. ثم عَمَدَ المتظاهرون إلى تحطيم باب المعهد، واندفع قسمٌ منهم إلى الداخل فحطموا النوافذ وأوقعوا أضراراً في المختبر الذي تملكُهُ المدرسة

(٦٨) مع أنَّ أمين الجميل يتحدث عنه لاحقاً بصفته مديراً لأحد مصارف الشمال. أمين الجميل، «حوار وذكريات»، الحلقة ١٢، الحياة ١٩٩٠/١٢/١٥.

ونهبوا بعض محتوياته. وعندما حاول مدير المدرسة الأب جان طنب المقاومة تعرض للضرب وسقط مغمياً عليه. وجُرِحَ في المناوشة بين الطلبة والمتظاهرين ستة عشر طالباً (تلميذاً). وتعرضت مدرسة الفرير (الأخوة المريميين) إلى القَذْفِ بالحجارة واعْتُدِيَ على كنيسة مار مخايل فأُقْفِلَتْ المحلاتُ التجاريةُ وأُطْلِقَ الرصاصُ ونُهِبَ محلٌ يبيع أسلحة صيد. انتشر خبر التظاهرة فهاجَ أهالي زغرتا وحاول بعضُهُمْ التَّجمع والنزول إلى طرابلس»[٦٩].

والحقُّ أنّ الستينات، وخاصة أوائلها، سجَّلَتْ في الزاوية بدايةَ وعيٍ طائفي نضالي يُواكب الوعيَ العائليَّ الموسَّع الذي ظلَّ مستولياً على الزغرتاويين، ويُجافِيهِ في آن معاً. وبطبيعة الحال لعبَتْ عوامل كثيرة لصالحِ نماء الوعي المذكور هناك، بينها الانتقالُ المتأخرُ لمؤسساتِ الطائفةِ إلى الأطراف بحيث عَرَفَ قضاء زغرتا تِسْعَ مدارس للطائفة المارونية يُرَجَّحُ أنَّها ابتدائية كلُّها[٧٠] ولم يَعرف هذا القضاءُ المدرسةَ الثانويةَ الرسميةَ إلا في السنة الأخيرة من العهد الشهابي الأول (١٩٦٤)، أما مديرُ هذه المدرسة التي يَؤُمُّها أبناء قرى الزاوية، فكان أنطوان نجم، عضو المكتب السياسي الكتائبي المعروف باسمه الحزبي أمين ناجي[٧١].

وهكذا لم يكن غريباً أنْ تسعى الزاوية إلى مناهضة زغرتا التي تحتكرُ الحياةَ «السياسيةَ» وتُمَارِسُ استبداداً قاسياً، فيما يتحالف زعماؤها في حالاتٍ كثيرة مع زعماء طرابلس وساسة المسلمين وحُكَّام دمشق بما يجافي المنحى العام للمزاج الشعبي الماروني. أي أنَّ المنطق نفسَه حَكَمَ عَمَلَ الطرفين لجهة ضعف الصِّلَة بين السياسة ومصادرها المُجْتَمَعِيَّة والميل إلى إجابة العنف بالعنف. ولم يكن مفاجئاً، تبعاً لهذه الخلفية، أن تختار الخلايا الكتائبيةُ الأولى في زغرتا «مداخلَ مطلبيَّة لعملها السياسي (المطالبة بمدارس، مستوصفات، تعميم المياه التي يبيعها الزغرتاويون صيفاً!)»[٧٢]، وهي بالتأكيد ليست مطالبَ أغنياءِ الزاوية ولا مداخلَهُمْ.

بدوره وَفَّرَ قضاء الكورة الشمالي ذو الأكثرية الأرثوذكسية الساحقة عَيِّنَةً بسيطة قياساً بالعَيِّنَةِ الزغرتاوية. ويروي أحد الكورانيين الأوائل[٧٣] مِمَّنْ انتسبوا مبكراً إلى الكتائب أنّ الحزب لم يَلْقَ إقبالاً ملحوظاً إلا في قريتي دربعشتار المارونية وبزيزا المختلطة الأرثوذكسية ـ المارونية، علماً أنَّ الأقليةَ المارونية في الكورة والتي تحتلّ في

(٦٩) عن وضّاح شرارة، **السلم الأهلي البارد**، سبق الاستشهاد، ج ١، ص ٢٨٦.

(٧٠) انظر بطرس لبكي، «من العائلة الامتدادية إلى الطائفة في لبنان»، **الواقع**، العدد ٧ و٨، تشرين الثاني ١٩٨٤.

(٧١) انظر جوزيف سماحة، «خلاف الكتائب ـ فرنجية»، في **السفير** ٢٢/٣/١٩٨٣.

(٧٢) المرجع السابق.

(٧٣) المعلومات الواردة عن الكورة من مقابلة مع أدمون شماس ١٩٨٧ في أميون ـ الكورة.

الهرم الاجتماعي للقضاء موقعاً أدنى من المُتَوَسِّطِ الأرثوذكسي لا تحظى بأيٍّ تمثيلٍ سياسيٍّ نيابي.

أما الأرثوذكسيون الذين انتسبوا في بلدة أميون، مركز القضاء ذي الوجه الأرثوذكسي، وفي القرى المحيطة بها، فلم يَبْقَ منهم في حزب الكتائب إلا القليلون جداً. وبين الذين انتسبوا من أميون الفريد يزبك الذي أصبح «رئيس قسم» وهو مغتربٌ ينتمي إلى أسرة صغيرة، أمّا نائبُهُ في رئاسة القسم الذي ما لبث أنْ تركَ الحزب لشعوره أنَّهُ «حزبٌ مارونيٌّ جدّاً وإن يَكُنْ لبنانياً»، فهو إدمون شمّاس الذي أدْخَلَ معه في البداية بعضَ أفراد عائلته الكبيرة عَدَدِياً. وتُعاني هذه الأخيرة، وهي عائلةُ الوجاهةِ والتقليدِ السياسيِّ في أميون، معضلةَ التركيبِ العائلي، ومِنْ ثَمَّ السياسيَّ المُفَتَّتِ لِبلدتها، بما يَحْرِمُها تَبَوُّءَ زعامة قضاء الكورة التي انعقدَتْ للقرية الثانية الأقلّ تقدماً، كوسبا، ولعائلتها التقليدية آل غصن.

على أيّة حال، فَمَعْ مرورِ الزُّمن مضَتْ الكتائب تنمو في قرى الكورة المارونية كبرحليون ورشدبين وعين عكرين، وهي كلّها ذات لونٍ مذهبيٍّ واحدٍ وتحتلُّ موقعَها في النِّصف الأدنى من هرم العلاقات الاقتصادية والاجتماعية. كذلك نَمَتْ الكتائبُ في القرى التي تفصلُ الكورة عن جبل لبنان مُنْجَذِبَةً إلى قطبٍ في خارجِ قضائِها الأرثوذكسي، نَمُوُّها في القرى التي تقعُ على الطريق المؤدية إلى زُغرتا والتي ما لبثَتْ أنْ نُقِلَتْ إدارياً وانتخابياً إلى منطقة الزاوية في ذاك القضاء، حاملةً معها شحنةً لا مبالاةٍ اضافيّةً بزعامة آل فرنجية.

في عكار، في أقصى الشمال، تَرْقى الصِّلَةُ بالكتائب إلى مطالع الخمسينات، حيث تَمَكَّنَ الكتائبي ألبير الحاج من الوصول إلى البرلمان عن المقعد الماروني في ١٩٥٣. بَيْدَ أنَّ تجربةَ الحاج مع الكتائب تُشْبِهُ تجربةَ جان سكاف لِجهةِ سطحيَّتِها وعدم ارتباطِها بدلالاتٍ أبعدَ أثراً. فقد تخلّى الحاج عن الكتائب وتخلّت الأخيرة عنه لدى ظهور أوّل تعارضٍ بين الحزب ورئيس الكتلة النيابية العكارية سليمان العلي. والحقُّ أنَّ اختيار الحاج على لائحة العلي في عكار لم يكن يتّصلُ من قريبٍ أو بعيد بكتائبيته التي لم تكُنْ تحظى بأيِّ انتشارٍ يُذْكَرُ في هذا القضاء يومذاك.

لقد نبع الاختيارُ من انتساب الحاج، وهو أحد المحامين القِلَّة في عكار أوائل الخمسينات، إلى أكبر عائلات قريته بيت ملّات الطامحة إلى انتزاع الزعامةِ المارونية العكّارية من القبيات، كبرى قرى عكار التي تعود زعامتُها إلى آل الضاهر.

وعلى أيّة حال، فالنموُّ الكتائبي اللاحقُ في عكار ارتدى ملامحَ مشابهة لتلك التي رأيناها في أقضية أخرى. ففي انتخابات ١٩٧٢ النيابية العامة، لوحظ أنَّ المرشَّحَ الكتائبي المحامي خليل نادر خاضَ «على مستوى قريته بيت ملّات معركةَ العائلة الثانوية

ضدّ العائلتين التقليديتين في القرية: آل الحاج التي صَدَرَ عنها المحامي البير الحاج. وآل الصّيفي. كما خاض نادر على مستوى عكار كَكُلّ معركة احتكار التمثيل السياسي للموارنة»[٧٤]. بلُغةٍ اخرى، فإنّ التحوُّلَ من الكتائبيِّ المنقوصِ البير الحاج إلى الكتائبي الفعلي خليل نادر عَنَى اموراً عدّةً بينها تراجعُ التمثيلِ العائلي، وتالياً تراجع حظُّ العثورِ على شركاء لائحة والوصول إلى البرلمان، بدلالة خوض نادر معركتَهُ منفرداً.

وفي استعراضٍ لخريطةِ الحضور الكتائبي في عكار، حتى أواخر السبعينات، يتبيَّنُ انَّ الحزب إبّانَ انتشاره النسبي، لم يَحْظَ بأيِّ وجودٍ يُذكر في بلدة حلبا مركز القضاء، وربّما كان من اسباب ذلك خلوّ القرية المذكورة من الموارنة واقتصارُها على المسلمين السنة والروم الارثوذكس. امّا في منياره، وهي إحدى أكبر القرى الارثوذكسية، فظهرت الكتائبُ في وسط «الشعبية» المناوئة لآل الصرّاف التي هي عائلة التقليد السياسي في القرية حيث تزعَّمَهُمْ مُدَرِّسٌ ابتدائي هو يوسف الكفروني. وبينما كَثُرَ الكتائبيون في الجديدة والزواريب، وهما قريتان صغيرتان، خصوصاً بين افراد الجيش، كان ابرز كتائبيي القريتين المدرّس الابتدائي حنّا سعد. وفي الشيخ محمد، وهي قريةٌ ارثوذكسية ـ كاثوليكية، وُجِدَتْ الكتائبُ في اوساطِ العسكريين وسائقي السُّيارات والعاطلين عن العمل، وعُرِفَ منهم «القبضاي» عبدالله عاصي. كذلك تزعَّمَهُمْ في قرية عدبل الصغيرة المدرّس الإبتدائيّ إميل عيد الذي ينتسب إلى عائلةٍ تُخاصِمُ عائلةَ دياب الاكبر عدداً بقليل في القرية، والمعروفة تقليدياً بالإقبال على «الحزب السوري القومي الاجتماعي». وفي رحبه عمل المهاجر الكتائبي إدمون بلال على تشكيل محور يقف خارج الوَجَاهَتَيْن التقليديتين للقرية، آل حنا وآل خوري، فكانت عائلةُ البايع عمادَ هذا المحور، فيما شكَّلَتْ قِيَمُ «القَبْضَنَة» و«المَرَاجِل» مادَّةَ التّبادل بين الكتائبيين والقوميين والشيوعيين من ابناء القرية. وما حاولَهُ إدمون بلال في رحبه حاوله في بزبينا موظّفُ القائمقامية عبود منصور ساعياً إلى الخروج عن وجاهتَيْ آل كوسا وآل هزيم اللتين تتنازعان القرية.

وفي بينو، إحدى اغنى قرى عكار واكثرها إقبالاً على الهجرة واهتماماً بالتعليم، لوحظ كيف انّ الكتائبيِّيْنَ مَثَّلُهُمْ مَثَلُ القومِيِّيْنَ والشيوعيِّيْنَ، بَقوا على هامش دورة الحياة في القرية. امّا الكتائبي الذي ينتسب إلى «الجناح المعتدل» في عائلة عطية الاكبرَ عدداً والابكرَ ثراءً وتعليماً، فكان مَثَلُهُ مَثَلُ سائر الحزبيين الذين «استنكفوا دائماً عن لعب ايِّ دور في «سياسات» القرية ولم يُحْدِثوا ايَّ تأثيرٍ في وَسَطِهم المباشر»، مع الإشارة إلى انّ القرية المذكورة «لا تنظر بكبيرِ تقديرٍ إلى العملِ الحزبي» بِفِعْل سطوةِ القيمِ الراسمالية عليها[٧٥].

(٧٤) من تحقيق غير مُوَقّع اعدّه كاتب هذه الأسطر ونشرته يومها الوطن ١٢/٧/١٩٧٨ والمعلومات الواردة عن عكار مستقاة من هذا التحقيق إلا عند الإشارة إلى مرجع آخر.

(٧٥) يوسف بشير، «الهجرة والسياستفي بينو ـ عكار»، في الواقع، العدد التاسع، نيسان ١٩٨٦.

ابعد من ذلك أنَّ الكتائبَ لم تظهر في القبيات، أكبر القرى العكارية لا المارونية فحسب. فالمرشح خليل نادر لم يَنَلْ في انتخابات ١٩٧٢ العامّة غير ٢٢ صوتاً قبياتياً، لكنه نجح برغم كونه منفرداً، في أن يحصلَ على ما مجموعُهُ ٢٠٥٠ صوتاً جمعها من القرى المسيحية الصغرى، وبالأخص عائلاتها الصغرى[٧٦].

تسمح الأسطر السابقة بالقول إنّ حزبيّة المناطق الاشد طَرَفِيّةً وبُعْداً عن المركز، كعكار، تبقى الأكثرَ انطواءً على مهنٍ مُتَدَنِّيَةِ الدُّخول واصنافٍ من البطالة المُقَنَّعَة التي تقترب احياناً من الرَّثاثة الاجتماعية. ونظراً لانفصال عكّار عن النزاعات التقليدية للجبل التي اعادَتْ صَوْغَ نفسِها في أشكالَ حزبيةٍ جديدةٍ نسبياً، خَلَتْ الكتائبيةُ العكاريةُ من كلّ تراثٍ او حصانةٍ كالتي رايناها جزئياً جدّاً في بعض جرود جبيل.

بدورها مَثَّلَتْ منطقة البترون خليطاً من الحالتين الطَرَفِيّةِ والجبليةِ، مع تَغَلُّبِ السِّمَةِ الاولى ايضاً. ففي قضاء البترون[٧٧] الذي يفصلُ محافظةَ جبل لبنان عن محافظةَ الشمال، ظهرَتْ الكتائبيةُ ظهورَها الأوَّلَ في ١٩٤٢ على يد شرطي في سِلك البوليس، الفرنسي يومذاك، اسمُهُ يوسف سلوم، مقيمٍ في بيروت. فقد حمل سلوم إلى قريته الساحلية الصغيرة على الساحل، كفرعبيدا، ما حملَهُ إلى قرية سلعاتا الصغيرة ايضاً والتي تَزَوَّجَ إحدى فتياتِها. وكان المحمولُ كلاماً جديداً لم يَكُنْ سكّانُ القريَتَيْنِ قد سمعوه قبلاً.

وليس من غير دلالةٍ، في البترون وعكار وغيرهما، أن تبدأ الكتائبيةُ بِدْءَها الأول في بعض القرى على أيدي موظفين رسميين صغار وعسكريين صغار، يجمعون بين رغبتهم في نَقْلِ «النظام» الذي تعلَّموه في السِّلْكِ والمدينة إلى مناطقهم التي تفتقر إلى أدنى نظام، وبين استِقْوائِهم بهذا النظام ودولته وأجهزته لطرد الخوف الأقلّيّ المزمن والمقيم في مناطقهم تلك.

بَيْدَ أنّ النبتةَ التي زرعها سلوم كبرَتْ وتَفَرَّعَتْ بعد عَقْدَيْنِ من الزّمن محامين وأطباء وموظفين يبحثون عن موقعٍ لهم في الحياة السياسية، ومهاجرين غادروا بلادَهُمْ مُفْقَرين وعادوا ميسورين يعيشون هَمَّ التناقُضِ بين واقعَيْهِم القديم والجديد.

مع هذا: فالنُّمُوّ في قضاء البترون جانَبَ الدائرتَيْنِ الفاعِلتَيْنِ في الحياة السياسية للمنطقة، فبقي على هامش المركز الساحلي للقضاء، ممثَّلاً بمدينة البترون، بقاءَهُ على

(٧٦) في سبيل توزع هذه الأصوات، انظر جان معلوف وجوزيف ابي فرحات، **الموسوعة الانتخابية المصورة في لبنان، ١٩٦١ - ١٩٧٢**، ص ٥٧٠ - ٥٧٣.

(٧٧) المعلومات الواردة عن البترون مستقاة من تحقيق غير موقع اعدّه كاتب هذه الاسطر ونشرته **الوطن** ١٩٧٨/٦/٢٩، ومن مقابلات اجريت مع منويل يونس وبطرس حرب وجورج سعادة واستخدمت مادتها في: حازم صاغية، **موارنة من لبنان**، سبق الاستشهاد، ص ١٠١ - ١٣٦. إلاّ حين يشار إلى غير هذين المرجعين.

هامِشِ مركزها الجرديّ أيْ بلدة تنورين، وخصوصاً على هامش عائلَتِها التي تُشَكِّلُ قُرابةَ نصف القريةَ، آل حرب(٧٨).

بهذا المعنى تَرَكَّزَ النموُّ الكتائبي أساساً في قرى الساحل الصغرى ككفر عبيدا وسلعاتا وبعض قرى الوسط التي لم تنعم عائلاتُها بدورٍ سياسيّ منذ أن ضَمَرَتْ الزعامة التي مَثَّلها آل البيطار، حيث شغل يواكيم البيطار أحد المقاعد النيابية للشمال في البرلمان اللبناني الرابع (١٩٣٧ ـ ١٩٣٩)، وهي النيابة التي لم تتكرر.

لكنْ لَئِنْ لم يشهد حزبُ الكتائبِ نموّاً ملحوظاً في تنورين، وفي آل حرب تحديداً، فإنّهُ عرف مثل هذا النمو في قرية دربلا التي تبعد ربع ساعة عن تنورين ويشكل آل حرب ٨٠ في المئة من سكانها. ففي هذه القريةِ الصغيرة، الملحقةِ قروياً وعائلياً بتنورين، استطاع الكتائبُ تأسيسَ وجودٍ لهم على قاعدة خدماتِ وزاراتِ الأشغال التي شغلها كتائبيون خلال السنوات الشهابية.

أمّا في داخل تنورين نفسها فاستطاع الحزب إيجاد مَوْطِىءِ أقدامٍ له وسط العائلات الصغرى كمطر ويعقوب وداغر وبكاسيني التي ظهر فيها أيضاً قوميون سوريون وعروبيون ويساريون. ذلك أنّ هذه العائلات تَتَّسِمُ بأنّها لم تتشكّلْ كوحداتٍ «سياسية عائلية لها زعامتُها ومواقعُ سُلْطَتِها كما هي الحالُ عند العائلاتِ الأساسية»(٧٩). وقد بَرَزَ من هذه العائلات عددٌ من المتعلمين الطامحين كالمحامي صلاح مطر، أو كدياب يونس الذي لا تُعَدُّ عائلتُهُ صغيرةً إلا أنّهُ ينتمي إلى واحد من أجْبَابِها البعيدة والثانوية (حيث عادَتْ زعامةُ العائلة إلى جُبِّ مسعود بك، النائب في برلماني ١٩٢٧ و١٩٢٩ ومنه إلى جُبِّ قريبه جرجس والد منويل يونس).

وفيما تَمَكَّنَ أمثالُ هؤلاء من إحرازِ مواقعَ قيادية في حزبهما، اقتصرَتْ العلاقةُ مع الكتائب في داخل عائلةِ حرب التنورية على «مُسايَرَةٍ» من جانب المحامي الطامح جان مرعب حرب الذي تولّى نقابةَ المحامين في الشمال. فجان مرعب ينتمي إلى جبّ بو مرعب الذي استعاضَ بالتعليم عن هامشيّةِ دورِهِ السياسي في العائلة الكبيرة. والراهنُ أنّ هذا التحفُّظَ التنوريَّ ـ الحربيَّ استمرَّ مع حرب السنتين دافعاً النائب بطرس حرب إلى تأسيس «لواء تنورين»(٨٠) ليكون إطاراً لشبيبة العائلة مِمَّنْ استهواهم حمل السلاح،

(٧٨) أو ٤٠٪ منها بحسب: محمد حسين دكروب، **السلطة والقرابة والطائفة عند موارنة لبنان ـ استناداً إلى دراسة انتروبولوجية للنموذج الماروني الشمالي في بلدة تنورين**، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ١٩٨١، ص ٤٧، برغم ذكر المؤلف أن الأرقام «تقديرات استخلصت من خلال لوائح الشطب الانتخابية المتواجدة لدى مختارية تنورين حتى العام ١٩٧٢». ص ٤٩ هـ.

(٧٩) المرجع السابق، ص ١٣١.

(٨٠) ليس قليل الدلالة أنّ نديم حرب، ابن عم بطرس وشقيق وسيم الذي نافسه على لائحة ثالثة في انتخابات

بحيث لا يُشَكِّلُ حزبُ الكتائب ايَّ إغراءٍ وجَذْب لهم، حتى إذا حُلَّ اللواء واستجدَّتْ تطوّراتٌ ناشئةٌ انخرَطَ أعدادٌ من هؤلاء الشبان في «القوات اللبنانية» لا في الكتائب.

ويلتقي أبرزُ أصحابِ الاسماءِ الكتائبيةِ في قضاء البترون عِنْدَ سِمَةِ الهامشيةِ السياسيّةِ والرَّغبةِ الحادّةِ في اختراق المُعْطياتِ القائمةِ والمُعيقَةِ التي يتمتَّعُ بها نظامٌ سياسيٌّ لا يزالُ طريَّ العود. فالدكتور إميل حكيّم الذي عُرِفَ بخدماته الطبية من قرية الفتيحات وهي «مزرعة» في وسط البترون، وجاك شديد، المحامي، من قرية إده الصغيرة، عَمُّهُ المطران الياس شديد وأبوه نسيب أفندي شديد، وَجَدَ في الكتائب استعاضةً عن التفسُّخِ المتنامي لعائلته وتراجُعِ دورها. كذلك تزوّجَ شديد فتاةً من آل الجلخ الأثرياء في بيروت ليصبح نجماً اجتماعياً بيروتياً ويَغُضَّ النظرَ عن كلّ نشاطٍ حزبيّ. بدَوْرِهِ فَلويس منعم هو مختار قريته الصغيرة أجدبره في الساحل، أمّا هيكل رعيدي فمُتَفَرِّغٌ من عائلةٍ هامشيّةٍ في تنورين، هاجر إلى تشيلي ثم عاد لِيعملَ في الوظيفة الرسمية. وفيما يتماثل صلاح مطر ورعيدي لجهة الخلفيّة العائليّة، ينتمي شكري لحود إلى عبرين وهي قريةٌ ساحليةٌ صغيرةٌ يتربَّعُ هو في وجاهتها، ويُعدّ انيس حرب من دربلّا ملاّكاً صغيراً خَوَّلَتْهُ خَدَماتُ وزاراتِ الأشغال الكتائبية ـ الشهابية وجيهاً في قريته الصغيرة.

لم يكن هذا الدَّأبُ النضاليُّ البادئ في الأربعينات والذي تكلَّلَ بالنجاح في ١٩٦٨، مع وصولِ جورج سعادة إلى البرلمان، غريباً عن العمل الانتخابيّ الكتائبيّ في قضاء البترون والذي بلغ ذروتَهُ في الستّينات. فبالإفادةِ من سياسةِ العَزْلِ التي تَعَرَّضَ لها التيّار الشمعوني بِدْءاً من ١٩٦٠، تراءتْ الإمكانيّةُ مُتاحةً لِمواجهةِ جان حرب المُقَرَّب من شمعون. هكذا خاضَ جاك شديد، الذي سَبَقَ للكتائب أنْ رَشَّحَتْهُ في ١٩٤٧، لمعركةٍ على لائحة منويل يونس الشهابية في وجه الزعامتين التقليديتين، مشايخ آل حرب في تنورين والجرد البتروني، وآل عقل الكتلويين في مدينة البترون. وفي المقابل انْسَحَبَ المرشَّحُ التقليديّ يوسف ضَوْ لِمُرَشَّحِ الكتائب، وهو وَجْهُ العائلة البترونية المنافسة تقليدياً لعائلة عقل. فضو، المتحالفُ تقليديّاً مع آل فرنجية في زغرتا، كان موقعُهُ امتداداً لموقعهم في ١٩٦٠: لا هم في الموالاةِ لشهاب بحيث يُؤخَذُ يوسف ضو على اللائحة الموالية فَيَحِلُّ محلَّ جاك شديد على لائحة منويل يونس، ولا هم في المعارضة بحيث يَحِلُّ مَحَلَّ الشمعوني جان حرب أو الكتلوي كميل عقل. وهناك روايةٌ شعبيةٌ سائدةٌ في البترون مُؤَدَّاها أنَّ يوسف ضو اشترط لانسحابِهِ أنْ تقف الكتائبُ في الانتخاباتِ النيابية التّالية إلى جانبه، فعندما أقبل العام ١٩٦٤ رفضَتْ الكتائب الإنسحابَ ورشَّحَتْ إميل حكيّم الذي نال ٢٩٠٠ صوت. وفي ١٩٦٨ كان للحزب ما أراده إذ نجح في إيصال مدير

١٩٧٢، انتمى آنذاك إلى «حراس الأرز» وعمل على تنسيب شباب عائلته إلى التنظيم المذكور، أما شقيقه الآخر حبيب، فانضوى بعد سنوات في حركة العماد ميشال عون.

مصلحة التعليم الخاص الدكتور جورج سعادة إلى الندوة النيابية.

يبقى أنَّ حالةَ جورج سعادة نموذجيّةٌ في التعبير عن الصعود الكتائبي وكَيْفِيَّاتِهِ[٨١]. فهو ابن قرية شبطين في الوسط، ينتمي إلى عائلة كانت تعمل بالأرض عند آل نجم البترونية وإلى أب عَمِلَ في سِلك الدّرك. في ١٩٦٢ انضم سعادة، الذي درس في معهد الرسل في جونيه ثم تخرَّجَ حاملاً شهادة دكتوراه في الفلسفة والآداب، إلى «رابطة ابناء البترون في بيروت» والتي ما لبث أنْ تَرَاسَها. وكانت هذه الرابطة، التي ضمَّتْ أيضاً الكتائبي إميل أبي نادر، كنايةً عن عدد من الطلاب والمتعلمين الذي يَدْرسون ويعيشون في بيروت باحثين عن مسرحٍ لطموحِهِمْ إلى الدور السياسي والتَّرقِّي الاجتماعي. وقد قادَتْهُمْ احلام «غزو» البترون من بيروت إلى رَفْعِ شعار «خدمة المنطقة وتطويرها»، فكان من ثمار هذه الخدمة تأسيس «البيت البتروني»، التسميةُ التي تِذَكِّرُ بفولكلورٍ كلاميٍّ شهابيٍّ كامل.

عُيِّنَ سعادة مديراً لمصلحةِ التّعليمِ الخاص حيث عمل ما بين ١٩٦٤ و١٩٦٨ وقَدَّمَ خدماتٍ لأبناء منطقته. وفي ١٩٦٨ تقدَّمَ للانتخابات النيابية فَدَرَجَتْ على يَدِه زيارةُ البيوتِ بَيْتاً بَيْتاً إبَّان الحملةِ الانتخابية، كما كان يدخل إلى المجموعات والقرى الهامشيّة أو التي لم تَحْظَ بدرجةٍ من التطوّر، فَيُؤَكِدُ صورتَهُ كواحدٍ من «ابناء الشعب». وإلى المبالغة في استعمالِهِ مناسباتِ المآتم والأعراس استعملَ اصْلَهُ ايضاً، مشيراً إلى أنَّ أجدادَهُ قَدِموا من قريةِ بِجُّه في جبيل مِمّا جعله يكسب أصواتَ بترونيين من ذوي أصلٍ جُبَيْلِيٍّ.

ولئن أفاد سعادة من صِلَةٍ خاصة بوزير الداخلية يومذاك سليمان فرنجية، فإنَّ اقترانَهُ بكريمة الشيخ كسروان الخازن، أحد أبرز المشايخ الخازنيين الراحلين، أعطى اندفاعَهُ إلى الصَّدارةِ شَكْلَ الانبعاثِ، في البحث عن مرجعيةٍ تاريخيةٍ.

د ـ الجنوب:

لم يَنْمُ حزب الكتائب نُمُوّاً يُذْكَرُ في قرية مغدوشة[٨٢]، إحدى أكبر قرى قضاء الزهراني برغم انتساب الدكتور راشد الخوري إليها، حتى أنَّ هذا الأخير افتتح بيتاً في ١٩٦٠ ما لبثَتْ ان أُغْلِقَتْ ابوابُهُ في ١٩٦٢. وربما كان من اسباب تَأخُّرِ الوعيِ النضالي عند مسيحيي قضاء الزهراني أنَّ الجمهور الشيعي في القضاء نفسه، مِثْلَهُ مِثْلَ الجمهورِ السني في صيدا، كان بعيداً عن المواجهات التي أعقبت الحرب العالمية الأولى في ما يُعرَفُ اليوم بأقضية صور ومرجعيون وبنت جبيل. ففيما انشطرَتْ الزعامةُ الشيعية في

(٨١) انظر ايضاً المقابلة معه في الأنوار في ١٩٨٦/٩/٢٢.

(٨٢) المعلومات عن قضائي الزهراني وصيدا من مقابلات ثلاث اجريتها مع محمد علي فرحات وبسّام حجار وبيار شلهوب في بيروت (١٩٨٦)، إلاّ عند الإشارة إلى مرجع آخر.

الزهراني بين وجوهٍ معتدلة من عائلتَيْ عسيران والزين، كان الكثيرون من شيعة القضاء، الذين تأخَّرَ تَبَلْوُرُ وَعْيِهِمْ الطائفي بصفته هذه، يقترعون لراشد الخوري لأسباب لا صلةَ لها بكتائبيته من دون أن تكون كتائبيَّتُهُ عنصرَ تَنْفير لهم. على العكس، بَدَتْ «المسيحية» من زاوية نظر شيعيّةٍ عشائريّةٍ ألْصَقَ بآل سالم «الأرستقراطيين» في العرف الأهلي، منها بخصمهم الطبيب الشعبي راشد الخوري. ولأنّ الجمهور الشيعي هناك كان يفتقد العصبيات القوية المُوَسَّعَة كما يعرفها أقصى الجنوب (الأسعد، العبدالله، الفاعور)، بقي «الخوفُ» عنصراً مستَبْعَداً في إحداث الحِراك الحزبيِّ عند المسيحيين، خصوصاً أنَّ التسليم بالدولة والاعتمادَ على خدماتِها وفُرَص عَمَلِها كانا جزءاً من «الإيديولوجيا الضمنية» لشيعة تلك المنطقة.

قُصارى القول إنّ الكتائب بَقِيت ضعيفةً في قرى الخط المُمْتَدِّ من شرق صيدا مروراً بمغدوشة وعنقون حتى جباع وجزين وهي قرى تنطوي على وجود شيعي ـ كاثوليكي تتخلَّلُهُ أقلِّيَّةٌ مارونية. ومع أنّ الحزبَ وُجِدَ تقليدياً في قرية صربا المارونية الصغيرة الواقعة على هذا الخط، إلا أنَّ وجودَهُ اقتصر على شكلياتِ حَمْلِ البطاقة وتعليق زرِّ الكتائب على الصدر من دون أيّة حَرَكيّةٍ نضاليّة ملحوظة[٨٣]. شمال هذا الخط ثمَّة خطٌّ آخر يربط صيدا بجزين انطلاقاً من حارة صيدا حتى عين الدلب والقريّة وجنسنايا وصولاً إلى باتر، وهو أيضاً خط قرى صغيرة ومتوسطة، مسيحية ـ شيعية. ولئن بدات الكتائبية في الظهور هناك منذ أوائل الخمسينات كما تَجَلّى في بناء بيوت قليلة للحزب، فإنَّ الحضورَ الجدِّيَّ، وفي حدوده النسبية أيضاً، هو ما شرع يَشُقُّ طريقَهُ في أواسط الستينات بِقدْرٍ أكبر من ذلك الذي عرفَتْهُ قرى الخط الأول.

فقد احتضنت قريةُ عين الدلب المتوسطةُ الحجم وجوداً كتائبياً بَرَزَ منه عشيَّةَ اندلاعِ الحرب الأهلية المدرِّسُ والمحامي الياس كسّاب الذي ينتمي إلى عائلةٍ صغيرةِ الحجمِ ومتواضعةٍ في مَنْبَتِها الاجتماعي. وفي وجهٍ عام كان الجمهور الكتائبي، منذ بدايات ظهورِهِ، من البورجوازيين الصِّغار ولا سيّما بين المزارعين وأصحاب الحِرَف المُتَراجِعَة. كذلك ارتبط النموُّ الكتائبيُّ في القرى المسيحية لهذا الخط بمحاولاتٍ مُتَقَطِّعَةٍ لاحتلالِ مواقِعَ في المجالس البلدية والاختيارية، فكانت هذه المحاولاتُ تُؤَدِّي بين الحين

(٨٣) الواقع أنَّ الكتائب تبعاً لنشأته الأولى، كان يتسع في تكوينه لهذا النمط من العضوية. في سبيل التمييز بين «الحزب الجماهيري» كالكتائب وأحزاب الكوادر، وهو المصطلح المستعار من موريس دوفروجييه أنظر: John. P. Entelis, *Pluralism...*, *op. cit.*, p. 101. مع العلم أنَّ أنتليس يتبنى وجهة نظر كريم بقرادوني في رسالته عن الكتائب والقائلة إنه لم يكن حزباً جماهيرياً كاملاً بل كان «حزب الجماهير حسنة التنظيم» وهو ما يضعه في خانة وسطى بين خانتي الأحزاب المذكورتين. وبدوره رأى فرانك ستوكس أنَّ حزب الكتائب هو «النموذج الأهم في العالم العربي عن الحزب الجماهيري المنظم ذي القاعدة والتنافس على نطاق وطني». Frank Stoakes, «The Supervigilantes...», *in: Middle Eastern Studies*, *op. cit.*

والآخـر إلى منازعـاتٍ وعراكٍ بـالسكاكين والعصيّ بين عـائلات البلـدة الواحـدة من روم كاثوليك وموارنة. إلا أنَّ الخط الثالث الـذي يربط بين صيـدا وجزين والـذي يمكن وَصْفُهُ بأنَّهُ شريطُ قرًى مسيحيّةٍ صافية، باستثناء عبرا الجديدة وهي أولُهُ من جهة الغـرب، فكان دائرةَ التواجُدِ الكتائبيّ الفعليّ في تلك المنطقة.

فالخطُّ المذكـور الواقـعُ شمالَ الخَطَّيْنِ اللـذين سبقَتْ الإشارةُ إليهمـا، مارّاً بِعَبـرا ومجدليون والصالحية ووادي بعنقودين ولِبْعا وعين المير وكفرفالوس، سَجَّل إقبالاً تقليـديّاً على الكتائب ولا سيّما في القرى المارونية منه كـوادي بعنقودين ولبعـا الصغيرتين. وفي اثناء الاحتلال الاسرائيلي لصيدا وانتقال المركـز التجاري منهـا إلى عبرا، لـوحظ تنامي وجـود «القوات اللبنـانية» في تلـك القرى والمـاروني منها خصـوصـاً. لكن بينمـا لم تَنْمُ الكتائب في عبرا الجديدة مثـلاً، وُجِدَ الكتـائبيون في عبـرا القديمـة التي وَضَعَها نشـوءُ الشَّطْرِ الحديث على هامش العلاقات التجاريّة الناميـة والمُتَّسِعَة. وقـد عُرِفَ من كتـائبيي عبرا القديمـة، المتوسطـة الحجم، طبيبُ الأسنان نخلـة قهوجي الـذي ينتسبُ إلى عائلـةٍ فقيرةٍ وصغيرةِ العددِ.

وبـرغم أنَّ الكتائبَ لم تَعْـدَمْ الوجـودَ بين كاثـوليك تلـك القرى(٨٤)، إلا أنَّ لَـوْنَهـا المـاروني الغالبَ جَعَلَهـا تَرِثُ مـلامـحَ الصـورةِ المـارونيّـةِ كمـا هي في عَيْنِ التَّشَـاؤف الكاثوليكي. فالموارنة، المزارعون في غالبيتهم، أفْقَرُ حالاً من كـاثوليـك تلك المنطقـة مِمَّنْ يملكون قِطَعَ أرضٍ متوسطةٍ أو كبيـرةٍ نسبيّاً، او يعملـون اصحابَ مِهَنٍ حـرّة أو يشغلون مَواقعَ متقدمةً واحياناً رفيعةً في سِلْكِ الوظيفة، كمـا لا تَكْتُمُ الكنائسُ الكـاثوليكيّـةُ غِنَاهـا قِياساً بالمارونية، وتَفَوُّقَها عليها في النشاط الرُّعائي ومتابعة شؤونِ ابناء المِلَّة.

إلى ذلك، فالكاثوليك هناك هم «الأصَلاءُ» الأقدمُ عهداً كما هي حالُهُمْ في زحلة، وهم ذوو الصِّلة الوثيقة بمدينـة صيدا وجمهـورها المسلم السنيّ(٨٥)، وهي صِلَـةٌ ناجمـة، بَيْنَ امور اخرى، عن نِسْبَتِهم المُرْتَفِعَة بين كبار تِجّار المدينة(٨٦)، ومنهم مجيد الخوري الـذي

(٨٤) بحسب الأرقام الرسمية الكتائبية عن الاعضاء في ١٩٦٢، في لبنان ككل، كـان ٨٠٪ منهم موارنـة و١٠٪ من المسيحيين غيـر المـوارنـة و١٠٪ من غيـر المسيحيين. انظـر John. P. Entelis, *Pluralism...*, *op. cit.*, p. 110.

(٨٥) تقليدياً يفوق الروم الكاثوليك سائر المسيحيين عدداً في مدينة صيدا. ففي تقدرات تعود إلى ١٩١٤ ـ ١٩١٥ كان الكاثوليك ٩٦٣ شخصاً والموارنة ٦٥٠ والارثوذكس ١٣١. عن الـدكتور طـلال ماجـد المجذوب، **تـاريخ صيدا الاجتماعي**، ١٨٤٠ ـ ١٩١٤، المكتبة العصريّة، بيروت ـ صيـدا، ١٩٨٣، ص ٣٤٦. وينقل المجـذوب عن «الرسالـة المخلصية» أنّـه «في القرن الثـامن عشر استطـاع المطران افتيمـوس الصيفي مطران الـروم الكـاثوليـك (١٦٨٢ ـ ١٧٢٣) أنْ يحصل على إذْن من السلطـات الشرعيـة المحلية بـأن يكتب لمن أراد من النصارى خارج صيـدا يدعـوهم إليها للعمـل والإقامـة فيها. وبحضـور وجهاء الطـائفة في صيـدا استكتب المطران القاضي الشرعي عهداً بذلك ليكون حجة بيده واشهد الحضور على ما فيه».

(٨٦) عن التقليد التجاري للكاثوليك في صيدا، خصوصاً جهة علاقة العائلات التجارية بالقنصليات الأوروبية، انظر المرجع السابق، ص ٣٥٢ وما يلي.

لُقِّبَ بـ «مخزن صيدا»، وهذا كُلُّهُ ما لا صِلة لِموارنةِ المنطقةِ به، الشيء الـذي تدُلُّ عليـه حداثةُ عهدِ الكنيسة المارونية في المـدينة الجنـوبية الاولى، حتّى إذا عُـرفَ من كتائبيي صيـدا صاحب دكّـان الأدواتِ الريـاضيّة ادمـون خوري، تبيَّنَ انَّ اصلَـهُ القريب قـريـة الصالحيّة.

أما جزين فقد مَثَّلَتْ فيها زعامةُ إدمون رزق لحظةَ تقاطعٍ بين العصـامية الكتـائبية كما عهدناها في جورج سعادة وآخرين، وبين الانتساب إلى عائلةٍ ومدينةٍ كبيـرتين نسبيّاً، الشيء الـذي مَنَـحَ رزق، في وقت لاحق، القـدرةَ على الخـروجِ عن الكتـائب بينمـا كـان الكتائبيُّ امين الجميل رئيساً للجمهورية(٨٧).

وُلِـدَ إدمون رزق في جـزين، والده امين رزق(٨٨) الـذي اسَّسَ في ١٩٣٦ جـريـدة «الحديث» اليومية وتَوَلّى رئاسة تحريرها فيما عادت ملكِيَّتُها إلى إلياس حرفوش. وفي هذه النشرة عمل الصحافي الراحل سعيد فريحة العائد آنـذاك من حلب. وفي مدرسـة «سيدة مشمـوشي» الأهلية درس رزق حتى البـريفيه لِيَنتقـلَ إلى الحكمة في بيـروت ومنهـا إلى اليسوعية، حيث تخرَّجَ حامـلاً شهادةَ الحقـوق من الأكاديميـة اللبنانيـة في ١٩٥٧. وبعد فترةِ التَّدَرُّجِ في مكتب النـائب البيروتي الـراحل شفيق نـاصيف، انتقل رزق إلى العمـل المستقل كمحام جزائي. لكنه في طريقه إلى تلك المحطة مارس اعمالاً كثيرة بينها التعليم ما بين ١٩٤٩ و١٩٥٨ ثم الانتساب إلى نقابة المحامين، كما شَغَـلَ رئاسـة لجنة الـدفاع عن حقـوق معلمي المدارس المجـانية. وإلى التعليم عمـل رزق منذ ١٩٥١ في الصحـافة منتسبـاً ايضاً إلى نقـابـة المحـررين فتنقّـلَ مـا بين «البيـرق» و«الجـريـدة» و«العمـل» و«السياسة» التي تَوَلّى المسؤولية عن صفحتين للسياسة الخارجية فيهـا في ١٩٥٦. وفي ١٩٥٨ ـ ١٩٥٩ عَمِلَ في «الأنوار» الناصريـة يومـذاك برغم كتـائبيته ومعهـا في الإذاعة اللبنـانية حيث بقي حتى ١٩٦٨ فكتب التعليقَ السيـاسيَّ اليوميّ، وهـو مـا كَتَبَـهُ كـذلـك للتلفزيون أواخر الفترة المذكورة.

في «العمل» كتب إدمون رزق افتتـاحية «حصـاد الأيام» وهـو ما واظب عليـه حتى ١٩٦٨، أي طوال مرحلةِ التحالفِ الشهابي ـ الكتائبي حيث امتزج وَعْيُ رزق الكتائبي بما يُمكن أن نُسَمِّيَهُ الإيديولوجيـا الرسميَّـة للدولـة التي كان احـد العاملين في أجهـزتها من خلال وظيفته في الإذاعـة والتلفزيـون. وتحت وطأة هـذا المزيـج طغت على كتائبيـة رزق

(٨٧) ليس من دون دلالة انَّ الكتائبي الآخر الذي خرج عن الحزب فأخرجه الحزب عنه كان لويس ابو شـرف نائب كسروان الذي لا تربطه، من حيث الأصل، صلة بكسروان، كأنما الارتباط بموقع ثـابت كحالـة رزق في جزين، أو انعدام الصلة بأي موقع كحالة ابو شرف في كسروان، يتعادلان عند اضعاف الصلة بالكتائب.

(٨٨) المعلومات الواردة عن جزين وادمون رزق من مقابلة مع الأخير استعملت مادتها في: حازم صـاغية، مـوارنة من لبنان، سبق الاستشهاد، ص ١٩١ ـ ٢٠٠

دعواتُ التعايش والمبالغةُ في الإقتراب من بيئاتٍ سياسيةٍ وعقائديةٍ مُغايِرَةٍ للكتائب مع تَوْكيدٍ خاصٍ على العَلْمنة.

وما لبث رزق أن أصبح «خطيب الحزب» إلى جانب الياس ربابي ولويس أبو شرف، لكنّه كان ايضاً احد خطباءِ المناسباتِ الدينيةِ الإسلاميّةِ في بيروت والجنوب، ولا سيّما منها مناسبات عاشوراء التي شكّلَتْ لديه فُرَصاً لِتَكرارِ شعاراته في التعايش بين الطوائف والاديان. وفي أوائل الستينات دخل المكتب السياسي لِحِزْبِهِ. وذلك قبل سنوات على وصوله إلى النيابة، حيث جرى العُرْفُ الكتائبيُّ على ان يكونَ النائبُ الحزبي، وبصورة تلقائية، عضواً في هذا المكتب.

في ١٩٦٨ نجح المحامي الصّاعد في أنْ يخترق اللائحةَ التي انشأها ائتِلاف القطبَيْنِ مارون كنعان وجان عزيز من دون أن تكون دائرةُ جزين مشمولةً بـاتفاقِ «الحلف الثلاثي». إلا أنّ هذا النجاح سبقَتْهُ مقدمات نموذجِيّةٌ بدورها.

فَعَلى النِّطاقِ الجزيني شارك رزق منذ ١٩٥٦ في تأسيس «نادي فتيان الشلّال في جزين» و«رابطة شباب منطقة جزين ومغدوشة»، تماماً كما فَعَلَ جورج سعادة الذي انتسب إلى جمعياتٍ بترونيةٍ في بيروت.

واقعُ الحال، إنَّ دخول رزق حلبة العمل البرلماني لم يَعْدَمْ صِلَتَهُ بالتركيب العائليِّ الجزينيِّ وما يَتَرَتَّبُ عليه، فقد انقسم الجزينيون تقليديّاً إلى حِزْبِيَّتَيْن، القَطّارِيِّيْن نسبةً إلى عائلة قطّار، بزعامة احد اجبابها آل كنعان، وحِلْفِ العائلات غير الكبيرة عددياً (المعوشي، ناصيف، عازار، عزيز) التي رأت أنَّ اسْبَقِيَّتَها في العَرَاقَةِ تُعْطِيها احَقِّيَّةَ التمثيل وأرْجَحِيَّةَ الصّدارة على القطّارِيِّيْن. والراهنُ أنَّ هذه العائلات التي تَكْثُرُ المصاهراتُ في ما بينها، كانت سبقَتْ القَطّارِيِّيْن في العلم والثراء ولم تَسْتَسِغْ الصعودَ الشعبيَّ لسليمان كنعان، الوجهِ الجديدِ للعامة والفلاحين. فمنصور يوسف المعوشي وفرحات ناصيف شَغَلا عضوية مجلسِ إدارةِ جبل لبنان قبل كنعان بسنوات، فيما كان سليم ضاهر المعوشي قائمقامَ جزين في عهد المتصرفية ويوسف ناصيف قائدَ الفرسان في العهد نفسه وسليمان المعوشي واحداً من ضباطه.

على أنَّ محاولةَ التَّخَلُّصِ من الجِزْبِيَّتَيْن ومن تَلْخيصِ الحياة السياسية فيهما، كانَتْ تَصْدُرُ دائماً عن خارج جزين: في البداية عبرَ آل عازوري، من قرية عازور، والتي بَرَزَ منها نصري ومن بعده كلود ممن اقْتَصَرَ طموحُهُمْ السياسيُّ على ضرورةِ اخْذِهِم في عين الاعتبار إلى جانب القطب الجزيني. وبعد ذلك صَدَرَتْ محاولةُ التغيير عن حزب الكتائب في قرى الوسط والساحل والذي بَرَزَ منه رشاد سلامة ابن الشاعر بولس سلامة من قرية بتدين اللقش الصغيرة، والدكتور بازيل عبود من قرية القنّاية الاقرب إلى صيدا

والذي نجح، كما رأينا، في أنْ يُلْحِقَ الهزيمة بمارون كنعان، ابن سليمان في الانتخابات الفرعية التي أُجْرِيَتْ في ١٩٥٩.

ولم يَتَرَدَّدْ عبود تعقيباً على انتصاره الذي كرَّرَهُ في ١٩٦٠ عَبْرَ تحالفه مع جان عزيز، الخصم التقليدي لكنعان، في أنْ يَعْتَبِرَ فوزَهُ الانتخابي تَدْليلاً على حداثةٍ سياسيةٍ انْزَلَتْ الهزيمة بـ «الإقطاع القديم»[٨٩]. أما «الإقطاع» هذا فكان في حقيقة الأمر تسميةً شعبويةً سهلةً للدور السياسيّ الذي لَعِبَتْهُ تقليديّاً عائلاتُ بلدةٍ جزين، خصوصاً أنَّ الأخيرة تشكِّلُ في آخر المَطافِ اقلَّ من ثلث القضاء المُسَمَّى باسمها فيما تَسْتَأثِرُ بِحِصَّةِ الأسد في التمثيل السياسي للقضاء، فارضةً مَنْ تَقْبَلُهُ، وبشروطها، شريكاً ثانوياً إلى جانبِ الزعيمِ الجزيني الذي نَمَتْ الكتائبُ خارجَ دائرةِ تأثيرِهِ.

ومع إدمون رزق، الكتائبي منذ حداثة أظافره[٩٠] طرأ جديدان على الحياة السياسية لجزين: من ناحية بدأتْ عائلاتُ البورجوازية الصغرى، الكبرى نسبياً في عددها (عون، الأسمر، حلو، رزق، كرم) والتي كانت موزَّعَةَ الولاءِ بين القطّاريين والحِلْفِ المُنَاهِضِ لهم، (كانَتْ عائلةُ رزق في عِدادِ هذا الحلف) تَشُقُّ طريقَها الخاصَّة بها. وقد اقترَنَ الطموحُ الجديدُ بِتَحوُّلاتٍ ديموغرافية واخرى اجتماعيةٍ اوْسع.

فديموغرافيّاً، وبعد انْ طالَ انحصارُ جزين في «الضيعة»، الواقعة شرقاً، راح التَّزايُدُ السكانيُّ يُوجِدُ مناطقَ سكنٍ جديدةً ومُتَوَسِّعَةً، أكانَ في الجنوب المُطِلِّ على قرية كفرحونة أم في الشخاريب ومار يوسف غرباً، الشيءُ الذي جعل المدينة الأصلية وعاءً لأعدادٍ متعاظمةٍ من الريفيين الوافدين.

واجتماعياً، شرعَتْ المشاكلُ الناجمةُ عن تحوّلِ جزين إلى مدينةٍ تَسْتَعْصِي على الزّعامات التقليدية وقُدْرَتِها على ابتكارِ الحلولِ واستشرافِها، يَنْطَبِقُ ذلك على زعامة العائلاتِ القديمةِ (جان عزيز) المُرَاهِنَةِ على الإنبعاث عبر الشهابية، انطباقَهُ على الزعامة القَطَّاريَّة (مارون كنعان) التي شاخت ولم تستطع مواجهةَ مسائلِ الإنتقالِ إلى الحالةِ المدينيّةِ[٩١]. ولم يَكُنْ بلا دلالةٍ انَّ القفزةَ التي حقَّقَها إدمون رزق في اتجاهِ الإقرارِ به

(٨٩) John. P. Entelis, *Pluralism...*, *op. cit.*, p. 139.

(٩٠) بحسب منح الصلح في مقابلة معه (سبق الاستشهاد) انتمى رزق إلى «الحزب التقدمي الاشتراكي» قبل انتسابه إلى الكتائب، الواقعة التي نفاها رزق.

(٩١) كان التحدي الذي واجهته الزعامات التقليدية في جزين اكبر منه في مناطق الأطراف الأخرى، ليس فقط بفعل توسع جزين، بل ايضاً ـ ومن جهة اخرى ـ لأن مشكلة الأرض حلّت فيها منذ حلّت في الجبل اواخر القرن الماضي بحيث تملّك الفلاحون الأرض وكان هذا بمثابة جرم جبلي في التجربة الجزينية. والمعروف انَّ سليمان كنعان، والد مارون، بنى زعامته انطلاقاً من قيادته الفلاحين آنذاك، إلاّ انَّ «السلالة» غلبت السياسة الحديثة وامسكت بخناقها على عكس الحالة الجبلية حيث اتسعت قاعدة العمل السياسي، سلمياً وتدريجياً، لعائلات متنامية العدد.

كزعامـةٍ ناشئـةٍ، جاءت مـع تفاقم مشكلـةِ المياه في أطـراف البلدة والتي أصـابَتْ بعض عائلاتِها الهامشية مِمَّنْ لم تَجِدْ آذاناً صاغيةً عند زعماءِ التقليدِ السياسيّ، فقادَهـا إدمون رزق في تظاهـرةٍ مطلبيّـةٍ يقـولُ الجـزينيـون إنّهـا لعبَتْ نصف الـدور في إيصـالِـهِ إلى البرلمان(٩٢).

من ناحية اخـرى، تحقَّقَ للكتائب عَبْـرَ إدمون رزق مـا لم يَتَحَقَّق لها في الكثيـر من مناطق نموِّها الأخرى خارج المركز البيروتي ـ الجبلي. فقـد عثرَتْ في جـزين على مُمَثِّلٍ ينتسب إلى البلدة الكبيرة لا إلى القرى الهامشية، واستطراداً إلى واحدة من عائلات هذه البلدة وإن طغى عليها الانتماء إلى البورجـوازية الصغيـرة. وبهذا المعنى حمـل رزق معه إلى حزبه مصدَرَ قُوَّةٍ خاصّاً به تَمَثَّلَ بالعائلةِ والبلدةِ، بما منحه قوّةً تفاوضيَّةً حيالَ حـزبه، الشيء الذي لم يتوافر للكثيرين من الريفيين أصحاب الحالاتِ المشابهةِ.

اما دِرْدْغَيّا(٩٣)، اكبـر القرى المسيحيـة في قضاء صـور والواقعـة قرابـة ١٧ كلم شمال شرقي المدينة، فتُقَـدِّمُ عيِّنَةً مختلفـةً في تفاصيلهـا من دون أنْ تختلفَ في المنحى العام.

فقـد اقتصر سكـانُ القريـةِ، التي تتوسَّطُ قـريتَيْ العبـاسيـة وصـريفـا الشيعيتين الكبيـرتين، على الروم الكـاثوليـك، في استثناء بيتٍ واحـدٍ مارونيٍّ وآخـرَ شيعي. وبُعَيْدَ الحرب العالمية الأولى هوجِمَتْ دِرْدْغَيّـا من قبل العصـابات، لكنهـا لم تُحْرَقْ، كمـا حصل لمرجعيون، وذلك لِوجُودِ حاميـةٍ فرنسيّـةٍ في صور. بَيْـدَ أنَّ ابناءهـا تسلحوا وسقط منهم ـ بحسب رواية أهل القـرية ـ ٧ قتلى، الشيء الـذي زَكّى الإعتداد بـالبأس بين ابنـائها. يُضاف إلى ذلك أنَّ توزُّعَ الوجاهةِ المحليـة للقريـة بين فرعين من آل بـدوي لم يَحُلْ دون تنافُسٍ كان يَتَّخِذُ بين الفينة والأخرى شَكْلَ الاشتباكاتِ ذات الكلفة الدمويّة.

لقد اقْبَلَ شبان دردغيا الكاثوليك على الكتائب في الخمسينـات فانشـأوا فيها بيتـاً للحزب، ثم تعاظم عددُهُمْ في الستينات، إلا أنَّ العائلة التي حَضَنَتْ هذا النمو كانت عائلـة الخوري التي تُعتبرُ «اقَـدَم» و«اوْجَه» من عـائلة بـدوي. ولم يكن تراجـعُ آل الخوري غيـرَ واحـدٍ من تعابيـر التراجُـعِ الذي طَـرَا مع الاستقـلالِ على القريـة ككلّ، بعـد أنْ حاول الإنتدابُ الفرنسيُّ جَعْلَ وُجَهائِها وُجَهَاءً على المنطقة الشيعيّة المحيطة بها.

فَقَبْل انْ تزولَ تاثيراتُ تجربةِ العصاباتِ، تكاثر العدَدُ الشيعي في الجوار، واتّسعَتْ

(٩٢) وبهذا المعنى كان في ادمون رزق جرم حوراني (نسبة إلى اكرم حوراني) صغير: زعامة بورجـوازية صغيـرة تواجه عائلات التقليد السياسي، مستفيدة من تزايد ثقل الأرياف في حياة المدينة وتقرير شؤونها.

(٩٣) المعلومات عن دردغيا من احد ابنائها الذي رفض ذكر اسمه.

حركةُ الهجرة المسيحيّة إلى بيروت وصور[٩٤] والمُغْتَرَبات، معطوفةً على عدم وجودِ تمثيلٍ انتخابيّ للمسيحيين هناك[٩٥]. كلّ هذه العوامل قَلّصت حَجْمَ واهمِّيَّةَ القرية التي عُرِفَتْ بالزراعة وعَمِلَ ابناؤها «معلمي عمار» في سائر القرى الجنوبيـة، من دون أنْ يَكُفُّوا عن ممارسة تقليد في البناء يُجيدُه اهل دردغيا يقوم على تَسْوِيرِ البيوت التي يبنونها لانفسهم وكانَّهم مهجوسون بالحمايةِ والبحْثِ عنها.

(٩٤) في مدينة صور نفسها ظهر حزب الكتائب منذ ١٩٣٨ في الوسط المسيحي، وذلك «بعد ان قام الياس ربابي بتاسيس فريق رياضي من عشرين لاعباً تحولوا فيما بعد إلى اعضاء فاعلين في حزب الكتائب». حسن دياب، **تاريخ صور الاجتماعي، ١٩٢٠ ـ ١٩٤٣**، دار الفارابي، ١٩٨٨، ص ١٧٩.

(٩٥) خصوصاً بعدما فصلت دردغيا عن قضاء الزهراني الذي يحظى بمقعد للروم الكاثوليك، وضُمَّتْ إلى قضاء صور.

الفصل الثالث

بيار الجميل
«الفاشي»؟

معَ الشّهابيـةِ، إذن، بداتِ الأطـرافُ تُنافسُ المـركزَ على الصّـدارةِ الكتائبيَّـةِ، كما نـافستِ القرى والبلـداتُ الصُغرى ومعهـا التعليمُ الأهليُّ والإنتاجُ الهـامشيُّ المتراجـعُ، المدنَ والبلداتِ الكبرى والإنتاجَ المُتَـوسِّعَ والتعليمَ الأجنبيَّ والمـوقعَ البـارزَ في التّراتبِ الأهليِّ. كذلك شـرعتِ العِصاميـةُ والطموح البـورجوازيـانِ الصغيرانِ يَحُـلانِ في القيادةِ وتحلُّ معهما نبرةُ «التعايش» الشعبـويةِ الّتي لم تَعُـزْ الشّطارةُ الانتهـازيةُ بعضَ حـامليها والمفيدينَ منها. ولم تكن النبرةُ المذكورةُ غير واجهةٍ تنطوي وراءهـا بيئاتُ المنـاطقِ على إحباطاتِها الإجتماعيةِ وميولها إلى العنفِ وتجاربها المريرةِ في... التّعايش.

ولم يكن حزبُ الكتائبِ في هذا غيرَ عيِّنةٍ على حالاتٍ حزبيَّةٍ «حَـدَاثِيَّةٍ» لعبت أدواراً أشدُّ خطورةً وأكثر راديكاليّةً في العالمِ العـربيّ، بحيث تَرافَقَ تـركيزُهـا المبالـغُ فيهِ على «الشّعب» و«الوَحْدَةِ» مـع تفسُّخٍ وسيطـرةٍ فئويّـةٍ لم يكن الحزبُ الـوحدويُّ نفسُـهُ بمنأى عنهما(١).

بهـذا المعنى اندمـجَ في الكتائبِ، إبّـان العهـد الشّهـابي، مُستـويـانِ من الـوعي الأيديولوجي والقِيميّ يتّصف كلّ منهما بعددٍ من الملامحِ وإن تقـاطعا عنـد بعضِ النقاط والمنعطفات كما سنرى لاحقاً.

أمـا المستـوى الأول، الطـائفيّ والبيـروتيّ ـ الجبليّ، فكـان صـريحـاً في إعـلانِ اللبنانيينَ طوائفَ، مَرناً ـ برغم تطرفه الفولكلوري ـ في إبداء رغبته بالتوصل إلى تسـويةٍ بينها. كذلك فهو لم يكن قومياً بل بدا أقربَ إلى وعيٍ مسيحيٍ ديمقراطيّ معاقٍ تندمجُ فيه أبرشيةٌ كَنَسِيَّةٌ ضيقةٌ، وإبقاءٌ للعنفِ كاحتمـالٍ يَرتبطُ ظهـورُه بانهيـارِ التسويـةِ واضطرار المسيحيينَ إلى حمايةٍ تعجزُ الدولةُ عن توفيرها. ولم يكن وعيٌ كهذا لِيتعارضَ مع مقدِّماته المُجْتَمَعِيَّةِ في الجبلِ وبيـروت، حيثُ قاعـدةُ اقتصادِ الخـدماتِ الكـوزموبـوليتي، ولا مع احتمالِ الإقتراب من مِنَصَّةِ الدولةِ المرنةِ شِبْهِ الفيدرالةِ بصفتِهِ التمثيليةِ المذكورةِ.

ومع تفاؤلِهِ هذا، فإنَّ عنصرينِ في هذا الوعي، هُمـا الإرث الرّيفيُّ والخـوفُ، جعلا

(١) في سبيـل حالـة حزب البعث في سـوريـة، انظـر Nikolaos Van Dam, *The struggle for power in Syria*, Croom Helm, London.

طائفيَّتَهُ الراسماليةَ مسكونةً بتضامنٍ عشائريّ أو مشـرعةً عليـهِ كاحتمـالٍ دائمٍ، الشيءُ الَّذي قرَّبهُ في أزمنةِ الفوضى والقلقِ من المستوى الثَّاني.

وأما الأخير الَّذي تزايدتِ العلامـاتُ على نفوذِهِ في المختبـرِ والتجربـةِ الشّهابيين، ففي كنفِهِ نمت مفاهيمُ ومصطلحاتُ «العلم» و«الحداثةِ» و«العصرِ» و«الإيمانِ» (؟)[٢].

لقد قامَ الوعيُ هذا على تزويرِ تَعَصُّبِ البيئاتِ الطرفيـةِ ذاتِ النَّمط شبهِ العشـائريّ وسَكْبِ إحباطاتِها في قَالَبٍ دمجيّ، قَوميّ لبنانيّ، مرةً، وعلمانيّ مرَّةً أخرى. كـلُّ هذا فيمـا كان انفتاحُ ابوابِ الدولةِ أمام النُّخَبِ الكتائبيةِ في الأطرافِ يُفاقم الطابَعَ الانتهازيَّ لعمليةِ التـزويرِ كمـا تجلوهـا تجـاربُ الكثيـرينَ من الكتـائبيينَ مِمَّن صعـدوا إلى القيـادةِ بعـد ١٩٥٨[٣].

الراهنُ أنَّ الكتائبَ اتسَّعت بتكوينِها وإيـديولـوجيتها الأصليينِ، كحـزبٍ مقبلٍ على الدَّولةِ التَّعايشيةِ ونظامِهَا، وكحامٍ للجماعةِ في آن، لِمرونةٍ تتيحُ لهـا أن تُلبِّيَ غَرضين غيـرَ مُتكـافئينِ أو حتّى متنافـرينِ أحيانـاً. ولَئِن نجمَ ذلكَ عنِ التعـارضِ الكامنِ في مقـدَّمـات الحزبِ نفسِها، فذلك لا يعدو كونَهُ صدىً وتعبيراً عن استحالةِ إنماءِ تجـربةٍ تعـايشيَّةٍ بين الطوائفِ أو الجماعاتِ، على الغِرار السّـويسريِّ، في العـالمِ العربي الـذي يبقى الخوفُ سَيِّدَ «السياسةِ» عند اقليَّاته الخـائفةِ، والمستقـويةِ على خـوفها بـذاكرةِ الأرضِ التي لا تموت.

إزدواجُ الوطنيَّةِ

مِن البديهي أنَّ الَّذين أطلقوا تسميةَ «فاشيّ» على الكتائبِ، فاتتهم المعرفـةُ الفعليةُ بـالفاشيَّـةِ والتي ينهضُ شرطُ وجـودهـا الأوَّلُ على تحققِ درجـةٍ بعيـدةٍ من الـوَحْـدَةِ في المجتمعِ - الأمَّةِ (الصيغةُ الألمانيةُ) أو عبر الدَّولةِ القوميةِ (الصيغةُ الإيطاليـةُ). ولا يُغَيِّرُ كثيراً، في ذلك، أن يكونَ توكيدُ هذه الوحدةِ، الدّينية أو العـرقية أو القـومية، عـلامةً على التلكوءِ عن إنجازِ التوحيدِ السياسي والتغلبِ على المسألةِ الزِّراعيةِ كما كانت حالتا المانيا وإيطاليا.

والحقُّ أنَّ هذه السِّمةَ، أي الجمعَ بين تحققِ الوَحدَةِ والتُّوكيـدِ المبالـغِ فيهِ عليهـا، هِي سِمةُ الراسماليّاتِ الَّتي تأخر تشكيلُها وقيامُ وحـداتها السيـاسيةِ إلى النصفِ الثّـاني مِن القرنِ الماضي. بِمعنى آخر فإنَّ تعابيرَ الإعجابِ بالقوةِ ورموزِهـا، وهي موجـودةٌ حتماً في الكتـائبِ، لا تسمحُ وحـدَهـا بـإطـلاقِ مثـلِ هـذا الـوصفِ على تنظيمٍ لعبَ التكسـرُ

(٢) وجد «الإيمان» في المستوى الأوّل كنسياً ولاهوتياً وإلى حد ما صوفياً، اكثر منه دعوة وحضّاً سياسيين.

(٣) راجع في الفصل السابق تجارب جورج سعادة وجوزيف الهاشم وادمون رزق وغيرهم.

المُجْتَمَعِيُّ الدينيُّ دوراً أساسيّاً في إطلاقِه.

وقد لاحظَ مبكراً ألبرت حوراني بصددِ معظمِ تلكَ الحركاتِ شبهِ العسكريةِ التي عرفها المشرقُ العربي في الثلاثيناتِ، وهي كثيرةٌ، أنّه «حتّى حينَ كانتِ الحركاتُ الشّبابيةُ تتخذُ شكلاً شِبهَ عسكري، فهذا لم يعنِ بالضّرورةِ أنّها كانت فاشية. لقد كانت فقط تحاولُ ان تلبّي بعضَ الحاجاتِ الإنسانيةِ الّتي تتمُ تلبيتُها في بُلدانٍ اغنى عبر ايامِ الاحتفالاتِ الوطنيةِ وعبر الخدمةِ العسكريةِ ومنظّماتِ التّطوع»(٤).

وفي حالةِ الكَتائِبِ تحديداً كانت الحاجَةُ إلى حمايةِ الطّائفةِ معطوفةً على هذا التّوقِ العامِ إلى الشّكلِ الحديث والنظامي. بَيدَ أنّ «الطائفةَ» تنتمي، بتعريفِها، إلى صعيدٍ اجتماعي ـ تاريخي يصعُبُ ربطُه بذاك الّذي تنجُمُ عنهُ الأزماتُ الوطنيّةُ الشّاملةُ كتلكَ التي أوصلت الفاشيّاتِ الإيطاليّةَ والالمانيّةَ والأسبانيّةَ إلى حُكم بلدانِها في العشريناتِ والثّلاثيناتِ. وابرزُ تلك الأزمات التي لا يوفّر التّاريخُ اللبناني الحديث إلاّ هياكلَ عَظْميّةً عنها، ذاك الإحتقان الضّاغطُ الّذي اصابَ الطبقاتِ الوسطى الأوروبيةَ بعد احداثٍ جسامٍ كالرُّكودِ المالي وما سبَقه من خروجِ روسيا من السوقِ العالميةِ إثر قيامِ الثورةِ البلشفيةِ في ١٩١٧، نَاهيكَ عن الحربِ العالمية الأولى وما امْلَتْهُ من دُيُونٍ وصلحِ فرساي المُذِلِّ لالمانيا، فضلاً عن عجزِ المانيا وإيطاليا عن إيجاد مستعمراتٍ تليقُ بمصالِحِهما ومزاعمِهما القومية.

لهذا كانت النبرةُ الكتائبيةُ التي تصور الإنقسامَ المُجْتَمَعِيَّ وتُثير ضرورةَ «حمايةِ» المسيحيينَ أو تقترحُ التّعايشَ علاجاً، عديمةَ الصلةِ بالنبرةِ الفاشيَّةِ الهجوميَّةِ التي تستندُ إلى «وَحدةٍ» مبالغٍ في توكيدِها(٥)، بحيث يرى انتليس أنّ الكتائبَ «على عكسِ مثيلاتِها في مِصر وسورية والعراق، إفتقرت إلى المواصفاتِ الهجاسيةِ واللاّعقلانيةِ التي اتّجهت تلك الحركاتُ الفاشيَّةُ الجديدةُ لأن تتسمَ بها. فلم يكن هناكَ توكيدٌ على التفوقِ العُرقيّ كما انطوت عليه عقيدةُ انطون سعادة في القوميّةِ السُّوريةِ ولا على طلب السُّلطةِ أو الحكم التوتاليتاري [...] وحتى جهازها شبهِ العسكري عكسَ سعياً وراءَ النظامِ اكثر ممّا وراء السلطةِ»(٦). بدورهِ فإنّ انطون سعادة نفسَه إتّهم الكتائبَ بأنّها في اهتماماتِها العسكريةِ لا تفعلِ غيرَ محاولَةِ تقليدِ حزبِهِ(٧)، وهي تبقى اهتماماتٍ سطحيّةً وسخيفةً في آخرِ الأمر كما تدلُّ إلى ذلك وثائقُ الشرقِ الأوسط البريطانية عن تلكَ الفترة. ففي نظرِ سبيرز، مثلاً،

(٤) Albert H. Hourani, *Syria and Lebanon. A political Essay*, Librairie du Liban and Lebanese Bookshop, 1968, p. 196. المعروف ان الكتائب اعتمدت منذ ١٩٥٢ تسمية «الحزب الديمقراطي الاجتماعي» لكن الاسم الاصلي ظلّ الغالب.

(٥) راجع: John. P. Entelis, *Pluralism...*, *op. cit.*, p 45.

(٦) *Ibid.*, p. 51.

(٧) انظر: سعادة، اعداء العرب اعداء لبنان، سبق الاستشهاد، ص ١٢٠.

امكن تشبيهُ الكتائب والنُّجّادة بـ «منظماتِ الكشّافةِ في الإمبراطوريةِ البريطانية. إنهم يتميَّزون بالصدقِ وبالنزاهةِ في المسائلِ الماليةِ (في بلدٍ تعمُّ فيهِ الرشوةُ) وبالحرصِ على خدمةِ بلدِهِم»، ومع انَّ المنظمتينِ «ليستا معاديتينِ للدستورِ والديمقراطيةِ، ولكن حيث انّهما تتكونانِ من الشّبيبةِ المتحمِّسةِ فإنّه لا يمكن استبعادُ التطرفِ والطّيش من سلوكِهِما»[٨].

ابعد من ذلك، رتَّب البُعدُ الإنقساميُّ للتّشكيلِ الطائفيّ اللبنانيّ ميلاً كتائبياً لا تنقُصُه الواقعيةُ إلى إغفال البُعدِ التوحيديّ المزعوم لـ «الامة» و«القوميّة»[٩]، علماً انَّ البعدَ المذكورَ هو عمادُ الفاشيةِ الأيديولوجية لجهةِ استنجادِها بالأسطورةِ والتاريخِ وما قبلَ التاريخِ لاستخلاصِ وجهةٍ واحدةٍ من ذلك كلِّه. وفي مقابلِ الصورةِ الفاشيةِ الورديةِ عن الأمةِ والوطنِ، لم يكتم الكتائبيونَ، مباشرةً او مداورةً، قِلَّةَ ثقتِهم بالتكوينِ المُجْتَمَعِيِّ اللبنانيّ وحاجتَهُم المهووسةَ احياناً للحصولِ على الإطمئنانِ حيالَ انقلاب هذا التكوينِ إلى مصدرِ دائمٍ للخطرِ. اي انهم في هذا، ابتعدوا كثيراً عن الصورةِ السوريةِ للامةِ والشّعبِ اللّذينِ ينطوِيانِ على «كل الحقِّ والخيرِ والجمالِ»، فلا تشذُّ فيهما غيرُ حفنةٍ من «يهود الداخل». وبرغمِ العناصرِ الجسديةِ والحمائيةِ والرمزيةِ وشبهِ القوميةِ الّتي عبَّرت عن نفسِها بأشكالَ متفاوتةٍ في التاريخِ الكتائبيّ، ظَلَّ التوكيدُ الطاغي في «العقيدةِ» الكتائبيةِ ينصَبُّ على ما هو مُجافٍ لتلك العناصر[١٠]. فقد راى امين ناجي، برغمِ إشاراتٍ قليلةٍ مغايرةٍ، انهُ «ليس في الشّعورِ القوميّ ما يناقِضُ في طبيعتِهِ النظرةَ والقيمةَ الإنسانيَّتين. ولكنَّ الشعورَ القوميَّ متى خرجَ عن سياقهِ الإنسانيّ جرَّ القوميينَ إلى مهاوي التعصبِ فالإنزلاقِ في مفاهيمَ خاطئةٍ [...] انَّ الشعورَ القوميَّ يتّأنسنُ اكثرَ فأكثرَ مع تقدُّمِ البشريةِ العام [...و] الإنسجامُ المنشودُ لا ينتجُ فقط عن الإنتماءِ إلى مجتمعٍ قوميّ واحد. قد تقومُ دوافعُ اخرى لها وقعُها الأقوى في نفوسِ النّاسِ فتتخطّى الشّعورَ القوميَّ»[١١].

ويرى كتائبيٌّ آخر نيطَ بهِ التعريفُ بحزبِهِ خلالَ الفترةِ نفسِها، انه «من جهةٍ مبدئيّةٍ نعتبرُ ان القوميَّةَ اللُّبنانيةَ هي واقعٌ طبيعيّ. ومن جهةٍ علميةٍ نعتبرُ ان العلمَ قد تخطّى نظريةَ القومياتِ كلِّها. هذا الامرُ امرٌ عاطفيٌّ لا يتناسبُ مع تطوراتِ العلمِ الحديث». ويُضيف الشارحُ الكتائبيُّ بلغةٍ اكثر انشِداداً إلى المنطلقاتِ منها إلى العناصرِ المستجدَّةِ

(٨) «وثائق الشرق الاوسط»، عربها ونشرها رغيد الصلح في مجلة **النضال** في ٨/١٠/١٩٨٣.

(٩) سبق لمنفرد هالبرن، بين آخرين، ملاحظة انّ لبنان هو «بين عدد من الدول في الشرق الأوسط التي هي مستقلة من دون ان تصبح، حتى الآن، قومية»، والدليل على ذلك قيامه على «تعايش الجماعات الاثنية والدينية». Manfered Halpern, *The Politics of social change in the Middle East and North Africa*, Princeton University press, 1965, p. 203.

(١٠) شهدت الستينات الشهابية محاولة وضع «عقيدة» للحزب بما تثيره الكلمة من اصداء لجوجة شبه توتاليتارية.

(١١) امين ناجي، **فلسفة العقيدة الكتائبية**، منشورات الكتائب اللبنانية ١٩٦٩، ص ٤٦ ـ ٤٧.

في الصراع السياسيّ: «فالحديثُ عن القوميةِ اللبنانيةِ، أو عن أيةِ قوميةٍ أخرى إذا اقتضاهُ واقعُ الحالِ أحياناً، فإنه حديثٌ لم يعد يحمِلُ الإيمانَ الكافي، لأننا نعتبِرُ أن العصرَ قد تجاوزَ هذه النظرةَ البدائيةَ للأمة»(١٢).

بدورهِ كان الفهمُ الكتائبيُّ لـ «الشَّعب»، ومنذُ البدايةِ، موضوعاً لتشوُّشٍ عملت الأفكارُ وتركيبةُ الواقعِ اللبنانيّ وحساسيّاتُهُ على إنتاجِهِ:

ناحيةٍ «الشعبُ اللبنانيُّ» المُقيمُ في الوطن والمؤلّفُ من طوائفَ ينبغي لها أن تتعايشَ، لكنَّ «الشعبَ» من الناحيةِ الثانيةِ كتلٌ لكلٍّ واحدةٍ منها معاييرُها شبهُ المطلقةِ بما يستدعي التضامنَ داخلَ الكتلةِ، وبحثَ الكتلةِ عن امتداداتِها في «المَهَاجر» للإستقواءِ بها على الكتلِ الأخرى وضمانِ الحِمَايةِ الذَّاتيةِ لها.

فقد أوكِلَ للمهاجرينَ ذوي الأكثريةِ المسيحيةِ، تقليديّاً وعددياً، تخفيفُ حدَّةِ «الشَّعب» من جهة، وتوكيدُها من جهةٍ أخرى. وجرياً على نزعةٍ تتدخَّلُ دينيتُها ومذهبيَّتُها في صِنعِ قوميَّتِها، وهي النزعةُ التاريخيةُ التي لا تزال الحركةُ الصهيونيةُ نمطَها البدئيَّ وأهمَّ تعابيرِها، لَحَظَ حزبُ الكتائبِ على الدَّوامِ دوراً بارزاً للمهاجرينَ في صَوغِ الحياةِ السياسيةِ اللبنانيةِ، خصوصاً لدى طرحِ مسائلِ الاقتراعِ والإستفتاءِ وتحديدِ الأكثريةِ والأقليةِ وغيرِ ذلك من قضايا خِلافيةٍ مع المسلمين.

وفي تضافرٍ لافتٍ لنزوعٍ راسماليّ كونيّ يتعدّى القومية، ومنافسةٍ مع المسلمينَ، عصبيَّةٍ عشائريَّةٍ ضاريةٍ، تهبطُ إلى «ما دونها»، كان للحزبِ مساهماتُه الملحوظَةُ في الحقلِ الإغترابيّ، بما يحاولُ استكمالَ جَهدِ الدَّولةِ التي شاركته أيديولوجيا الإغترابِ واتُّهِمَت بالتقصير في تأمينِ مستلزماتِها. هكذا عقدت الكتائبُ باشتراكٍ مع «نادي المهاجرينَ» مؤتمرَ «لبنان المغترب» الأولَ في زحلة وبهذا دَشَّنَ الحزبُ لوناً من النَّشاط «المجتمعيّ» كان محصوراً في الحكومةِ حتى حينِه(١٣). وفي ١٩٤٩ توجَّه إلى مغترباتِ أفريقيا وأميركا الشَّماليَّة والجنوبيَّة وفدٌ كتائبيٌّ قضى في تلك الأقطارِ أكثرَ من أربعةِ أشهر، وعندَ عودتِهِ حاضرَ أحدُ أعضائه في «النَّدوة اللُّبنانية» فرأى أنَّه «لا يَألَمُ المُغتربون لشيءٍ مثلهم للمداولاتِ الرَّاميةِ إلى التنكرِ لهم أو الإفتئاتِ على حق من حقوقِهم، وفي مقدِّمتها الرغبةُ في الحيلولةِ دونَ تمتُّعهم بجنسيَّتهم اللبنانيةِ، تلك الجنسية الَّتي ضحُّوا بالغالي والرخيص في سبيلِ الاحتفاظِ بها والإبقاءِ عليها»(١٤).

(١٢) رشاد سلامة، «حزب الكتائب اللبنانية»، محاضرة منشورة في: النادي الثقافي العربي، **القوى السياسية في لبنان**، دار الطليعة، بيروت، ١٩٧٠، ص ٢٧.

(١٣) انظر إلياس ربابي، «من وحي رحلة الكتائب إلى المغتربين»، محاضرة في الندوة اللبنانية، ٢٥ آذار ١٩٤٩، ص ٨١.

(١٤) المرجع السابق، ص ٧١ ـ ٧٢.

واقع الامر انَّ التركيزَ الكتائبيّ على الهجرةِ، مَثَّلَ في احدِ وجوهِهِ، عنصرَ تخفيفٍ لـ «ايديولوجيةِ الارض»، و«قوميةِ الارض» بذاتِهما، كما يحضرانِ في متوسِّطِ الادبِ السّياسيّ والاجتماعيّ المسيحيّ. وغالبُ الظنِّ انَّ النبض المدينيّ في الكتائبِ جعل «الارض»، وهي قيمةٌ زراعيةٌ معطاةٌ وجاهزة، تواكبُ قيماً حديثه واختياريةً، كـ «الحرية»، مثلاً، فلا تتقدم وحدها كما ظهرت مع انطون سعادة[١٥]. فإذا كان التيّار المسيحيّ العريض قد جعلَ ارضَ الجبلِ «محكّاً للتّمييز»[١٦] بما يستبعدُ الإختيارَ الإنساني، فإنَّ الكتائبيةَ مارست هذا التّمييز انطلاقاً من كونِ «الارض» قاعدة لخياراتٍ أخرى (بلدُ جميع الأديان، الملاذُ، الحريةُ، المبادرةُ الفردية، البرلمان) تتعدّى المُعطى الجغرافي.

ومن قبيلِ حلِّ التناقضِ بين اللبنانيةِ شبهِ القوميةِ وبين التعويلِ على الهجرةِ، كان لا بدَّ من استدخالِ الهجرةِ، والإصرار، تالياً، على دورٍ للمهاجرينَ اللبنانيينَ في لبنانَ نفسِهِ، بما حملَ أحَدَ دارسي الأحزابِ اللبنانيةِ على القولِ إنَّ الكتائبَ «تواجهها مفارقةٌ لا تبدو على بينةٍ منها، إن لم تكن رافضةً الإعترافَ بها. والمفارقةُ ناجمةٌ عن زعمِها انَّ كلَّ الناسِ الذينَ يعيشونَ في لبنان الحاضِر قد فقدوا طابَعَهم الأصلي ليصيروا جزءاً من الامَّةِ اللبنانية. ومع هذا فعندما يهاجرُ ايٌّ منهم للعيشِ في بلدٍ آخرَ فلسوف يستحيلُ عليهِ ان يفقدَ طابَعَه اللُّبناني»[١٧]. ولا يَنْتَقِصُ من تسجيلِ مايكل سليمان هذه الملاحظة انهُ يُبالغُ قليلاً حينَ ينسبُ إلى الكتائبِ اعتبارَها «كلُّ من يعيشونَ في لبنان الحاضرِ قد فقدوا طابَعَهُم الأصليّ».

وفي تفسيرٍ أيديولوجيّ كتائبيّ يُحاول أن يتجاهلَ مسألةَ التوازناتِ العدديةِ ويلتفُّ عليها، كتبت «العمل» في شرحِ الإهتمامِ الكتائبيّ بالاغتراب: «تبنَّت الكتائبُ اللبنانيةُ قضيةَ المغتربين لاسبابَ ثلاثة: الأول أهمية المغتربينَ في إنجاحِ القضيةِ اللبنانيةِ، والثّاني انَّ مستقبلَ «اللبنانيةِ» في المَهاجرِ يبدو كالِحاً، والثالث انَّ المغتربينَ هُم الإمتدادُ العالميّ للبنان المقيم»[١٨].

من ناحيتِها فإنَّ الصهيونيةَ كحالةٍ سياسيةٍ ـ إيديولوجيّةٍ لم تخلُ هي ايضاً من تناقضٍ تعجزُ عن حلِّه تِبعاً لانـدماج طابعيها «ما دونَ» القوميّ و«ما بعدَه». فتأويلُها للتّاريخِ انطلاقاً من تجربتِها (ورغبتها) يقودُها إلى اعتبارِ «التجمُّعِ خارجَ الوطنِ أمراً سائراً في العصورِ القديمةِ: فالفينيقيونَ واليونان اقاموا مستعمراتٍ تربطُها بالوطنِ الأمِ وحدةُ اللسانِ والعاداتِ والدين. وكان اليهودُ في بابل ومصر وآسيا الصغرى يُشبهونهم

(١٥) انظر بصدد انطون سعادة و«قومية الارض» عنده، وكذلك بصدد جواد بولس: احمد بيضون، **الصراع على تاريخ لبنان**، سبق الاستشهاد ص ٢٥، ٣٠، ١٠١ ـ ١١١.
(١٦) انظر المرجع السابق، ص ٨٧ ـ ٨٨.
(١٧) Michael. W. Suleiman, *Political parties...*, *op. cit.*, p. 242-243.
(١٨) **العمل** عدد خاص عن الكتائب في ١٩٨٥/١١/٢٧.

في ذلك، على فارقٍ جوهريّ هو التعلقُ بأرضِ إسرائيل»(١٩). إلّا أنَّ هذهِ الثبوتيةَ النّازعةَ إلى قوميةٍ صارمةٍ اشتهرت بها الصهيونيةُ، لا تنفي تبعاً للسبب نفسِه، إقامةَ كيانٍ شديدِ التعدُّد في مصادرهِ القوميةِ، اي قليل القوميةِ بالمعنى الكلاسيكيّ للكلمةِ بما يجعلُه نوعاً من «ولاياتٍ متّحدة» مصغّرة.

على ايةِ حالٍ، فلئن اكّد التّركيزُ على دور المغتربينَ في الوطنِ الأم على الخصوصيةِ المبالغِ فيها للحالةِ اللبنانيةِ، من حيثُ تعدديةِ الطوائفِ والنظر إلى المسائلِ المُجْتَمَعِيَّةِ والفكريةِ مخففةٌ من حدّةِ لونِها القوميّ، فهذا لا يُلغي انَّ مسألةً خلافيةً تطالُ جانباً من جوانبِ تقريرِ الوجودِ نفسِهِ، اي الإحصاءِ، كانت قابلةً دائماً لإضفاء شحناتٍ من التوترِ على النزاعاتِ، خصوصاً انَّ المسائلَ الخلافيةَ عموماً لم ينضبط تناولُها ضمنَ القنواتِ السياسيةِ والدستوريةِ كما انضبَطَ في إسرائيل.

«على يَسَارِ» الطائفةِ

صحيحٌ انَّ الفاشيَّتينِ الإيطاليَّةَ والالمانيّةَ وصلتا إلى السلطةِ في بلدَيهما عبرَ توسُّلِ الحياةِ الدستوريةِ البرلمانيةِ، لكنَّ شكلَ التعايشِ التَّجَمُّعِيِّ في العهدِ الشهابيّ معطوفاً على افكارِ التحديثِ، (وليس قيادةَ «الامةِ» في حالتِها الموحَّدةِ) هو ما لعبَ الدورَ التقريريّ في مشاركةِ الكتائبِ في الحياةِ السياسيةِ وصولاً إلى الإذعانِ لدورتِها ومنطِقِها بعيداً عن العنفِ ومراكمتِهِ والتلويحِ بهِ. وينعكسُ هذا الفارق غيرُ البسيطِ على التفاصيلِ التنظيميةِ، إذ في حين انَّ الميليشيا هي الأساس التنظيميّ في الاحزابِ الفاشيّةِ الكلاسيكية، تبقى «الفرقةُ» شبهُ العسكريةِ على هامشِ التنظيمِ الكتائبيّ الذي يشكّل «القِسمُ» وحدتَه الأساسية(٢٠)، اي انَّ الأشكال الموازيةَ للدولةِ وأجهزتها لا تحتل في الكتائبِ إلا أهمية نسبية جداً، واستثنائية الطابع، إذا ما قِيسَت بالأهمية التي تحتلها في التنظيماتِ الفاشية.

لقد كانَ هذا الإذعان لدورةِ الحياةِ السياسية تعبيراً عن الإلتزامِ بعقدِ «الصيغةِ والميثاق» الذي بداتِ الكتائبُ معَهُ تتحولُ إلى «السياسةِ» بحسبِ التحقيب الرسميّ الذي اتبعتهُ من دونِ ان تَعني «السياسة» حتى تلكَ اللّحظة، أيْ تجاوزٍ لمبدأ الإحالةِ إلى الدُّولة

(١٩) شمويل اتينغر، «الشعب اليهودي وارض إسرائيل»، في: **من الفكر الصهيوني المعاصر**، مركز الابحاث، منظمة التحرير الفلسطينية، ١٩٦٨، ص ٢٧.

(٢٠) Michael. W. Suleiman, *Political parties...*, *op. cit.*, p. 236-238.
وهو ينقل رأياً كتائبياً (سابقاً على الحرب الاهلية طبعاً) مفاده انَّ «الفرق» العسكرية لم تكن دائماً موجودة في حياة الكتائب. انظر، كذلك، **تاريخ حزب الكتائب اللبنانية**، سبق الاستشهاد، ج ١، ص ٢٢٨ ـ ٢٣٩، و«العمق البشري والإداري في الكتائب»، في: **العمل**، في ذكرى التأسيس ١٩٨١/١١/٢٩، و John. P. Entelis, *Pluralism...*, *op. cit.*, p 94.

والضغطِ عليها مِن خارِجها ومن موقعِ التَّحالف معها.

أمـا العقدُ في عُـرفِ الكتائبِ، فيقبـلُ الاختـلافَ والتنـوعَ شـريطـةَ أن لا يـذهبـا بصاحبِهما إلى حدودِ الطعنِ في مرتكزاتِ الوطنِ اللبنانيّ، وفي صدارةِ المرتكزاتِ نهـائيَّةُ الكيانِ والدولةِ. ففي مثلِ هذا الذهابِ إنكارٌ على اللبنانيِّ حقَّه بالسيادةِ، واستكثـارٌ عليهِ «أن يكونَ له كيـانٌ مستقلٌ ودولـةٌ تمارسُ واجبـاتِ وحقوقَ السيـادةِ في نطاقِ المصلحـةِ العليا»(٢١).

وما ينبغي تسجيلُهُ هنـا، وعلى الضِّد من الخـرَافةِ السـائدةِ التي تعـزو كلَّ تطـرُّفٍ مارونيّ إلى الكتائبِ(٢٢)، أن الأخيرةَ غالباً ما ساقها الوفاءُ بالتزامِها هذا إلى مواقفَ «على يَسار» الموقفِ الجماهيريّ للطائفةِ المـارونيةِ(٢٣)، خصـوصـاً في الأطـرافِ، حيالَ مسـألة الوحدةِ اللبنانية. وهذا ما حاول كَريم بقرادُوني أن يقولَـه، بطريقتِـه، حينَ رأى من خلالِ معاينتِه لسنواتِ ما بعد ١٩٦٠، أنَّ بيار الجميل الَّذي لم تقلقْهُ أيُّ معارضةٍ مارونيـةٍ «على يساره» كانَ يتخوفُ «من كلِّ راديكاليةٍ على يمينِه لئلا تُفقدَه مكانَتَه. وهكذا كانتِ المنافسةُ مع كَميل شمعون دائمةً»(٢٤)، نظراً لأنَّ «يمينيّة» هذا اليمينيّ الراديكـاليّ تَقَعُ على أرضٍ خصبةٍ في مجموعِ الطائفةِ المارونيةِ، موضعِ التنافسِ.

فالحوارُ بين المسيحيـةِ والإسلامِ، وبين المسيحيينَ والمسلمينَ، ظـلَّ على الدُّوامِ هاجساً كتائبياً وإن تعدَّدت تعبيراتُـه وصورُه. وحتى إبـانَ الحربِ الأهليـةِ بوصفِهـا أعلى درجاتِ انقطاعِ الحوارِ، والإحتكامِ تالياً إلى العنفِ، كان التصريـحُ اليوميّ لبيـار الجميل نوعاً من ديالوغ مملٍّ يتمحورُ حـولَ أسئلةٍ ثـابتةٍ مـوجَّهةٍ للمسلمينَ («أيُّ لبنـان نُريـد؟») مرفقةٍ بمراجعاتٍ تطالُ الماضي والحاضرَ والمستقبـلَ («هل نكفُـر بالصيغـةِ والميثاقِ؟»)، («أما من رياض صلح آخر؟» إلخ). ذلك أنَّ لبنان في العرفِ الكتائبيّ «لم يكن يومـاً حِمى لأبناءِ دينٍ معيَّنٍ، ولا أرادهُ المحتمونَ بجِبَالِهِ وطنـاً مذهبيـاً أو عنصريـاً، لأنهم لم يكونـوا

(٢١) بيار الجميل، لبنان واقع ومرتجى، الكتاب الأوّل، سبق الاستشهاد، ص ٦١.

(٢٢) أغلب الظن أن مصدر هذه الخرافة كامن في الرفض الإسـلامي التقليدي لفكـرتي «الحزب» و«التسـوية»، أو على الأقل استغرابهما، وهو رفض سبق له أن تزامل مع انهيار التجارب التنظيمية التي ولدت في وقت واحـد تقريباً مع الكتائب كـ «النجادة» السنية، وبدرجة أقل، «النهضة» و«الطلائع» الشيعيتين. إنعكس هـذا الواقـع في التمثيل البرلماني إذْ لو اكتفينا بما تقوله الأرقام، وصل إلى البرلمان اللبنـاني في ١٩٥١ و١٩٦٠ و١٩٧٢ عشرة نواب مسيحيون حزبيون مقابـل خمسة مسلمين حـزبيين، و٢٣ مقابـل ٨، و٢٥ مقابـل ٩ على التوالي. عن: Ghassane Salamé, *Lebanon's injured identities*, Centre for Lebanese studies, Oxford, 1986, p. 14.

(٢٣) في سبيـل تعقّب الجذور التـاريخية لهـذا الموقف الجمـاهيري، راجـع: وضّـاح شـرارة، **في أصـول لبنـان الطائفي ـ خط اليمين الجماهيري**، دار الطليعة، بيروت ١٩٧٥.

(٢٤) كريم بقرادوني، **السلام المفقود**، سبق الاستشهاد، ص ١١٣.

يوماً من عرقٍ واحدٍ أو دينٍ واحدٍ، بل مجموعةَ أعراقٍ وأديانٍ القاسمُ المشتركُ بينهما هو الحريّة»(٢٥).

طبعاً لم تزعم الكتائبُ، تبعاً لمقدّماتِها الأيديولوجية، أنَّ اللبنانيينَ متّفقون دينياً وطائفياً، ولا هي قالت أنَّ الاختلافَ الدينيّ والطائفيّ عارضٌ تفصيليّ على غِرار اليسارِ التقليديّ أو القوميين العرب والسوريين. لكنّها، وهي تعملُ في الوسَطِ المسيحيّ والمارونيّ خصوصاً، عمدت إلى التّمسكِ بحوارٍ يستبعدُ الصورةَ الإيديولوجيّةَ القاطعةَ عن لبنان، تاركةً لعمليةِ التعايشِ نفسِهَا وما يوازيها ويعبّرُ عنها من صيَغٍ دستوريةٍ ومؤسَّسيةٍ، تشكيلَ الحياةِ الاجتماعيةِ والسياسيّةِ اللُّبنانية.

في الوقتِ نفسِه، فإنَّ «يمينيَّةَ» الكتائبِ، بما هي مسارعةٌ فِي دمجٍ وطنيّ لا مُقَدِّماتِ مُجْتَمَعِيَّةَ لَهُ، بقيت ضامرةً ونِسبيةً، ما خلا حالاتِ التوتّرِ والنزاعِ المفتوحِ. ففي صياغةٍ متأخّرةٍ للممارسةِ الكتائبيةِ إبَّان الطور التأسيسيّ، حُدِدَ المجتمعُ اللبنانيُّ بوصفِهِ «لم يزل يُعاني من تمزُّقٍ وحدتِهِ الوطنيةِ وتطلعاتِه القوميةِ كتعبيرٍ عمليّ عن ثنائيةِ الولاءِ السياسيّ والإنتماءِ الحضاري»(٢٦)، ذلك أنَّ «الثنائيَّة، بكلِّ أبعادِها في لبنان، هيَ المحورُ الّذي استقطبَ النشاطَ السياسيّ وموقع الحزبِ في بيئاتٍ لم تزل تتحكّمُ فيها قِيمٌ ومفاهيمُ موروثةٌ [...] فبدلاً من أن تكونَ نشأةُ الأحزابِ محاولةً لِتخطّي هذه الثنائيةِ جاءت تدعيماً لها وتنظيماً لقواها المتصارعة»(٢٧).

وفي محاولةٍ لتَعدادِ أسبابِ النزوعِ الكتائبيّ إلى التسويةِ، رُبَّما جازَ أن نضيفَ إلى المقدماتِ الإيديولوجيّة، الأثرَ الذي خلَّفَه الموقعُ المدينيّ وشِبهُ المدينيّ للرعيلِ الأول. فالنزاعُ يعني، والحالُ على ما هي عليه، تدميرَ ما حقّقه لبنان من جرّاءِ صِلَتِهِ بالغرب، ومن جرّاءِ مقاطعةِ العرب لإسرائيل (ولميناءِ حيفا) منذ ١٩٤٨، وهَرَبِ الرّساميلِ العربيةِ منذ ١٩٥٢ إليه، واتجاهِ الكثيرِ مِنَ العائداتِ النفطيةِ العربيةِ نحوَه، مباشرةً أم مداورةً، وفوقَها تحويلاتُ المهاجرينَ اللبنانيين. ولم يكن الكتائبيونَ، على تعدُّد مواقِعِهِم المهنيةِ البورجوازيةِ والبورجوازيةِ الصَّغيرةِ الحديثةِ، بعيدين عن الدورةِ الإقتصاديّة الّتي أطلقتها العواملُ المذكورةُ ولا عن المؤسساتِ الّتي نشأت تبعاً لها.

فِي هذا الإطار رأينا الكتائب، بعد محاولةِ توفيقٍ صعب بين الرئيسين إميل إدّه وبشارة الخوري، تنحازُ إلى الثّاني في رهانِه الإستقلاليّ بالتعاونِ مع رياض الصلح، علماً بأنَّ المِزاجَ الشعبيّ المارونيّ لم يكن مُؤيِّداً للدستوريينَ ولا كانَ منحازاً لمطلبِ إنهاءِ الانتدابِ الفرنسيّ ونيلِ الإستقلالِ. فمن أصلِ ١٧ نائباً عن المحافظةِ المذكورةِ نَجَحَ

(٢٥) بيار الجميل، لبنان واقع ومرتجى، سبق الاستشهاد، ص ٩.

(٢٦) تاريخ حزب الكتائب اللبنانية، الجزء الأول، سبق الاستشهاد، ص ٥ ـ ٦.

(٢٧) المرجع السابق، ص ٦ ـ ٧.

اميل إدّه في انْ يوسسَ تكتُّلاً برلمانياً مُؤَيِّداً لَهُ يضمُّ ١٢ نائباً على الأقل(٢٨). وفي مقابلِ ذلك كان كميل شمعون «الدستوريّ الوحيد الّذي نجحَ في الدورةِ الأولى بأصواتٍ فاقت اصواتَ جميعِ النّاخبين»(٢٩).

هكذا بدَا الموقفُ الكتائبيّ متقدِّماً عن محصّلةِ الموقفِ المارونيّ، في أنَّهُ تجاوَزَ الخوفَ الذي ضَرَبَ الطائفةَ في مركزها الجبليّ الأشدّ تطوُّراً، فضلاً عن اطرافِها، يومَ كانَ الانتدابُ الفرنسيّ إغراءً قائماً ومشاريعُ الوحداتِ السُّوريةِ والعربيَّةِ تهديداً قائماً ايضاً، وذلك قبلَ أن تضمرَ عناصِرُ التشنُّجِ الَّتي أثارتها الحربُ العالميَّةُ الثانيةُ بما فيها انكشافُ التعاطفِ العربيّ ـ الإسلاميّ الواسع مع المانيا النَّازيَّة.

ولم تغِب عن هذا الموقفِ المتقدّمِ فرضيَّةٌ واضحةٌ مؤدّاها انَّ المحاولةَ الإستقلاليةَ تبقى «مجازفةً كبرى بعدَ سلسلةِ المصائبِ والاضطهاداتِ التي عاناها اللبنانيون عبر تاريخهم الطويل. وكان يترتَّبُ علينا أن نحملَ اللبنانيينَ جميعاً على القبولِ بهذهِ المجازفةِ، وإلاَّ كانت زحزحةُ الإنتدابِ امراً مُستحيلاً»(٣٠). وبحسبِ رأيٍ منقول عن الشَّيخ بيار الجميل، فإنَّ ما حسمَ الخَيَارُ الكتائبيّ لمصلحةِ الإقدامِ على «المجازفَةِ» الاستقلاليةِ والانخراطِ فيها، هو معرفةُ الجميل برياض الصُّلح ودورُ الأخير في طمأنتِهِ تبعاً لإدراكِهِ مشكلةَ المسيحيين وخوفِهِم(٣١).

طبعاً كان من ضمنياتِ الخَيارِ الإستقلاليّ، والتعايشي تالياً، وجودُ درجةٍ من التنافُر مع الإنتدابِ الفرنسيّ، برَغمِ ما مثله من حمايةٍ للجمهورِ المسيحيّ العريضِ وما شاب علاقَتَهُ مع الكتائبِ من تعاونٍ ومساعدةٍ. ولقد عبَّر هذا التنافرُ عن نفسِهِ غيرَ مرةٍ، ربَّما كان ابرزُها صدامَ العام ١٩٣٧ من دون أن تختفي طبيعةُ الطرفِ الَّذي يتنافرُ مع الإنتدابِ، أي «الكتائب». فالأخيرة رأت في نفسِهَا مشروعَ «طليعةٍ» للطائفةِ المارونيةِ ولبداياتِ نُخْبَويَّة بورجوازيةٍ تأنفُ المضيَّ في الخضوعِ لقوةٍ خارجية. وشيئاً فشيئاً راحت الحربُ العالميةُ الثانيةُ، التي تقتربُ بخطى مسرعةٍ، تُعَجِّلُ في هذهِ الوُجْهةِ، مُطْلقةً عجلةً اقتصاديةً لبنانيةً تنوبُ منابَ الرساميلِ والسِّلَعِ الفرنسيةِ التي حالت الحربُ دونَ وصولِهَا إلى السُّوقِ الصغيرةِ، وتُبَلْوِرُ مقدماتٍ بورجوازيةً ليست قليلةَ الحضّ على النُّخبويةِ والإعتدادِ بالذَّاتِ. أضِف إلى ذلك مناخاً عريضاً من الوعودِ والتوقُّعاتِ في صددِ أسواق عربيةٍ جديدةٍ تحملها الإستقلالات، كما في صَدَدِ غربٍ انغلو ـ اميركي أوسع

(٢٨) انظر: منير تقي الدين، **ولادة استقلال**، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٥٣، ص ٤٩.
(٢٩) جوزف نصر، «كميل نمر شمعون»، **النهار** ١٩٨٧/٨/٨.
(٣٠) **تاريخ حزب الكتائب اللبنانية**، سبق الاستشهاد، ج ٢، ص ١٠٧.
(٣١) من المقابلة مع جوزيف ابو خليل.
(٣٢) حول المراكمة المالية وارباح الحرب الثانية في لبنان، انظر، بين مراجع اخرى، سليم نصر وكلود دوبار، **الطبقات الاجتماعية في لبنان**، سبق الاستشهاد ص ٧٢ ـ ٧٣.

كثيراً من فرنسا التي كان للحرب بما في ذلك نجاح الألمان في احتلالها «أن أعطت حريةً اكبر للعملِ السياسيّ جاعلةً من المُتاحِ لعناصرَ سبقَ أن استُبعِدَت عنِ النِّظامِ السياسيّ، أن تنضمَّ إليه»(٣٣).

وبدورِهِ بدا الحِسُّ النخبويُّ الكتائبيُّ المُفْعَم بالشُّبابيةِ، مرشَّحاً لأن يتمردَ على الإمّحاءِ الكاملِ في جسمِ الدولةِ المنتدبةِ والمتزايدةِ الضَّعف، فلا يتحالفُ معها التحاقاً ومن موقِعِ العُري الكامل.

وهذا ما يقولُهُ، بطريقتِهِ، أحدُ كتائبيّ الرعيل الأولِ حينَ يتذكَّرُ نزاعَ حزبِهِ مع الانتداب: «كنَّا نعرفُ تاريخَ نابوليون بونابرت ولويس الرابع عشر وجان دارك أكثر ممّا نعرفُ تاريخَ فخرِ الدينِ وبشير الشّهابيّ. وكنَّا نعرفُ التاريخَ الوطنيّ الفرنسيّ أكثرَ مما نعرفُ النشيدَ الوطنيّ اللبنانيّ»(٣٤).

وهكذا، ففيما بين ١٩٣٧ و١٩٤٣ تعرَّضت الكتائبُ للحلِّ ثلاث مرَّات على يدِ الإنتداب. وفي ١٩٣٧ وأثناء التَّصدّي لاحتفالِ كتائبيّ غير عابىء بالحلّ الأول قتلَ الجنودُ السنغاليونَ كتائبيَّيْنَ وجرحوا ٧٠ بينَهم الشَّيخ بيار نفسُهُ الذي أودِعَ سِجنَ الرمل. وإبَّان العمل الاستقلاليّ اعتُقِلَ الجميل ثانيةً ومعَهُ الياس ربابي و٢٣ كتائبياً، وجُرحَ في التظاهُرةِ ٣٠ كتائبياً آخر. وقد هُدِّدَ الجميل وربابي بالنَّفي إلى برازافيل(٣٥). إلَّا أنَّ ذاك التمردَ على الإنتدابِ لم يندرج، بطبيعةِ الحال، في نِطاقِ العملِ القوميّ الرَّاديكاليّ المناهضِ للاستعمارِ كما هُدِّدَ سائرُ «العالمِ الثَّالث». فالإنجذابُ العاطفيُّ المارونيُّ، النخبويُّ منهُ والجماهيريَ على السّواء، لم يكن الشَّرقُ قِبلَتَه بل الغربُ، فإذا صدَّه الأخيرُ في اندفاعِهِ إلى التَّطابقِ مَعَه، مالَ نخبويُّوهُ إلى وصفِ الصدّ بلغةٍ لا يجانِبُها الإعتدادُ المطلّ على احتمالِ عنصريّ. فبحسبِ صياغةٍ كتائبيةٍ للنِّزاعِ يومذاك، كان «الجنديُّ السنغاليّ الذي حضَرَ من مجاهلِ افريقيا [...] يقولُ لنا: انا جئتُ إلى هنا لأمدِّنَكُمْ»(٣٦).

ولا يسعُنا أن نقدرَ حجمَ الإفتراقِ الكتائبيّ (النخبوي) عن الموقفِ الجماهيريّ للطائفةِ، من غيرِ العودةِ إلى الحادثةِ الشَّهيرةِ في ١٩٤٤ بُعيدَ انتخاباتِ الشَّمالِ الفرعيةِ في ٢٧ نيسان حينَما انتُخِب الزغرتاويُّ يوسف كرم قَبلَ أن تجلوَ الجيوش الفرنسيةُ عن لبنان. فبوصولِ كرم إلى بيروت «على رأسِ تظاهُرةٍ مسيحيةٍ مارونيةٍ لم يُسْتَثْنَ البرلمانُ والعلمُ اللبنانيانِ من الاستفزازِ كعلامةِ رفضٍ للاستقلالِ الجديدِ وتمسُّكٍ بالوجودِ

(٣٣) Albert Hourani, *Political society in Lebanon*, *op. cit.*, p. 13.

(٣٤) من مقابلة مع اسكندر غصن، في **العمل ـ خمسون سنة في خدمة لبنان**، عدد خاص، ١٩٨٦/١١/٢٣.

(٣٥) انظر، بين مراجع اخرى، **تاريخ حزب الكتائب اللبنانية** بجزئيه، سبق الاستشهاد و John. P. Entelis, *Pluralism...*, *op. cit.*, p. 53-59.

(٣٦) من مقابلة مع اسكندر هاشم (احد رجالات الرعيل الأول) في: **العمل ـ خمسون سنة**...، سبق الاستشهاد.

الفرنسيّ»[٣٧]. وليسَ بحالٍ عديمَ الدلالةِ، ولو في حدودِ الرمزِ، أن يتمَّ استهدافُ البرلمانِ والعَلَم الجديدِ، أي المكانِ الذي اتُّخِذَ فيهِ القرارُ الاستقلاليُّ والنتاجِ الأولِ لهذا القرار.

وبينما لم يعدم مَن ينسب إلى «الدوائر الفرنسيةِ» تشجيعَها «كرم وانصاره على اقتحامِ المجلسِ النيابيّ، فأمدَّتهم بالسِّلاحِ والأموال لعلَّهم ينجحونَ في السيطرةِ على الحكمِ. [وقد] رُفِعَ في مقدمةِ التظاهرةِ العلمُ الفرنسيّ والعلمُ اللبنانيُّ القديمُ ثمَّ أراد المتظاهرونَ الدخولَ عنوةً إلى المجلسِ النيابيّ فبداتِ الإشتباكاتُ»، علَّقَ رياض الصلح وسَامَي استحقاقِ مذهَّبينِ على صدرِ بيار الجميل «مُشيداً بالخدماتِ التي أدتها الكتائبُ في أحداث تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٢»[٣٨]. وبدورِها لم تمر الكتائبُ مرورَ الكرامِ على الحادثةِ التي أثارها يوسف كرم وتظاهرته، فسارعت إلى أن تصدرَ مع النجادةِ «بياناً إلى الشعبِ اللبنانيّ جدَّدتا فيهِ العهدَ أمامَ اللّهِ والضميرِ أن تظلَّا جنديَّ استقلالِ لبنان وسورَ كرامتِه»[٣٩].

إلتزاماً بالصّيغة والميثاقِ

في ما يتَّصلُ بالمسألتين العربيةِ والفلسطينيةِ، كامتدادٍ للإتفاقِ الميثاقيّ، حافظتِ الكتائبُ عموماً على موقِف وسطيّ يتلاءمُ مع الإتفاقِ المذكورِ، وإن كانت بينَ الفينةِ والأخرى تجنح قليلاً في كِلَي الاتجاهينِ اللذينِ يتعدَّيانِ هذا الموقف. وقد اتخذَ الجنوحُ النسبيّ في غالبِ الأحيانِ شكلَ التنبيهِ والتحذيرِ والضَّغطِ القاعديّ بما يُتيحُهُ نظامٌ برلمانيّ تعاقديّ.

ففي ١٩٤٤ أعرب حزبُ الكتائبِ «عن رفضهِ لتحقيقِ أيةِ وحدةٍ أو اتحادٍ، وقد طالب بيار الجميل الحكومةَ اللبنانيةَ بتوضيحِ حقيقةِ المشاوراتِ العربيّةِ»[٤٠]. لكنَّ الحزبَ لم يتردّد، العام نفسه، في الانخراطِ في «اتحادِ الأحزابِ اللبنانيةِ لمكافَحَةِ الصهيونيةِ» إلى جانبِ الحزبِ الشيوعيّ والكتلة الإسلامية وعصبةِ العملِ القوميّ وغيرها من القوى

(٣٧) انظر، مثلاً لا حصراً، حسّان حلاق، **التيارات السياسية في لبنان ١٩٤٣ ـ ١٩٥٢ ـ مع دراسة للعلاقات اللبنانية العربية واللبنانية الدولية**، معهد الانماء العربي، ص ٢٠١ ـ ٢٠٢.

(٣٨) المرجع السابق، ص ٨١ هـ.

(٣٩) المرجع السابق، ص ١٢٨.

(٤٠) المرجع السابق، ص ١٩٧. في إشارة إلى تراجع الدعوة إلى الوطن القومي المسيحي بعد الاستقلال، يتحدث انتليس عن ريمون إده بوصفه «الممثل التقليدي لهذا الموقف، مستشهداً ببيان أصدره حزب الكتلة الوطنية في ١٩٤٧. انظر: John. P. Entelis, *Pluralism...*, *op. cit.*, p. 35 & 35 n.36 n. وأما بصدد الكتائب فردّ انتليس سياستها «الإنعزالية» لحظتذاك، خصوصاً لجهة رفض بروتوكول الاسكندرية، إلى الضباب الفكري الذي أحاق بالكتائب بُعيد الاستقلال والذي يسميه «أزمة هوية»، وإلى استمرار سيادة الذهنية «الحمائية» في النظر إلى استقلال لبنان الوليد. *Ibid.*, p. 60.

والاحـزاب(٤١). وإذا كانَ الحـزب قد عـارضَ «مقاطعـةَ» الحركـةِ الصهيـونيـةِ، لأنَّ هـذه المقـاطعةَ «تجلُبُ على لبنـان أضراراً بـالِغةً»(٤٢)، إذ تبقى «مَصلحـةُ لبنان»، في العـرفِ الكتائبيّ، المرجعَ والمحكَ، فهذا ما لم يمنعـهُ في ١٩٤٧ من الدّفـاعِ عن «مطلب العرب» بوصفهِ «مطلَبَ حقّ» محذّراً من تأليفِ حكومةٍ عربيّةٍ في فلسطين» في الوقتِ الذي يعـالجُ الصهيونيونَ مشكلةَ إنشاءِ حكومةٍ يهوديةٍ مـ «ما يُسَوِّغ المطالبةَ بتقسيمِ فلسطين وإقامةِ دولةٍ يهوديةٍ. وقد دعـا الحزبُ، في المقـابلِ، «إلى إنشـاءِ حكومـةٍ عربيـةٍ واحدةٍ تشمـلُ سلطتها كلَّ فلسطين كوحدةٍ لا تتجزأ»(٤٣).

وكي نُحيطَ بالمناخاتِ اللبنانيةِ السائدةِ آنذاك، لا بأسَ بالعـودةِ إلى صورةٍ خـرافيةٍ نسجها مثقّفٌ سنيٌّ عروبيُّ الهوى عن الكتائبِ، والمـوارنةِ تـالياً. فعنـدَ مصطفى خالـدي يلوحُ «الشرُّ الكتائبيّ» جوهرياً متأصلاً لا سبيلَ إلى ردِّهِ:

«١ ـ إنَّ الطائفةَ المـاورنيَّة وبعضَ المجمـوعاتِ المسيحيَّـةِ الأخرى في بـلادِنا، لا تتعاطفُ مع الروحِ الوطنيَّةِ العربيَّةِ، بل إنَّهـا عكسَ ذلك مستعـدةٌ لمحاربتِهـا بأيـةِ وسيلةٍ ممكنةٍ لكي تفرضَ بالقوةِ حضارتَها المسيحيةَ على كاملِ لبنان وتفصـلَ بالعنفِ لبنـان عن سائرِ العـالمِ العربيّ. ٢ ـ على المسلمين في لبنـان أن يفهموا أنَّ «الكتـائبَ الفاشستيّـةَ اللبنانيَّة» ليست سوى «هاغانا جديدة هدفُها إلباسُ لبنان بـالقوة الثـوبَ المارونيَّ وحَمْلُـهُ على التَّعاونِ مع الصهاينةِ ضـد مسلمي لبنان وسـوريا. إنَّ هـذا الخطرَ ينبغي أن يكـونَ إنذاراً لنا كي ننظمَ أنفسَنَا للمقاومةِ مستخدمينَ جميعِ الوسائل القـانونيـةِ التي بحوزتِنـا وإلَّا فإنَّنا سنواجهُ مصيرَ عربِ فلسطين نفسَهُ. ٣ ـ على الشعوب العربيَّةِ من حولِ لبنان ان يُدركوا أنَّ هذا الخطرَ يتهدَّد أمنهم في المستقبل كمـا يتهدَّد سـلامةَ أراضيهم، فيجبُ عليهم أن يُنسِّقوا سياستَهم الدفاعيةَ لمواجهة هذه التحـركاتِ. وسـوريا نفسُهـا قد تجـد نفسَهـا في وضـعٍ عسكـري خطير جـداً [...]. ٤ ـ إنَّ معركـةَ فلسطين الأولى والوضـعَ الحاضرَ في لبنان يجبُ أن يكونا مؤشراً خطراً للمسلمين في الشرقِ الأوسطِ وفي العـالم، وإنذاراً للاستعداد وإدراكِ المسؤوليةِ الملقاةِ على عاتقهم للدفاعِ عن مسلمي لبنـان. وإلَّا علينا كلُّنا أن نتوقَّعَ الهزيمةَ والقضاءَ علينا شيئـاً فشيئاً كمـا وقعَ لإخـوانِنَا الفلسطينيين. وهذا الخطرُ غيرُ ماثلٍ من الصهاينةِ واصدقائِهم الموارنةِ فحسب، وإنَّما كذلك من حماتِهم الأجانب...»(٤٤).

(٤١) انظر: العمل، العدد الخاص عن الكتائب في ١٩٨٥/١٢/٢٥، وكذلك Stephen Hemsley Longrigg, *Syria and Lebanon under french mandate*, Oxford university press, 1968, p. 342-343.

(٤٢) حسّان حلاق، **موقف لبنان من القضية الفلسطينية ١٩١٨ ـ ١٩٥٢ (عهد الانتداب الفرنسي وعهد الاستقلال)**، مركز الابحاث، منظمة التحرير الفلسطينية، ١٩٨٢، ص ٨٠.

(٤٣) المرجع السابق، ص ١٨٩.

(٤٤) عن المرجع السابق، ص ١٩٥. ولم يتردد الخالدي في اتهام الكتائب مبكراً بالتدرب على ايدي الهاغانا، المرجع نفسه، ص ٢٤٣.

لَدَى وقوعِ التقسيمِ في ١٩٤٧ والَّذي لم يتَّخذ حزبُ الكتائبِ موقفاً حاداً منهُ، رأى أنَّ الحركةَ الصهيونيَّةَ «حـركةٌ ثـوريَّةٌ ينبغي أن تنتهي بتـدميرِهـا وليسَ عبرَ المفـاوضـاتِ السياسيَّةِ معها»[٤٥]. وفي مقابلِ إدانةٍ مخففةٍ من بيارِ الجميلِ لمواقفِ المطرانِ المارونيِّ مُبَارك المحبِّذَةِ للحركةِ الصهيـونيةِ[٤٦]، فحينمـا نشرت مجلَّـةُ «الديـار» في كانـون الأول ١٩٤٦ «مـذكـرة الخـوري أنطـون عقـل إلى الأمم المتحـدة والتي طـالبَ فيهـا بحمـايـةِ المسيحيينَ من المسلمين» صَـرَّح بيار الجميّـل «مُنْكِراً على عقـل ممارسـاته»، وقـال إنَّ «تصريحاتِهِ وحركاتِهِ تغذِّيها مصادرُ أجنبية. ورأى أنَّ لبنان ليسَ لطائفةٍ دون أخرى. فهـو للمسلمين كمـا هو للمسيحيين. وأخيـراً استنكر الجميّـل تقديمَ المـذكرة لـلأمم المتحـدةِ والمغالطاتِ التي وردت فيها»[٤٧].

أما اتهاماتُ «الحزبِ السوريِّ القوميِّ» للكتائبِ بالتعاونِ مع الصهيـونيَّةِ[٤٨]، فَبقيت بحـاجةٍ كبيـرةٍ إلى الإثباتِ، بمـا يُوحي أنَّ التنـافسَ التقليديَّ الضـاري بين الحزبينِ في الجبلِ يومذاك، هو ما أملى الاتهاماتِ المذكـورة، أو على الأقل، عمـل على تضخيمِها إلى حدٍّ بعيد. ذلك أنَّه بالمعنى نفسِه، واستنـاداً على «الوثيقـةِ» نفسِها، والَّتي هي رسـالةٌ من محمد جميل يونس منفِّذ الحربِ القومي في عكّا إلى أنطون سعـادة زعيمِ الحزب، إتهمت السلطاتُ اللبنانيّة انطون سعادة أيضاً بالتعاملِ مع إسرائيل.

قُصـارى القول إنَّ الكتـائبَ اهتمت بالشَّـأنِ الفلسطينيِّ في حدودِ امتـدادِه للشَّأن اللبنانيِّ وانعكاسِه عليه، فلم تذهب بطبيعةِ الحالِ مذهباً نضالياً في التعاملِ معه ولم تقبل أن تكونَ له آثار سيئةٌ على التـركيبِ اللبنانيِّ ودولتـه، لكنَّها في الآنِ نفسِـه تضامنت إلى حدٍّ بعيدٍ في مواجهةِ الصهيونيةِ بما لا يرتِّب، أيضاً، آثاراً ضارةً على التعايش.

وفي ما يتَّصل بـ «التعايش» تحديداً، تمثَّلت الحالةُ الكتائبيَّـةُ النَّموذجيَّـةُ بحصولِ درجةٍ مُطمئِنَةٍ من الإجماعِ المسيحيِّ ـ الإسلاميِّ يُناطُ بالكتـائب أن يكونَ احـد المعبِّرين عنها في المجتمعِ، أو في الشقِّ المسيحيِّ مِنهُ على الأقل. فإذا كانت اللَّحظةُ الاستقلالية والعملُ المشترك مع «النَّجادةِ»[٤٩]، قد دلَّا على استعدادِ الكتائبِ لتجاوزِ الكتلةِ المارونيّـةِ في اتجاهِ الكتلةِ المسلمةِ والعملِ لجرِّ الأولى نحو مواقعَ أقـرب إلى الثانيـة، فإنَّ أحـداثَ

(٤٥) Michael. W. Suleiman, *Political parties...*, *op. cit.*, p. 249.

(٤٦) *Ibid.*, p. 212 وكذلك مصطفى الخالدي وعمر فروخ، **التبشير والإستعمار في البلاد العربية، عرض لجهود المبشرين التي ترمي إلى اخضاع الشرق للاستعمار العربي**، المكتبة العصرية، صيـدا ـ بيروت، الطبعـة الرابعة، ١٩٧٠، ص ٢٩ ـ ٣٠.

(٤٧) حسان حلاق، **التيارات السياسية...**، سبق الاستشهاد، ص ٢١٦ ـ ٢١٧.

(٤٨) انظر Michael. W. Suleiman, *Political parties...*, *op. cit.*, p. 279 & 281.

(٤٩) انظر، مثلاً لا حصراً، **تاريخ حزب الكتائب اللبنانية**، سبق الاستشهاد، الجزء الثاني في غير موضع وكذلك Michael. W. Suleiman, *Political parties...*, *op. cit.*, p. 202 & 234.

العــام ١٩٤٩ كانت أوفى تَعبيــراً عن تلك الـدرجةِ من اللّقــاء. فحينـذاك سقطَ المشــروعُ الصّاخبُ الّذي رعاهُ انطون سعادة في وَهدةِ الانقلابيَّةِ السـاذجةِ التي ميَّزت فهمَه للتكوينِ الطائفيّ اللبنانيّ المرشَّح، في عرفِهِ، لـ «الإلغاء» الإجرائيّ. وبهذا المعنى نشأ لقاءٌ سلبيٌّ إسلاميّ ـ مسيحيّ قوامُــهُ العداءُ للمشــروعِ التوحيـديّ الّذي يتجــاوزُ لبنانَ من دونِ أن يطابقَ «الأمة» العربيّةَ او الإسلاميةَ، مهدّداً في آنٍ معاً، التشكيـلاتِ الإجتماعيّـةَ القائمـةَ والفعليّةَ بالدَّمجِ القسريّ في قالب حديديّ القوميّة والدولتيّة. وهكذا ففي مقابل استعمالِ حسني الزعيم، وهو الّذي قادَ في دمشق أولَ انقلابٍ عسكريّ نـاجح في المشــرق، انطون سعـادة لقلبِ الحكومـةِ اللبنانيـةِ كحدّ ادنى من الإنجـاز، اجتمعَ شمـلُ جنـاحَي السلطـةِ اللبنانية في استعمالِ الكتائبِ ضدَّ الأداةِ المحليَّةِ للحاكمِ العسكريّ السُّوريّ(٥٠).

بلغةٍ اخرى، فإنَّ هذا التضـافرَ بمـا ينطوي عليـهِ من تسليمٍ بواقــعِ الكيانِ، إن لم يكن بإيديـولوجيَّتـه، هو الـذي يبلورُ صــورةَ الكتائب عن دورهــا «في خدمــةِ» لبنان «مــوحَّداً» وحمايتِهِ حَيَالَ خطرٍ يتهدَّدُه من الخارجِ، هذا مع العِلمِ أنَّ «الخدمةَ» تمتدُّ لتشمَلَ التعاونَ الأمنيَّ مع أجهزةِ الدولةِ للإيقاعِ بحزبٍ كالحزبِ القوميّ وزعيمِه، كما دلَّت حادثةُ الجميِّزةِ التي مهدت لانقلابِ انطون سعادة وإعدامِه(٥١). وفي الـوسـعِ، اسـاساً، تصـويرُ الحـزبِ القوميّ المتعاونِ مع دمشق، والذي لا يقعُ، تعريفاً، تحتَ خانةِ هذِهِ الطائفةِ او تلكَ، طرفـاً «خارجيّاً» بامتياز إذا ما قيسَ بالتكوينِ الطائفيّ اللبنانيّ وفهمِ الكتائبِ لهُ.

والصورةُ هذِه هي التي سعى بيــار الجميّل إلى تكـرارِ استيلادِهــا في حربِ ١٩٥٨ الأهليــة، علماً بصعـوبةِ التكـرارِ في ظلّ التعقيـدِ المحليّ والإقليميّ الذي طـرأ حينـذاك. فعشيّةَ تلك الحربِ بدا الجميّل منزعجــاً من نتائــجِ انتخابــاتِ ١٩٥٧ حيث اتهمت الكتائبُ الرئيس شمعون بممارسةِ التزويرِ ضدَّ مرشحيهــا، خصوصــاً الشَّيخ مــوريس الجميّل في المتن لصــالِحِ رئيسِ الحــزب السوريّ القــوميّ آنذاك، أســد الأشقــر(٥٢). ومن دونِ أن يتحوَّل هذا الإتهامُ إلى حملةٍ على الدولةِ. فإنَّه أجازَ للجميّل، ومن داخلِ اللعبةِ السّيـاسيَّة المحليَّة، الإنضمامَ إلى ما عُرِفَ بـ «القوّةِ الثالثةِ» التي طالبت الرئيسَ شمعون بــالإمتناعِ المعلنِ عن التجديدِ ساعيةً إلى الوساطةِ بين الحكمِ والمعارضــةِ. وقد ضمَّت هــذه القوة، فضلاً عن الجميّل، هنري فرعون وغسَّان تويني ويوسف الحتّي وبهيج تقيّ الدين وجــورج نقَّاش وشارل حلو ويوسف سالم ومحمّد شقير وجان سكاف وغبريال المرّ ونجيب صالحة. لكنَّ التَّدهورَ اللَّاحقَ المصحوبَ بطرحِ المسألة الوَطَنيـةِ ومصيرِ الـدَّولةِ والمجتمــعِ، وفي

(٥٠) *Ibid.*, p. 96.

(٥١) انظر: L.Zuwiyya Yamak, *The Syrian social nationalist party. An ideological analysis*, Harvard middle eastern monagraph series, 1966, p. 66-67.

(٥٢) المقابلة مع جوزيف ابو خليل.

غـالب الظَّنُّ حركـةِ المزايـدةِ داخلِ الطّـائفةِ المـارونيةِ، استـدعيًا خـروجَ الجميِّل وحلـو منها(٥٣)، وذلك فيمَا كانَ يتزايَدُ تدخُّلُ «الجمهوريَّةِ العربيةِ المتَّحـدة» في الشَّأنِ اللبنـانيّ الـداخليّ ومدُّ المعـارضينَ بالسِّـلاح. وهكذا لم يَفُت أحَـدَ غلاةِ الشَّمعـونيينَ أن يُسَجِّـلَ ـ برغم وقوف الكتائب لاحقاً مع الحكم الشمعوني ـ أنَّـهُ «يمكنُ القولُ بـأنَّ حزبَ الكتـائبِ اللبنانيةِ قد اتَّخَذَ موقفاً معتدِلاً أثناء الحوادثِ فلم ينجرف لا في المُوَالاةِ المطلَقَةِ للـرئيس شمعون ولا في المعارضةِ المطالِبَةِ باستقالتِهِ، وبقيَ مراقِباً تطوراتِ الوضع»(٥٤).

وتكادُ تجربةُ الكتائبِ مـع شمعون في ١٩٥٨ تكـونُ تَكراراً مضخَّمـاً لتجربتِهـا مع الـرئيس بشارة الخـوري في ١٩٥٢. فيومـذاك ضمَّت «الجبهـةُ الإشتـراكيَّـة الـوطنيَّـةُ» المعـارضةُ كُـلاًّ من الحزبِ التقـدميّ الاشتراكيّ وحـزب النِّداءِ القـوميّ والهيئَةِ الـوطنيَّةِ والكِتْلَةِ الوطنيةِ والكتائِبِ اللُّبنانيةِ وعبدالله اليَافي وكمِيل شمعون وغسَّان تويني وعبدالله الحَاج وعادل عُسيران وديكران توسباط، لكن «في اللَّحظةِ الأخيرةِ» انسَحَبَ حزبُ الكتائبِ منهـا طالبـاً وقفَ الإضرابِ الشَّـامِلِ ضـدَّ العهدِ(٥٥)، بـرَغمِ أنَّ ذلك خلَّف عنـد بشـارةَ الخُـوري عَتَباً كبيـراً على تَلكُّوءِ الكتـائبِ في إنجادِهِ وعـدمِ اسـراعِهَـا في الإنفكـاكِ عَن المُعارَضَةِ(٥٦).

وفيما تُشيرُ التَّجربتانِ في ١٩٥٢ و١٩٥٨ إلى حساسِيَّةِ الحِزبِ الفائقةِ حَيَالَ المسِّ برئاسةِ الجمهوريَّةِ، الحصنِ الأهمِّ للموقـعِ السياسيّ المـارونيّ ومؤسسةِ الـدَّولةِ الأولى وشـرطِ إدارةِ الحوارِ في المجتمـعِ، فإنَّ الفـارقَ بينَ اللَّـونِ المسيحيّ الَّـذي طغى على معارضةِ الخوري وذاك الإسلاميّ الذي طغى على معارضـةِ شمعون، يَبين أنَّ الثَّـابتَ في السِّياسةِ الكتائبيَّةِ هو «الدَّولةُ» بوصفِها عنصرَ ضمانِ استمرارِ الوَحدةِ وطَردِ الخوفِ.

يترتَّبُ على هذهِ الإحالةِ إلى الدولةِ، من ضِمنِ الظُّـروفِ الَّتي عَمِلت فيها، اعتبـارانِ لاَزَمَا الكتائبَ طـوالَ حياتِهـا وكانَ العهـدُ الشِّهابيُّ مسـرحَ حوارِهِمَـا المتوتِّـر: الأول أنَّ الإحالةَ معطوفةٌ على الرَّغبةِ الكتـائِبيَّةِ في تهمِيشِ السِّيـاسيينَ واستبدالِهِم(٥٧)، لا تفعـلُ سِوى تفريـغِ السِّياســةِ والمساهمــةِ في تعزيـزِ الدولتيـةِ. والثَّاني أنَّ الارتيـاحَ إلى وحدةِ السُّلطةِ السياسيةِ، وتوهُّمِ وحدةِ المجتمعِ تبعاً لذلـك، أو على الأقلّ تـوهُّم نزعِ عنـاصرِ توتُّرِهِ، هما مَا ميَّزا نظرةَ حزبِ بيار الجميل «الحديثِ» عن نظـرةِ العائـلاتِ والعشائـرِ إلى «الوطنِ» و«الوَحدَةِ الوطنيَّةِ».

(٥٣) انظر يوسف سالم، **٥٠ سنة مع الناس**، سبق الاستشهاد، ص ٣٩١.
(٥٤) انطوان خويري، **كميل شمعون...**، سبق الاستشهاد، ص ١١٦.
(٥٥) حسان حلاق، **التيارات السياسية...**، سبق الاستشهاد، ص ٦٢١ و٦١٥ هـ.
(٥٦) انظر وضّاح شرارة، **السلم الأهلي البارد**، سبق الاستشهاد، ج ١، ص ٣٠٩ هـ.
(٥٧) راجع الفصل الثاني.

هُنا يكمنُ احد أوجه الدراما الكتائبيَّة التي راحت تتجلّى واضحةً صريحةً في ١٩٧٥ وصاعداً. فحتّى الشَّهابيةُ الَّتي اقامت السِّلْمَ والإستقرارَ من فوق، وبمساهمةٍ نشطةٍ من الكتائب، أسست لعناصر نزاعٍ أهليّ أشدَّ استفحالاً مما كان متوافراً قبلاً. فبدعمِ السلطةِ المذكورةِ نجحَ القطب الدرزيّ كمال جُنبلاط في أن يبني «زعامةً تجمعُ إلى العائليةِ الإسلاميةِ النزوعَ الذي لازمَ الزعامةَ المارونيَّةَ إلى الإستقطاب التجمعيّ، وتعملُ على إرساءِ استقطابها على مؤسساتِ المجتمعِ الأهلي»[٥٨]، الأمر الذي يصفُ الكتائبيُّ آنذاك رَشَاد سلامة بعضَ مخاطرِهِ بلغةٍ تعبويَّةٍ حين يسجِّلُ هزال «هيبةِ الحكمِ حتى الهوان»، فقد «نشطتِ الدعاوةُ للأحزابِ الممنوعةِ، بل شاركتِ الدولةُ بقصدٍ منها أو بدون قصد للترويجِ لهذهِ الأحزاب»[٥٩]. وقد كان عميدُ الكتلةِ الوطنيةِ ريمون إدّه ثاقبَ النظرِ حينَ أصَّر على تعديلِ المرسومِ القاضي بتأليفِ الحكومةِ الكَرَاميَّةِ في ١٩٦١، والَّذي تَسَلَّمَ بموجبِهِ كمال جنبلاط وبيار الجميل حقيبتَي «وزارة الدولة». وتمسُّكاً بهذا الإصرار استقالَ من الحكومةِ وزيرُ الكتلةِ الوطنيةِ إدوار حنين، وما لبثَ أن انضافَ إلى صوتِ «الكتلةِ الوطنيةِ» صوتا النَّائبينِ ألبير مخيبر الَّذي اتهم جنبلاط والجميل بـ «الديكتاتوريةِ»، وفضل الله تلحوق الذي أطلق على الحكومةِ وصفاً موفَّقاً هو أنَّها «حكومة المتراسَين»[٦٠].

بمعنى آخر حملَ التحالفُ مع الشَّهابية كلَّ تعقيداتِ التكوينِ الكتائبيّ وعبَّر عنها، وهي تعقيداتٌ ما كان للشَّهابيَّةِ نفسِها سوى العمل على مفاقَمَتِها بطبيعةِ تعاملِها شبهِ الإنقلابيّ مع ثنائيةِ التكوينِ اللبنانيّ ومع محاولةِ توحيدِهِ، كما بطبيعَةِ استجابتِها للنِّظام العسكريِّ العربيّ في الجوارِ. إذ لا يعقَلُ أن تفضي الشَّهابيَّةُ إلى إطلاق انقلابيَّةٍ وحيدةِ الجانبِ، هي الكتائبيّة، مِن دون اطلاق الإنقلابيَّةِ الإسلاميّةِ الموازيةِ، فيما هي تُلِحُّ على «الوحدةِ الوطنيّةِ» في بلدٍ مركَّب؟ ولا يُعقَلُ تالياً ـ وهي مشكلةٌ ثقافيةٌ أبعدُ أثراً ـ أنْ لا تصطدمَ الإنقلابيةُ الأخيرةُ بالدَّولةِ وبالكيانِ اللبنانيينِ كحالةِ تمايزٍ في المنطقةِ.

بيدَ أن خروج الكتائبِ عن الشهابيةِ في ١٩٦٨ لم ينجم عن مهارةٍ شيطانيةٍ ينسبُها خصومُ الحزبِ إليهِ وإلى نزعتِهِ التآمريةِ المفترضَةِ، بقدر ما نجم عن أسباب أخرى مصدرُها في العلاقاتِ التَّجَمُّعيَّةِ اللبنانية[٦١]، خصوصاً وقد وجدَ النزاعُ الداخليّ مُكَمِّلَهُ في انتقالِ السياسَةِ المصريَّةِ في لبنان، وهي حليفَةُ الشهابيَّةِ، إلى طورٍ يجمعُ بين الهجوميةِ وتجاوزِ أشكالِ العملِ الَّتي تتيحها الحياةُ الدستوريَّة. في هذه الحدودِ جاء

(٥٨) وضّاح شرارة، **السلم الأهلي البارد**، سبق الاستشهاد، ج ١، ص ٦٧.

(٥٩) رشاد سلامة، «حزب الكتائب اللبنانية»، سبق الاستشهاد، ص ٥٤.

(٦٠) عن: فارس حمود اشتي، **الحزب التقدمي الاشتراكي ودوره في السياسة اللبنانية**، رسالة لنيل دكتوراه دولة في العلوم السياسية، الجامعة اللبنانية، كلية الحقوق والعلوم السياسية والإدارية، ص ٧٦٨ هـ و٧٦٩ هـ.

(٦١) راجع الفصل الثاني.

اغتيالُ الصحافيّ اللبنانيّ كاملِ مروّة في ١٩٦٦، وقبلَ أن تصابَ القاهرةُ بنكستِها الموجعةِ في العامِ التّالي، ليشكّلَ واحداً من الأسبابِ «التي حملت الجميل وحزبَهُ على الإنضمامِ إلى الحلفِ الماروني الثلاثيّ»[٦٢].

إلى ذلك لم تَنفَصِل مبارحةُ الشهابيَّةِ عن معاناةٍ متعدِّدةِ التعابيرِ، حتّى بدا الجميّل ليس فقط الأكثر اعتدالاً بين الأقطابِ الثلاثةِ لِـ «الحلفِ الثُّلاثيّ» بل الأشدُّ تَردُّداً أيضاً. وفي لوحةٍ يرسمُها احدُ الصحافيين لتناقضَاتِ الحلفِ، كان «كلّما ادلى عميدُ الكتلةِ الوطنيةِ بتصريحٍ ينتقدُ الرئيس شهاب وجماعتَه، يستنجدُ الشهابيُّون بحليفِه في الحلفِ الثلاثيّ رئيس الكتائبِ، فتصدُرُ الصُّحف في اليومِ التالي مزيَّنةً صفحاتِها بتصريحٍ للشَّيخِ بيار كلُّه مدحٌ بمن قَدَحَ بِهم العميدُ إده»[٦٣]. وإذا كان الأخير قد اتَّهم الجميّل بوضعِ «رجلٍ في البورِ ورجلٍ في الفلاحة»[٦٤]، فما كادَ الحِلفُ ينجزُ الهدفَ الانتخابيّ المرسوم لَه، وهو إنهاءُ الشهابيةِ في الجبلِ، حتّى كانت الكتائبُ أوّلَ المُرْتَدِّينَ عليهِ، مساهمةً هِي ونوّابُها، إلى جانبِ عواملَ أخرى بالطبعِ، في إبقاءِ النزاعِ ضمنَ حدودِ المؤسساتِ فلا يتعدَّاها إلى الشّارعِ والمواجَهاتِ المفتوحَةِ[٦٥]. ولقد بدا هذا الارتدادُ في «مهرجانِ القطين» حيثُ صدر في اليومِ التالي مقالٌ في جريدةِ «العملِ» يضع شهاب «في مصافِ الأنبياء»[٦٦]، وتلاهُ تصويتُ نوَّاب الكتائب في معركةِ رئاسةِ المجلسِ لصالحِ الشهابيّ صبري حمادة بينما وقفَ شمعون وإدّه إلى جانب كامل الأسعد[٦٧]. وبدوره لم يتردد العميد ريمون إدّه في اتّهامِ الكتائبِ والجميل «بفرط الحلفِ الثلاثيّ وتفكيكِه ووقفِ زخمه»، وأنَّ الكتائبَ «تفرَّدت في اتخاذِ موقفٍ في انتخاباتِ رئاسةِ المجلسِ ثمَّ دخلت الحكمَ ووافقت على اتفاقِ القاهرةِ فانفرط الحلف»[٦٨].

وعلى طريقَتِهِ، وصفَ إده عملَهُ المشترك مع الجميّل إبّان الحلفِ، بما لا يدعُ مجالاً للشكِّ حول الفارقِ بين تردُّد الثاني وحيرتِه والميل الحاسم عند الأول: «نقترحُ القيامَ بخطوةٍ عمليةٍ ضدُّ الأمرِ الواقعِ . يُوَافِق. بعدَ قليل نسمعُ أنه اجتمعَ برشيد كرامي ونقرأ عن لسانِه تصريحاً لا يصدر مثلُه حتى عن غُلاةِ الشُّهابيين»[٦٩]. وفعلاً، ففي ١٩٦٩ لم تحجم الكتائب عن «تغطيةِ» سياسةِ الأمرِ الواقعِ بموافقتِها على «اتفاقِ القاهرة» الّذي

(٦٢) وضّاح شرارة، **السلم الأهلي البارد**، سبق الاستشهاد، ج ١، ص ٢٥٤ ـ ٢٥٥.
(٦٣) الياس الديري، **من يصنع الرئيس؟**، سبق الاستشهاد، ص ٣٥٥.
(٦٤) المرجع السابق، ص ٣٥٣.
(٦٥) وضّاح شرارة، **السلم الأهلي البارد**، سبق الاستشهاد، ج ١، ص ٣٠٨.
(٦٦) الياس الديري، **من يصنع الرئيس؟**، سبق الاستشهاد، ص ٣٥٥ ـ ٣٥٦.
(٦٧) المرجع السابق، ص ٣٢٦.
(٦٨) المرجع السابق، ص ٣٢٥.
(٦٩) المرجع السابق، ص ٣٥٥.

عارضَهُ العميد إدّه معارضةً شديدةً، وكان ما حَكَمَ مواقفَ الشيخ بيار الجميل آنذاك بحسبِ أحدِ القياديينَ الكتائب، تحاشي المزيد من الإضعافِ للجيشِ خصوصاً في ظلِّ القوَّةِ الفلسطينيةِ المسلَّحةِ[٧٠].

هنا اتخذت الدراما الكتائبيّة التي رأينا في السَّابق عَيِّناتٍ جزئيةً عنها، شكلاً ساطعاً. فمشاركةُ الكتائبِ في «الحلفِ الثلاثيّ» أدَّت إلى تحريرِ التمثيلِ المارونيّ الجبليّ من وصايةِ الدولةِ، لكنَّ هذا التحريرَ لم يُفضِ إلى تأسيسِ قوَّة ضَغطٍ معادِلَةٍ وموازِنَةٍ للقوَّةِ الإسلاميةِ (فضلاً عن مِصر ومن بعدِها المقاومة الفلسطينية) بما يُعزِّز العمليةَ السياسية والدولةَ تالياً بل قَذَفَ الوضعَ برمَّته خطوةً أخرى نحو الإحتراب الأهليّ ولا سيَّما مع وجودِ مقاومةٍ فلسطينيةٍ مسلَّحةٍ ونامية. والحقُّ أنَّ الدراما الكتائبيَّة التي تمثَّلت في محاولَةِ اطلاقِ ضغطِ المجتمعِ في حدودٍ لا تُخِلُّ بقوَّةِ الدولةِ، وإحالةِ السياسةِ إلى الدولة القويةِ من دونِ تأثيرَاتٍ سلبيّةٍ على المجتمع، وهي الدراما التي لازمت التاريخَ الكتائبيَّ طويلاً، لم يُكن الحزبُ دائماً قادراً على ضبطِها والسيطرةِ عليهَا.

قيادةُ بيار الجميّل

إذا صحَّ أنَّ مفهومَ الفاشيَّة لا يقدّم الكثيرَ في فهمِ الظاهرةِ الكتائبيةِ ومسارِها، فالواضحُ أنَّ صلةَ الدولةِ بالمجتمعِ الأهلي (الثقافة وعلاقات الريف والعروبة الدمويّة) هي المصدرُ الذي يُمكن من خلاله الاطلال على هذَين الظاهرةِ والمَسار. فمراعاةُ المجتمعِ الأهليّ من دونِ إضعافِ الدولةِ مُعَادَلَةٌ كتائبيةٌ مبكرةٌ يعكسُ شقُّها الأول (المراعاة) التكوينَ الطائفيَّ ـ الراسماليَّ شبهَ الديمقراطيّ، ويدلُّ شقُّها الثَّاني (عَدمُ إضعافِ الدولةِ) على بيئة الصّراعاتِ والحساسياتِ والمخاوفِ المَشرقيَّة حيثُ نمت التجربةُ الكتائبيَّةُ باحثةً عن العضدِ الماديّ في الدُّولةِ، بعدَ العضدِ الأيديولوجي في «الكيان».

ولئن برهَنَت الأحداثُ منذ ١٩٧٥ عن صعوباتِ المعادلةِ المذكورةِ، وصعوباتِ الرِّهانِ الكتائبيّ الأصليّ بالتَّالي، فهي أعادت الإعتبارَ إلى الحالاتِ النفسيةِ الجمعيةِ في تفسيرِ الظاهرةِ الحزبيةِ قَيْدِ التناولِ والمسارِ الَّذي اتَّخذتهُ. فالخوفُ[٧١] النَّاجمُ عن تاريخِ الجماعاتِ المشرقيةِ وثقافاتِها، و«الزعيمُ» الذي يُنتجُهُ الخوفُ «مُخَلِّصاً» لجماعةٍ صُغرى تقبعُ في ريفِها الجبليّ وتستمدُّ منه القوة، يُعبِّرانِ بطبيعتِهما غيرِ السياسيَّة، عن استعدادِ الأقلية إلى استيرادِ قيم الطغيانِ الاكثريّ والعملِ «سياسياً» بموجِبها، أي جعلِ

(٧٠) من المقابلة مع جوزيف ابو خليل.

(٧١) بين العبارات المتكررة التي اشتهر بها بيار الجميل تلك التي تقول: لا تطلب من الخائف ان لا يخاف بل امنع عنه أسباب الخوف.

«السياسةِ» تتحركُ في نطاقِ الخوفِ وردّ الخوفِ، مُحاطةٌ بكثيرٍ من الرموزِ ومُطِلَّةٌ باستمرار على الإحباطِ الصوفيّ.

وحَيَال وضعٍ كهذا، غالباً ما يترافقُ مع ضَعفِ الدولةِ وانكشافِ التعصّب، تضيعُ الفوارقُ بين مستوياتِ التطور الاجتماعيّ ضمنَ الجماعةِ الخائفةِ، فيغلبُ المستوى العشائريُّ، من حيث هو تضامنٌ لُحْمَتُهُ الدَّم، على المستوى الطائفيّ الراسماليّ المتقدّم.

والراهنُ أنَّ تجربةَ بيار الجميل منذ بداياتها الأولى، زاوجت بينَ تَوْقٍ إلى الحداثةِ وتمثيلٍ لمصالحِ وتطلعاتِ المستفيدينَ منها، وبينَ خوفٍ يُهَدِّدها على الدوامِ كلّما لاح ضعفُ الدولةِ صريحاً، باحتمالِ النُّكوصِ إلى ما قبل السياسة وما قبل الاجتماع الحديث. وهذا ما يُفَسِّرُ كيفَ أنَّ الجميليَّة، وقبلَ أن تضَعَ الحربُ الأهليةُ ـ الاقليميةُ أوزارَهَا، شرعت تخسر حزبَهَا لصالحِ البيئةِ الطرفية الريفية التي بدأت تُقبل عليه في ١٩٥٨، إذ أنَّ هذه الأخيرةَ تبقى أكفأ مِن الأولى في خوضِ حربٍ كالَّتي خِيضت وتُخاضُ منذ ١٩٧٥[٧٢].

ولا بأسَ بالعودةِ إلى تجربةِ المؤسسِ بيار الجميل والتأشيرِ على عناصرِ المزاوجَةِ والإزدواج المبكرة، وصولاً إلى تعيينِ الوُجهةِ التي اتَّخذتها في ما بعد، مع اندلاعِ الحربِ وانهيارِ النِّصابِ السياسيّ ودولتِه، إثر تعاظمِ الجيبِ الطرفيّ في الحزب. ففي الحركاتِ السياسيةِ التي تعكِس حالاتٍ شعوريةً حادةً كالخوف، تلعبُ شخصيةُ القائدِ دوراً اساسياً وطاغياً يكادُ يُعادلُ الحزبَ نفسَهُ في تكوينِه وافكاره وممارساتِه. وهذا ما لا يكتُمُهُ رجالُ الرَّعيلِ الأول في الحزبِ ممَّن عاشوا لحظاتِ التأسيسِ إلى جانبِ الشَّيخ بيار الجميل.

فحينَ يُسألُ جوزيف سعادة يَستشهدُ بما ورد في أحدِ كتبِ الحزبِ من أنَّ «التأكيدَ على شخصيةِ بيار الجميّل في استمرارِ المنظَّمةِ ونجاحِها، هو بمثابةِ التحدّي الَّذي طُرِح في الحياةِ السياسيَّةِ اللبنانية». واختيارُ الجميّل رئيساً هو في رأيِهِ ما «انقذ المنظَّمة من التَّفَكُّك» وأمَّنَ لها «عاملَ الاستمرار». امَّا المبادىءُ الكتائبيةُ التي دفعت انطوان خضرا إلى الإستمرارِ في الحزبِ فهي وطنيَّتُه و«اسم بيار الجميّل»، فهذا الإسم كان «وحدَهُ رصيدَ الكتائب»[٧٣].

ولأنَّ الدينَ، منذُ الإنسانِ البدائيّ، هو في أحدِ وجوهِهِ الأساسيّة، نتاجُ المشاعرِ

(٧٢) من ضمن عملية واحدة، برغم الفوارق في الأحجام، خسرت الكتائب نفسها للريف، وخسرت الاحزاب اليسارية والعلمانية الكثير من مواقعها لأصحاب الوعي الإسلامي النضالي، بعد طول مشاركة منها في التعبير عن هذا الوعي وفي تسويقه والاستقطاب على اساسه.

(٧٣) انظر المقابلات في العمل ـ خمسون سنة...، سبق الاستشهاد.

الحادةِ، والخوفِ منها بصورةٍ خاصةٍ، درجت حركاتُ الخـوفِ وردّ الخوفِ على أن تـرسمَ نفسَها في أشكال تُقَرِّبُهَا من الأديـان، فيما تُعلنُ مُنْشِئِيهـا وروادَها أشبـاهَ آلهةٍ أو رجـالَ عنايةٍ آلهية. ولم تُخفِ الكتائبُ التي أطلقت على بيـار الجميل تسميـة «الصخرة»، نسجـاً على لقبِ القدّيس بطرس الّذي يحملُ بيار (بطرس) اسمَـهُ، معاني الإطمئنـانِ والثّقةِ التي يُشيعها القائدُ ويوحي بها لجمهورٍ يسكنه الخوف ويعوزُه مرتكـزٌ صلبٌ يستندُ إليـهِ. فعلى رَغم ِ أن الحزبَ «تبنّى فلسفةَ مونييه كعقيدة»، كما يقول جورج سعادة، «كان المـرجعُ هـو تصرفاتِ بيار الجميل وأقوالَه وحياتَه، تماماً كما حصلَ في الديانة المسيحية»[٧٤].

هـذِه السمةُ، التي سيتمُ التطـرقُ إليها في مـا بعد، اتخـذت في وقتٍ لاحقٍ أبعـاداً مُطْلَقَةً مع بشير الجميل، الكفيلِ بطردِ الخوفِ ونقلِه كليّـاً إلى جبهةِ الخصم. لكنّهـا، قبل ذلك، جمعت إلى الشقّ العقلانيّ الذي لم تضبطه الحياةُ السياسية ومعاييرُها، شقاً آخر لم يغِب عن التكوينِ الشخصيّ للمؤسس بيار الجميل. وقوامُ هـذا الشقّ لا عقلانيـةُ الزّعيم، أيُّ زعيم، التي تؤذن بوضـعِ السلوكِ السياسيّ برمَّته على تخومِ العاطفيَّةِ المحضة[٧٥].

يَبقى أنَّ الإفتتانِ بالقوةِ والّذي، كما سبقَ القولُ، لا يجعلُ صاحِبَه فاشيّاً بالضّرورة، كان من ثوابتِ التكـوينِ الشخصيّ للجميل الـذي أسس حزبَـه في مناخ ِ التـوتُّر المحليّ المحيطِ بتـوقيعِ المعـاهدِة اللبنـانيةِ ـ الفـرنسية. وفي وصفٍ إجمـاليّ لهذا الملمـحِ من شخصِهِ، كان بيـار الجميل «يؤمنُ بـالقوة وبمظـاهر القـوة: العرضُ العسكـريّ، الحفلاتُ الشعبيـةُ المنظَّمة، المـوسيقى والأناشيـد الحماسيَّـة»[٧٦]، أي بكلِّ مـا يمعنُ في توكيـدِ النظاميةِ الشكليَّة على حسابِ «المضمون» السياسيّ. ومنذُ البدايـاتِ الحزبيـة الأولى في ١٩٣٦، وحينَ كانَ الفرنسيّ هو الحامي ولم تكن العلاقاتُ الكتائبيةُ معهُ أصابها التدهـورُ،

(٧٤) من مقابلة معه اجرتها العمل (ملحق) ١٩٨٦/١١/٢٢.

(٧٥) عن هذه العاطفية قد ينجم فساد يجاور الإيمان والنزاهة في صورة تبدو، لوهلة، ملتبسة وغيـر مفهومـة. مثلاً، تتسلل الاعتبارات العائلية التي لا تنضبط بالمعايير الصارمة إلى مراكـز صنع القـرار في الحزب والسيـاسة الحزبية او إلى مراكز التأثير عموماً، خصوصاً أنَّ القائد المؤسس هو واضع المعايير بحيث تتقلّص الفـوارق بين التراكيب «الحزبيّة» والتركيبة المافياويّة للجنـوب الايطالي حيث تسـود رابطة الـدم وما يتـرتّب عليها من شـرف واخلاق. هكـذا نجد، بحسب مـا تكتب نشرة **الوطن** المعاديـة للكتائب في ١٩٧٨/٦/٢٥، وفي وقت واحد، خمسة اشخاص من آل الجميل في المكتب السياسي للحزب: بيار وامين وبشير واسكندر ولور، فضـلاً عن بول الجميل «عضو المجلس الحربي وابن شقيق بيار الجميل»، وفـادي الجميل «المسؤول العسكـري في منطقة الصيفي»، وسامي الجميل «نائب مسؤول منطقـة بكفيا»، وجميـل الجميل «منـدوب الكتائب في اللجنـة المالية المشتركة مع الاحرار وهو من مسؤولي التموين والمحروقات».

تتكرر الظاهرة نفسها في كلّ مكان تقريباً يتراجع فيه الإحتكام للدستور لصالح مُـرَكَّب العقيدة ـ الـزعيم وإنْ اتخذت في بلدان الأنظمة التوتـاليتاريـة أشكالاً أفـدح، من العراق وسـورية وكـوبا ونيكـاراغوا السـانديـنيـة (الشقيق) إلى الاتحـاد السوفيـاتي البريجنيفي وكـوريا الشمـالية (النجـل) إلى الصين المـاويـة وورومـانيـا تشاوشيسكو وحتى تونس البورقيبية (الزوجة).

(٧٦) كريم بقرادوني، **السلام المفقود**، سبق الاستشهاد، ص ١١٢.

إتصل الحزبيونَ بالجنرال هنتزيغر لأجل تدريبِهم، الأمرُ الذي استهجنَتهُ وهاجمته صحيفةُ «بيروت» الإسلاميةُ النزعةِ والتمثيل(٧٧). وفي وصفِ لأولى نتائج التمارين كما أظهرها حفلٌ رياضيٌ اقامته الكتائبُ في ١٠ كانون الثاني ١٩٣٧، يلوح مناخٌ لا يفوقُه في جِدَّةِ الإلحاح على النظامِ إلاّ ذاك الّذي احاطَ بنشاطاتِ أنطون سعادة وحزبِه السّوريّ القوميّ(٧٨): «بعد أن قام نحو الف من شبّانها بتمريناتٍ رياضيةٍ، مَشَوا بملابسِهم الرسميةِ إلى المدينةِ في طريقِ دمشق فِرَقاً منظّمةً، وأمام كلِّ فرقةٍ قائدُها. وقد تقدَّم الجميعَ العلمُ اللبنانيُّ يحيطُ بهِ ثلاثونَ شاباً من القوّاد، فموسيقى الحزبِ تعزف الحانَها الشجيّة، فعدةُ أعلام... وكانت جماهيرُ الأهلينَ تقابلهم بالهتافِ والتصفيقِ. ولما بلغ الموكبُ ساحةَ الشُهداءِ وضع اكليلاً من الأزهار على تمثالِ شهداءِ الوطنِ بعد أن هتفَ للبنان ورئيسِه»(٧٩). وفي إطار اهتمامِ الكتائب بـ «تربيةِ النشء اللبنانيّ ثقافياً وجسدياً «كُرِّسَ للتربيةِ البدنيةِ الإهتمامُ الأول «لأنَّ أكثر اعضاء الكتائب بحاجةٍ إلى تهذيبِ اجسامِهم»(٨٠).

لكن فيما بلغت جسديَّةُ الحزبِ السوريّ القوميّ حدَّ إعلانِ الإعجابِ الصَّريحِ بالسِّلاحِ والسَّعي إلى الحصولِ عليهِ حينَ يتاحُ ذلك، فإنَّ تركيبَ الكتائبِ المدينيّ ولبنانيتَها الموازيةَ لدولةٍ قائمةٍ في الواقعِ الفعليّ، حملاها على تجنُّبِ مثلِ هذا الإعجابِ المباشر. وفي غالبِ الأحيانِ بدت نزعةُ القوةِ عندَ الكتائب مُتصالحةً تمامَ التُّصالحِ مع الدولةِ واجهزتِها من المدرسةِ إلى الجيشِ، كما تشيرُ مصطلحاتُ القاموسِ الكتائبيّ: تربيةُ النشء، التربيةُ المدنيةُ، الهتافُ للبنان ورئيسِه(٨١). فالجسديّةُ القوميّةُ السُّوريّةُ كانت أقربَ إلى المِثال الفاشيِّ لجهة هجوميَّتِها وانقلابيَّتها، في مقابل الجسديّة الكتائبيّة الدفاعية والمُتصالحة مع الواقع.

(٧٧) انظر: **تاريخ حزب الكتائب**، سبق الاستشهاد، ج ١، ص ٧١ هـ.

(٧٨) وهو في الواقع يفوقه كثيراً، إذ قياساً بسعادة يبدو التوكيد الكتائبي على القوة والنظام تمرينات بدنية لشبيبة المدن. وربما كان هذا من مصادر الفكرة الشعبية التي شاعت طويلاً واستمرت حتى ١٩٧٥ حول الشجاعة المنسوبة إلى القوميين والرقة المنسوبة إلى الكتائبيين.

(٧٩) **تاريخ حزب الكتائب**، سبق الاستشهاد، ج ١، ص ٧٢.

(٨٠) المرجع السابق، ص ٧٤.

(٨١) على أن المقارنة مع قوميي سعادة، في هذا الجانب على الأقل، اغرت الكثيرين من الكتّاب والمؤرخين والباحثين، فكتب أحدهم وهو بريطاني بشيء من القسوة وعدم الدقة: «كانت الكتائب اللبنانية تشبه [السوريين القوميين] في التنظيم، لكنها كانت علانية، غير سياسة. ومنذ نشأتها شكّلت الكتائب واحداً من فروع الحزبية القائلة بالوحدة اللبنانية، فوقفت منذ اواخر ١٩٣٦ فصاعداً إلى جانب المصلحة اللبنانية ذات الارجحية المارونية بصورة محضة، واعطت الملابس النظامية واعمال التدريب والتظيم شبه العسكري لاحتفالات الكتائب وفرقها مكانةً تتعدى تلك المعروفة في عالم الخدمات الاجتماعية والرياضيّة، كما ادعت هي. وبقيادة شاب ماروني نشط وكفوء هو بيار الجميل، أصبحوا قوة محترمة في المجتمع والسياسة. وحظي التنظيم بدعم المفوض السامي في خريف ١٩٣٩ فضلاً عن آخرين. امّا ما كان يضاهيها في المدن اللبنانية فتمثل في النجادة...». Stephen Hemsley Longrigg, *Syria and Lebanon,..., op. cit.*, p. 226.

وعلى أيـة حال، فـالقوةُ ورمـوزُها هي التي يُنـاط بها ردُّ الخـوفِ في آخـر الأمـر، والجميل الشاب الذي كان رئيساً لاتحادِ كـرةِ القدم في لبنـان وفَّرت لـه رياضيتُـهُ نقطةَ التقاطعِ بينَ القوةِ الخام وضبطِها في اشكالٍ وقنـواتٍ تجعلُها «العـاباً» تقبـلُ الإستيعابَ والإدراجَ في المناسباتِ العـامَّةِ والـوطنية. لكنَّـه ايضاً بـدا حياتَـه متراوحـاً بين الخوفِ والقـوةِ على نحوٍ لم يشـذ عنهُ أيٌّ من منعطفـاتِ هذه الحيـاةِ اللاحقـةِ. لا بل ورث تـركةَ الخوفِ والقوةِ بنتيجةِ تحدُّرهِ عن والدٍ «هاجر إلى مصر هرباً من السلطاتِ العثمانيـةِ التي كانت تَتَعَقَّبُهُ لتُنزلَ بهِ عقوبةَ الإعدام «مُمَهِّداً للحاقِ العائلةِ به»[٨٢]. وبحسبِ احـدِهم صدرَ هذا الحكمُ في ١٩٠٥ اي سنة ولادة بيـار مما حـالَ دون رجوعِ العـائلةِ إلى لبنـان حتى انتهاءِ الحربِ العالميَّةِ الأولى[٨٣].

وفي لَحـاقِ العائلـةِ بربِّ الاسـرةِ يستعيدُ بيـار الجميّل فصـلاً شهيراً في تـواريخِ العبورِ الملحميةِ، حيث يختلطُ الخوف بالذاكرةِ والرمزِ اختلاطاً يعرفُهُ كـلُّ تجاورٍ وثيقٍ بينَ الواقعِ والخرافة. ومما شاهدَهُ بيار الصغير، بحسبِ روايتِهِ اللاحقةِ للكاتِبِ الفرنسيِّ جاك نانتيه، أنَّهُ «في صالونٍ على ظهرِ الباخرةِ [وَجَدْتُ] مغارةً مضاءةً نصلّي أمامها. كنّا، إذاً، حقّاً في فترةِ الميلادِ، وكانت أُمُّنا لإدخالِ الطمأنينةِ إلى قلبينَا، تروي لَنَا أنَّ الطِّفلَ يسوع أُجْبِرَ هو ايضاً على التوجُّه إلى مصر مع ابويهِ للنَّجاةِ من مُضطهديه»[٨٤].

وإذا كانت البيئةُ المهجريةِ بيئةً صالحةً لإثارةِ ردودِ الفعـلِ الشعوريـةِ الصارخـةِ، نظـراً لفقدانِ الإحتكـاكِ المباشِـرِ بواقــعٍ معيَّنٍ، فإنَّ إضفـاء النفي وحكمِ الإعدامِ على الهجرةِ لا يفعلُ غير إسباغِ شحنةٍ شعوريَّةٍ إضافيةٍ تجمعُ إلى الكراهيةِ والحقدِ حنيناً إلى عودةٍ مقموعةٍ واستذكاراً لماضٍ تمَّت مصادرتُه.

البيئة المهجريّة

في رسمِ البيئةِ التي وُجدت في مصر قبلَ قـدومِ الجميّل، والتي مـا لبثت أن رعتهُ فتىً صغيراً، يتحدَّثُ فيليب حتّي عن اللبنانيينَ (والسوريين) بوصفِهِم «يقومـونَ بخدمـاتٍ جلّى في حقولِ الطبِّ والصَّيدلةِ والادارةِ الحكوميـة، المدينـةِ منها والعسكـرية، حتّى أنَّ بعضَ الموظفينَ الإنكليز كـانوا يقـولون: «لقـد كان بـاستطاعَتِنَـا احتلالَ البـلادِ، ولم يكن باستطاعَتِنَا الإحتفاظَ بهما لولا هؤلاء السّوريونَ واللبنانيونَ». امَّـا أولئك المهـاجرونَ منهم

(٨٢) جوزيف قصيفي، ملف «حكم آل الجميل»، في صحيفة الجمهوريـة ١٩٨٥/١٢/٢٤ ضمن سلسلة تحقيقـات صحافية حملت عنوان: «الجمهورية تفتح ملفات لبنان السياسية والاقتصادية والاجتماعية».

(٨٣) Michael. W. Suleiman, *Political parties...*, *op. cit.*, p. 233 n.

(٨٤) راجع العمل ـ خمسون سنة...، سبق الاستشهاد.

الـذين اشتغلوا في الأدب والصِّحـافة والعِلم «فلم يقتصـر اثرُهم على مصـر وحدهـا بـل تعـدّاها إلى سـائرِ الأقطـار العربيـة»(٨٥). وبدوره يُشيـر البرت حـوراني بقـدرٍ أكبـر من الإستفاضةِ والتفصيلِ إلى طبيعةِ الهجرةِ اللبنانيةِ السوريةِ إلى مصر، مُلاحِظاً أنَّ «هجرةَ آلافٍ عدَّةٍ من السوريينَ إلى بلدان أخرى، عمِلت على توفيرِ الاستقبالِ للحضارةِ الغربية. وفي الغالبِ كانوا يَفِدُون من لبنان اكثر ممـا من البلدان الأخـرى، وكانـوا من المسيحيين أكثر مما من المسلمين»(٨٦). ويُسَمّي حوراني جرياً على ما دَرَجَ عليه آخرون، بعض أولئك المسيحيينَ اللبنـانيين الرواد: «أسـاتذةُ وشعـراءُ عـائلتي البستـاني واليـازجيّ» و«آبـاءُ الصحافة العربية الشّدياق ونمر وصروف وزيدان وتقلا» و«الشّاعر خليل مطران» و«أفضل الكاتباتِ العربياتِ» مي زيادة و«الرحّالة أمين الريحاني» و«الصّوفي خليل جبران»، ومعهم إسمٌ مسلمٌ واحدٌ هو «المصلحُ الدينيُّ» الشّيخ رشيد رضا(٨٧).

فالمعرفـةُ باللّغـات الأجنبية والمهـاراتِ الحديثـةِ كانت تحتـاجُها مصـر بغزارةٍ في النّصف الثّـاني من القرنِ المـاضي، أي خلال عهـدي سعيد واسمـاعيـل. وفيمـا كـانت المدارسُ التبشيريَّةُ في سورية ولبنان قد وفَّرت أعـداداً واسعةً من حَمَلَـةِ هذه المعـارفِ، معطوفةً عليها معرفةُ اللغةِ العربيّة معرفةً لم يتمتّع بها أبناءُ سائر الجنسياتِ والأقلياتِ في مصـر، سجّلت هجرةُ القـرن التّاسـع عشر على سـابقاتِهـا ارتفاعـاً في أعداد الـريفيينَ والموارنةِ المهاجرين(٨٨).

ولم يكن الخديوي أقلَّ سخاءً حيـالَ المهاجـرينَ من الإدارة الإنكليزيـة، فدَرَجَ على منحِ تسعةِ طـلابٍ لبنانيين وسـوريين مِنَحاً سنـويةً لـدراسةِ الطبِّ في القـاهرة(٨٩). امّـا مراجعة بعض أسماءِ أوائلِ الأطبـاء والمناطقِ التي جـاؤوا منها، فـلا تترك مجـالاً للشكِّ بصددِ اللّونِ الطّائفيّ والمذهبيّ للّذين توخوا دراسةَ الطبّ في مصـر حتّى قبل الإحتـلالِ الإنكليـزيِّ لها. فهم بحسبِ الأسمـاء التي توافـرت، إبراهيم نجّـار من دير القمـر وغالب خـوري مِن بعقلين ويوسف جلـخ ويوسف مـرهج لطيف(٩٠). وفي ١٨٥٩ حينَ زار سعيـد باشا بيروت فإنَّهُ «لم يُقِم عند الحاكم العثمانيّ أو أيٍّ من الأعيانِ المسلمينَ، بل عند عائلةِ بُسْترس المسيحيّة التجاريّة» في بيروت. أما إسماعيل فبدورِهِ «قدَّم معـوناتٍ للصحـافيينَ

(٨٥) فيليب حتي، لبنان في التاريخ...، سبق الاستشهاد، ص ٥٧٦.

(٨٦) A.Hourani, *Syria and Lebanon*..., *op. cit.*, p. 34 & 35.

(٨٧) *Ibid.*, p. 37

انظـر في صدد النشـاط الثقافي ـ الأدبي إلـخ: احمد طـاهر حسنين، **دور الشـاميين في النهضة الأدبيّـة الحديثة**، دار الوثبة، دمشق ١٩٨٣.

(٨٨) انظر A.Hourani, *The Emergence*..., *op. cit.*, p. 114-116

(٨٩) Marwan Buheiry, «Bulus Nujaym...», *op. cit.*, p. 65.

(٩٠) *Ibid.*, p. 65 n.

السّوريينَ» كما ساعد «بطرس البستاني وعائلتَهُ على نشر دائرةِ معارفهم»(٩١). وفي أيَّةِ حال فبسببِ من ارتياحِ الإنكليز والخديوي للمهاجرين «الشَّوام» قُـدِّرت ثروةُ هؤلاء عام ١٩٠٧ بِعُشرِ الثَّروةِ القوميةِ المصرية(٩٢).

اما مدينةُ المنصورة التي قصدها آل الجميّل فانقسمَ مهاجروها مبكراً «على اساسٍ طائفيّ» وكان «للطائفيةِ دورٌ كبيرٌ في بروزِ فرق كشافةٍ، خاصةٍ بكلِّ طائفةٍ، كما تأسَّست جميعاتٌ خيريةٌ لها منذ القرنِ التاسع عشر»، الشيءُ الذي استمرَّ إلى ما بعد الحربِ العالميَّة الأولى حيث باتت للطوائفِ «مدارسُها وانديتُها وكشافُها وفرقُها الموسيقيةُ وجمعياتُها الخيرية»(٩٣).

وبدوْرِهِم، فالمهاجرونَ اللبنانيونَ إلى المنصورةِ كانوا «بشكلٍ اكثرَ تحديداً، من مهاجري متصرِّفيةِ جبل لبنان»(٩٤). هناك وَجَدَتْ عائلةُ الجميل «أنسباءَ يحضنونَها. وكان فرعٌ قريبٌ منهم يملك فبركةً «مصريةً» الهامة للسجائر»(٩٥)، إذ منذ ١٨٩١ ولآل الجميّل حصّةٌ مرموقةٌ بين «الشخصياتِ المارونيةِ» في المدينةِ المذكورة(٩٦).

وهكذا سرعان ما تمكَّن الدكتور أمين الجميّل، والد بيار، من «مزاولةِ الطبِّ داخل حلقةٍ واسعةٍ» ربطته، بحسب نانتيه، بصلةٍ مباشرةٍ بالملك فؤاد(٩٧)، وقوّت علاقته بالدوائرِ العليا للمجتمعِ المصري الذي اشتهر بتراتُبِه الإجتماعيّ القاطعِ وحراكِهِ الطبقيّ شبه المعدوم.

تكتملُ لوحةُ الوجودِ المسيحيّ المهاجر في مصر بالإشارة إلى الحقلِ السياسيّ حيثُ لعب بعضُ المهاجرين أدواراً ملحوظةً في توطيدِ الصِّلةِ بين الهاشميينَ والبريطانيين، إذ انطلاقاً من مصر أمكنَ توسيعُ حلقةِ النشاطِ الوسيطِ المتعددِ الأوجهِ الذي سبقتِ الإشارةُ إليه. والصلة بين الطَّرفينِ المذكورَينِ هي بين العناصرِ التي ادَّت

(٩١) A.Hourani, *The emergence...*, *op. cit.*, p. 115-116.

(٩٢) مسعود ضاهر، **الهجرة اللبنانية إلى مصر ـ «هجرة الشوام»**، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت ١٩٨٦، ص ١٦٥.

(٩٣) المرجع السابق، ص ١٤٧.

(٩٤) المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(٩٥) جاك نانتيه، في: **العمل ـ خمسون سنة**...، سبق الاستشهاد. واغلب الظن انّ صاحب الشركة هو والد موريس الجميل الذي اقترن بيار بابنته لاحقاً.

(٩٦) يُسمي مسعود ضاهر من هؤلاء الشخصيات: خليل صعب، انطون صالح، ضاهر الجميل، حنا توما، بشارة الزند، موسى حشيمة، كنج والياس الجميل. **الهجرة اللبنانية**...، سبق الاستشهاد، ص ٤٩ ـ ٥٠. هذا ويعود الوجود الماروني هناك إلى «اوائل القرن التاسع عشر» ولاحقاً، وفي ١٩٢٧ كان عدد الموارنة في المنصورة ٥١٦ شخصاً علماً أن سنوات ما بعد الحرب الاولى شهدت عودة الكثيرين إلى لبنان، ص ٤٩ ـ ٥١.

(٩٧) **العمل ـ خمسون سنة**...، سبق الاستشهاد.

إلى تسريعِ إعلانِ الثورةِ الحجازيةِ ضدَّ العثمانيينَ في ١٩١٦، الشيءُ الذي تردَّد شريفُ مكَّة طويلاً في الإقدامِ عليهِ، كما عمِلت هذه الصلةُ على الحدِّ من طغيانِ اللَّونِ الشريفي على الثورةِ إياها.

فبحسبِ ما رواهُ فارس نمر، صاحبُ ومحررُ جريدةِ «المقطَّم»، لزين نور الدّين زين، تمَّت الإجتماعاتُ التي حصلت في مصر في ١٩١٤ بين اللُّورد كتشنر والأمير عبدالله مبعوثِ والدِهِ الحسين بن علي، في مكتبِ نمر «في بعض الغرفِ الخلفيةِ لبنايةِ المقطم»[٩٨]. وبين الحربِ العالميةِ الأولى والإنتدابِ الفرنسيّ على سورية ولبنان، أسَّسَ المهاجرونَ اللبنانيونَ في مصر عدَّةَ أحزابٍ كان منها «حزبُ الإتحادِ السوريّ» و«الحزبُ الوطنيُّ اللبناني» و«الحزبُ اللبنانيّ» أو «الحزبُ السوريُّ ـ الفرنسيّ في مصر» الذي أسماهُ الوحدويونَ «الحزبَ الفرنسيّ» و«الحزبُ الحرُّ المعتدل» و«جميعةُ الإتحادِ اللبنانيّ» وقد تفاوتت أطروحاتُ هذهِ الأحزابِ والجمعياتِ بين لبنان الكبير في ظلِّ الإنتدابِ الفرنسيّ والدعوةِ الوحدويةِ السوريةِ ذاتِ الهوى البريطانيّ[٩٩].

ومنذ البداية لم تشذَّ نقاطُ السكنِ التي استقرَّ فيها المهاجرونَ عن العلاماتِ الأخرى على هذا الخيار «المُتَغرِّب» والأقليّ. ففي رصدِهِ للتجّارِ المسيحيينَ المهاجرينَ الأوائل، سجَّل حوراني أنَّهُمْ «عاشوا في أمكنةٍ متعدِّدةٍ: عاشَ البعضُ في القاهرةِ القديمة، لكنَّ الأكثريةَ عاشت في الحيّ الفرنسيّ («حارة الإفرنج») بالقُربِ من التُّجارِ الفرنسيينَ والأوروبيينَ الآخرين [...] وهنا أيضاً سكنوا مُلْتَفِّين حول كنائِسِهم. ففي دمياط كانت هناك كنيسةٌ سوريةٌ وُجِدَت على امتدادِ معظمِ القرنِ الثَّامنِ عشر وكانت للموارنةِ، إلَّا أنَّ المَلَكِيِّينَ كانوا يستعمِلونَهَا أيضاً، أمَّا خِدمتُها فكانت تتمُّ بموجبِ النظامِ المارونيّ كما وضعَهُ الآباءُ اللبنانيونَ منذ ١٧٤٥ وبموجبِ النظامِ الملكيّ لباسيليي المخلص»[١٠٠].

لَئِن كانت هذهِ الحالُ، النخبويةُ والأقليةُ والوسيطةُ مع الغربِ، حالَ معظمِ المهاجرينَ المسيحيينَ إلى مصر، فقد ظَهَرَ في طليعةِ هؤلاء، فضلاً عن الدكتور أمين الجميل، نسيبُهُ صاحبُ شركةِ السَّجائر، وكنج الجميل «أكبرُ تاجرٍ في مدينة المنصورة [...] ورئيسُ الجمعيَّةِ الخيريةِ المارونية»[١٠١]، والشيخُ انطون الجميِّل[١٠٢]، العمُّ الفذُّ» لبيار[١٠٣] الذي أنشأ في القاهرة في ١٩١٠ مجلَّةً «علميةً أدبيةً شهريةً»

(٩٨) زين نور الدين زين، «أسباب الثورة العربية الكبرى»، في: **دراسات في الثورة العربية الكبرى**، الشركة العالمية الأردنية للنشر والتوزيع، عمان، ص ٥٧ هـ.

(٩٩) مسعود ضاهر، **الهجرة اللبنانية**...، سبق الاستشهاد، ص ٢٦٨ ـ ٢٦٩.

(١٠٠) A.Hourani, *The emergence...*, *op. cit.*, p. 106-107.

(١٠١) مسعود ضاهر، **الهجرة اللبنانية**...، سبق الاستشهاد، ص ٣٤٨.

(١٠٢) انظر في الذكرى المئوية لميلاده: **النهار** ١٩٨٧/٧/٢٠.

(١٠٣) بحسب تسمية جاك نانتيه، في **العمل ـ خمسون سنة**...، سبق الاستشهاد.

اسماها «الزُّهور»[١٠٤]، وإلى جانبِ اهتماماتٍ أخرى اهتمَّت المجلَّةُ المذكورةُ بـ «البحثِ عن مفرداتٍ لما استجدَّ للمخترعاتِ الحديثةِ والإكتشافات»[١٠٥]. وألَّف أنطون الجميّل فصلاً مسرحيّاً بعنوان «ابطالُ الحريّة» سنة ١٩٠٨ لدى إعلان الدُّستور العثمانيّ، ووضَعَ، عملاً بالمناخِ الفكريّ المسيحيّ يومذاك والذي دَرَجَ على معارضةِ الإسلامِ بالعروبةِ، مسرحيةً عن «السَّموأل او وفاء العرب»[١٠٦]. كذلك رأسَ الجميل تحريرَ جريدةِ «الأهرام» كما عُيِّنَ عضواً في مجلسِ الشُّيوخ المصريّ ومن ثمَّ مستشاراً للملك فاروق[١٠٧].

بدورِها لم تكن حالُ الأقباطِ المصريينَ في المدنِ، وهُم النطاقُ الأعرضُ المحيطُ بالمهاجرينَ المسيحيينَ، تختلفُ كثيراً في الخُلاصاتِ العامَّة، وإن تمايزت لِجهةِ طغيانِ وظائفِ الفئاتِ غيرِ الأولى تبعاً لمصريَّةِ الأقباطِ وحاجةِ سائرِ مراتبِ الإدارةِ لهم فضلاً عن ضخامةِ عددِهم قياساً بالمهاجرين. فقد اشار، مثلاً، احد التقاريرِ الإنكليزيّة إلى أنَّهم «كانوا يمثلون في ١٩٠١ اقلّ من ١٠٪ من السكان [و] كانوا يشغلون ٤٥,٢٣٪ من الوظائفِ الإداريةِ ويستأثرونَ بـ ٤٠٪ من رواتبِ الوظيفةِ العامَّة»[١٠٨].

بلغةٍ اخرى، استطاعت البيئةُ المسيحيةُ اللبنانيةُ في مصر المرعيَّةُ بالإنتداب، ومن حولِها المحيطُ القبطيُّ المِصريّ، أن تُوَفِّرَ مناخاً لتَشَكُّلِ وعيَ بيار الجميل الفتى هو في اكثرِ جوانبِهِ امتدادٌ للمناخِ النخبويّ المارونيّ الجبليّ بعد تحريرِهِ من الكبتِ العثماني.

ونجحت هذه البيئةُ في ان تتكفَّلَ بتوفيرِ الرعايةِ والحمايةِ من الخَوفِ تبعاً لِحُسنِ العلاقةِ مع الإنكليز والخديوي، بما عمل على دمجِها في البيئةِ الكولونياليَّةِ الأعرض. فجرجس الجميّل «عُيِّنَ ترجماناً للقنصليةِ الفرنسيةِ في الإسكندرية [و] كان فرنسيَّ النَّزعةِ وتوفِّيَ مقتولاً بحرابِ رجالِ الشُّرطةِ ووكلاءِ الأمنِ المِصريّ إبَّان ثورةِ احمد عُرابي عام ١٨٨٢»[١٠٩] اي انَّ الخوفَ كان لا يتسلَّلُ إلى متنِ هذِه البيئةِ إلا لحظَةَ تصدُّعِ النِّصابِ الكولونياليّ القائمِ وسطوعِ الفوضى الجماهيريةِ وعنفِها. وفعلاً رجع عددٌ من المهاجرينَ البكفاويينَ الموارنةِ إلى لبنان مع ثورةِ عُرابي باشا ضد الإنكليز[١١٠] التي

(١٠٤) احمد طاهر حسنين، **دور الشاميين...**، سبق الاستشهاد، ص ٨٤، حيث يورد جدولاً بـ «الشاميين» الذين اسسوا صحفاً ومجلات في مصر.

(١٠٥) المرجع السابق، ص ١١٤.

(١٠٦) المرجع السابق، ص ٢٣٤.

(١٠٧) انظر مسعود ضاهر، **الهجرة اللبنانية...**، سبق الاستشهاد، ص ٢٦١ و٢٧٠ و٣٥٦.

(١٠٨) جاك تاجر، اقباط ومسلمون، عن: جورج قرم، **تعدد الأديان وانظمة الحكم، دراسة سوسيولوجية وقانونية مقارنة**، دار النهار للنشر، ١٩٧٩، ص ٣٠٤ هـ.

(١٠٩) مسعود ضاهر، **الهجرة اللبنانية...**، سبق الاستشهاد، ص ٣٨٨.

(١١٠) انظر: طوني بشارة مفرج، **الموسوعة اللبنانية المصورة**، منشورات مكتبة البستان، الاشرفية، ١٩٦٩ الجزء الأول، قرى ومدن المتن الشمالي، ص ٩٣.

اشتهرت بضيقِ أفُقِها القومي والدينيّ وحِدَّةِ عدائِها للغريب.

وما ينطبقُ على جرجس الجميل ينطبقُ، بنسبةٍ أو أخرى، على معظمِ المهاجرينَ من أفرادِ أسرتِهِ. فيوسف بشير الجميل، عمّ بيار، هرَبَ من لبنان تبعاً لـ «اضطّهادِ الأتراكِ له بسببِ ميولهِ الفرنسيَّة المعروفة ودعوتِه لاستقلالِ لبنان الكامل»، وكان «من أوائلِ المهاجرينَ اللبنانيينَ العائدينَ إلى بيروت على ظهرِ طرَّادٍ فرنسيّ بناءً على استدعاءِ أوّل مفوَّضٍ سامٍ فرنسيّ، المُسيو فرانسوا جورج بيكو. سَافَرَ إلى باريس في العامِ نفسِهِ، وبمهمَّةٍ ثانيةٍ عام ١٩٢٠ مع الوفدِ اللبنانيّ الثَّاني إلى مؤتمرِ الصلح». وغنطوس انطون الجميل وَجَدَ وظيفَةً له «في قلمِ ماليةِ حكومةِ السودان»، وميشال شاوول الجميّل «ترأس قلمَ الإدارةِ الأولى التابعةِ لمحكمةِ الإستئنافِ المختلطةِ البدائيةِ في الإسكندرية»، وشارل فيليب الجميل عُيِّنَ «معاوناً لرئيسِ قلمِ المحكمةِ المختلَطَةِ البدائيةِ في الإسكندرية»، والفرد الجميل «كاتباً في المحكمةِ نفسِهَا»، والدكتور ناصيف الجميّل عُيِّنَ «طبيباً في حكومةِ السُّودان»، وحبيب ويوسف الجميّل تسلَّما «وكالةَ بيتِ اللورد كِتشِنِر المشهورِ في مصر والسودان»، وعُيِّنَ جوزيف الجميل «موظَّفاً في قلمِ المحكمةِ المختلطةِ في المنصورة»[١١١].

إلّا أنَّ عملَ هذهِ البيئةِ يتعدَّى توطيدَ الإستقرارِ وطردَ الخوفِ إلى إثارةِ حِسِّ التفوُّقِ التمدينيّ حيال المصريينَ انفسِهِم، وهو حِسٌّ كولونياليّ تعريفاً لجهةِ إفعامِهِ بالقوةِ والتَّوكيدِ الذَّاتي و«عبء» الدَّورِ والمهمة.

بهذا المعنى، فالخلفيَّةُ السِّياسيةُ التي صدر عنها الشَّيخ بيار الجميل ولازمتهُ في السنواتِ الأولى لإنشاءِ الكتائب، ولو بعدَ تحويرِها، كانت من بعضِ هذِهِ العدَّةِ الكولونياليةِ، حيثُ أنَّ «والدَهُ الشيخَ امين وعمُّه الشيخَ يوسف كانا من أشدِّ المتحمِّسينَ لإميل إدّه، وهذِهِ الحماسةُ انتقلت لاحقاً إلى الشَّيخ بيار. وكانت تُرَدَّدُ في البيوتِ والمناطقِ المسيحيةِ جملةٌ شهيرةٌ: الآباءُ كُتْلَوِيُّونَ والأبناءُ كتائب»[١١٢].

وقد تعلَّمَ بيار الجميل من البداياتِ المِصريةِ لهذِهِ التَّجربةِ ما تعلَّمَه انطون سعادة، ابنُ الطَّبيبِ والمثقَّفِ خليل سعادة، والَّذي تبلورَ وعيُهُ الجنينيُّ في المهجرِ أيضاً. ومؤدَّى ما تعلَّمَه الإثنان، كلٌّ على طريقتِهِ وباختلافٍ في درجتي الحدَّةِ والتوكيدِ، أنَّ «النوعيَّةَ» تفوقُ الكمَّ العدديّ أهميةً إذا ما توافرت لها مواصفاتُ قوةٍ ما، خصوصاً أنَّ المنصورةَ التي استقرَّت فيها عائلةُ الجميل هيَ من المُدُنِ التي «لم يُلاحظ [فيها] وجودُ جالياتٍ

(١١١) مسعود ضاهر، الهجرة اللبنانية... سبق الاستشهاد، ص ٢٨٨ ـ ٢٩٠.

(١١٢) أ. اسكندر، «أي كتائب نريد؟» في المسيرة في ١٩٨٧/١٠/٢٨، وهو ما يؤكده جوزيف ابو خليل في المقابلة الشخصية معه، سبق الاستشهاد.

كبيـرةٍ أوروبية [...] لـذلك بـرزت الجاليـةُ السُوريـةُ ـ اللبنانيـةُ بقوةٍ»، وفضـلاً عن بقاءِ الميدانِ خالياً لهم، قلّد «شوامُ» المنصورةِ الأجانبَ «في عاداتِهم وتقاليدِهم وتخاطُبِهم بلغةٍ فرنسيةٍ وغناهم المُمَيَّز إذ «لم يكُن بينهم فقراءُ»(١١٣). مثلُ هـذا الدرسِ بقيَ ضـامِراً في النشاطِ النُخبويّ الذي مثَّلتِ الكتائبُ في وقتٍ لاحقٍ أحدَ تعابيرِه، من دونِ أن تَخفى صِلَتُه بتجربةِ المهجرِ ونظامِهِ القِيَميِّ المميز(١١٤).

بكفيّا والكَنِيسَة

ليست بكفيّا، التي يتُمُّ استذكارُها في وسطِ الأهلِ في مصر، قليلة الإثارةِ للشُعـورِ بالتفوُّقِ، وما يصحُّ فيها يصحُّ في المصدرِ الطبقيّ للعائلـةِ (آل الجميل) منـذُ ظهرت ونمت هناك.

ففي أواخـرِ القرنِ السـادسِ عشر وحينَ «امتثَـلَ» أبناءُ الجميـل لـلأميـر منصـور العسَّافيّ «أكرمهُم واقطعهُم على بكفيّا وضواحيها الشماليـةِ، وأوفدهم فـوراً إليها ليُحْيُـوا أراضيها وليجدِّدوا حضارتَها»(١١٥).

وفي بكفيّا اعتنقَ أمراء أبي اللَّمع الدروزُ المذهبَ المارونيَّ تعبيراً عن رُجَحَانِ الكفَّةِ الإقتصاديةِ والتَّعليميـةِ للموارنـةِ(١١٦)، وكانت بكفيّـا من البلداتِ اللُّبنـانيةِ المبكـرةِ التي استقبَلَت التَّعليمَ اليسوعيَّ(١١٧)، كما حضنت الحيـاكةَ النسيجيَّـةَ ومعامـلَ الدخـان(١١٨)، لتعـرفَ في أواخر القـرنِ الماضي نمـواً سياحيّـاً تمثَّل في «إنشـاءِ دُورِ السَّكنِ والفنادقِ والمنتزهاتِ»(١١٩).

(١١٣) مسعود ضاهر، **الهجرة اللبنانية**...، سبق الاستشهاد، ص ١٤٧ و٢٥٨.

(١١٤) عندما تحدث في «المؤتمر العربي الأول» في باريس (١٩١٣) الماروني الجبلي نعوم مكرزل باسم المغتربين، حدّد الوجه المعلن لإيديولوجيا الهجرة اللبنـانية كمـا لو كـان يحور الإنقســام الطائفي ويصيغـه في لغة من الاصطفاف النخبوي الفكري: حيث التطور والتقدم التدريجيـان في مكان وقيم التـراتب العثماني في مكـان آخر. فالمهاجرون على عمومهم يعتقدون، تبعاً لممثليهم، «باللامركزية الحرة المساوية المنصفة، وهم بكتـائب تجـارهم وعصائب ادبـائهم وأسراب محصنـاتهم معكم على الاصلاح بـالشعور الـوطني» ليضيف مخـاطبـاً المؤتمر «أيها المصلحون، نحن في المهاجر نعتقد بالحركة لا بالسكون. نعتقد بأن من لا يتقدم يكـون بحكم جموده وتقدم غيره متأخراً. نعتقد بالاخلاص في النية والقول والعمـل. نعتقد بـالحريـة والمساواة والعـدل، ونعتقد بالثورة، إلا ان اعتقادنا بالثورة مشروط فيه ان تكون ادبية إصلاحيـة». عن: وجيه كـوثراني (تقـديم ودراسة)، **وثائق المؤتمر العربي الأول ١٩١٣**، الطبعة الأولى، ١٩٨٠، ص ١٠٧ ـ ١٠٨.

(١١٥) طوني بشارة مفرج، **الموسوعة اللبنانية المصورة**، سبق الاستشهاد، ص ٨٠.

(١١٦) انظر، بين مراجع اخرى، جاك كولان (تعريب نبيل هادي، تقديم جـاك بيرك): **الحـركة النقـابية في لبنـان ١٩١٩ ـ ١٩٤٦**، دار الفارابي، بيروت، ١٩٧٤، ص ٥٨.

(١١٧) انظر فيليب حتّي، **لبنان في التاريخ**...، سبق الاستشهاد، ص ٥٥.

(١١٨) انظر جاك كولان، **الحركة النقابية**...، سبق الاستشهاد، ص ٤٣ ـ ٤٤ و٤٥.

(١١٩) طوني بشارة مفرج، **الموسوعة اللبنانية المصورة**، سبق الاستشهاد، ص ٩٣.

لقد ساعدَ بكفيّا في ذلك كلِّه، وفي توسيعِها العمرانيّ وتدفُّق السكّان عليها، بقاءُ المواجهاتِ الدّامية خلالَ القرنِ الماضي بعيدةً نسبيّاً عنها. فكلُّ ما وصلَهَا من تلكَ المواجهاتِ أنَّها كانت «ممرّاً ليوسف بك كرم الّذي قَدِمَ من الشّمالِ لنجدةِ أهالي زحلة»[١٢٠] التي لم يبلغْهَا. وهكذا فيما كانتِ الحروبُ الأهليةُ تفتُك بالجبليينَ في ١٨٥٨ «كانَ الآباء اليسوعيونَ يقومونَ ببناءِ كنيسةٍ كبيرةٍ مُلاصِقةٍ لدَيرِهِم في بكفيّا»[١٢١].

في وقتٍ لاحقٍ ارتبطَ اسمُ البلدةِ بنُوى النشاطِ المطلبيّ العمّاليّ الذي أسفرَ في آخرِ المَطافِ عن ولادةِ حزبٍ شيوعيّ لم ينذُر واصفُوه بالنَّزعةِ الأقليَّة. ففي ١٩٢٤ نشأت فيها نقابةُ عمّالِ التبغِ[١٢٢] وكانت المبادرةُ التأسيسيةُ للعاملِ المارونيّ العائدِ من مصر فؤاد الشمالي، إبن قريةِ سهيلة في كسروان. وفي بكفيّا تُرجِمَ النشيدُ الأمميّ إلى العربية، كما ساهمتِ اللِّقاءاتُ التي تمَّت فيها (وفي الحدث) في إنشاءِ «حزبِ الشّعب اللُّبناني» نواةِ الحزبِ الشيوعيّ الذي ظلَّت بكفيّا مركَزَهُ[١٢٣]، حتى إذا ما صدرت صحيفةُ «الإنسانيةِ» المُعَبِّرةُ عن هذا الخطِّ الجديدِ كانَ قرارُ الإصدارِ قد اتُّخِذَ هناك[١٢٤].

قُصارى القول إنَّ بكفيّا لم تعدَم ما يؤكِّدُ لأصحابِها حِسَّهم النُّخبويّ، إن لِجهةِ الإرتباطِ بقطاعٍ إقتصاديّ حديثٍ وافدٍ من أوروبا (الصناعة)، أو لجهةِ التَّعبيرِ عن همومِ ومشكلاتٍ تُجافي الصِّياغةَ التقليديةَ الموروثةَ عن الذِّهنيةِ العثمانيةِ لفكرتَيْ الإجتماعِ والسِّياسةِ. ولم يكن الفضلُ في هذا التعبيرِ بعيداً عن الإنتدابِ الفرنسيّ والمعنى التقدميّ الفوقيّ الّذي انطوَى عليه. وتحديداً عن جهودِ الحاكمِ الفرنسيّ كايلا الّذي وصفَهُ شكري بخّاش أحَدُ أوائِلِ الدُّعاةِ الاشتراكيينَ بالتحلّي بـ «مشاعرَ مؤيدةٍ للعمّالِ والفلاحينَ تجلَّت بإعلانِهِ إقامةَ المصرفِ الزراعيّ وغرفِ الزراعة»[١٢٥].

وفي معركتِهِ مع اليَسوعيةِ ورجالِ الدّينِ اعتمدَ الحاكمُ الفرنسيُّ الآخر سَرَّاي على «الراديكاليينَ والإشتراكيينَ والماسونيينَ»، كما تَرَكَ بصماتِهِ على نشاطِهم وأفكارِهِم، عِلماً أنَّهُ هو الَّذي قصفَ الدُّروزَ في حوران إبَّان انتفاضَتِهم الأهليةِ في ١٩٢٥ وتحالفِهم مع «الحركةِ الوطنيةِ» للمدنِ السوريةِ السنِّيَّةِ بما استجلبَ عليه حقدَ المسلمينَ وكرهَهُم[١٢٦].

(١٢٠) المرجع السابق، ص ٩٢.

(١٢١) المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(١٢٢) جاك كولان، **الحركة النقابية**...، سبق الاستشهاد، ص ٣ و١١٣.

(١٢٣) المرجع السابق، ص ١١٧ و١١٩.

(١٢٤) المرجع السابق، ص ١٢٦.

(١٢٥) المرجع السابق، ص ١٢٢. وكايلا هو الذي «أعرب عن تأييده لاشتراك ممثلين عن العمّال في أعمال اللجنة المكلفة بوضع مشروع لتشريع العمل»، ص ١٢٥. وقد يكون ذا معنى رمزي أنَّ مقر «حزب العمال العام في لبنان الكبير» في الصيفي، وهو الحزب الذي تأسس في ١٩٢١ (ص ٩٥ ـ ٩٦) اضحى لاحقاً مقر حزب الكتائب او بيته المركزي.

(١٢٦) انظر مسعود ضاهر، **تاريخ لبنان الاجتماعي**، ١٩١٤ ـ ١٩٢٦، دار الفارابي ١٩٧٤، ص ٢٩٨ ـ ٣٠٣.

ومن بينِ عمَّالِ التُّبغِ في بكفيّا كان معظمُ أعضاءِ «اللُّجنةِ التنفيذيةِ» لـ «حزبِ الشعبِ اللبنانيّ» وكان أحدُهم هنري الجميل(١٢٧)، من دونِ أن تظهرَ حدودٌ واضحةٌ بين «الاشتراكيّةِ» التي يقولُ بها هؤلاءُ والبداياتِ «اللّيبراليةِ» الغامضةِ السّائدةِ عند مثقفينَ مسيحيينَ كخير الله خيرالله وبشارة الخوري وإلياس أبو شبكة ممن جذبتهُم أيضاً الدَّعوة إلى المُسَاواةِ والرَّغبةِ في مُحَاكاةِ الغَرب(١٢٨).

وكانت لآل الجميل مساهماتُهم في تأسيسِ معاملِ التُّبغِ، إذ في ١٩١٢ «أسَّسَ المشايخُ كنج وإلياس وأمين ويوسف الجميل [...] معملاً في إنطلياس، وفي العامِ نفسِهِ أسَّسَ المشايخُ لويس عون الجميل وفارس عون الجميل معملاً في بكفيّا»(١٢٩).

ومنذُ عهودٍ أسبق يحفِلُ تاريخُ بكفيّا بأحداث تستطيعُ عائلةُ الجميل أن تتغنّى بها، بحسبِ جاك نانتيه. فالعائلةُ أقامت هناكَ نحو العام ١٥٤٥ و«المنزلُ الّذي ولدَ فيه بيار الجميل [...] كان أولَ ما بُنِيَ في ذاك الموقع»، وفي ١٧٩٥ كان البطريركُ المارونيُّ هو فيلبس الجميل ولم تكُن أبواب البطريركيةِ، حينها، قد فُتِحَت لغيرِ المنضوينَ في عليةِ القومِ. أمَّا لقبُ المشيخةِ فحصلَ عليهِ بشير الجميل، جدُّ بيار، في عهدِ الأميرِ بشير الشِّهابيّ الثاني(١٣٠).

بدورِهِ، وفي ١٨٥٥، عمل الخوري يوسف الجميل «بمعاونَةِ رئيسِ اليسوعيينَ» على تأسيسِ رهبَنَةٍ في بكفيّا» «عُرِفت براهباتِ قلبِ يسوع ومريم. وقد وَقَفَ الخوري لهذهِ الرُّهبنةِ بيتَهُ وأملاكَهُ»(١٣١). أمَّا أمين الجميل، والدُ بيار الذي يبدو أنَّهُ كان رئيساً للبلديةِ عند صدورِ الحُكمِ التركيّ عليهِ بالإعدامِ في ١٩٠٤، فبإبّان رئاستِهِ البلديّةَ «بوشِرَ بشقِّ الطُّرُقِ في مختلفِ أنحاءِ بكفيّا»(١٣٢).

بيدَ أنَّ البلدةَ المذكورةَ الّتي عاشت في جوارِ النِّزاعاتِ الطّائفيةِ الدّمويةِ للقرنِ الماضي، تعرَّضت كلُّهَا لمعاملةٍ عثمانيةٍ ظلَّ بيار الجميل يذكُرُها طويلاً، متحدِّثاً عن جدِّهِ الذي «لم يكن يحقُّ لهُ امتِطَاءُ حصانٍ وإنَّما فقط ظهر حمار. وإنَّ نسوةً مسيحياتٍ كثيراتٍ كنَّ لا يزلن محجَّباتٍ»(١٣٣). والرِّوايةُ البكفاويَّةُ عن دخولِ الجيشِ العثمانيّ في ١٩١٤، والتي رُبَّما سمِعَهَا بيار بعد عودتِهِ من مصر، لن تفعلَ سِوى إذكاءِ هذه المشاعر. فأولئكَ الجنودُ «حضَّروا الإستحكاماتِ في الأراضي، وقطَّعوا الأشجار وجمعُوا الأسلحةَ ونهبُوا

(١٢٧) انظر جاك كولان، **الحركة النقابية**...، سبق الاستشهاد، ص ١١٨ وهامش الصفحة نفسها.
(١٢٨) انظر المرجع السابق، الفصل الثاني.
(١٢٩) طوني بشارة مفرج، **الموسوعة اللبنانية المصورة**، سبق الاستشهاد، ص ٩٥.
(١٣٠) انظر **العمل ـ خمسون سنة**...، سبق الاستشهاد.
(١٣١) طوني بشارة مفرج، **الموسوعة اللبنانية المصورة**، سبق الاستشهاد، ص ٩٤.
(١٣٢) المرجع السابق، ص ٩٥.
(١٣٣) جاك نانتيه، في: **العمل ـ خمسون سنة**...، سبق الاستشهاد.

موجوداتِ ديرِ الآباءِ اليسوعيينَ واستولَوا عِنوةً واقتِداراً على منسوجاتِ الدِّيما [...] فأصيبَ أولئِكَ التجَّارُ بخسائرَ فادحةٍ واضطرُّوا أن يوقِفُوا أعمالَهُم فضاعت مصالِحُهُم»، ترافقَ ذلكَ مع موجةِ الجَرَادِ الَّذي سمَّ الأشجارَ وأمحل المواسمَ(١٣٤).

وربَّما كان بكفاويٌّ آخرُ هاجرَ إلى مصر، هو يوسف السَّودا، قد عاشَ تجاربَ مماثلةً وسمعَ قِصَصاً مشابهةً، بمَا دفعَهُ فِي شبابِهِ إلى الإنخراطِ في أحزاب «لبنانيّة» مارونيّة عِدَّة، أسَّسَ هو بعضها، ومن ثَمَّ كتابةِ «تاريخ لبنان الحضاريّ» حيثُ «يُقيمُ الحُجَّةَ على أنّ لبنان هو لبنان بلا انقطاعٍ وأنَّ الأسماء الأخرى الحائِقَةَ بهِ ـ حتَّى فينيقيا ـ ليست سوى أعراض عابرة»(١٣٥).

فِي لبنان يبرُزُ الشَّيخُ بيار بينَ عارفيهِ بوصفِهِ «الشَّابُّ الرياضيّ الَّذي يحضرُ القداديسَ الكَنَسِيَّةَ كلَّهَا ويتحدَّثُ بلكنةٍ مِصريةٍ»(١٣٦)، أي ذاكَ الذي يَقي نفسَهُ الخوفَ بأداتَينَ لطردِهِ: أداةٍ صوفيّةٍ رمزيّةٍ تَرُدُّ الفردَ الوحيدَ إلى رَحَمٍ وذاكِرَةٍ ومرجعٍ وجماعةٍ، وخاصَّةً الكنيسةِ خلاصةِ هذِهِ العناصرِ كلِّها وأداةٍ ماديّةٍ عضليّةٍ مباشرة هي الرُّياضةُ البدنيةُ وما توفِّره من متنفَّس وأشكال. ويبدو أن الجميل حاولَ الدَّمجَ بين هاتينِ الأداتينِ حينَ قادَهُ إعجابُهُ بطريقةِ تنظيمِ الرهبانياتِ اليسوعيَّةِ للسَّعي «إلى تطبيقِ النَّموذجِ نفسِهِ في رهبانيَّتِهِ المدنيَّةِ أي الكتائب. فاختارَ شعارَهُم المختصَّ بالطَّاعةِ وهو لا ينفكُّ يكرِّرُهُ علناً: إنَّ على الكتائبيّ أن يكونَ كاليسوعيّ جثَّةً بين أيدِي رؤسَائِهِ»(١٣٧). ذلك أنَّ الطاعةَ الَّتي يشيعها التَّنظيمُ الكَنَسيّ، وقِوامُهَا الوَرَعُ، تنتجُ القوَّةَ التي يُناط بها تبديدُ الخوف. وبهذا تكونُ الطاعةُ قاسماً مشتركاً أو همزةَ وصلٍ بين الكَنِيسَةِ والقوّة(١٣٨)، فيما هي تنمُّ عن فكرةِ «التَّنظيمِ» أو «النظامِ» النخبويةِ.

لكنَّ ما يتعدَّى الرَّمز أن الكنيسةَ المارونيَّةَ لم تعُد قادرةً، مع مطالعِ هذا القرنِ ووفادةِ الغربِ الأوروبيّ وعلاقاتِهِ الرأسماليةِ وانهيارِ العالمِ العثمانيّ الَّذي صِيغَ الكثيرُ من وظائِفِهَا في سياقِ مقارعتِهِ، على أن تكونَ وحدَهَا «التنظيمَ» السياسيَّ والحزبيَّ الَّذي كانتهُ في القرنِ الماضي. وهي العمليةُ الَّتي لاحت تباشيرُها الأولى أواخر ذاك القرنِ كما عبَّرت عن ذلك محاولةُ المتصرِّفِ رستم باشا (١٨٧٣ ـ ١٨٨٣) تحدّي «سلطةَ الأكليروس الماروني ونفوذَهُ المتزايدَين»(١٣٩). وكان هذانِ النفوذُ والسلطةُ بَلَغَا مع الحركاتِ الفلَّاحيةِ

(١٣٤) طوني بشارة مفرج، **الموسوعة اللبنانية المصورة**، سبق الاستشهاد، ص ٩٦.

(١٣٥) احمد بيضون، **الصراع على تاريخ لبنان**، سبق الاستشهاد، ص ٤٢.

(١٣٦) هذا الوصف منسوب للرئيس تقي الدين الصلح، من مقابلة شخصية مع منح الصلح في ١٩٨٦.

(١٣٧) كريم بقرادوني، **السلام المفقود**، سبق الاستشهاد، ص ١١١.

(١٣٨) ومثل هذه الصلة قد تكون تحويراً للاتصال، كما برهنه الباحث الألماني وليم رايخ، بين الدين والجنس، أو الهياج الديني والنشوة الجنسية تبعاً لصدور الاثنين عن الخضوع والطاعة، انظر: Wilhelm Reich, *The mass psychology of fascism*. A condor book, 1972, p. 149-151.

(١٣٩) انظر فيليب حتّي، **لبنان في التاريخ**...، سبق الاستشهاد، ص ٥٤١.

والعاميةِ ذروتهمـا بحيثُ استطاعَ البطـريرك المـارونيُّ أن يصيرَ «من بين جميـعِ رؤساءِ الطوائفِ الروحيين، الرئيسَ الوحيدَ الَّذي يمارسُ سلطَتَهُ على رَعَـايَا كنيسَتِـهِ بدونِ بـراءةٍ رسميَّـةٍ من السلطان. وقـد أصرَّ بطـاركَةُ المـوارنـةِ على رفضِ طلبِ البـراءةِ من البـابِ العالي»(١٤٠).

وتحتَ تأثيرِ أفكارِ «الجمهوريَّةِ الثالثةِ» في فرنسا وقبلَ سنواتٍ على قدومِ الحـاكِمِ العلمانيِّ وخصمِ الكنيسةِ اللَّدودِ سَرَّاي، بـدأت تظهرُ في أوسـاطِ المثقفينَ الموارنَـةَ ردةً منـاهضةً للكنيسـةِ ودورها، فكتبَ بـولس نجيم (جوبـلان) يطالبُ بفـرضِ الضرائبِ على ممتلكاتِهَا ويُنَبِّهُ إلى الضَّررِ الإقتصاديِّ النَّاجمِ عن أوقافها، داعيـاً إلى إجراءاتٍ جـذريةٍ كالمصادرةِ مع التَّعويضِ «وسنَّ قانونٍ يحولُ دون تملُّكِها المزيدَ من الأرض»(١٤١).

وبدورِها أفادتِ الجامعةُ الأميركيَّةُ من هذا التعارضِ بينَ علمانيَّةِ الحاكمِ الفرنسيِّ والكنيسةِ المارونيةِ والتعليمِ اليسوعيِّ تالياً، فباشرت تـوسُّعَهَا واضحت «منـافساً خطيـراً لجامعةِ القدّيس يوسف، وملتقى أبناءِ الأغنياءِ العربِ النَّاقمينَ على السِّياسةِ الفرنسيَّةِ في سوريا ولبنـان»(١٤٢). ففيما ضمَّت كليـةُ الصَّيدلـةِ في الجامعـةِ اليسوعيـةِ لعامي ١٩٢٥ و١٩٢٦، أي حينَ كان بيار الجميل يُنهي دراسَتَهُ، ٣١ طـالباً، ضمَّت الكليـةُ المقابِلَـةُ في الجامعةِ الأميركيةِ ٧٨ طالباً. امَّا إجماليُّ عددِ الطُّلَّاب فارتَفَعَ في الأميركيةِ من ٤٤٩ طالباً في ١٩٢٣ إلى ٥٩٣ في ١٩٢٤ فيمـا ارتَفَعَ عـددُ طلَّاب اليسـوعية في الفتـرة نفسِهَا من ٣٧٢ إلى ٤٠١. وبينما لم تَكُنْ ميزانيَّةُ اليسوعيَّةِ تتعدى ٤ ملايين فرنـك فرنسيّ تجـاوزت ميزانِيَّةُ الأميركية ١١ مليوناً. وما لبثت سياسةُ سَرَّاي أن رفعت عَـدَدَ المدارسِ الـرَّسميةِ من ١١٣ في ١٩٢٥ إلى ١٤٤ في ١٩٢٦ وهو النَّهجُ الذي اتَّبَعَهُ كايلا أيضاً(١٤٣)، مُفضِياً إلى تقليصِ أدوارِ الكنيسَةِ المارونِيَّةِ ووظائِفِهَا وبالتَّالِي تأثيرها.

ويبدو أنَّ الجميّل إبَّان دراستِهِ الصيدلة في الجامعةِ اليسـوعيَّةِ ببيـروت (١٩١٩ ـ ١٩٢٥)، لم يكن بعيـداً عن إدراكِ هذه الحقيقـة. فسنواتُـهُ الأخيرةُ هنـاكَ كانت سنـواتِ احتدامِ النِّزاعِ بينَ الحـاكِمِ الفرنسيِّ العِلمـانيِّ من جهة والكنيسـةِ المارونيـةِ والتعليمِ اليسوعيِّ من جهةٍ أخـرى(١٤٤). وبهذا المعنى حـاولت الكتائبُ أن تحـافظَ في ذاتِها على

(١٤٠) المرجع السابق، ص ٥٤٢.

(١٤١) Marwan Buheiry, «Bulus Nujaym..., «*op. cit.* p. 78.

(١٤٢) مسعود ضاهر، **تاريخ لبنان الاجتماعي**...، سبق الاستشهاد، ص ١٦٨.

(١٤٣) عن المرجع السابق، ص ١٧٤ ـ ١٧٥.

(١٤٤) انظر المرجع السابق، ص ١٨٠ ـ ١٨٤. ثمّة روايات شفـوية غيـر مؤكدة عن أنَّ الجميّـل وثق آنذاك الصلـة بواحد من أساتذة الجامعة هو الأب شانتير صاحب التأثير الواسع على الشبيبة المسيحية يـومها، والمنضم لاحقاً إلى جماعة الـ «Action Française» الفاشية التي تزعمها شارل موراس. وقد وقف شانتير لاحقاً، في الحرب الثانية، مؤيداً للحكومة الموالية للألمان في فيشي وانتهى نهاية بائسة في أحد الأديرة بفـرنسا بعـد اتهامه وإدانته بالخيانة.

الرّوح النُّخبويَّةِ للكنيسةِ اليسوعيةِ، وأن تلبِّيَ وظائفَ جديـدةً شرعت الكنيسـةُ تُقصِّرُ عن تلبيتِها مع بزوغ عناصرَ، سياسيةٍ وثقافيةٍ واجتماعيةٍ، جديدةٍ.

المؤكَّدُ، على أيَّةِ حـال، أن بيار الجميـل الَّذي أرادَ الكتـائبيَّ كاليسـوعيِّ «جُثَّةً بين أيدي رؤسائِهِ»، كان يكنُّ «احتراماً كبيراً لليسوعيينَ وتنظيمِهِم وتـربيتِهِم ومستوى التَّعليمِ على أيديهم»[١٤٥]، كما دَرَجَ بحسبِ شهادةِ شارل مالك على أن «يتناولَ القِربـانَ المقدَّسَ علناً بكلِّ بساطةٍ وتواضعٍ، وبدونِ أيِّ تكلُّفٍ أو تصنّع»[١٤٦].

(١٤٥) من المقابلة مع جوزيف ابو خليل.

(١٤٦) انظر: رفيق غانم، **بيار الجميل قائد ومؤسسة**، ١٩٨٧، ص ١٦. وهو في عرف جوزيف سعادة «كاهن فـريد في معبد لبنان»، المرجع نفسه، ص ٣٧. أما عقيدته فـ «روحيـة»، امين ناجي، **فلسفة العقيدة الكتـائبية**، سبق الاستشهاد، ص ٦٧. ويتحدث جـوزيف ابو خليـل عن بيار الجميـل «المؤمن بصمت، الذي يصلي في غرفته وهو راكع بحسب مـا تروي كـريمته». ويتفق ابـو خليل وكـريم بقرادوني في المقـابلتين الشخصيتين معهما في تصويرهما الصرامة الأبوية في حياة الجميل العائلية. فيتحدث الأول عن بيت والده الشيـخ امين حين كان كلّ واحد من افراد العائلة يتلو فصلاً من الانجيل قبل تناول الطعام، ويتحدّث الثاني عن بيت بيـار الجميل نفسه حيث لا يتحدّث احد على الطاولة إلّا جـواباً على سؤال منـه، وبمجرد ان ينتهي هـو من تناول الطعام يشعر الجميع (الزوجة والابناء والضيوف) بإلحاح النهوض عن الطاولة. من ناحية اخرى لم يندر بين رجالات الرعيل الاول وجود قياديين يعملون في نطاق وثيق الصلة بالنطاق الكنسي، كعبده صعب الذي كـان نائب رئيس رابطة ابناء الأخوة المسيحيين. من أرشيف جريدة «السفير».

الفصل الرابع

العروبة المضادة
أو الدولة
دون مجتمعها

بعيداً عن الموقف النظـري من الدولـة، تُملي مجتمعاتُ الخـوفِ والتّخويف التي لم ينْضُب مصدرُها الديني، أفكاراً وردودَ فعلٍ يصعُبُ ردُّها إلى مجرّد مواقفَ فكـريّةٍ. وهـذا ما رأيناه في الكتائبِ لا على شكلٍ فاشيٍّ أو توتاليتاريٍّ، بل كوِعاءٍ لحالةٍ شعوريّـةٍ مُتَخَلِّفةٍ ومذعورة مُعَبِّر عنها نَخْبَوِياً.

والـراهنُ أنَّ نظريـةَ إحالـةِ السياســة إلى الدولـة تبقى صالحـةً لأن تُشَكِّلَ خلفيّـةَ البُعْـدَيْنِ المُختلفين والمُلتقِيَيْن في آنٍ. فَلَئِن قُلنا قبـلاً إنَّ الإحالـةَ المصحوبـةَ بمحـاولـةِ إضعافِ السياسيين تُمهِّدُ لتقويةِ الدولةِ وحصرِ العمليّة السياسيـة برُمّتهـا في يدهـا، فإنَّ الإحالةَ بذاتها تَنُمُّ عن إقرارٍ بوجود مستوياتٍ مُجْتَمَعِيَّةٍ تُغايرُ الـدولةَ والسيـاسةَ وتستقِـلُّ عنهما.

ولم تتـردَّد الكتـائبُ، في أزمنـةِ الإستقـرارِ النسبي، عن المُشــاركـة في التَّنظيـر لاختـلافِ المستويـاتِ هذا. فـالتكوينُ شبـه المَدِيني للكتـائب الأولى والإقـرارُ بتعـدُّدِيـة الطـوائِف في لبنان، فضــلاً عن زَعْمٍ ورغبةِ التطـابقِ مع غـرب باتَ كلُّـه منذ الأربعينـات ليبرالياً، حمَلَت حزبَ بيار الجميِّل على التمييز بين الإجتماع كمَصدرٍ بعيدٍ للسياســة وبين الأخيرةِ التي تصبحُ استبداداً مَحْضاً في حال نَزْعِها عن الاجتماع. فـالكتائبُ أكّـدت غير مرةٍ على إتّجاه التطـوّر «إتّجاهـاً اجتماعيـاً لا سياسيـاً»، بحيث «يُواكِبُ حـركةَ التـاريخِ المعاصر وهي حركةٌ تتحوّلُ عن السياسـةِ إلى الاجتماعِ ولا تهتمّ بـالسياسـة إلا بمقدار إتّصالِها بالإجتماع»[1] وكان لتأثير أفكارِ مُونْييه الشُّخْصَانِيّة على حـزب الكتائب أنْ عـزَّزَ مَيْلَه المذكـورَ إلى الفَصْل بين المستـويات المُخْتلِفـة، إذ تُدان «الفلسفـةُ ـ المعيارُ» التي «تقضي وتَفْصُـل في العلوم الطبيعيـة والفيزيـائية والكيميـائية، في إتّجـاهات الفكـرِ، في التاريخ، في الآداب، في الفنون»[2].

أمّـا «العقيدةُ» الكتـائبية فهي، في عُـرْف أصحابهـا وواضِعيها، لا تَمْلُـكُ «نظـريّـةً تفسيريةً تحليليةً للتاريخ» ولا «نظرةً خاصّة تَفْرِضها على الآداب والفنون»، كما أنّها ليست

(١) رشاد سلامة، «حزب الكتائب اللبنانية»، محاضرة منشورة في **القوى السياسية في لبنان**، سبق الاستشهـاد، ص ١٠ ـ ١١.

(٢) امين ناجي، **فلسفة العقيدة الكتائبية**، سبق الاستشهاد، ص ٢١.

«عقيدةَ الأمّةِ اللبنانية» وليست «مذهباً كاملاً في الحياة»(٣).

بــدَوْره فــإنّ مصيــر «الشخص»، محــور الفلسفــةِ التي تعتَنِقُهـا الكتــائب، يتعلّق «بالشخص نفسِهِ لا بالدولــة [و] مهمّة الـدولةِ أنْ تُيَسِّـر له مـا هو في حـاجةٍ إليـه مادّيـاً ومعنوياً»(٤) وُصولاً، عبر الإسْتِشْهاد بِبيار الجميّل، إلى أنّ «حرّيّــةَ الفردِ عنـدنا أعظمُ من حرّيّة البلد. أعظمُ من القوميّة. أعظمُ من الإستقلال»(٥).

ويـرى أمين ناجي، تَلْخيصــاً للموقف الكتــائبي في الحيِّز السيــاسي المُبــاشِــر أنّ «إيمانَ الكتائبِ بحِــرّيّة الشخصِ وبتنــوّع أهدافِـه ومطالِبـه، يُبْعِدُهـا عن النظرة الأبـوية للـدولة، أيْ النظـرة التي تَعْتَبِر الـدولةَ مُلْــزَمَةً ـ وَحْــدَهـا ـ بتحقيق كـلِّ مـا يَصْبـو إليـه الشخص»(٦).

وإذا كان دارسو التوتاليتارية قد توقّفوا عِند التربية ودورهـا منذ تـوكيدِ جـان جاك رُوسّو على هذا الدور في «صُنْعِ إنسانٍ جديدٍ»، ففي ١٩٧١ حَدّد الكتائبي جورج سعــادة أنّ «غايةَ التربية، إذن، هي الشخصُ. فـالولـد ليس مِلْكَ عـائِلَتِه ولا مِلْـك الدولـة ولا مِلك المجتمع ولا مِلك الحزب ولا مِلك أيّة عقائدية أو إيديولوجية كـانت. وليس من حقّ التربيــة أنْ تَصوغَ الولدَ وِفاقاً لقالبٍ مُسْبَقٍ مُعَيّن. الولد ذاته، فهو في قيمته الإنسانيّــة [...] ذات وعضو في مجتمع، ولكنّه ليْس غارِقاً فيه كـلَّ الغَرَقِ ولا ذائبــاً فيه كُـلَّ الذوبــان. إنَّه ذاتٌ وعضوٌ في مجتمع ولكنّه ليس عدداً بين أعدادٍ»(٧).

لكنّ انهيــارَ الـدولــةِ لم يكُنْ لــه إلاّ أنْ أحبْطَ الآمــال المُبــالَــغ فيهـا على نِظــامهـا

(٣) المرجع السابق، ص ٢٥ ـ ٢٦.
(٤) المرجع السابق، ص ٢٩.
(٥) عن المرجع السابق، ص ٣٥.
(٦) المرجع السابق، ص ٥١. ولم يَفُتْ الكتائب حتى بعد انتخاب الكتائبيين بشير وأمين الجميل لرئاسة الجمهورية وحصول التحولات التي عصفت بالحزب أنْ تُعيد الاعتبار إلى أحد المنطلقات. فأمين الجميل «هـو من مؤسسة الكتائبْ ولكنّه رئيس لمؤسسة الدولـة. والمؤسستان تتـداخلان ولكنهمـا لا تتعادلان. فلبنـان ليس بلد الحـزب الواحد، وأكثرُ من يُصِرُّ على هذه الناحية هم القائلون بمبدأ التعددية [...] ولا ينبغي أن يبقى خافياً على أحـد أنْ هناك فوارقَ في الإجتهاد بين السلطة والحزب...». انظر: الكتـائب من زمن الرومنسيـة إلى زمن الواقعيـة، في العمل ٥/١٢/١٩٨٢.
(٧) جورج سعادة، الكتائب وديمقراطية التعليم في لبنان، محاضرة منشورة في **محاضرات جامعة الروح القدس، البـرامج اللبنـانية والتنشئـة الوطنيـة**، الكسليك، ١٩٧١، ص ١١. ولا يلبث سعـادة أنْ يؤكد على الـدعم الكتائبي المزدوج للتعليمين الخاص والرسمي، المرجع نفسه، ص ١٤. من دون أن يشذ عن التمسـك بفلسفة مونييه الشخصانية الذي تدور أفكاره حول «الإنسان في وضعه الملمـوس والمميز، في حيـاته التي تشكـل كل تفرّقات وجوده السياسية ـ الإجتماعية ـ الفكرية والدينية. فالإنسان بنظره هو حقل فيه تتفاعل طاقـات بشريـة ثلاث: الطاقة العقلية، الطـاقة الفـريزيـة، الطاقـة الإيمانيـة (الالتزام)». منيـر سيفيني **الشخصانيـة الشرق اوسطية**، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ١٩٨٢، ص ١٩٨ ـ ١٩٩.

الديمقراطي، فشَرَع ما هو «نظامٌ» في الكتائب يُحاولُ أن يُوجِد «دولتَه» مُعْتمِداً على مـدَدٍ بَشَريٍّ قادمٍ من الأطراف.

لم تَكُن هذه العمليّةُ بسيطةً أو قليلةَ التعقيـدِ في ما يتّصِـل بالتكـوينات التي تنبثق منها وتُعَبِّر عنها الكتائبُ. فالتضامن الذي ينشأ بين الخائفين في زمن إضطراب الأنصبـةِ والمعايير يجعلُ سلوكَ «الطائفةِ»، حاضنةِ النموّ الراسمالي والموزّعـة إلى عائـلاتٍ نَواتِيـةٍ صُغرى، اقربَ إلى سلـوكِ «العشيرةِ» التي تُحَـرّكها عصبيّـةُ الدمّ وسـائرُ الحـوافزِ غيـر السياسية، فيما تَتضخّم فَعاليّـةُ العناصـرِ الإرْتداديـة والرجعيـة داخل التكـوين الطائفي وحزبه ـ حزب الكتائب في هذه الحال.

بِلُغَةٍ اخرى تتضامنُ الطائفةُ عشيرياً في مواجهـةِ الخصمِ حين تغيبُ السياسـة او تَضْمُر، وحين يضمحلّ الفردُ ككيانٍ مُستَقِلّ، بينما يَحُلُّ النزاع المفتوح مع الآخرِ المُتَلاحِم بـدوره والدامـج لافرادِه في كُلٍّ واحدٍ. وهكـذا ينتكسُ المـوارنـةُ الجبليـون، وهم مُمَثِّلـو المستوى الراسمـالي ـ الطائفي الاكثـر تقدّمـاً، إلى المستوى الـذي حمل آلَ حبيش في الثمانينات، وهم الأرستقراطيون الذين أطاحهم صعـودُ الكنيسةِ في القـرن الماضي، على نَسْبِ انفسهم بكُلّ شجاعةٍ إلى «قبيلة الهَوَازِن، وهي فخذٌ من قريش»[٨].

ولأنّ مِثْلَ هذين التضامن والنزاع، المُرْفَقيْن بإعدامِ الفَرْد والخَيار، ثابتٌ من ثوابت «العروبة» والعالم الذي تُنْشئـه، إمتداداً لهـا أو ردّاً عليها[٩]، فـإنّ الاقليّة لا يُمكن إلّا أنْ يتحكّم بها عقلُ الاكثريّة وطُرُقُ عملِها، بينمـا يكون هـذا التحكّم مُقدّمـة التعريب يصيبُهـا ويطيحُ عناصرَ تقدّمها الاجتماعي الذي يُمَيّزها كطائفةٍ وكأقليّةٍ[١٠].

بدوره فإنّ عَقْلَ الأكثريّةِ الذي تُشَكّله الثقافةُ والتصوّراتُ العربيّةُ ـ الإسـلاميةُ[١١]،

(٨) عن وضّاح شرارة، **المدينة الموقوفة، بيروت بين القرابة والاقامة**، دار المطبوعات الشرقية، ١٩٨٥، ص ٨٨.

(٩) إذ العرب، منذ تعريفهم الأول، عاربة ومُستعربة ومُتَعَرِّبة بصدر تصنيف كل مجموعة منها عن درجة نقائها الدموي. انظر في سبيل تعريف للمجموعات: H.A.R. Gibb and J.H. Kramers, *Shorter Encyclopaedia of Islam*, E.J. Brill, Leiden, 1974, p. 418 & 420. بدوره يرى انتليس أنّ «اللبنانية» يمكن النظر إليها «جزئياً، على الاقل، كردّة فعل إيديولوجية على العروبة». John. P. Entelis, *Pluralism..., op. cit.*, p. 78. وينقل انتليس عن الياس ربابي الذي كان أشد مباشرةً بكثير في تعريف للكتائب: «خلال تاريخها لم تتغيّر علّة وجود الكتائب: الدفاع عن وحدة لبنان والاستقلال والسيادة ضد الطموحات الوحدوية العربية». p. 78-79 n. بصدد الموقف من العروبة والإسلام، انظر المرجع نفسه p. 80-81.

(١٠) غني عن القول إن توحيد «العشيرة» في هذه الحال يرافقه تفتت داخلي يستحيل رابه دلت عليه سلسلة طويلة من المواجهات اللاحقة المارونية ـ المارونية. من أجل الصلة بين التوحيد والتفتت، راجع: وضّاح شرارة، **المدينة الموقوفة**، سبق الاستشهاد، خصوصاً الفصول الأخيرة.

(١١) بعد أن يرى مونتغمري وات أنّ الأديان لا تملك بالضرورة تصورات سياسية، يلاحظ ان الدين «احياناً يؤثر الأخذ بالمفاهيم السياسية للمنطقة التي ولد فيها، وهذه بالتأكيد حالة الإسلام. فبين القبائل البدوية للجزيرة

يَجْمعُ إلى تَسَمُّرِه عند الدمّ ومراتبه وحَضِّه على التضامن المطلق للجماعة والنزاع المُطْلق مع خارجها، إستحالةَ النظر إلى الفرْد الحرّ الذي هو مادّةُ السياسةِ والمجتمع السياسي بصِفته هذه. مِنْ هنا اعْتُبِرت المعارضةُ نوعاً من الخروج عن الجماعة حيث استأنفَتْ الخَوارجيّةُ في الإسلام صَعْلَكَةَ الجاهليّةِ، بينما بقي إنقسامُ العرب/ غيرِ العرب في العهد الامَوي، والمسلمين/ غيرِ المسلمين، فضلاً عن العربِ/ الشعوبيّين، في العهد العباسي، عائقاً دونَ المجتمعِ السياسي ونشأتِه[١٢].

تَغَذّى هذا التصوُّرُ، على الدوام، من ضعف مفهومَيْ «الشعبِ» و«القوم» اللّذيْن رأى ماسينْيون أنّهما نقيضُ وعكسُ المفهومَيْن الإسلاميين عن «الأمة» و«الجماعة»[١٣]. اكثر من هذا صيْرَ، في الثقافة العربية الإسلامية، وبفِعْل ضعْفِ التمييز بين «الأمّةِ» الجامِعَةِ «والمِلّةِ» إلى مماثلةِ الشعبِ بالمِلّة كمفهوم جُزْئيٍّ وتناحُريٍّ في آخر المطاف، فجُعِلَت البرلمانات ومُمَثّلوها ناطقين بلسان واحدة مُعَيَّنةٍ من «الملل»[١٤].

كذلك تغذّى التصوّر إيّاه من ماضي النزاعات العصبية حيث أحسَّ المسيحيون في الشرق بأنّ وَفادةَ الإسلامِ هي التي نَقَلَتْهم من موقع السيادة إلى موقع الأقلّيّةِ. وما كانت المنعطفاتُ التاريخيةُ اللاحقةُ، ما بين الحروبِ الصليبية ونشأةِ الكياناتِ الحديثةِ بعد الحرب الأولى، إلاّ لِتَصُبَّ الزيتَ على نارِ الإنقسامات التي تُثيرُ خوفَ الطرفِ الأضعفِ والأصغر عدداً. حتى إنشاءُ الكيانِ اللبناني كمشروعٍ حَمَلَهُ المسيحيون لم يَسْتطِع الحَدَّ فِعلياً من آثار هذا التحوُّلِ، إذ انخفضتِ النسبةُ المِئويةُ للمسيحيين في لبنان ما بين ١٩١٣، إبّان «لبنان الصغير»، و١٩٣٢، من ٧٩,٤ بالمئة من السكّان إلى ٤٩,٩ بالمئة[١٥].

العربية وجدت درجة بعيدة من التضامن التجاري كما في كل مكان آخر في العالم. وفي مكة كان الازدهار التجاري، وقبل تبشير محمد (بالإسلام)، يُوالي كسر تضامن القبيلة والعشيرة. ويمكن القول إنّ الإسلام استعاد تضامن الجماعة إلاّ أنّه ألحقه بكامل جماعة المسلمين وليس بأية وحدة أصغر. والقدر الكبير من النمو الذي أحرزه الإسلام في إفريقيا الاستوائيّة في العقود الأخيرة هو ما يمكن إرجاعه إلى احتفاظ بحسّ التضامن الجماعي هذا». W.Montgomery Watt, *Islamic political thought. The basic concepts*, Edinburgh University press, 1978, p. 29.

(١٢) عن عدم وجود الفرد الحر (إلا في مقابل «العبد») في الثقافة العربية ـ الإسلامية، انظر المرجع السابق، ص ٩٦ ـ ٩٧.

(١٣) عن Jacques Berque, *Arab rebirth. Pain and ecstasy*, Al Saqi books, 1983, p. 33-34.

(١٤) Ami Ayalon, *Language and change in the Arab Middle East*, Oxford University press, 1987, P. 19-21.

من اجل مراجعة معاني «أمة» و«ملة» و«شعب» و«قوم»، انظر المرجع نفسه، ص ٣٨ ـ ٤٢ و٩٨ ـ ٩٩.

(١٥) عن غسّان سلامة، **المجتمع والدولة...**، سبق الاستشهاد، ص ١٠٢.

حصار أواخر الخمسينات

إنَّ الإستعدادَ الهجوميَّ في العروبة والاستعدادَ الدفاعي في الكتائب هما ما انْتَقلا إلى حالةٍ أشدُّ علنيّة وصراحة في أواخر الخمسينات. فقد وَفّرت تلك السنواتُ النمطَ البَدْئي عن هجوم العروبة بما يفيضُ عن السياسة إلى السلاح، بل بما يُعَطِّل السياسةَ (والدولةَ) قبل أن ينقضي أكثرَ من ١٥ سنة على الاستقلال. وكان طبيعياً في حزب كالكتائب، أيّد الاستقلالَ ودولتَه و«ملاذه»، أن يُغَلِّبَ الوجهَ العسكريَّ الصِّداميَّ الطاردَ للخوفِ، بعد أنْ غَلَّبَتْهُ الحركةُ القوميةُ العربيةُ الراديكاليةُ.

وإذا كانت الأخيرة في عُرْفِ «المارونية السياسية» حركةً إسلاميةً قادرةً على محاصرةِ لبنان وتحريكِ الخوف لدى مسيحيِّيه، فإنّ الوَحدَةَ المصريةَ ـ السورية في ١٩٥٨ أعْطَتْ تلك القدرةَ مزيداً من الإسنادِ والفعاليّةِ، من دون أن يكونَ ذلك، بالضرورة، حالةً اقلّيّةً لبنانيةً حصريةً. فقد لاحظ، مثلاً، أحدُ الذين درسوا العراقَ الحديثَ كيف أنَّ «الإنْفِجارَيْن الكبيرَيْن لِلأسامية في السياسة العراقية الحديثة (١٩٤١ و١٩٦٧ ـ ١٩٧٠) تَصاحَبا على نحوٍ وثيقٍ مع صُعودِ القوميّةِ العربية، إذ الهجماتُ على الطائفة اليهودية لم تأتِ من الحزب الشيوعي ولا من التيّارات الوطنية العراقية ولا حتى من القادة التقليديين للطوائف»[١٦]. أما في حالة لبنان تحديداً، فإنّ سورية تُحيط به من شماله وشرقه المُمتَدِّ طويلاً ولا تُبْقي له غيرَ البحر والحدود الضيِّقة المُغْلَقَة مع إسرائيل، بما يُضيفُ إلى الإنقسامِ الأهلي، الّذي لا يُمكِنُ من دونه فَهْمُ الكتائب أصْلاً، محركاتٍ فَعّالةً في تمتينِ الخوفِ وتوطيد الحصار. فكيف حين يَتَشَكّل من اللبنانيين «وَفْدٌ كبيرٌ» يَذْهَبُ إلى دمشق في شباط ١٩٥٨ لكي «يُطَالِبَ عبد الناصر بِضَمِّ لبنان إلى الجمهورية العربية المتحدة»؟[١٧] أو حين تنكشف حدودُ التناقُضِ مع الدولة الحديثةِ ذات السيادة والحدود، فَيَتَحَدَّث التقريرُ الأوّلُ لمجموعةِ مُراقِبي الأمم المتّحدة في لبنان في ٣ تموز ١٩٥٨ عن «إنتشارِ بُنْيَةٍ عشائرية في المجتمع بما يَخْلُقُ روابطَ ولاءٍ داخل كُلِّ مجموعة إثْنية وفي بعض الحالات فإنّ الحقائقَ التي تَتَرتَّب على هذا الواقع هي ما لا يُخَفِّفُ منه وجودُ حدودٍ سياسيةٍ أو رَسْمُ حدودٍ تكونُ، في بعض الأمكنةِ، موضوعَ خلافٍ أو عدمِ وضوحٍ»؟[١٨].

(١٦) Samir Al-Khalil, *Republic of fear. The politics of Modern Iraq*, Hutchinson Radius, 1989, p. 48.

(١٧) عن غسّان سلامة، **المجتمع والدولة...**، سبق الاستشهاد، ص ٥٨. تلا تـأخُّرَ المسلمين حتى ١٩٣٦ في الموافقة على مبدأ الإنفصال عن سوريا، تأخُّرُهُم حتى الخمسينات في التخلي عن فكرة الوحدة الإقتصادية معها. انظر: Marwan Buheiry, *Beirut's role...*, *op. cit.*, p. 18.

(١٨) Manfred Halpern, *The politics of social change...*, *op. cit.*, p.368

واقع الأمر أنّ اصرار الأقليات (والدول الصغرى) على ترسيم حدود دولها لا ينفصل عن اصرارها على ترسيم حدود خوفها وبحثها عن حائل يردّ غائلة هذا الخوف الوافد من خارج أقوى.

ما جَعَلَ أواخِرَ الخمسيناتِ تَتَحلّى بما تَحَلَّت به تَمُثُّلَ في تحالُفِ السياسةِ الناصرية ما بين ١٩٥٦ و١٩٥٩ مع السياسةِ السوفياتيةِ في مناخِ احتدامِ الحربِ الباردةِ. ولَئِنْ تعرَّضَ ذاك التحالف للاهتزاز بسبب تَبايُنِ الموقفِ من العراق بُعَيْدَ الإنقلابِ العسكري في ١٤ تموز ١٩٥٨، فهذا ما لم يُغَيِّرْ كثيراً في صورة الشيوعية آنذاك كحليف لحركة القومية العربية الراديكالية، اي في ما يخصُّ لبنان، عمقاً دولياً هائلاً لِخوف الأقليةِ فيه. وما دامت الحركتان المتحالفتان تنطويان على نَبْذِ السياسة الديمقراطية، كما قالَتْ بهما التجربةُ اللبنانية وحاوَلَتْهُما، بدا تحالفُهُما تهديداً مطلقاً للوجود المادي للبنان ولمعنى الوجود في آن معاً[١٩].

وليس بلا دلالة، في هذه الحدود، أنّ الاقترابَ الشيوعيَّ من الشرق الأوسط منذ مطالع الخمسينات كان يستدعي الدورَ الإسرائيلي تبعاً لصلة الكيان العِبْرِيِّ بالغرب، فيما كان العَداءُ العربي الإسرائيلي يستدعي بِدورِهِ اقتراباً سوفياتياً أكبر، وتوسّعاً، من ثَمَّ، للدعاوة الراديكالية.

ولم تكتُم الكتائب، في وَجْهِهَا الإيديولوجي، حَذَراً عميقاً حيالَ الاشتراكية الماركسية التي «لا بُدَّ أنْ تعملَ لإلغاءِ المِلْكِيّةِ الخاصةِ، ولا بدّ أنْ تستثيرَ الصّراعَ الطبقي بُغْيَةَ إقامة ديكتاتورية البروليتاريا. وبذلك تطعَنُ في قيمة الإنسان الذاتيّة فَتَسْحَقُ حريّتَهُ وتدوسُ كرامتَهُ»[٢٠]. امّا سجالُها الاقتصادي مع الشيوعية فلَمْ يُخْفِ، بين أمور أخرى، المصدَرَ البورجوازي الصغيرَ الحادَّ لهذا الحذر، حيث لا تَنْجُمُ المِلْكية الخاصة عن فائض القيمة وحده، كما يرى الماركسيون، بل عن «التوفير الذي قد يَفْرِضُهُ المرءُ على نفسه»[٢١].

ولأنَّ الشيوعية، كما رأى بيار الجميل المعادي لها بامتياز، «استغلَّتْ النزاعَ العربيّ ـ الإسرائيليّ حولَ قضية فلسطين وتَسَتَّرَتْ به لاقتحامِ منطقةِ الشرقِ الأوسط وإيجادِ موطىءِ قدمٍ لِنفوذِها ومبادئها»[٢٢]، فهو لم يتردَّدْ في إطلاق العنان لشكوكِهِ بما يطالُ وجهَيْ هذا النفوذ، المادي المباشر والقيميّ الأشدّ مداورةً وخفاءً. فَلَئِنْ كانَتْ الباحثةُ الفرنسيةُ هيلين كارير دنكوس قد لاحظت «عدمَ انسجامِ سياسة التسليح

(١٩) قبل ذاك التحالف لعبت نشأة إسرائيل في ١٩٤٨، واصطباغ هذه النشأة بحرب ودعوى دينيتين، اثراً لا يرقى إليه الشك من حيث تحريك مشاعر الخوف والقلق التي بدأت في ١٩٤٣، والإتفاق التسووي للميثاق والصيغة. آنذاك عبر ميشال شيحا في كتابه الشهير «فلسطين» عن هذه المخاوف محاولاً، انطلاقاً من ثقافة ليبرالية غربية وتمثيل لمصالح وقيم تجارية مدينية، الجمع بين فكرتي المقاطعة الإقتصادية للدولة العبرية الناشئة والهدنة العسكرية معها.

(٢٠) امين ناجي، **فلسفة العقيدة الكتائبية**، سبق الاستشهاد، ص ٥٧.

(٢١) المرجع السابق، ص ٨٩.

(٢٢) عن الياس الديري، **من يصنع الرئيس؟**، سبق الاستشهاد، ص ٣٧٣.

السوفياتيـة للدول العـربية» وانّ الإتحـاد السوفيـاتي «لم يَسْعَ لإكسـاب هذه الـدول قوةً عسكريةً فعليّةً [بل] أراد من وراء تزويدها بالأسلحةِ المطلوبةِ، اكتسابَ مـوقعٍ مميّـز في عدد منها»[٢٣]. فـالجميل اخـافةُ الغـرضُ من هذا التسليـح الذي لا بُـدَّ انْ تَتَّجِه شَفْـرَتُهُ صَوْبَ كلِّ المواقعِ المُحَافِظَةِ او شبه الليبرالية او غير الراديكاليـة عمومـاً، وفي الصدارة منها مَسِيحِيّو لبنان. لهذا رايناه يتساءل في كتاب مُوَجَّهٍ إلى وزير الخـارجية السـوفياتيـة في ١٩٥٦، اي مـع بدء التمـدُّد السوفيـاتي نحو المنطقـة وتَجَمُّعِ الكثيـرِ من نُذُر حـرب ١٩٥٨: «أنتم تعطون سلاحاً لمصر بيد، وبيدٍ ثانيةٍ تُعطونَ بترولاً لإسرائيل. فلماذا تعطون السـلاح لمصر إذن؟ لمـاذا تَسْتَجِرّونَ دولـةً مثل مصـر، تريـد أن تبني مقوِّمـاتِ الحيـاة لشعبها، لِبذْلِ الأموال الهائلة ثمناً لسلاح لن يستعمل؟»[٢٤].

الراهن انّ أحداثاً عربيةً سابقةً ومواكبةً، كانت بدورها مصداقاً لـذاك المَيْلِ الأقلّي المحـافظ إلى الربط بين الـراديكاليـة العروبيـة، اليساريـة او الشعبويـة، المُسَلَّحَـة من السوفيات والمُتقاربة إيديولـوجياً مـع نموذجهم، وبين الخطـر على المسيحيين في لبنان. هـذا من دون انْ نَنْسى انّ السلاحَ، اداةَ الإخـافة وعنصـرهـا، هـو مـا شكَّـلَ مضمـونَ «الدعمِ» السوفياتي للراديكاليين العرب.

فَثمَّـة ما يشيـر، وبغزارة، إلى انّـه كلّما كـان النظامُ العـربي محـافظـاً قـريبـاً من الغرب[٢٥]، عاش المسيحيونَ اوضاعاً افضلَ تبعـاً لِصِلَتِهم بالقطـاع الخاص ومؤسَّسَـاتِ المـال والتعليم وغيرهمـا، فضلاً عن درجـة التسامـح في ظل خمـود الحركـة الغرائـزيـة للجماهير. والعكس صحيحٌ، خصوصاً مع ما يُطلقه التحوّل الراديكالي مِن مَوْجاتٍ شَعبويّةٍ عاصفةٍ ومدمِّرةٍ لم يبرأ منها ايٌّ من اقطار المشرق، وما يُقيمُهُ من مساواتيّة بيـروقراطيـة بين الجمـاعات على صعيـد الدولـة لا تفعلُ غيـرَ كتمانِ الإجْحَـافِ القائِمِ والمستمـر في المجتمـع. ففي سوريـا «كان النظـامُ المعمولُ بـه يُمَثِّلُ مختلفَ الطـوائف. لكن أُلْغِيَ هذا التمثيل منذ ١٩٥٣ في عهد الشيشكلي [و] في مصر كانت القاعدةُ النسبيّةُ مُطبَّقـةً لغايـة ١٩٥٥ [وفي] سنـة ١٩٦٤ انتُخبَ قبطيّ واحدٌ [هـو] حليم جريس بيضـاي (من أسيوط) على مجموع ٣٦٠ نائبـاً. لإعادة التـوازن عَيَّنَ الرئيس عبـد الناصـر ٨ اقباط في مجلس

(٢٣) هيلين كارير دنكوس (ترجمة عبدالله اسكندر)، **السياسة السوفياتية في الشرق الأوسط (١٩٥٥ ـ ١٩٧٥)**، دار الكلمة للنشر، ١٩٨١، ص ١١٧.

(٢٤) بيـار الجميل، **لبنـان واقع ومـرتجى**، الكتـاب الأول، سبق الاستشهـاد، ص ٢٦٣. وإبّـان تفـاقم الظـاهـرة الفلسطينية المسلحة اواخر الستينات لم يتخلّف الجميـل عن الربط المتكـرر بين التهديـد الفلسطيني والميل إلى «مركسة» لبنان، بين امثلة عدة، انظر المرجع السابق، خصوصاً ص ١٥١.

(٢٥) الشيء الذي يُنقِص عروبته تعريفاً، إذ ليس مصادفاً أن انسحاب الوجود الكـولونيـالي المباشـر من المنطقة وصعود العروبيات الاستقلالية ترافقاً مع ازدهار الانقلاب العسكري وذواء التجارب البـرلمانيـة التي لم تظهر إلا في كنف ذاك الوجود.

الشعب [و] في انتخابات ١٩٧٩ لم يُنْتَخَبْ إلا اثنان فقط من الأقباط فَعَيّنَ الرئيس السادات ١٠ أقباط، مع العلم أنّ الأقباط هم حوالى ٨ ملايين، وفي المقابل كان قانون الإنتخاب الأردني في ١٩٤٧ يُخصِّصُ ٤ مقاعد للمسيحيين في المجلس التمثيلي في مجالس الأردن بما كان يتعدى أهميّتهم العددية. في انتخابات ١٥ نيسان ١٩٦٧ كانت ١٠ مقاعد مخصصة لممثلين للطوائف المسيحية و٢ لممثلين مسلمين من الطوائف الشركسية والشاشانية. في العراق كان الدستور الاول لسنة ١٩٢٤ يَنُصُّ على أنَّ النظامَ الانتخابي يؤمِّنُ التمثيل العادِلَ للأقليات العرقية والدّينية واللّغوية [و] كان مجلس الشيوخ المعيّن من الملك يُخَصِّصُ حصّةً للمسيحيين و٤ لليهود. ثم زادَ العددُ بموجَبِ قانون الانتخاب تاريخ ٢٧ أيار ١٩٤٦ إلى ٦ لكل من الطائفتين، إلى أنْ ألْغت الثورةُ العراقية سنة ١٩٥٨ قاعدةَ النسبيّة»[٢٦].

هذه الظروف التي سَبَقَتْ الإشارةُ إلى بعضها أعادَتْ تنبيه الكتائب إلى العنصر «الفالانجي» فيها، أي ذاك الذي يمكن أن يدفع ما هو نظامي وشكلي في تكوينها، إلى الاندراجِ في وضعيّةٍ غيرِ دستوريةٍ إنْ لم تَكُنْ مناهضةً للدستور.

فَلَئِنْ كان حضورُ بيار الجميل الألعاب الاولمبية في برلين في ١٩٣٦ ومشاهدَتُهُ «المنظماتِ النازية ومنظماتِ الشبيبة الأخرى في القارة الأوروبية»[٢٧]، قد عَزّزا خَيَارَهُ بتأسيس حِزْبِهِ في السنة عَيْنِها[٢٨]، فإنّ فكرةَ «الكتائب»، وهي الترجمةُ العربيّةُ عن «الفالانج» الأسبانية[٢٩]، تستحِقّ الوقوف عند مضمونها الضِّمْني المُغايِرِ للسياسة أو المُقْتَصِرِ على شكلِيّتِها.

فالتأثرُ بالكتائب الإسبانية التي كانت في العامِ نفسِهِ تَدْخُلُ الحربَ الأهلية ضد

(٢٦) انطوان مسرة، «قاعدة النسبية وتسييس الطوائف، دراسة مقارنة»، في: **الواقع**، العدد ٧ و٨، تشرين الثاني ١٩٨٤، انظر بحثاً عن شواهد لا تحصى على هذا الإرتباط الذي يتعدّى السياسة والإقتصاد إلى الهجرات الجماعية: Robert Benton Betts, *Christians in the Arab East*, Lycabettus press, Athens.

كذلك انظر: غسان سلامة، **المجتمع والدولة...**، سبق الاستشهاد، ص ١٠٤ ـ ١١٠.

(٢٧) انظر، مثلاً لا حصراً، Michael W. Suleiman, *political parties...*, *op. cit.*, p. 233.

(٢٨) علماً بأن تلك المباريات التي أرادها هتلر مصداقاً لخرافته في «التفوق الآري» انتهت بفضيحة أملتها الانتصارات الكاسحة للاعبين والعداءين الاميركيين السود.

(٢٩) برغم وجود رواية أخرى تخفف من أهمية المصدر الاسباني، فقد روى إدوار حنين عن تلك الفترة: «كنت ذات يوم في مكتب الأستاذ فؤاد افرام البستاني [...] فدخل عليه الأمير عبد العزيز شهاب يرافقه شاب وسألا البستاني: ما هي افضل كلمة في العربية تنطبق على كلمة «فالانج» الفرنسية؟ فأخذ البستاني يدفق على السائلين سيلاً من المفردات (...) حتى استقرّ الراي على كلمة «كتائب» التي اعتمدت اسماً للحركة»، في: رفيق غانم، **بيار الجميل...**، سبق الاستشهاد، ص ٢٢ ـ ٢٣. وهذا التفسير (اللغوي والاكثر حيادية) هو ما يذكره بيار الجميل في حديث مع مجلة «روز اليوسف» المصرية في ١٩٦١، حيث «يجب أنْ لا تؤخذ (الكلمة) بمعناها السياسي بل بمعناها اللغوي. فلفظة كتائب جمع كتيبة والكتيبة هي الفرقة»، عن المرجع نفسه، ص ١٧٩.

الجمهوريةِ واليسار الماركسي والفوضوي، ينطوي على إعجاب بنظامٍ وتراتُب كانَ اليَسارُ الاسبانيُّ لا يكُفُّ عن استِفْزازِهِما في سبيل الانتقال إلى حُكمٍ عمّاليّ وجيشٍ احمر. كذلك ينطوي التأثّر قطعاً على مشاركة اليمين الفاشي الأسباني عداءَهُ للشيوعية، الأمر الذي لا يَصْعُبُ رصدُ مصادِرِهِ في التجربة الشخصية النُخْبَوِيّة لبيار الجميل وتَحْتَ وطأةِ الأفكارِ الرائجةِ في بيئة المهاجرين في مصر.

لكنّ التأثُّرَ هذا ينطوي على وجهٍ آخرَ يستحيل إغفالُهُ هو ما يمكن الاصطلاحُ على وصْفِهِ بالاستعداد غير الدستوري، وغير السياسي تالياً. فمبادرةُ اليمينِ الأسباني إلى حَمْلِ السلاح في ١٩٣٦ لم تكنْ مجرّدَ ردٍّ على الاستفزاز اليساري من خارج قنواتِ الحياة السياسية، إذ كانت أيضاً ردّاً على الهزيمة الانتخابية الساحقة التي مُنِيَ بها اليمين في شباط من العام نفسه. وقد تغذّتْ هذه الحركة المضادة من مخاوف الكنيسة الكاثوليكية التي احَسَّتْ أنَّ انتصار «الجبهة الشعبية» يُهدِّدُها في امتيازاتِها العظيمة، فانخرطَتْ في الحرب على نطاقٍ لم تبلغْهُ الكنيسة في أيّ بلدٍ آخر في هذا القرن(٣٠).

وهذا الطابعُ المضادُّ لم يَكُنْ عَفْوِيّاً بالمعنى الذي يتضمَّنُهُ ردُّ الفعل البسيط والتلقائي، ولا كان قليلَ التماسكِ في تجربةِ الكتائبِ الأسبانية التي اشْتَقَتْ تَخَلُّفَها السياسي من تَخَلُّفِ القطاعِ الزّراعيّ وعدم تَعَرّض الكنيسة الكاثوليكية في أوروبا الجنوبية لرياح الإصلاح الديني. فواضعُ سيرة فرانكو، إدوارد دو بلاي، يحدِثُنا كيف أنّ «جوزيه أنطونيو، الابن الأكبر لديكتاتور العشرينات ميغال بريمو دي ريفيرا، وَرِثَ عن أبيه كما في قراءته، مَقْتاً مُعْلَناً للبرلمانية (الذي لم يمنَعْهُ من ترشيحِ نفسِهِ ثلاثَ مرّاتٍ للانتخاباتِ التشريعيةِ ومن الفوزِ بالنيابَة عن كاديز في ١٩٣٣). وفي الخِطاب التاريخي الذي ألقاه في ٢٩ تشرين الأول ١٩٣٣ في المسرح الكوميدي بمدريد، واعتُبِرَ البدايةَ الرسميّةَ للكتائب، اكّدَ جوزيه أنطونيو، بصورةٍ طبيعيةٍ، على الحاجة إلى بناءِ دولةٍ تكونُ «قوميّةً، معاديةً للماركسيةِ، معاديةً لليبراليةِ، وتوتاليتارية». وهذا الاهتمام هو ما تنقلُهُ إلى الحلبة كلُّ الكتاباتِ النظريةِ للحركة التي اطْلَقَها.

وبصِفَتِهِ نصيراً علنيّاً للوسائل العُنْفِيّة، إذ مَجَّدَ «ديالكتيك القبضات والمسدسات»، راح القائد الذي لا يُنَافَسُ لليمين الاسباني المتطرف، ومنذ ١٩٣٤ فصاعداً، يُحضّرُ انقلاباً ضد الجمهورية(٣١).

هذا الخليط الذي أثّرَ على نحو أو آخر في بيار الجميل الشاب، جمع إلى الكنيسة

(٣٠) من أجل عرض تفصيلي، انظر Edouard de Blaye, *Franco and the politics of Spain*, Penguin books, 1976, p. 36.

(٣١) *Ibid*. p. 90.

المتراجعة والتجربة الأوروبية الجنوبيّة، الإنطلاقَ من «عصر ذهبي» سابقٍ عمادُهُ المهجر وصورة بكفيا، فأَتَمَّ النَزْعَةَ المَاضَويّة التي يَتَّسِمُ بها الخائفُ من الجديد ومن اضطراباتِهِ وقلقِهِ.

وهذه الماضَويّة، بما تَجِدُهُ من رَفْدٍ وتعزيزٍ في مشيخيّة آلِ الجميل وما تُفْضي إليه من محاولةِ «بعثٍ» و«استعادةٍ» أو «عودة» (restoration)، كانت جسرَ لقاءٍ آخرَ مع الشهابية الأرستقراطية(٣٢) التي توَلَّتْ عن طريقِ جهازِ الدّولة، إشاعةَ الاطمئنانِ وطردَ الخوفِ.

الشهابية والحذر

انهَتْ الشهابيّةُ الطَوْرَ الفلانجي في عمر الكتائب الذي كانَتْ اواخر الخمسينات قد اعادَتْ بعثَهُ، لِيندرجَ حزبُ بيار الجميل في مسالكَ شتى.

فإذا ما نُظِرَ إلى السلوك الكتائبي إبّانَ ذاك العهد في صورةٍ إجمالية، امكنَ الإنتباهُ إلى اتّسامِهِ بدرجةٍ بعيدةٍ من التردّد: فالشهابيةُ وُلِدَتْ في ١٩٥٨ ومن رحمِ احداثِها، وعاشت في جوارِ الصعودِ الراديكالي العروبي كما اوْجدَتْ لوناً من التحالف معه، الشيء الذي يستدعي حذراً مؤكّداً، خصوصاً في ظلّ تراجُعِ قُدرةِ لبنان على ممارسة دوْرِهِ الحيادي في الخلافات العربية وإقامةِ علاقاتٍ مباشرةٍ مع الغرب، وهما ما يَرْقَيانِ إلى اثنين اساسيّين من عناصر لبنان كما نَشَدَتْهُ الصيغةُ والميثاقُ(٣٣). فبحسب إميل البستاني، أحد الذين عاشوا تلك المرحلة التعاقديّة كان ما جعل اتفاقَ المسلمين والمسيحيين حول السياسة الخارجية سهلاً «قبولُ الجميعِ في ذلك الوقت بأنْ يتّبِعَ لبنان سياسةَ صداقةٍ مع الجميع وتعاونٍ وثيقٍ مع الغرب ضِمْنَ إطارِ التعاقُديّةِ مع الغرب. كما انَّ الفريقَ الآخرَ لم يمانعْ في هذه السياسةِ باعتبارِ انَّ جميعَ الدولِ العربيّةِ دون استثناء كانت آنذاك متعاونةً مع الغرب، ولم تكن فكرةُ الحياد او التعاون مع المعسكر الشيوعي واردةً»(٣٤).

إلا انَّ الشهابية، من ناحية ثانية، اقامَتْ «الدولةَ القويّةَ» القادرةَ، كما تراءى حينها، على تأمينِ الحمايةِ وبثِّ الاطمئنان وإشاعةِ الاسترخاء، الأمرُ الذي لم يَعْدَمْ اثارَهُ

(٣٢) راجع الفصل الأول.

(٣٣) في سبيل عرض واف لإشكالات هذه المسألة، راجع J.C. Hurewitz, *Middle East politics. The Military dimension*, praoager publisher, p. 387-398.

كذلك راجع: بيار الجميل، **لبنان واقع ومرتجى**، الكتاب الأول، سبق الاستشهاد، ووضاح شرارة، **السلم الأهلي البارد**، سبق الاستشهاد، الجزء الأول.

(٣٤) عن: محمد كشلي، **حول النظام الراسمالي واليسار في لبنان**، دار الطليعة، بيروت، ١٩٦٧، ص ١٣٠.

الـواضحة على الكتـائب. وعَمَلاً بهـذا المناخ لم يبخـلْ القادةُ الكتـائبيون ممن شَـرَعـوا يصعدون بُعَيْدَ ١٩٥٨ إلى الواجهة الحـزبية في التـوكيد على «بنـاء الدولـة» و«تنظيمها» وإقامة «العلمنة» كما لـو كانـوا «طليعة» المشـروع الذي يتـوَهَّمُ صَهْرَ المجتمـعِ وتَذْليـلَ تناقضاتِه تدريجاً من خلال شَكْلِيَّةِ الدولةِ ونظامِها.

فإدمون رزق، مثلاً والذي امتزج وعْيُهُ الكتائبي بما يُمكن ان نُسميّـهُ الإيديـولوجيـا الرسمية للدولة، صاحبُ تَوْكيدٍ خاصٍ «على العلْمنة التي يعتقد انَّهُ كان رائدَ القائلين بهـا في حزب الكتائب»، وكمـا تباهى رزق بـالعلمنة، تبـاهى جورج سعـادة بـ «التنظيم» الذي ادخلـه إلى مصلحة التعليم الخـاص في وزارة التربيـة حين تسلَّمَ مديـريَّتَهـا بين عـامي ١٩٦٤ و١٩٦٨(٣٥).

في غضون ذلك بَقِيَتْ «الشيوعية» الاسمَ الصريحَ الوحيدَ للخـوف، إذ هذا الخـوف يُمْكِنُ الجَهْرُ به في مجتمعٍ مركَّب، وربُما المغامرةُ باحداث قَدْر من توحيد «الشعب» حـولَ العداءِ له، خلافاً لـ «العروبة» و«الإسلام». فالشيوعية، كمـا ظهرَتْ يـوْمذاك في القـاموس الكتائبي، «تُرادِفُ عناصرَ ثلاثة ترابطَتْ في تاريخ المنطقة العربية هي: نزوعُ إحدى فئات المجتمع إلى السيطرةِ الكاملةِ على الدولة، النَـزْعَةُ العـروبيّةُ الـوحدويّـةُ، واخيراً تَـوَسُّلُ «الجمـاهير» اداةً لِتَحقيقِ العنصـريْنِ السابقَيْن. فـالتاميمُ، في هـذا المنظور، شيـوعيّـة. والتعاونُ مع كتلـةِ الدولِ الشـرقيةِ شيـوعية. والـوَحدَويّـة العربيـة شيوعيـة. والحركـات المطلبية شيوعية و«الشارع» شيوعي». وفي هذا الخُوَاف (Phobia)، على تَعدُّدِ مصـادِرِهِ وانحصارِ تعبيراته، لا عزو في «أنْ ترى الكتائبُ في المسلمين اللبنانيين حركةً «شيوعيةً» بالقوة او كامنة»(٣٦).

وما بين حَدَّيْ الحذر والحَضّ على بناء الدولة وتنظيمِها، راح موقفُ الكتائبِ يترجَّـحُ بين طرحِ الأمورِ «الجـوهريّـةِ» التي تطال الكَيـانَ والوجـودَ بصورةٍ لا يَعـوزُها الإلحـاحُ والعصبية، وبين الانخراطِ التِّقَنِيّ في مشروع «البناء» كما لو انّ المسـائل المُجتمعِيّـة قد بُتَّتْ واستُكْمِلَ وَضْعُ حلولِها، لا سيَّما وانّ هذا الإنخراطَ اطَلَّ من المِنَصَّة العُلويـة للسلطة السياسية. ففي برلمان ١٩٦٠، مثلاً، وبعد اقلّ من عامين على انتهاء حرب ١٩٥٨، سجَّلَ النائبُ الكتائبيّ لـويس ابو شـرف مآخِـذَهُ على خُلُوِّ البيـانِ الوزاري من ذِكْـرِ المغتربين، مؤكداً بخطابيةٍ لا يصعُبُ تبيُّنُها، على الـدفاع عن لبنـان «تجاه ايِّ كـان»، وعلى السيادة اللبنـانيـة التي ينبغي ان لا ينتقصَ منهـا النصُّ على «وجـهِ لبنـانَ العـربيّ»(٣٧). اي انَّ

(٣٥) حازم صاغية، موارنة من لبنان، سبق الاستشهاد، ص ١٩٥ و١٢٨.
(٣٦) وضاح شرارة، السلم الاهلي البارد، سبق الاستشهاد، ج ١، ص ٤٥٧.
(٣٧) الدكتور يوسف قزما خوري (إعداد وتحقيق)، البيانات الوزارية اللبنانية ومناقشـاتها في مجلس النـواب ١٩٢٦ ـ ١٩٨٤، المجلد الاول ١٩٢٦ ـ ١٩٦٦، مؤسسة الدراسات اللبنانية ١٩٨٦، ص ٥٩٢.

البرلمانيّ الذي يُناطُ به انْ يمثِّل حزْبَهُ في اعمالِ التَّشريع وممارسةِ الرَّقابةِ على السلطةِ التنفيذيةِ، كما يقضي العرْفُ والممارسة البرلمانيان، ينتقل في ازمنةِ الغموض إلى طرْحِ الموضوعاتِ العقائدية والتكوينية التي تطالُ التعريفَ الأوّليَّ لمقوّمات البلد تبعاً لواحدٍ او آخر من السيناريوهات التجمعيّةِ للطوائف. فهو يذهبُ ضمناً مذهبَ التسليمِ بالكيفية التي طُرحَتْ بها المسائل من قِبَلِ «الخصم» المطعون في ولائِه للدولة والمجتمع: فهذه المسائل لا تعبِّرُ عن وجودِ يحتاجُ التشريعَ والرقابةَ على صُنْعِ قراراتِ دولتِه، بل تعكس مرحلةً سابقةً تفترضُ عدمَ قيامِ الوطنِ والدولةِ وعدم ظهورِ الاجتماعِ الحديثِ على عمومه.

لكنَّ النائبَ الكتائبيّ نفسَهُ لا يلبثُ بعدَ اشهرٍ على دوام الاستقرار، وفي تعليقٍ له على بيانٍ وزاري آخر أُدْلَتْ به حكومةٌ شارك بيار الجُميل في عضويتها، انْ يتجاهل الأمورَ «الجوهريةَ» ويتحدّثَ عن الدراسات والمشاريع ومدى وجودِ الانسجامِ الحكومي وكيفيات حالةِ العملِ المعارِض للحكومة[٣٨].

وسلوكٌ كهذا غنيٌّ الدلالةِ لجهةِ صدورهِ عن مقدّماتٍ امْنيّةٍ يتجلى فيها الاطمئنانُ الذي يحيلُ المُشتَرِعَ إلى رجلٍ فنيّ تنفيذيٍّ، كما يتجلى الخوفُ الذي يحيلُهُ هادياً مُخَلِّصاً. إذْ إلى اصطباغِ السياسةِ، والحالُ على ما هي عليه، بتعبيرٍ نفسيٍّ حاد، فإنَّ اريافَ الامتدادِ الكتائبي شَكَّلَتْ دفعاً وتعزيزاً للمفاضلة الخالصة بين مجتمعٍ أهليّ «متخلّف» تنفرُ منه الخطابةُ الاخلاقيّةُ وتَزْدَريه، وبين دولةٍ تحمل إنماءً وتحديثاً من فوق العلاقات السياسةِ، بحيث يتحقّق اداؤها لدورها عن طريق اكتسابِها المزيدَ من مواصفاتِ الدولَتيّة.

غير انَّ الآمال التي عُلِّقَتْ على الشهابية ودولتِها، ما لبثَتْ ان تعرَّضَتْ لانتكاساتٍ مُحْبِطَةٍ مع صعود المقاومة الفلسطينية المسلحة في لبنان وإحاطَتِها بالتفافٍ إسلاميٍّ متعاظم. وهكذا بدا المجتمعُ متصدِّعاً لا يقوى «البناءَ» و«التنظيمَ» و«العلمنةَ» على صَهْرهِ وتسويَةِ نُتواءاتِهِ، فيما الدولةُ مطلوبةٌ اكثر من ذي قبل كشَكْلٍ يَنْضَحُ بالقوة ويُوَفِّرُ الحماية.

وهذا المَيْلُ الذي تفاقَمَ مع اندلاعِ الحربِ واتّخذَ مع بيار الجميّل شَكْلَ التركيز المتواصلِ على «الأمنِ» و«الأمن أولاً» و«الأمن قبل الوفاقِ»، يصوغُ، على نحو معاكس، اهَمَّ معادلاتِ الأنظمةِ العسكريّةِ العروبيّةِ، والبعثيّ منها بخاصة، حيث تَحِلُّ السيطرةُ العسكرية ـ الأمنية طاردةً كلَّ بُعْدٍ آخر لعلاقاتِ المجتمع (التوافق الداخلي، التعليم، الثقافة، التربية، الصحة) إلى خَلْفِيّةٍ بعيدةٍ في اعتباراتِ الحكم.

(٣٨) المرجع السابق، ص ٦٢١.

السياسة «العاهرة»

ترافقَ هذا الموقفُ الجديـدُ المُحْبَطُ مع بَعْثِ تصـوّرٍ عن السياسـة لا يقِلُّ إحبـاطاً. وكانَتْ السياسةُ المُدانة او «العاهرة» تُتوِّجُ البُعدَ الخطيرَ المتـرتّبَ على إحالـةِ السياسـة إلى الدولة، الا وهو بُعْدُ الحدُّ مِن نفوذِ السياسيين ودورهِم(٣٩).

هذا الموقف التَّطَهُّري من السياسة والذي يُحيلُها إلى الدولة، هو ما يميّزُ الأخلاقيّةَ الكتائبيةَ ذات الجذر الرَّجْعي، عن الأخلاقية التـوتاليتـارية والفـاشية المَهْجـوسةِ بقضمِ الدولةِ والمجتمعِ. إلّا أنَّ الموقفَ إيّاهُ واضح القـرفِ والعزوفِ. ففي مطـالع ١٩٧٤ وحين كـان الوضـع الأمني والسياسي يُمْعِنُ في التـردّي، لاح للكتائب أنَّ الفسـاد «الناجمَ عن التخلّف الخُلُقِي قـد تَغَلْغَلَ في كـلِّ مكان: في مؤسسـات الدولـة، في الإدارةِ العامـة، في المـدرسة، في العَيْلـة والبيت»، وصولاً إلى التبشيـر بـالامتنـاع عن «الإستسـلام للشـرّ، للتياراتِ الفوضويّة والإنحلاليّة التي تجتاحُ عالمَ اليوم»(٤٠).

هـذان النَّعْيُ للأخـلاق والاستسلامُ إلى عـادِيَّة الكـلامِ الشعبي يُرَدّان إلى وصفِ كريم بقرادوني للكتائبية بصفتها «لا تفصلُ المرءَ عن حياتِهِ العاديّة. كنا نحضرُ القداديس كل أحدِ الساعة التاسعة، وفي العاشرة اجتماعُ كتائبي»(٤١). بَيْدَ انّ «سياسـةً» بكاملهـا، هي نفيٌ للسياسة، راحَتْ تتبلـورُ مع السبعينـات. ففي مذكّـرَةٍ أرسلها حـزبُ الكتائب إلى رئيس الجمهورية في شباط ١٩٧٣، اي مع تَجَمُّـعِ الغيوم التي أمطـرَتْ اقتتالاً في شهـر أيار من العام نفسه، لم يَعُدْ بُـدٌّ من رَفْعِ هـذه «السياسـة» إلى مصافّ الحُكْمِ والمـرجع

(٣٩) راجع الفصل الثالث. واقع الامر أن مؤثرات عدة، منها العنصران الكنسي والشبابي، اسست لتَطَهُّرِيّة كتائبية حيال السياسة بما عكسه الشعار الأبرشي الشهير الله، الوطن، العائلة. فقد فهم الجميل السياسية «صراحة وصدقاً وامانة وشجاعة [...] امّا الشائع والمألوف فنوع من الغش يرتدي ثوب الشطارة». **من حصـاد الايام، في القضية اللبنانية ١٩٧٤ ـ ١٩٧٦**، منشورات دار العمل، ص ١٧ ـ ١٨. وما ونت الكتـائب تستعيد هـذه الصورة عن نفسها ونشأتها، إذ هي ولدت ضد «سياسة الضيعة والعيلة والمختار والناطور» وسائـر المعنيين «بإرواء شهواتهم إلى المال والتزعم والإثراء» من الزعماء والساسة. فكانت ردة فعل قوي ضـد ممثلي الشعب «الرسميين (المبْتَلين بداء الخمول والتغافـل وضد فسـاد وخنوع التكتـلات القبلية». **تـاريخ حـزب الكتائب اللبنانية**، سبق الاستشهاد، ج ١، ص ٦٤ ـ ٦٦. وفي سرد جوزيف ابو خليـل لتاريـخ العلاقـة بين السلطة والحـزب بصفته هـذه وليس كمجرد مـرشحين حزبيين إلى الانتخـابات، يعـود إلى العـام ١٩٥٦ حيث قـدّم الكتائبي انطوان معربس ورقة تطرح للمرة الاولى علاقة الحزب بالحكم وضرورة المشاركـة. ويضيف القيادي الكتائبي انّ بيار الجميل شخصياً ظلّ العائق الاكبر في وجه هذه الرغبة لانه كان يؤمن ببقاء الحـزب «طليعة» تضغط من الخارج وتحمي المسيحيين، إلى ان اقتَنَعْتُهُ المشاركةُ في «الحكومة الـرباعيـة» بأنّ قـراراً وزارياً واحداً يغني عن مائة تظاهرة من حيث الفعالية والتأثير، من مقابلة شخصية مع جوزيف أبو خليل في ١٩٨٦، سبق الاستشهاد.

(٤٠) **من حصاد الايام**...، سبق الاستشهاد، ص ٢٢.

(٤١) من مقابلة شخصية مع كريم بقرادوني، سبق الاستشهاد.

تعتمدُهما الدولَة في صورةٍ نهائيةٍ وواضحة. فبحسب المذكّرة، تشكُرُ الكتائبُ «اللهَ على أنَّ الدولة قد قرَّرَتْ اعتمادَ سلوكٍ حازمٍ في مواجهة هذا التحدّي» اليساري، مضيفةً: «إنَّنا ندعمُكُمْ وندعمُ موقِفَكُمْ. لكن إذا ما فشلَتْ الدولةُ في واجبها أو ضَعُفَتْ أو تَرَدَّدَتْ، فعندها سنلجَأ نحن يا فخامة الرئيس إلى العمل، نواجهُ التظاهراتِ بتظاهراتٍ أكبر، والاضراباتِ باضراباتٍ أشمل، والصّلابةَ والقوّةَ بالقوة»[٤٢].

هنا وَجَدَتْ الكتائبُ نفسَها أمام مفارقةٍ مهمةٍ، كان لها الكثيرُ من نتيجةٍ على المدى البعيد: من جهة، أطلَقَتْ الصدمةُ بالدولةِ حالةَ العزوفِ عن السياسة والحضُّ الأخلاقي على هذا العزوفِ، وهي حالةٌ لها مُقَدِّمَاتُهَا في الكتائب كما رأيْنا. ومن جهة أخرى، عَمِلَ الإضطرارُ إلى حلِّ المشاكل الأمنية على ضرورة استيلادِ «دولةٍ» ما. ظهرت هذه المفارقة في مناخٍ لا يَقِلُّ إذْكاءً للإحباطِ، إذ بَعْدَ التجربة الشهابية التي فشلت عن طريق «التنظيم» و«التنمية» و«البناء»، بدأتْ تفشلُ تجربةُ سليمان فرنجية الذي وصل إلى الحكم بنتيجةِ فشلِ التجربةِ المذكورة وما ولَّدَتْهُ من احتقانٍ ماروني. بهذا المعنى صدرَتْ رئاسةُ فرنجيّة عن مقدماتٍ أمنية وعضلية وثيقة الصلة بطبيعة صاحبها، لكن «حَلَّها» الأمنيّ الموعود ما لبث أنْ واجه نَكْساتِهِ المتلاحقةَ في أيار ١٩٧٣ وفي «دولة المطلوبين» في طرابلس والتحركات الطلابية والعمّالية الواسعة، فضلاً عما شاعَ من تَرَدٍّ أمني إبَّانَ عَهْدِ الحكوماتِ المتعاقبةِ منذ ١٩٧٣.

كان «طبيعيّاً» في حالةٍ كهذه، وبينما لم تتوقّفْ علاماتُ الإلتفافِ الإسلامي حول المقاومة الفلسطينية، أنْ يتبلوَرَ «خلاصٌ» كتائبيٌّ لا يجمعُ فقط بين «الدولة القوية» والعزوفَ الطُّهْرانيّ عن السياسة، اي إقامة الدولة من دون سياسة، بلْ يحمِلُ في ذاته ملامِحَهُ التجمْعِيّةَ الحادة بوصفها «اللبنانيةَ» الوحيدةَ الممكنة.

جاء ذلك بعد أن كانت «اللبنانية» الرسمية، كما تتولى الدولة الشهابية صَوْغَها وإعادةَ إنتاجِها وتعميمَها، قد ضُربَتْ وتفسَّخَتْ بفعل تفسّخ الدولة المذكورة. أما «الدولة» في عهد سليمان فرنجية، فهي تعريفاً أضعف من أن تقوم بهذه المهمة الإيديولوجية على نطاقٍ وطني.

بلغةٍ اخرى، جاءت الكتائبية المسلّحة لِتُجيبَ على تَعَطُّشٍ مسيحي مُزْمن لا إلى الأمنِ فحسب بل إلى الإيديولوجيا ايضاً. فيما الإيديولوجيا الوحيدةُ المطلوبةُ في زمن التَّعَطُّشِ إلى الأمن، إيديولوجيا عامّة شاملة وخلاصيّة لا تَقْرُبُ السياسةَ وجزئيّاتِها، لكنّها مع هذا، قابلة لأن تنحطَّ إلى السُّويَّةِ الأمنية ـ العسكرية.

واقع الامر انّ الكتائبَ كحزبٍ لم تستطعْ، ابداً، ان تتخلّص من احد ثوابتها ألاَ وهو

(٤٢) عن Frank Stoakes, «The supervigilantes...» *in: The Middle Eastern Studies, op. cit.*

النموّ في موازاة الخوف، أو في الحدّ الأدنى، في موازاة الحضّ والتعبئة، الشيء الذي يكشف أساساً صعوباتِ السياسةِ في الشرق الأوسط، ومن ثَمَّ أزمة العلاقة بين السياسة والكتائب أو أيّة محاولةٍ حزبيةٍ أخرى. فالخوفُ الذي يقود أصحابَه إلى إحالةِ السياسة إلى الدولة الحامية ثم إلى التعاون معها إلى أبعدِ الحدود، لا يلبث أن ينتهي بهم إلى فكرة الحلول مَحَلَّها حين تلوحُ عليها أماراتُ الوهنِ والضعف. بهذا يستحيلُ أن تبقى الدولةُ دولةً والحزبُ حزباً، بما يجعلُ الحربَ الأهليةَ في لبنان، حيث لا يُمكنُ دمْجُ الدولة والحزب، مجرّد قفا، أو عكساً مماثلاً، للإستبداد التوتاليتاري في الأنظمة المشرقية التي نهضَتْ على دَمْجِ الدولة والحزب الحاكم.

وإذا كان نموُّ الكتائب في الأطراف بعد ١٩٥٨ قد عَبَّرَ في أحد وجوهه عن دور الخوف، بعد مَأسَسَتِهِ (institutionalisation) شهابياً، في إحداث التَوَسّع[٤٣]، فذاك لا يُغني عن تفاصيل الدور المذكور ووقائعه في تجربة الكتائب، والوجهِ الذي ارتسم من جرّاء هذه التفاصيل والدقائق.

ففي دراسةٍ إحصائيةٍ وَضَعَها فريد عبود وجان بستاني في ١٩٧٣، تَبَيَّنَ أنّ ٢٤٪ من أعضاء الحزب عامَذاك، انتسبوا إليه خلال ١٩٥٨ وما تلاها من «ثورة مضادة». وفي رسم البروفيل النهائي الذي توصل إليه عبود وبستاني للكتائبي المتوسط في بداية السبعينات ظَهَرَ أنَّهُ «انتسب إلى الحزب أثناء إحدى الأزمات التي مرَّتْ بلبنان: لدى انتسابهِ كان لا يزالُ يافعاً وكان وَضْعُهُ مُتَرَجْرِجاً. [هو] مناضلٌ مَوْسِمِيٌّ نشاطُهُ السياسيُّ محدودٌ في الفتراتِ العادية، مُجَمَّدٌ بين انتخابَيْنْ. أما في الإنتخابات وفي الأزمات فإنَّهُ يفيضُ حيويةً ونشاطاً ويعودُ إلى خَلِيَّتِهِ التي يكون قد أهملَها بعضَ الشيء»[٤٤].

وتُؤكدُ الأرقامُ التي يوردُها الحزب عن نفسه صحّةَ ما سبق ذكرُهُ، خصوصاً لجهة دور الأزمات، وإنْ لم يظهرْ أثرُ الانتخابات على العدد بالقدر نفسه. فبين ١٩٥٦، بدايةِ النزاعِ الشمعوني ـ الناصري وشعورِ المسيحيين بالخطر المُستَجِدّ، و١٩٥٩، ارتفع عددُ الكتائبيين من ٢٦٥٠٠ إلى ٦٢٠٠٠ مِمَّا استَلْزَمَ إعادة ضَبْطِ العُضويّة وتنظيمِها كما سبق أن رأينا. وبين ١٩٦٤، السنة التي انتهى معها عهد شهاب، وأسْماها وضاح شرارة سنة «الدُّبيب» الأوَّل للحرب الأهلية في المفاصل اللبنانية[٤٥]، و١٩٧٠، ارتفع العدد من ٣٦٠٠٠ إلى ٧٠٠٠٠ من دون أن نَغْفَلَ عن الإنخفاضِ الذي سجَّلَتْهُ مرحلةُ الاستقرار الأمنيّ ما بين ١٩٥٩ و١٩٦٤: من ٦٢٠٠٠ إلى ٣٦٠٠٠[٤٦].

(٤٣) راجع الفصل الثاني.

(٤٤) نتائج الدراسة منشورة في مجلة **المستقبل** في ١٩٧٤/٣/٤.

(٤٥) راجع «التقديم» في: وضّاح شرارة، **السلم الأهلي البارد**، سبق الاستشهاد، ج ١.

(٤٦) عن **العمل** في ذكرى التأسيس في ١٩٨١/١١/٢٩. وحين نتذكر أن هذه الحقبة (١٩٥٩ ـ ٦٤) شهدت

تعتمدُهما الدولَة في صورةٍ نهائيةٍ وواضحة. فبحسب المذكَّرة، تشكُرُ الكتائبُ «اللهَ على انَّ الدولة قد قرَّرَتْ اعتمادَ سلوكٍ حازمٍ في مواجهة هذا التحدّي» اليساري، مضيفةً: «إنّنا ندعمُكُمْ وندعمُ موقِفَكُمْ. لكن إذا ما فشلَتْ الدولةُ في واجبها او ضَعُفَتْ او تَرَدَّدَتْ، فعندها سنلجأ نحن يا فخامة الرئيس إلى العمل، نواجهُ التظاهراتِ بتظاهراتٍ أكبر، والاضراباتِ باضراباتٍ أشمل، والصّلابةَ والقوّةَ بالقوة»[٤٢].

هنا وَجَدَتْ الكتائبُ نفسَها امام مفارقةٍ مهمةٍ، كان لها أكثرُ من نتيجةٍ على المدى البعيد: من جهة، اطلَقَتْ الصدمةُ بالدولةِ حالةَ العزوفِ عن السياسة والحضُ الأخلاقي على هذا العزوفِ، وهي حالةٌ لها مُقدِّمَاتُها في الكتائب كما رأينا. ومن جهة اخرى، عَمِلَ الإضطرارُ إلى حلِّ المشاكل الأمنية على ضرورة استيلادِ «دولةٍ» ما. ظهرت هذه المفارقة في مناخٍ لا يَقِلُّ إذْكاءً للإحباطِ، إذ بَعْدَ التجربة الشهابية التي فشلت عن طريق «التنظيم» و«التنمية» و«البناء»، بداتْ تفشلُ تجربةُ سليمان فرنجية الذي وصل إلى الحكم بنتيجةِ فشلِ التجربةِ المذكورة وما ولَّدَتْهُ من احتقانٍ ماروني. بهذا المعنى صدرَتْ رئاسةُ فرنجيّة عن مقدماتٍ أمنية وعضلية وثيقة الصلة بطبيعة صاحبها، لكن «حَلَّها» الامنيّ الموعود ما لبث انْ واجه نَكْساتِهِ المتلاحقةَ في أيار ١٩٧٣ وفي «دولة المطلوبين» في طرابلس والتحركات الطلابية والعمّالية الواسعة، فضلاً عما شاعَ من تَرَدٍّ امني إبَّانَ عَهْدِ الحكوماتِ المتعاقبةِ منذ ١٩٧٣.

كان «طبيعيّاً» في حالةٍ كهذه، وبينما لم تتوقّفْ علاماتُ الإلتفافِ الإسلامي حول المقاومة الفلسطينية، انْ يتبلوَرَ «خلاصٌ» كتائبيٌ لا يجمعُ فقط بين «الدولة القوية» والعزوفَ الطُّهْرانيّ عن السياسة، اي إقامة الدولة من دون سياسة، بلْ يحمِلُ في ذاته ملامِحَهُ التجمُّعِيَّةَ الحادة بوصفها «اللبنانيةَ» الوحيدةَ الممكنة.

جاء ذلك بعد ان كانت «اللبنانية» الرسمية، كما تتولى الدولة الشهابية صَوْغَها وإعادةَ إنتاجِها وتعميمَها، قد ضُرِبَتْ وتفسَّخَتْ بفعل تفسّخ الدولة المذكورة. اما «الدولة» في عهد سليمان فرنجية، فهي تعريفاً أضعف من ان تقوم بهذه المهمة الإيديولوجية على نطاقٍ وطني.

بلغةٍ اخرى، جاءت الكتائبية المسلّحة لِتُجيبَ على تَعَطُّشٍ مسيحي مُزْمِن لا إلى الامنِ فحسب بل إلى الإيديولوجيا ايضاً، فيما الإيديولوجيا الوحيدةُ المطلوبةُ في زمن التَّعَطُّشِ إلى الامن، إيديولوجيا عامّة شاملة وخلاصيّة لا تَقْرُبُ السياسةَ وجزئيّاتِها، لكنَّها مع هذا، قابلة لأن تنحطَّ إلى السُّويَّةِ الامنية ـ العسكرية.

واقع الامر انَّ الكتائبَ كحزبٍ لم تستطعْ، ابداً، ان تتخلّص من احد ثوابتها ألاَ وهو

(٤٢) عن Frank Stoakes, «The supervigilantes...» *in: The Middle Eastern Studies, op. cit.*

النموّ في موازاة الخوف، أو في الحدّ الأدنى، في موازاة الحضّ والتعبئة، الشيء الذي يكشف أساساً صعوباتِ السياسةِ في الشرق الأوسط، ومن ثَمَّ أزمة العلاقة بين السياسة والكتائب او أيّة محاولةٍ حزبيةٍ اخرى. فالخوفُ الذي يقود أصحابَه إلى إحالةِ السياسة إلى الدولة الحامية ثم إلى التعاون معها إلى أبعدِ الحدود، لا يلبث أن ينتهي بهم إلى فكرة الحلول مَحَلَّها حين تَلوحُ عليها اماراتُ الوهنِ والضعف. بهذا يستحيلُ أن تبقى الدولةُ دولةً والحزبُ حزباً، بما يجعلُ الحربَ الأهليةَ في لبنان، حيث لا يُمكنُ دمْجُ الدولة والحزب، مجرّد قفا، أو عكساً مماثلاً، للإستبداد التوتاليتاري في الأنظمة المشرقية التي نهضَتْ على دَمْج الدولة والحزب الحاكم.

وإذا كان نموُّ الكتائب في الأطراف بعد ١٩٥٨ قد عَبَّرَ في أحد وجوهه عن دور الخوف، بعد مَأسَسَتِهِ (institutionalisation) شهابياً، في إحداث التَّوَسُّع(٤٣)، فذاك لا يُغني عن تفاصيل الدور المذكور ووقائعه في تجربة الكتائب، والوجهِ الذي ارتسم من جرّاء هذه التفاصيل والدقائق.

ففي دراسةٍ إحصائيةٍ وَضَعَها فريد عبود وجان بستاني في ١٩٧٣، تَبَيَّنَ أنّ ٢٤٪ من أعضاء الحزب عامَذاك، انتسبوا إليه خلال ١٩٥٨ وما تلاها من «ثورة مضادة». وفي رسم البروفيل النهائي الذي توصل إليه عبود وبستاني للكتائبي المتوسط في بداية السبعينات ظَهَرَ أنّهُ «انتسب إلى الحزب أثناء إحدى الازمات التي مرَّتْ بلبنان: لدى انتسابهِ كان لا يزالُ يافعاً وكان وَضْعُهُ مُتَرَجْرِجاً. [هو] مناضلٌ مَوْسِمِيٌّ نشاطُهُ السياسيُّ محدودٌ في الفتراتِ العادية، مُجَمَّدٌ بين انتخابيَنْ. اما في الإنتخابات وفي الأزمات فإنَّهُ يفيضُ حيويةً ونشاطاً ويعودُ إلى خَلِيَّتِهِ التي يكون قد اهملَها بعضَ الشيء»(٤٤).

وتُؤكدُ الارقامُ التي يوردُها الحزب عن نفسه صحّةَ ما سبق ذكرُهُ، خصوصاً لجهة دور الأزمات، وإنْ لم يظهرْ أثرُ الانتخابات على العدد بالقدر نفسه. فبين ١٩٥٦، بدايةِ النزاعِ الشمعوني - الناصري وشعور المسيحيين بالخطر المُستَجِدّ، و١٩٥٩، ارتفع عددُ الكتائبيين من ٢٦٥٠٠ إلى ٦٢٠٠٠ مِمَّا استَلْزَمَ إعادة ضَبْطِ العُضويّة وتنظيمِها كما سبق أن رأينا. وبين ١٩٦٤، السنة التي انتهى معها عهد شهاب، وأسْماها وضاح شرارة سنة «الدُّبيب» الأوَّل للحرب الأهلية في المفاصل اللبنانية(٤٥)، و١٩٧٠، ارتفع العدد من ٣٦٠٠٠ إلى ٧٠٠٠٠ من دون أن نَغْفَلَ عن الإنخفاضِ الذي سجَّلَتْهُ مرحلةُ الاستقرار الأمنيّ ما بين ١٩٥٩ و١٩٦٤: من ٦٢٠٠٠ إلى ٣٦٠٠٠(٤٦).

(٤٣) راجع الفصل الثاني.
(٤٤) نتائج الدراسة منشورة في مجلة **المستقبل** في ١٩٧٤/٣/٤.
(٤٥) راجع «التقديم» في: وضّاح شرارة، **السلم الأهلي البارد**، سبق الاستشهاد، ج ١.
(٤٦) عن **العمل** في ذكرى التأسيس في ١٩٨١/١١/٢٩. وحين نتذكر ان هذه الحقبة (١٩٥٩ - ٦٤) شهدت

لقد آلتْ طبيعةُ الكتائبِ هذه، معطوفةً على جِدَّة الإحباطِ الذي شعرَتْ به مع أواخر الستينات، إلى تَزْكِيَة المطالبةِ بدولةٍ من دون سياسة(٤٧)، دولةٍ أقرب ما تكون إلى الأداةِ القمعيّةِ الخالصة. وكان لهذه القناعة انْ واكبَتْ وبرَزَتْ ثلاث خطى كبيرة خَطَتْها الكتائبُ في نحوٍ تصاعديٍّ يعكِسُ إحباطَ التَّحْديثِ الشهابي والإحباط به:

١ ـ المشاركة في «الحلف الثلاثي» في ١٩٦٨ بمزيجٍ من الحماسة والتردّدِ والإستجابة للمطالَبَةِ الطائفيّةِ ومُزَايداتِ زعماءِ الطوائف، كما رأيْنا قبلاً.

٢ ـ تأييد سليمان فرنجية في وصوله إلى الرئاسة في ١٩٧٠ وموالاة عَهْدِهِ بالتّالي من دون الكفِّ عن بناءٍ تدريجيٍّ لعناصر «دولة» موازية. ولا يغيبُ عن البال انَّ المَلْمَحَ الأمْني (التصدّي للمقاومة الفلسطينية وحلفائها في مناخ ايلول ١٩٧٠ الأردني) هو الذي طغى على معركة فرنجية الرئاسية.

٣ ـ الإعدادَ للانخراط المباشر في الحرب الأهلية ـ الإقليمية في ١٩٧٥.

«جوهر» الماضي

لم يَعُدْ من الواضح تماماً، والحالُ على ما هي عليه، ايْنَ ينتهي التمدّدُ الكتائبي المحكوم، افتراضاً، بمنطقِ نموِّ الحزبِ البرلمانيِّ الباحثِ عن تمثيلٍ ورُقعةٍ أوسع، وايْنَ يبدأ توسيعُ «القلعةِ» الدفاعيّةِ المُؤَهّلةِ للوقوف في مواجهة التحدّي الخارجي (وتحالفاتِهِ الداخلية) وَصدِّهِ.

فالدفاعُ عن النظام القائم إلى حدِّ التماثُلِ معه، ورَفْضُ استعمال أدنى عنف في مُواجهته، كانا يَتَكَشّفان، عند تَراجُعِ الاطمئنان، عن موقف موغِلٍ في «نظاميّتِهِ»، أي موقفٍ يُخْفي جرثومة بداياتٍ توتاليتارية ناجمةٍ عن التَّصَدّي لأداء دورِ الدولةِ التي كفَّتْ عن الوجود، ولم يعُدْ من الممكن بالتالي ان تُحالَ السياسةُ إليها. فإذا كان الإنقسامُ الأهليُّ يُلحِقُ الشَّلَلَ بالجيش والمؤسسات في بلدٍ مُركَّب، فإنَّ شطراً من المجتمع كفيلٌ باحتضانِ جيشٍ ومؤسساتٍ يستحيلُ إلحاقُ الشّلل بها لامتناعِهما عن التركيب بين مختلفين، وعن السياسةِ استطراداً.

انطلاق الكتائب نحو الأطراف يمكننا ان نقدر حجم تراجعها في الجبل وبيروت كما دلّت انتخابات ١٩٦٤، راجع الفصل الثاني.

(٤٧) وصل الأمر ببيار الجميل وهو يُحيي تصوره القديم عن السياسة في ظروف أشد بعثاً على المرارة والاحباط، أن رأى في ١٩٧٤ أنّ «السياسة في لبنان دعارة والأحزاب عاهرة والمعارضة عاهرة». انظر مجلة الحوادث في ٢٥/١/١٩٧٤. وليست مصادفة أنْ السمةَ الاخلاقية الابوية هي ما اتّسم بها معظم قادة الطوائف المقاتلة في ١٩٧٥، من بيار الجميل وكمال جنبلاط إلى «الإمام» موسى الصدر، فضلاً عن رئيس الجمهورية وقائد المعسكر الماروني المقاتل يومذاك سليمان فرنجية.

والواقع أنّ حزبَ الكتائب الذي لا يُعْوِزه التبشيرُ بالدولة وبتعـزيزهـا عَبْرَ المـدرسة والعائلة والتربية(٤٨)، مرشَّحٌ مبدئياً للسقوط في هذه الشّكْلِيّة النظامية، أكان في الإصـرار العدالي على سمعة المؤسسات وانتظام عملها وكفاءة مـردودها، أمْ في عصبيّـة الرّدِّ على أيِّ تلميحٍ يَنِمُّ عن عدمِ احترامٍ كاملٍ للدولـة. وجذرُ هـذا الموقف قـائمٌ تحديـداً في تلك المعـادلة الأصليـة ـ التي يُمْلِيها الخـوفُ الأقليُّ ـ بين الوطن والـدولـة أكـانَتْ وظيفتُهـا «البنـاء» أو «القمع». ففي لحظـات الإنهيار والتصـدُّع تظهرُ خطـورةُ المعادلـةِ المذكـورةِ وخطورةِ وطنيّتها المثاليّة، حيث تُرَتِّبُ مُمَاثَلاتٌ كهذه عدداً من المطالب العداليّةِ المـأخوذةِ بنموذجٍ كماليٍّ لا يمكنُ لأيّـة دولةٍ أنْ تبلغَـهُ، فكيف بدولـةٍ منبثقةٍ عن مجتمـعٍ متعدّد في منطقة الشرق الأوسط، ومحاصرةٍ بقِيَمِ هذه المنطقة وتَأجُّجِها الراديكالي.

إلا أنَّهُ غالباً ما كـان يحصل تبـادلٌ «طبيعيٌّ» في الأدوار داخل الازدواج الكتـائبي، الـوطني ـ السياسي، والنظـامي ـ الشكلي أو المليشيـاوي لاحقـاً. فـاللُّحْمَـةُ التي تشـدُّ الجمهورَ المسيحي أو بعضَهُ إلى الكتـائب، والتي تُنْتِجُها في زمن السِّلْم خـدماتُ الإدارةِ والوزارات معطوفة طبعاً، على «العقيدة» بوصفِها حصيلةً وتعبيـراً عن علاقـاتٍ اجتماعيّـةٍ معقدة، تَرْتَدُّ في أزمنة الحرب أو التوتّر، بما في ذلك من تعطّلِ الخدمات والصِّلةِ بالمركز، إلى لُحمَةٍ «إيديولوجية» صافية تتغذى بذاتها «الجوهريـة» لا بما يطـرأ عليها من تَحَـوّلاتٍ واحـداثٍ ومنافـعَ. وقِوَلمُ هـذه اللُّحْمَةِ، وهـو عشائـريٌّ حصراً، تعـريفُ الذّاتِ التجمعيـة المطلقة عَبْرَ فَرْزِها عن الذات المُطْلَقَةِ الأخرى.

غنيٌّ عن القـول إنَّ اللُّحْمَةَ هـذه، وبقدْرِ مـا هي عديمـةُ التعرّضِ لامتحـانِ النفـعِ والسيـاسةِ، قـابلةٌ لأنْ تَسْتَـأنِفَ وتُكَرِّرَ النـزاعات العصبيـة السابقـة على فكـرة الحـزب السيـاسي وتجربتِـهِ، وإنْ تَمَّ ذلك بعـد إسباغِ «التحـديثِ» الحزبي ـ النظـامي على تلـك النزعاتِ وتعابيرِها، وأدواتِها طبعاً.

في هذا المناخ تؤولُ اللُّحْمةُ التي صِيرَ إلى استنهاضِها، إلى طَرْحِ خطرٍ هي أصلاً كنايةٌ عن بداياتِهِ الفعلية أو المُتَوَهَّمَةِ، وهـو خطرٌ لا سبيـلَ إلى التقليلِ من حجْمِـهِ وأثرِهِ على دولةٍ تعاقديّةٍ ومجتمعٍ مُركّبٍ كالدولـة والمجتمع اللبنـانيَيْنْ. فإذا كـان ضعفُ الدولـةِ النسبيُّ عاملاً مساعداً على إغناءِ الحياةِ السياسيةِ وإطـلاقِ حيويـةِ المجتمع ومُبـادرتِهِ، شريطةَ وجودِ وسط إقليميٍّ مستقرٌ وبيئةٍ تتفاعل فيها تجاربُ دستورية، فإنَّ هـذا الضعف يتحوّلُ هو نفسُهُ، كما أُشِيرَ قبلاً، إلى مَأخذٍ على الدولة تَتِمُّ معالجتُهُ بحمايتها من خارجها، أو بحمايتها رغماً عنها، أو حتى بحمايتها من نفسها وأحياناً على حسابها.

ومن دون أن تكون الكتائب «قوميةً» أو «توتاليتارية»، إلا أنّ معادلةَ الوطن ـ الدولـة

(٤٨) انظر: Frank Stoakes, «The supervigilantes...», *in: The Middle Eastern Studies, op. cit.*

المحكومةَ بالخوفِ الأقلّي والتي يشوبُها الضِّيقُ الريفي، جعلَتْ التركيـزَ الكتائبي لا يتَّجِـهُ إلا لِمـاماً إلى التغيـرات الاقتصاديـة والاجتمـاعيـة والثقـافيـة، وفقط من زاويـة صِلتها بـ «استقـرار الحياة السيـاسيّة في البلـد وحمـايـةِ المصـالـحِ المسيحيـةِ» كـأوْلَـويّـةِ الأوْلَويّات[٤٩]. والحَقُّ أنّ اهتمامَ الكتائب بأمورِ «التنظيم» و«البنـاء» في العهد الشهـابي، وهو ما اتصلَ خصوصـاً باسم الشيـخ موريس الجميـل، لم يَشُذَّ كثيـراً عن هذا التـرتيب للاولويات. فالاهتمامُ بَقيَ فنيّاً وتبشيرياً من دون أن يتحوّل موضـوعاً إيـديولـوجياً تَحْـدُثُ التعبئةُ حوله ويَتُمُّ الاستقطاب. بلغة أخرى، بقي هذا الجانب، وإن حصدَتْ الكتائبُ بعض الثمار بفعله في العهد المذكور، فَوْقيّاً ومُلْحَقاً بالدولة واجهزتها، و فولكلورياً احياناً، بينمـا ظلَّتْ الحالُ الطائفية وتوابعُها هي التَّحْتِيّ الفاعل في التجربة الكتائبية.

هذا ما تعـدّى في دلالاته مجـرّدَ تغليب اعتبار رئيسيٍّ على ســائرِ الاعتبـارات، إلى القبولِ، مبدئياً وعموماً، بالتراتُبِ الثابت والمُعْطى لتلْـك الاعتبارات، بحيث يلـوح التركيـزُ على الاعتبار الرئيس مَصْدَراً أوحدَ للسياسةِ والتفكيرِ، بما فيه التفكير الهجـاسي كما هــو معهود في الأنماط التوتاليتارية وشبه التوتاليتارية.

بمعنى آخر، هيأ الحزبُ نفسَهُ لأنْ يكونَ أسيرَ «نظامٍ» لا يتّسِعُ كثيـراً لإعادةِ نظـر ولتجديدٍ يَبْعثان الروحَ في أوصالِ نظاميّةٍ موغلةٍ في شكليّتِها، عاجزةٍ عن احتواءِ تعقيداتِ الحيـاةِ اللبنانيـةِ بما يتجـاوزُ الثنائيـةَ القُطْبيّةَ بين المسيحيـة والإسلام إلى الإقتصـادي والإجتمـاعي والثقافي. وفي ظـل هذا الإستبعـاد للأنشطـة والمستـويـات ذات المصـدر المُجْتَمَعِيِّ، ومن ثَمَّ إلحاقها بالتسوية الطائفية في حَيّزِ السلطة السياسيـة، غَذَّت الكتـائبُ استعدادَها التوتاليتاري الذي رأيْنا معظمَ ادبِها السياسي يُنافيه ويُغايرُه.

والحقُّ أنَّ الإغـراء العقائـدي ـ الوطني المؤدي إلى الاستبـدادِ كامنٌ بـوضوح في النزعةِ الاستبداليةِ التي تَمَّ وصفُ بعضِ اوْجهها. ومن نتائج هذه النـزعة ان يغلُبَ الميـلُ إلى إهمـال التعقيدِ المجتمعي الـذي تصدُرُ عنـه الدولـةُ وتعكِسُـهُ (في قـوّتِهـا كمـا في ضعفها)، ويُصارَ تالياً إلى تعريضِ الدولةِ لمناشدةٍ اخلاقيةٍ، إنقاذيةٍ، تعكسُ رغبةً تَجَمُّعِيّةً حادّةً هي خِلافيّةٌ (controversial) بالتعريف.

وإذا صَحَّ القولُ بلا فاشيَّة الكتائب، فإنَّ ما قد يجمعُها في ازمنة الحرب او التعبئـة أو التوتّر، بسائر الإتّجاهات التوتاليتارية هو بالضبط «تَأليهُ الدولة» فعلياً إن لم يكن نظرياً. فَتَأليهٌ كهذا هو الذي يَسْمَحُ لأصحابه بتَمَثُّلِ الدولة والتَّوَحُّدِ معها من دون وسائطَ شرعيـة اكانَ ذلك قَضْماً لها يستندُ إلى مقدّماتِ إيديولوجياتٍ كما في الحـالة الفـاشيّة، أم حلـولاً محلَّها تَفْرِضُهُ ظروفٌ معينـةٌ لم يسبقْ ان أُفِيضَ في تَنْظيرِهـا، كما هي الحـالةُ الكتـائبية.

(٤٩) انظر: John. P. Entelis, *Pluralism...*, *op. cit.*, p. 26.

ومن البديهي أنَّ تغييبَ الوسائط التي تضمنُ بقاءَ النزاعاتِ سياسيةً، وتعبّرُ عن سياسيّتِها، تُرشِّحُ النزاعاتِ إياها للإلتحامِ المباشَرِ خارج المؤسَّسات وتحكيمها فلا يُحيط بترجمتِها إذَّاك كلامٌ سياسيٌّ بل كلامٌ «عقائديٌّ» بدْئِيٌّ وتَكْوينيّ.

في هذا المَسار المُفْضي إلى الحرب الأهلية عَبْرَ تكتيلِ الجماعةِ عشيرياً وقيادتها في النزاع مع تَكتّلٍ عشيريّ آخر «تتخذُ عمليةُ التوحيدِ شكلَ الجمعِ العددي وإضافة كتلةِ مصالحٍ إلى كتلةٍ أخرى رغم التنافر الذي يفصلُ بين الكتلتَيْن. ويتَّخذ الجمعُ العددي صوراً كاريكاتورية: مقابل المطالبة بتجنيس عرب وادي خالد وضَمِّهم إلى الصفّ الإسلامي، يُرفَعُ مطلبُ إحصاءِ المهاجرين»(٥٠).

ولَئِنْ كان تخلّفُ المنطقة المحيطة بلبنان(٥١)، وما ينجمُ عنه من نزعٍ للسياسة وتغليب للعنف وإثارةِ الخوف(٥٢)، هو ما فرض على الكتائب (وغيرها) مناخَ نموِّها وإطارَ عملِها، فإنَّ الأخيرة لم تَنُمّ في لحظات الانعطاف والتحدي إلّا عن استعدادٍ غني للردّ بالسلاح نفسِهِ، وعلى النحو الذي يقود إلى العنف المُكَتَّلِ للجماعات أو يتجسدُ في «دولةٍ» موازيةٍ للدولةِ المُسْتَضْعَفَة. وهذا ما يصوغُهُ بيار الجميل بدرجةٍ بعيدةٍ من الدقة في ١٩٥٤ حين يستعرضُ الإستعداداتِ المبدئية للعمل الكتائبي ومنطقَ هذه الاستعداداتِ القائمَ على المقابلة: «مُستعدّون للردِّ على كل «مناورة» مُفْرضةٍ بما يجب أن يُرَدَّ عليها به، ومستعدّون لِجَبْهِ كلِّ مسعى انْتِقاصيّ بما ينبغي أن يُجْبَهَ به، ومستعدّون لمقابلةِ الإضراب بالإضرابِ، والتظاهرة بالتظاهرة من أجل ما يدينون به من عقائدَ وطنيّةٍ وسياسيّة، ومُستعدّون عندَ الاقتضاء للتعاون والشيطانَ نفسه في سبيل تحطيم أطماعِ الطمّاعين وإحباط مؤامراتِ المتآمرين والمحافظة على لبنان»(٥٣).

لقد سبق لمونتغمري وات أنْ تناولَ هذه المقابلةَ بين الشيء والشيء، مُلاحظاً أنّ بين أبرز السِّماتِ التي ميَّزَت الحياة القبلية السابقة على الإسلام واستمرَّتْ معه «المحافظة على الأمن عن طريق درجةٍ عُليا من التضامن الاجتماعي. وأكثرُ الأشكالِ المعروفةِ عن هذا «قانون الثأر» (lex talionis) القائل بـ «العين بالعين والسن بالسن

(٥٠) وضّاح شرارة، **حروب الاستتباع او لبنان الحرب الأهلية الدائمة**، دار الطليعة، بيروت ١٩٧٩، ص ٢٥٣.

(٥١) والتّخلف هنا يعني خصوصاً الاستعداد الراديكالي الجامح والقصور السائد عن إدراك نهائيّة الكيانات والمجتمعات وعن احترام خصوصياتها، فضلاً عن الإغفال عن المؤسسات وتوطيدها تحت تأثير مفاعيل الفوضى الثورية.

(٥٢) يعرف اللبنانيون الذين عاشوا حرب السنتين (١٩٧٥ ـ ١٩٧٦) كيف دَرَّجت المقاومة الفلسطينية، «طليعة الثورة العربية» العمل بالقصف العشوائي للمناطق السكنية، اي القصف الذي لا يُمَيِّز بين جماعة واحدة فيما يقود إلى تكتيل هذه الجماعة كلها ولجوئها إلى قصف مماثل مضاد. وليس بلا دلالة أنْ يكون الطرف الذي درّج هذه الممارسة اكثر اطراف الحرب بُعْداً عن دورةِ المجتمع والمؤسسات.

(٥٣) بيار الجميل، **لبنان واقع ومرتجى**، سبق الاستشهاد، ص ٣٢.

والحياة بالحياة»». وبعد أنْ يُشيرَ وات إلى أنَّ الروادعَ عن القتل، بحسب هذا النظام، لا تتعدى حساباتِ الحلفِ مع القبيلة الأخرى أو الخوف من درجةِ بَأسِها وقُوَّتِها وإمكان لجوئها إلى الثأر، يَرى أنَّ الصلةَ بين فعاليةِ هذا النظام وبين التضامن أو العصبية فرضيةٌ أساسيةٌ من فرضياتِ النظام هذا، وذلك يعني أنَّهُ «إذا ما قُتِلَ أحدُ أفراد الجماعة، فإنَّ الآخرين سيبادرون فوراً للثأر له، وإذا ما هوجم فسوف يَهُبّون لنُصرتِه من دون تساؤلٍ عن جوانب الحق والخطأ في التّصرف»(٥٤).

إنَّ الاستجابةَ الثأريّةَ الكتائبيةَ التي تُقَدِّمُ عبارةُ بيار الجميل عَيِّنةً عنها، وهي ليست استثنائيةً في خطابِهِ، هي العنصرُ الذي مِن دونِهِ تبقى اللوحةُ الإنفجاريةُ ناقصةً. فهذه «السياسةُ» الناهضةُ على المُقابلَة لا يمكنُها تعريفاً أنْ توفر مدخلاً إلى السياسة إذ تبقى أسيرةَ ضغطٍ شعوريٍّ - نفسيٍّ حادٍّ يُمْلِيهِ الخوف وَرَدُّ الخوف، بإخافة المُخيفِ الفعلي أو المُتَوَهَّم.

هنا تندرجُ عُقَدُ الماضي وذكرياتُهِ المتناقَلَةُ والحرصُ على «الكيان» الذي تراءى على صورة خلاصٍ من ذاك الماضي وعُقَدِهِ، كما يتشكَّلُ مُرَكَّبٌ شعوريٌّ يصيرُ معه أصغرُ عارضٍ سياسيّ، وغالباً أمني، كفيلاً بأن يَطْرَحَ المخاوفَ حول الوجود برُمَّتِهِ: هل يبقى لبنان؟ هلى نبقى؟ وفي ظرفٍ كهذا يصير «التقدُّم» الوحيد الذي يستحق هذه التسمية هو ما لا تشوبُهُ «ثرثرة» و«اضراباتٌ» ويُضْحِي المطلوبُ «العمل [الذي] يُخَطِّطُ له حُكْمٌ حازمٌ ومستقرٌّ»، ويُصْبِحُ من تحصيل الحاصل طرحُ أسئلةٍ حولَ جدوى الديموقراطية في لبنان والدعوة إلى إرجاعها إلى أصولها «الصحيحة والسليمة»(٥٥).

وفي مقابل الدعواتِ إلى الحوار والتعايش، تظهر دعواتٌ نُكُوصِيّةٌ فيها الندمُ على صيغة ١٩٤٣ وسؤال اللبنانيين أنْ يقرروا «مصيرَهُمْ من جديد» لأنه «عند كل نكسةٍ نعودُ فنبدأ من الصفر»(٥٦).

وفي موازاة هذا الحذفِ المتواصلِ للسياسة وكلِّ ما يُقيمُ المجتمعَ أو يُديمُه، تدافعُ افتتاحية «العمل» في ١٠ آب ١٩٧٤ عن وجودِ السلاحِ بأيدي الكتائب الذي هو «ظاهرةٌ جديدةٌ مردُّها إلى الخوفِ من تهديداتٍ كثيرة، وبنوعٍ خاص، من عَجْزِ الدولة وغيابها»(٥٧). وحين تنعي هذا العجزَ حيال عملياتٍ إرهابيّةٍ آخرُها تفجيرُ مكاتب مؤسسة

(٥٤) W.Montgomery Watt, *Islamic political thought...*, *op. cit.*, p. 6.
(٥٥) من حصاد الايام... سبق الاستشهاد، ص ١٠١ - ١٠٣.
(٥٦) المرجع السابق، ص ١٢٥ - ١٢٧.
(٥٧) المرجع نفسه، ص ٦٩.

«بروتيين» تُلَمِّحُ إلى إمكان أن يظهر «إرهابٌ مماثلٌ» يكون مضاداً «لهذا الإرهاب المتمادي»(٥٨).

قبل ذلك كان بيار الجميّل قد أعلَنَ موقفاً تفصيلياً في ردِّه على «ما نُشر في بعض الصحف حول وصولِ كميّات من الأسلحة لحزب الكتائب». فقد نفى أيَّ علم بالأسلحة من دون أنْ يستغربَ إطلاقَ الرصاص في بلدٍ أصبَحَ كلُّهُ مسلّحاً. ولَئِنْ أكّد على مبدأ أن يكونَ السلاحُ في يدِ الشرعية وحدَها، أضاف أنّه يقول «برافو» للذي يُدخِلُ سلاحاً إلى لبنان بعد أن تكاثر السلاح الآتي من الخارج في يدِ طرفٍ واحد(٥٩).

هذه الدفاعية التي تَرُدُّ بالمنطقِ نفسه هي التي وَسَمَتْ الدولتية الكتائبيّة، في لحظةِ التّصدُّعِ العام، بهاجس البحث عن القوة والأمن، والكلام الذي يُلَبِّيهما، على حساب الوظائف والأبعاد الأخرى، إذ في داخل الدولة نفسِها مَثَّلَتْ المؤسَّسةُ العسكريةُ للكتائب «المؤسسةَ الوحيدَة التي تجسَّدَتْ فيها وحدةُ اللبنانيين»، وحين قارنَتْها «العمل» بالبُنية السياسية التي هي «شطارة» وغش واستغلال و«ثرثرة» و«صراعُ تافهٌ حول أمور تافهة»، وصلَتْ إلى الإستنتاج أنَّ الكتائبَ هي «دائماً حِصَّة» الجيش ولو أخطأ أو تعثَّر»(٦٠).

إنَّ البحثَ عن القوة ومقابلةَ الفعل بالفعل استطراداً، ينزلانِ بالعلاقات الاجتماعية والسياسية إلى مصافٍّ لا أفقَ له غير الثّأر الدموي بمعناه العشيري، بحيث تكون الحروب الأهليّةُ صافيةً كاملةً لا يسعى أيٌّ من أطرافِها إلى «كَسْب عناصرَ من الطرف المواجه» فيما يسودُ عجزٌ شاملٌ عن ممارسةِ سياسةِ توحيدٍ وطنيٍّ «لا تُكرِّسُ عملياً وفعلاً تحوّلاً في الميزان الفئوي»(٦١).

وهنا يُناطُ بـ «الذبح على الهوية» وسائرِ الممارساتِ المشابهة التي لم يتعفَّفْ عنها لاحقاً أيٌّ من أطراف النزاع الأهلي أنْ تُسَمِّرَ الهويتين المتقابلتين، كلُّ واحدةٍ في مطرحِها، فلا يطرأ التباسٌ من سياسةٍ أو اجتماعٍ أو ثقافةٍ على صفاءٍ ونقاءٍ دمويَيْنِ متناظرَيْن، كل منهُما يُضيفُ لُحمةً إلى تكاتُفِ الآخر.

ما من شكٍّ في أنَّ النَّزْعةَ الدفاعيةَ العميقةَ، في حالةِ حزبٍ كالكتائب، هي التي توفِّرُ الأساسَ الأمتنَ لتفسيرِ هذا الامتزاجِ بين السياسيِّ - الدستوري والإيديولوجيِّ - النضاليِّ العاملِ على إنكاصِ السياسة، تفسيرَها معادلةَ الوطنِ - الدولةِ والنّظر إلى الأخيرة كَمُعطىً ينبغي شدُّه إلى سويّةِ مثالٍ ما، ولو بالرّغم عنه، أو تَعْريضُه للتحطيم. ومع أنّ أيّ «جهاز» يستحيلُ عليه أنْ يَنْشَدَّ إلى مصافِ مثالاتٍ مصادرُها في الرواية

(٥٨) المرجع نفسه، ص ١٢٠ - ١٢٤.
(٥٩) النهار ١٩٧٤/١/٩.
(٦٠) من حصاد الأيام...، سبق الاستشهاد، ص ١٢٨ - ١٣٠.
(٦١) وضاح شرارة، حروب الإستتباع...، سبق الاستشهاد، ص ٢٣٣.

التاريخية لإحدى الجماعات عن ذاتِها وعن العالم، فمثاليّةُ الدولة في عين الكتائب هي امتلاكُ قوة تستدعيها مَهَمَّةُ الدفاع عن النفسِ وردِّ الحصارِ الآتي من الخارج. لكنّها من جهة اخرى استكمالُ التطابقِ مع الذات، الذي هو شرطٌ من شروطِ الحربِ الأهليةِ وفرزِها المطلَق.

فالدولةُ ذاتُ القاعدةِ المسيحيةِ ـ الجبليةِ، هي في مواسمِ التوترِ الأمني والسياسي، دولةُ الشطر «الأكثرِ لبنانيةً»، وذلك بمعزلٍ عن الميلِ الكتائبي الحاسم، في أزمنة الإستقرار، للفصل بين الدولة والحزب، الشيءُ الذي يقطعُ نصفَ الطريق نحو «الدولة الكتائبية»، نظرياً على الأقل.

فموقفُ الدولة، في عُرْفِ صحيفة «العمل»، يتطابق دائماً مع موقف المسيحيين، فيما يتطابقُ الموقف الإسلامي مع المخاطر التي تُهدِّدُ الدولة لأنَّ «الإنتقاصَ من سيادتها يأتي غالباً على يدِ نفوذٍ عربي، يجد فيه المسيحيون خطراً على حرياتهم ولا يجد فيه المسلمون إلاالخيرَ والسند»[٦٢]. وإذا كانت محاولة اغتيال معروف سعد قد تسبَّبتْ، قبل حدوث الوفاة، بإضعافِ الدولة والتجريحِ بها، فإن «محاولةَ اغتيال كميل شمعون عام ١٩٦٨ ـ وقد نجا منها الرئيس الأسبق بأعجوبة ايضاً ـ لا تقلُّ اهميةً عن «المحاولة» الأخيرة في صيدا. فلماذا تلكّأ مؤيدوه وانصارُه الكُثُرُ عن قطع الطرقِ وحرق دواليب المطّاط والتظاهرِ بكثافةٍ في ذلك الحين؟»[٦٣]. بمعنى آخر، تمتدُّ القسمةُ، وهي المماثِلُ العكسيُّ لمبدأ مقابلة الفعلِ بالفعلِ والشيءِ بالشيء ، من الدولة إلى المجتمع نفسِه بحيث لا يبقى للوحدة ركيزةٌ أو مُقَوِّم.

تَوَاكبَ العزوفُ الكتائبيُّ عن الوَحْدَةِ والسياسةِ، والانكبابِ على القوة، مع العودةِ إلى «جماهير» الطائفةِ التي تصير خَزَّانَ الموقفِ الحزبيِّ النضاليِّ كما تصير أداتَه والحَكَمَ فيه أو عليه، أي مصدرَ «السياسةِ» ومعيارَها بعد طرد السياسة للمصادرِ والمعاييرِ وجعلِها أقربَ ما تكون إلى سياسةٍ حربية.

امّا تضامنُ الجماعة، والحالُ الحربية على ما هي عليه، فيؤدي بدوره إلى استبعادِ انشقاقِها أو أنه يفترضُ هذا الاستبعاد وينطلقُ منه. وبهذا تتراجعُ السياسةُ الطائفيةُ التي تجمع التضامنَ إلى الانشقاق، خصوصاً أنَّ النظامَ الانتخابيَّ اللبنانيَّ ينقلُ التنافسَ إلى داخلِ كلِّ واحدةٍ من الطوائف كما هو معروفٌ جيداً، لتتقدَّمَ في المقابلِ طوائفُ متضامنةٌ من دون انشقاقِها، أي من دون سياسِتها.

وفي مثلِ هذه الظروفِ حيث يتعزَّزُ في الكتائب طابعُ «الحزب المضادّ»، بحسب

(٦٢) من حصاد الايام...، سبق الاستشهاد، ص ١٥٥ ـ ١٥٩.
(٦٣) المرجع السابق، ص ١١٦ ـ ١١٩.

تعبير موسوليني في وصف حزبه الناشيء، يتراجعُ «البرنامَج» تراجعَ العقلانيةِ السياسيةِ التي تُشْتَقُّ منها، ومن غيرها، التحالفاتُ والخصوماتُ، كما يتراجعُ السقفُ الذي يحْكُمُ التحالفَ والخصومةَ ويُقَرِّرُ مَداهُما.

بهذا كلِّه يزدادُ مَيْلُ «الخطابِ السياسيِّ» لاستحضارِ الماضي وتجاربهِ الصِّراعية، لدى تناوُلِه أيَّةَ مسألةٍ تُداهمُ الواقعَ الاجتماعيَّ والسياسيَّ، جَزْياً على إصرارٍ بيارِ الجميل، في أزمنة الاضطراب، على استخلاصِ أيِّ موقفٍ أو مآلٍ من دروس الخلاف بصدد «بروتوكول الاسكندرية» أو من «خطيئة» تاريخيةٍ كفيلةٍ بإثارة «الندم» عبَّرت عنها مواقفُ لن تتكرَّر لرياض الصلح أو لحزبِ النجادة، وذلك كما لو كانت الأحداثُ المشرعةُ دوماً على توتُّرٍ متعاظم، تجعلُ حزبَ الكتائبِ غيرَ قادرٍ على التعاقُدِ إلا مع ماضي الطرفِ الآخرِ سلباً أوْ إيجاباً. بهذا المعنى يكون لَبسُ الطائفةِ لَبوسَ العشيرةِ إنكاصاً لذاتِها ولعالِمها كلِّه إلى «ما كان عليه»، حيث «التكتلاتُ الطائفيةُ»، بحسبِ جواد بولس، «إحياءٌ للقبائلِ البدويةِ من الأسلاف»[٦٤]. هذا في حين أنَّ وحدةَ النسبِ المزعومة، كقيمةٍ عشائرية، هي التي «تمنحُ الطائفة تلاحمها»[٦٥] في ازمنة الحرب حيث يصبح التلاحمُ واجباً قاهراً. وعند هذه المحطة تلوحُ الطوائف المقاتلة، مسيحيةً كانت أو غيرَ مسيحية، «اقربَ إلى الإدراك العربي الإسلامي للتاريخ منها إلى الإدراك المسيحي»[٦٦] الغربي.هكذا تطْغى العاطفةُ، بالمعنى البسيطِ للكلمة، على «الحوارات» برمَّتِها، بينما تبدو الأخيرة قابلةً، وبصورة متواصلة، لأن تتغذى من صراعِ خرافاتٍ جامحةٍ إحداها عروبية أو إسلامية، والأخرى لبنانية هي «حصيلة التفاعل بين العناصر العقلانية واللاعقلانية»، إذْ هذه الثانية هي «جزئياً خرافةٌ، وجزئياً حقيقةٌ، تتأثَّرُ بالمعتقدات الدينية والخرافات وتدعمها الأساطيرُ والفلولكلورُ والترميزاتُ وتجلِّياتُ التقاليدِ الوطنية»[٦٧]. وفي هذه الحدودِ العاطفية ذاتِ الصلةِ الواهنةِ بمهنةِ تسييرِ شؤون الناس (السياسة)، ينكفىءُ كلُّ كلامٍ إلى ذاكرة الماضي المفصومِ والصِّراعي: ففي مقابل «التأريخ» الثُّبوتيِّ الموحِّدِ للجماعة الموحَّدة، تتأبَّدُ أعمالُ المجموعاتِ الطائفية الاخرى متَّخذةً سماتٍ «جوهريةً» لا تتغيَّرُ ولا يقوى عليها فِعْلُ الزمن وتحوُّلاتُه. فالسلوكُ الذي بَدَرَ عن هذه المجموعةِ الطائفي في الثلاثينات أو الاربعينات، أو ربَّما في قرونٍ مضت، لا بدَّ أن يُلازمَها إلى قيامِ الساعة، وإلا كان الاندهاشُ الذي لا سبيلَ إلى تبديدِه.

في هذا العُرْفِ تلوحُ الطوائفُ كائناتٍ مغلقةً متحجرةً في ماضيها لا يجمعُها مطلقُ

(٦٤) احمد بيضون، الصراع على تاريخ لبنان...، سبق الاستشهاد، ص ٢٥٧.
(٦٥) المرجع السابق، ص ٢٦٣.
(٦٦) المرجع السابق، الصفحة نفسها. حول هذا الإدراك ومعناه في الحالين، راجع ص ٢٥٧ ـ ٢٦٣.
(٦٧) John. P. Entelis, *Pluralism...*, *op. cit.*, p. 76.

صلةٍ بمحدّداتٍ غيرِ طائفية، اجتماعيةً كانت أو اقتصاديةً أو ثقافيةً، أي أنّها تصيرُ، بكلمةٍ، عشائرَ محكومةً بدمِها.

يترتَّبُ على الإنسحاب صوبَ الماضي وإضفاءِ الثابتِ الجوهري عليه، مع الإغفالِ الذي لا يقلُّ صلابةً ورسوخاً للجديد الذي قد يأتي به واقعٌ متحرِّكٌ سائل، انحيازُ الكتائبِ في لحظاتِ الخوفِ إلى ما هو معادٍ للإصلاح، واندراجٌ عضويٌّ في نفسِ الإيديولوجيا (العروبيةِ) الشعبويةِ، وخصوصاً في مُقدِّماتِها الأخلاقيةِ ذاتِ الجُنوحِ الصوفي.

المعاناة الكتائبية

لم يكُنِ الإنتقالُ من موقعِ الإحالةِ إلى الدولة إلى موقعِ الحلولِ محلَّها بسيطاً في تجربتَيْ بيار الجميل والكتائب، وإنْ عَمِلَتْ جِدَّةُ الحربِ وإطالتُها وجِدَّةُ الخوفِ وتعبيرُه، تالياً، على إظهار ذاك الانتقالِ بسيطاً وأقربَ إلى تحصيلِ الحاصل.

والراهنُ أنَّ الانتقالَ حملَ فيه كلَّ المحطاتِ السابقةَ في العلاقةِ مع الدولةِ والوطن، ومع السياسةِ والميليشيا، بما دلَّ مُبَكِّراً على فصامٍ كتائبي وجدَ تعبيرَه المشخصَنَ الأمثلَ في المؤسِّسِ والقائدِ بيار الجميل: البرلمانيِّ ورجلِ الشارع، الحزبيِّ المؤسَّسيِّ والحزبيِّ الجماهيريِّ، المعتدلِ والمتصلِّب، المرنِ مرونةَ التسوَويِّ الدينيِ، والمحبَطِ المفْجوعِ إحباطَ «الجماهير» وفجيعتَها، المارونيِّ الذي يضغطُ على اللبنانيةِ واللبنانيِّ الذي يضبطُ المارونية[٦٨]، حتى بدا في نظر الكثيرين «استاذاً كبيراً في السياسةِ اللبنانيةِ في مظهرِ طفلٍ بريء»[٦٩].

واقعُ الأمرِ أنَّ إشرافَ بيار الجميل على بناءِ وتوسيعِ ميليشيا تستطيعُ التصدّي للمسلَّحين الفلسطينيين وحلفائِهم، كما تستطيعُ انتزاعَ مَهامِّ الدولة، لم ينفصلْ عن دعواتٍ مُلحّةٍ ومتكررةٍ خلال مطالعِ السبعينات إلى إجراء استفتاءٍ شعبيٍّ بين اللبنانيين حول الوجودِ الفلسطينيِّ المسلَّحِ في لبنان. ودعواتٌ كهذه لا يمكنُ التغافلُ عنها لِمَا تعكسُه من استمرارِ النبضِ الديمقراطي محتفظاً ببعض الزخمِ في التجربةِ الكتائبية، برغم بلوغِ الخوف مَرْتبةً متقدمةً جداً. علماً أنَّ هذه الدعواتِ لم تلْقَ في الصف المؤيِّدِ للفلسطينيين أيَّ اكتراثٍ جدِّي، ناهيك عن الاستجابة. ولا تُعْدَمُ الأمثلةُ العديدةُ في ١٩٧٣ ـ ١٩٧٤ على محاولاتٍ كتائبيةٍ لإجراء مصالحةٍ ما مع الوجودِ الفلسطينيِّ المسلَّحِ اعترافاً بالأمرِ

(٦٨) وامتداداً لعمل هذا الفصام، في شروط أخرى، عرف بيار الجميل لاحقاً «حالة من ازدواجية الشخصية خلال فترة الخلاف بين ولديه امين وبشير. فالأوّل يمثّل نزعته التسووية اكثر، والثاني ميلَه الثابتَ إلى الاختيار والتقدم». جوزيف سماحة، «الكتائب والسلطة»، في: **السفير** ١٠/٤/١٩٨٣.

(٦٩) كريم بقرادوني، **السلام المفقود**، سبق الاستشهاد، ص ١١.

الواقعِ من جهةٍ وتوهُّماً لـ «عقلنة» هـذا الوجـود من جهة أخـرى. يصحُّ ذلـك في اللجانِ المشتركةِ التي شُكِّلَتْ خـلال الفترةِ المـذكورة، كمـا يصحُّ في مشـاركة النـائب الكتائبي آنذاك، امين بيار الجميل، في استقبالِ وفدِ البرلمانيين الأوروبيين الذي حضر في ١٩٧٤ إلى لبنان لزيارة المخيَّمات الفلسطينية وتفقُّدِ حـالِها[٧٠]. وبحسبِ استعـادةٍ لاحقةٍ لأمين الجميـل: «في مطلع السبعينـات ساهمتُ كثيـراً في ترطيبِ الأجـواء بين حـزب الكتـائب ومنظمة التحرير الفلسطينية، وفي إطلاق الحوارِ بين الجانبين تفاديـاً للانجـرارِ في القتال المجاني. وكنتُ عضواً في اللجنة المشتركة التي أُلِّفَتْ لهذه الغاية وكانت برئاسة المرحوم النائب جوزيف شادر. وقد عقدت هذه اللجنةُ العديدَ من اجتماعاتِها في منـزلي في شارع سامي الصلح وأحياناً في منزل أبو أياد قربَ مخيَّمِ شاتيلا»[٧١].

في الفترةِ نفسِها كان كاتبُ افتتـاحيّاتِ «العمـل» يحاولُ طـرحَ المشكلةِ اللبنـانية ـ الفلسطينية بالتساؤلِ عمّا إذا كان لبنان قـادراً «على حمايـةِ نفسِه وحمـايةِ الفلسطينيين ايضاً من الإنتقاماتِ الاسرائيليـة ولا يفعل»[٧٢]، تـوطئةً لتشبيـهِ علاقـةِ المسلمِ اللبناني بالثورة الفلسطينيـة بعلاقـةِ الأمِّ التي تتغافـلُ عن أخطاءِ ابنِهـا، فيما تطمـحُ الكتائب لأن تمارِسَ عليه «قسوةَ» الأبِ لكي لا «يسقطَ في الدلعِ، واستطراداً في التجربة»[٧٣].

ويحاولُ بيار الجميل، عبر عشراتِ الرسائلِ والتصريحاتِ، طـرحَ المشكلةِ بـوصفِها مشكلةَ عجزٍ عن الحماية، مُخفِّفاً من أيّةِ حِدّةٍ قوميةٍ أو عنصريةٍ قد تُواكبُ طرحهـا[٧٤]، بل إنَّه في كثيرٍ من الحالات يذكُرُ «الفلتانَ الأمنيَّ» بوصفه ناجماً عن ضعفِ الدولةِ والمقاومةِ في آنٍ معاً[٧٥].

في موازاةِ ذلك، ومن قَبيلِ توفيـرِ الفرصـةِ الأخيرةِ، دافعتِ الكتـائبُ عن التعييناتِ التي اقدمَ عليها الـرئيسُ سليمان فـرنجية في ١٩٧٤، اي بعـد تخلّيه عن الخيـارِ الأمنيِّ المحضِ واعتمادِه سياسةً منسَّقةً مـع السوريين. فقـد اتُّهِمَتْ تلك التعيينـاتُ في أوساطٍ مارونيةٍ واسعةٍ بمحابـاةِ المسلمين، لكنَّ محرِّرَ «العمـل» كتبَ مؤكِّداً: «نحن لا نصـدِّقُ أنَّ

(٧٠) انظر، مثلاً لا حصراً: شفيق الحوت، **عشرون عاماً في منظمة التحرير الفلسطينيـة ـ احاديث الـذكريـات (١٩٦٤ ـ ١٩٨٤)**، دار الاستقـلال للدراسـات والنشر، ١٩٨٦، ص ٢٢٠. بَيْـدَ أنَّ المبالغـةَ في الحـوار مـع المسلحين الفلسطينيين والإستعدادَ لتقاسم السلطة الأمنية معهم بعد اليأس من قدرة الدولة، اشارا إلى امر بالغ الخطورة ظهرت نتـائجه لاحقـاً، وهو أنَّ الكتـائب قطعت شوطـاً بعيداً في الطـلاق مع المجتمـع اللبناني كمجتمع مُرَكَّب وبـدات تفكر في «الأمن المسيحي» الـذي تتولاه هي مقـابل أن يتـولى «الأمن الإسلامي» من اختاره المسلمون... وقد اختاروا المقاومة الفلسطينية.

(٧١) امين الجميل، «حوار وذكريات»، الحلقة ١٠، في: **الحياة** ١٢/١٢/١٩٩٠.

(٧٢) من **حصاد الأيام**...، سبق الاستشهاد، ص ٦١.

(٧٣) المصدر السابق، ص ٧٤.

(٧٤) انظر مثلاً: David Gilmour, *Lebanon the fractured country*, Sphere books Ltd, 1984, p. 94.

(٧٥) انظر ما نقلته عنه جريدة **النهار** ٩/١/١٩٧٤.

رئيسَ الجمهورية قد استهترَ بحقوقِ الموارنة، أو تعمَّدَ المساسَ بهذه الحقوق. فقد أقْدَمَ على ما أقْدَمَ عليه بدافعِ تقديرٍ معيَّنٍ لأحوالِنا الوطنية»(٧٦). ولا يخفى على من يفهمُ القاموسَ السياسيَّ (والأهليَّ) اللبنانيَّ أن «التقديرَ المعيَّنَ» ما هو إلا محاولةٌ لفكِّ التحالفِ بين المسلمين اللبنانيين والفلسطينيين وإرجاعِ الأوَّلين إلى عَقْدِهم مع المسيحيين اللبنانيين. وفي هذه الحدود شاعَ آنذاك تصوُّرٌ مُؤَدّاه أنَّ العلاقةَ المارونية الحسنةَ مع دمشق قد تخدمُ في هذه الوُجهة بعد أنْ تبيَّنَتْ حدودَ المواجهةِ العسكرية في أيار ١٩٧٣ من جهة، وظهر موقفُ فرنجية «العروبيُّ» مع حرب تشرين الأول من العام نفسِه وما تلاها، من جهة أخرى.

وإذا كانت «العمل» أشارت في افتتاحيةٍ لها في ١٨/١٠/١٩٧٤ إلى اللقاء مع مفتي الجمهورية الشيخ حسن خالد حول الأساسيات و«ضرب الصفْحِ عمّا جاء على لسانِ سماحته في مَعْرِضِ وصفِه للنظامِ اللبناني»(٧٧)، فإنَّها ذهبت إلى حدِّ مناشدةِ المسيحيين أن يكونوا عوناً للمسلمين «في ممارسةِ الضغوطِ على الدولة» من أجلِ رَفْعِ «الغُبْنِ» اللاحقِ بهم(٧٨)، محاولةً منذ مطالعِ ١٩٧٤ الانتباهَ إلى ضرورةِ تحديثِ الحياةِ السياسيةِ اللبنانية(٧٩). وعَكَسَ هذا المناخُ نفسه على الاحتفالِ الكتائبيِّ في سينما الروكسي ببيروت في ٢٤/١١/١٩٧٤ بمناسبةِ الذكرى ٣٨ لتأسيسِ الحزب والذي حضره رئيسُ الحكومة آنذاك رشيد الصلح. في الاحتفال تحدَّثَ النائبُ الكتائبيُّ إدمون رزق عن «قوةِ الدولة» لكنه في محاولةِ بحثٍ عن قواسِمَ مشتركةٍ أكَّدَ أنَّ «المُشَكِّكَ في لبنان لا يمكنُ أن يُؤْمِنَ بفلسطين ولا العروبة»، وحين تحدَّثَ المحامي (المسلم) شفيق الوزان «قوبِلَ بعاصفةٍ من التصفيق»(٨٠).

إلى ذلك راهَنَتِ الكتائبُ على الإمامِ موسى الصدر وعَمِلَتْ على مُحاورتِه في السنواتِ السابقةِ على انفجارِ مخيَّمِ التدريبِ لـ «حركة المحرومين» في بعلبك(٨١)، والذي تبيَّنَ أنَّ حركةَ «فتح» الفلسطينيةَ هي التي تَزْعاه، كما تبيَّنَ لاحقاً أنَّ احَدَ المُشْرفين عليه، مصطفى شمران، هو واحِدٌ من قياديي «حركةِ تحريرِ إيران» وقد عُيِّنَ وزيراً للدِّفاعِ في طهران بعد انتصارِ الثورةِ الخمينية(٨٢).

(٧٦) **من حصاد الأيام**...، سبق الاستشهاد، ص ٢٨.
(٧٧) المرجع السابق، ص ٨٤ ـ ٨٦.
(٧٨) **العمل الشهري**، العدد الأوّل، ص ١٦ ـ ١٧.
(٧٩) انظر: **من حصاد الأيام**...، سبق الاستشهاد، ص ٢٥ و٢٧ و٥٤ ـ ٥٩.
(٨٠) انظر الصحف في ٢٥/١١/١٩٧٤. كذلك راجع خطاب لويس ابو شرف في المهرجان نفسه في **العمل** ٢٦/١١/١٩٧٤.
(٨١) من المقابلة الشخصية مع كريم بقرادوني.
(٨٢) انظر، مثلاً لا حصراً، حسن صبرا، عن الصحوة الإسلامية في لبنان، في: **الحركات الإسلامية المعاصرة في الوطن العربي**، مركز دراسات الوحدة العربية، جامعة الأمم المتحدة، ١٩٨٩، ص ١٧١.

كذلك حاولَتِ الكتائبُ أن تدمجَ موقفَها اللبنانيَّ الموصوفَ بـ «الانعزالية» في مجاري الإنقسامات والمحاورِ العربية، منفتحةً على مصر الساداتية (قبل سنواتٍ على زيارة القدس وكمب ديفيد) التي وجَّهَتْ دعوةً رسميةً لبيار الجميل لزيارتها[٨٣]، بعد المبادرة في ١٩٧٢ إلى إنشاءِ علاقاتٍ مع السوريين[٨٤]. ويُهَنِّىءُ الجميل بالوَحْدة الليبية ـ التونسية التي لم تُقَيَّضْ لها الحياة، محذِّراً من أن تَسْتَغلَّ إسرائيل هذه الوَحدة للقول إنَّها ردةُ فعلٍ (دينية) على يهوديةِ الكِيان الإسرائيلي[٨٥]. ويستهلُّ لويس ابو شرف كلمتَه في المهرجان الكتائبيِّ بالذكرى الثامنةِ والثلاثين لتأسيسِ حزبه «بتحيةٍ إلى اعضاءِ الأسرةِ الدوليةِ الذين استجابوا إلى صوت الحقِّ والعدل، والذين أتاحوا لممثلي الشعب الفلسطيني إسماعَ صوتِه في قلبِ المنظَّمةِ الدولية»[٨٦].

وحتى شهر آب ١٩٧٤ ظلَّتِ «العمل» تؤكِّدُ على إمكانِ «التعايشِ والتضامنِ» مع الوجودِ الفلسطينيِّ شريطةَ توفُّرِ «حضورِ الدولة»[٨٧].

ولئن سارعَ حزبُ الكتائب في ١٩٧٥ إلى خوضِ الحربِ الأهليةِ ـ الإقليميةِ بحماسةٍ باديةٍ، إلا أنَّهُ تلكَّأ عن المشاركةِ في صوغِ «ثقافتِها» التعبويَّةِ المطابقةِ لنُكوصِ الوعي الأهليِّ والمعبِّرةِ عنه.

هكذا تُرِكَ لدوري شمعون أن يُعلنَ، بنبرةٍ عنصريةٍ حادّةٍ، استعدادَه لرَمْي الفلسطينيين في البحرِ رغم أنَّهم «قد يلوِّثونه»[٨٨]، وتولَّت تجمُّعاتُ الأحياءِ والروابطِ الأهليّةِ السريعةِ التَّشكُّلِ والتي تغلُبُ عليها الرثاثةُ الاجتماعيةُ والإحباط، معطوفَيْن على الإحتكاكِ المباشَرِ بالمسلحين الفلسطينيين في نقاطِ السُّكن التي تُجَاوِرُها مخيَّماتُ المناطقِ الشرقيّة من بيروت، تولَّتِ التحريضَ على الفلسطينيين والمسلمين بأكثرِ التعابيرِ والأشكالِ فظاظةً. والحقُّ أنَّ التشكيلاتِ الأهليةَ التي تتداخلُ بطبيعةِ الحال مع نقاطِ الوجود الكتائبيِّ لم تتباطأ في الظهورِ العسكري الذي وازى دعواتِها المكتوبةَ على الجدرانِ إلى قتلِ الفلسطينيين، وإن اتُّخِذَ هذا الظهورُ في بدايتِه شكلَ المبادراتِ العفويةِ والفرديّة. وفي أثناءِ المجابهاتِ الأولى بين شبيبةِ الأحياءِ المسيحيةِ والمقاتلين الفلسطينيين مارسَ الكتائبيون الأفرادُ دورَهم الأهليَّ في المشاركةِ في المجابهاتِ بينما لعبَ الحزبُ، كحزبٍ، دوراً وسيطاً وتحكيمياً أشدُّ تعقلاً واعتدالاً من متوسِّطِ الموقفِ

(٨٣) انظر النهار ١/١ و١١/١/١٩٧٤.
(٨٤) انظر مقابلة انور نصار ونبيل حرب مع جورج سعادة في الانوار ٢٢/٩/١٩٨٦ إذ يتطرق لتلك المرحلة.
(٨٥) النهار ١٥/١/١٩٧٤.
(٨٦) العمل ٢٦/١١/١٩٧٤.
(٨٧) من حصاد الايام...، سبق الاستشهاد، ص ٧١ و٧٢.
(٨٨) عن David Gilmour, *Lebanon the fractured country, op. cit.*, p. 102.

الجماهيريّ المسيحي. فـ «العمل» التي تحدَّثْ عن «اللاءات» المكتوبةِ على الجدران بوصفِها مما ينبغي تركُه لـ «صبيان الأزقّة»، ساوتْ في ذلك بين «لا للعروبة» و«لا للمقاومة» في طرفٍ، و«لا للكتائب» في طرف آخر(٨٩).

بدورها لم تتردَّدْ يومذاك إحدى المجلات اليساريةِ المعاديةِ للكتائب في التحدُّثِ عن تشكيلاتٍ طائفية «على يمين حزبِ الكتائب»، معتبرةً أنَّ ما يجعلُ الأخير أقلَّ «يمينية» منها اضطرارُه للتوفيقِ بين قاعدتِه البورجوازيةِ الصغرى و«بين مصالحِ البورجوازيةِ الكبرى»(٩٠).

لقد عاشت الكتائبُ صراعاً متفاوتَ التعابير بين جيبها الريفي المتعاظمِ وبين بقايا الحزبيّةِ الطامحةِ إلى مضاهاةِ ومواكبةِ تمدُّدِ الطائفة على نطاقٍ وطني. ومثل هذه الحزبيّة لا يمكنُها إلا أن تُعاندَ الانحصارَ في الحدودِ الضيقة، الرمزيةِ والصوفيةِ والفحوليةِ التي عبَّرت عنها التنظيماتُ المتطرِّفةُ يومذاك حاملةً أسماءَ «حراس الأرز» ومن أبرز شعاراتِه المبكرة: «الفلسطينيون هم المجرورُ الكبير الذي يجب أن نُلْغِيَه»(٩١) و«كتيبةُ الخوف» و«فرسانُ العذراء» و«شبيبةُ القديس يوسف» و«خشبُ الصليب» و«التنظيمُ الماروني» و«جبهةُ الدفاعِ عن الجبل» و«جيشُ التحرير الزغرتاوي»، وبعضُها لا يكتم الهُويّةَ المحلّيةَ الصريحة.

لقد عَمِلَتْ هذه التنظيماتُ المتفاوتةُ حجماً وأهميّةً، والتي وُلِدَ معظمُها في مناخِ النزاعِ الأهليِّ ولم يسبقْ أن أدّى أيَّ دورٍ سياسيٍ ـ برلماني(٩٢)، على «تنقيةِ» كيانٍ لبنانيٍ يشوبُه الغموضُ من جرّاء «التلوُّث» باقتصادٍ ونزعةٍ نفعيةٍ يقودان إلى مشاركةِ المسلمين وإلى الانفتاحِ على العالم العربي. وهكذا كان الاستئصالُ، أو إتمامُ الانقلاب على ثقافةِ المدينة ومثالاتِها، هو الوعدُ المطروحُ من قِبَلِ هذه التنظيمات للمختلفين عنها.

بهذا المعنى تُشيرُ حالاتٌ كثيرةٌ كحالةِ المحامي هنري صفير، مثلاً، والذي أنشأ «لواء الجبل» في حرب السنتين، إلى أنَّ بعضَ التنظيماتِ المسلَّحةِ الصغرى نشأ ليستأنِفَ نزاعاً أهليّاً عَصَبيّاً مع حزبِ الكتائب نفسِه. وقد ساهمَ هذا التنظيمُ الذي «قاتل الكتائب» في «الأعمال الطائفية البشعةِ ضد المسلمين الشماليين الذين ينتقلون عبر طريقِ

(٨٩) من حصاد الأيام...، سبق الاستشهاد، ص ٧٦ و٧٩.

(٩٠) مجلة الحرية في ١٩٧٥/٧/٢١.

(٩١) انظر، انطوان بصبوص، «القوات اللبنانية وصمود لبنان، في: العمل الشهري الخاص بـ «المقاومة اللبنانية في حرب السنتين وجذورها في التاريخ»، العدد ١٢، منشورات دار العمل.

(٩٢) إذا كان العنف، كنقيض للسياسة (والإنتخابات)، أحد رموز الفحولية الذكرية وتمارينها، فليس من غير دلالة أن تظلّ «الماكينة» الإنتخابية (الكتائبية) حتى عام ١٩٧٥ «أهمّ نشاط تقوم به المرأة الكتائبية وتنجح». «الكتائبية بندقية في الحرب...» في: العمل، العدد الخاص بمناسبة ذكرى التأسيس السادسة والأربعين، في ١٩٨٢/١١/٢٨.

الساحل إلى بيروت»، كما زايدَ على الكتائب «في نبرة العداء للفلسطينيِّ والمسلمِ بما يتجاوزُ الحدودَ السياسيةَ إلى الحدودِ العنصرية»(٩٣).

وأشدُّ دلالةً من حالةِ صفير حالةُ «التنظيم» الذي تأسَّسَ في ١٩٦٩ «بعد الصدامات الكبيرةِ الأولى بين الجيش اللبناني والمقاتلين الفلسطينيين. فقد نشأ («التنظيم») بنتيجةِ انقسامِ مجموعةٍ عن الكتائب بعد أن عجزَ مؤسِّسوه عن إقناع القيادةِ الكتائبيّةِ بالمُضيِّ في تدريباتٍ عسكريةٍ على نطاقٍ واسعٍ للمواطنين اللبنانيين، رداً على توسُّعِ السلطة الفلسطينية في لبنان وضغوطِ الجامعةِ العربيةِ على الحكومة اللبنانية [...] هكذا قَرَّرَ الأعضاءُ المؤسِّسون أن يبْنوا تنظيماً شبهَ عسكريٍّ للدفاعِ عن لبنان ونصرةِ الجيش اللبناني»(٩٤).

لقد ظلَّت الكتائبُ، في المقابلِ، وطوالَ العامِ السابقِ على الحرب (١٩٧٤) تخوضُ في الظلِّ سجالاً مع البيئةِ الصافيةِ التي انتجتْ تلك التنظيمات، فكتبت «العمل» في ٢٧/٢/١٩٧٤ مدافعةً عن الرهان الكتائبيِّ الأصْلي في ١٩٤٣، حين «في بعض الأديرةِ والمدارسِ المسيحية في الجبل أُنْزِلَتْ صورةُ بيار الجميل التي كانت تُعلَّقُ تقديراً وتكريماً وبعضُهم اتَّهمَهُ بالخيانة»، وصولاً إلى القول إن «امتيازات الموارنة» مسألةٌ مؤقتةٌ و«نهايةُ المؤقَّتِ هذا يجبُ أن تكونَ لها بداية [...] إلا إذا كان القصدُ إفهامَ المسلمين بأنَّ الضماناتِ المؤقتةَ قد أصبحت امتيازاتٍ نهائية. وهذا خيرُ تحريضٍ لهم على الثورةِ وعلى رفضِ هذا الظلم»(٩٥).

وعملاً بهذا التمييز، ظهرَ خلال حرب السنتين في الأوساطِ اليساريةِ والإسلاميةِ مصطلحُ «جبهةِ الرفض المارونية» دلالةً على «جبهةِ حُرّاسِ الأرزة» (الأرز لاحقاً) وانصارِ الرهبانيّات ومن شاكَلَهُم(٩٦).

وراء ذلك كانت الكتائبُ تعيش نزاعاً حادّاً بين مُقَدِّماتِها المدينية الأولى وبين ما هو ريفيٌّ ورمزيٌّ وفحوليٌّ فيها مِمّا وجدَ تعزيزَه البشريَّ في أبناء الأطرافِ الوافدين إليها. ولم تفُتْ إحدى مجلات اليسار اللبناني الإشارةُ، بطريقتِها، إلى انشطارِ الكتائب «جناحَيْن رئيسيَّيْن»، أحدهما هو «الأكثر تمثيلاً للمصالح الراسمالية والأكثر تحسّساً بها»، وهو يَضُمُّ، بحسب المجلة، أنطوان جزار وطانيوس سابا وجوزيف شادر، والثاني «الجناح

(٩٣) حازم صاغية، **موارنة من لبنان**، سبق الاستشهاد، ص ٣٦٨.

(٩٤) Lewis W. Snider, *The lebanese forces: Wartime origins and political significance*, condensed version of a larger paper presented at a meeting of the California seminar on international security and foreign policy, Nov. 8, 1983, p. 159 n.

(٩٥) **من حصاد الأيام...**، سبق الاستشهاد، ص ٢٢ ـ ٣٦.

(٩٦) انظر مثلاً **السفير** ٢٤/١١/١٩٧٥.

الاكثـر تشنُّجاً بقيـادة بشير الجميـل ووليم حاوي الـذي يقودُ جهـازَ الحـزبِ العسكـري المُتضخِّم»(٩٧). وفقط مـع اتساعِ نطـاقِ الحرب ونطـاق الانخـراط الكتـائبي فيهـا، على حسابِ اللّعبةِ السياسية وكلِّ مظاهرِ الحياةِ الحزبية، بـدأ يَتَظَهَّرُ الإزدواجُ الكتـائبي الذي حاولَ بشيرُ الجميل حَسْمَه ونجـح فيه. وهنـا كَمَنَ مفتاحُ الأزمـة التي لن تلبث أنْ تعصُفَ بحزب بيار الجميل آيلةً إلى تعريبه الكامل، بما التعريبُ انتفاءٌ للحزبية في معناها الحديث وتحريكٌ للجماعة على إيقاع عشائري.

صحيحٌ أنّ حزبَ الكتائب حزبُ حـركةٍ و«حَشْـدٍ»(٩٨) لا ينفصلُ نمـوُّه عن الانفعالِ بالحدثِ والمبالغةِ في تَرْميز هذا الإنفعال، إلّا أنّ الردّ الكتائبي على الحـدث (الخوف، في هذه الحال) لم يحصلْ دفعةً واحـدةً ولم يَتُمّ اختياراً، كمـا تذهب ضمنـاً النظريـةُ القائلـةُ بـ «الكتائب العميلة الفاشِيَّة»، الرائجةُ في الأوساط اليسارية والإسلامية.

فالردّان الأقصَيان، أيّ التسلّحُ والعلاقةُ بإسرائيل، لم يَصْدرا عن موقفٍ مسْبَقٍ غير عابىءٍ أساساً بالدولة او بالتعايش. إذ في المجـال الأول يُلاحَظُ أنّ الإقبـالَ على السلاحِ تنامى في موازاةِ تصاعُدِ التسلّحِ المقابل، كما في موازاة انقشاعِ عَجْزِ الدولة وأجهزتِها من دون أنْ يـوجَدَ مـا يَضمَنُ الأمنَ والاستقرارَ للجمـاعةِ الخـائفة. وكـان من آثارِ ضعفِ الـدولـةِ ووُجـودِ المسلحين الفلسطينيين على الأراضي اللبنـانيـة أنْ تحـوّلَ لبنـان في السبعينات «نقطةَ تجميعٍ ومُعسكرَ تدريب وملاذاً لمعظم الحركات الإرهابية الـدّولية» التي يعدّدُ منها جيـرار شاليـان، الذي كـان في السبعينات مؤيـداً للإرهـابيين، «الفلسطينيين واليسـاريين المتطرفين الأتـراك والإيـرانيين واليـابـانيين والأرمن والأوروبيين الغـربيين خصوصاً منهم الألمان والإيطاليون والإيرلنديون، وهكذا دواليك»(٩٩).

وفي عودةٍ إلى محطات انبعاثِ العسكريّةِ الكتائبيةِ، بعد أن كان الطورُ الفالانجي قد آل إلى نهـايتِهِ مـع الشهابيـة(١٠٠)، نجـد أنّـهُ بعـد أن كـانت التـدريبـاتُ محصـورةً في الاحتفالاتِ بعيد التأسيس(١٠١)، نشأتْ فرقةُ الكومانـدوس العسكريـة الأولى، وهي فرقـةٌ

(٩٧) مجلة الحرية ١٩٧٥/٩/٢٩.

(٩٨) حول العلاقة بين السلطة أو «السلطان» وبين الحشد والعمق الغريزي، والمـدلول الـرمزي في هـذه العلاقـة، انظر عرض كتـاب الياس كـانيتي «الجمع والسلطـان»، في: وضّاح شـرارة، **تشريق وتغـريب ـ قراءات في وجوه من الفكر والتاريخ والاجتماع**، دار التنوير، بيروت، ١٩٨٧، ص ٢٨٥ ـ ٢٩٢.

(٩٩) Gerard Chaliand, *Terrorism from popular struggle to Media spectacle*, Saqi books, London, 1987, p. 92.

(١٠٠) وكان الظن السائد وحُسْن النوايا أنّ استقلال ١٩٤٣ هو نهاية ذاك الطور، حيث لم يكن الإجتمال الناصـري المتحالف مع السوفيات في نطاق التصور.

(١٠١) من تحقيق أرليت النوار، «الهيكلية العسكرية للكتائب»، في: **العمل**، العدد الخاص بمناسبة ذكـرى التأسيس الخامسة والأربعين، في ١٩٨١/١١/٢٩، وقـد استدعى عـدم وجود اي مـرجع مـوضوعي آخـر حول هـذه المسألة الإقتصار على مرجع كتائبي (لا يلوح مضخماً أو مبالغاً فيه).

تابعةً للقيادة المركزية، في ١٩٦٥، أي بعدَ عامٍ واحدٍ على نهاية العهد الشهابي الأول وذلك تحت وطأةِ «الشعور بالخطر تجاهَ التقلبّاتِ السياسيّة». ولم تبدأ التدريباتُ الجدّيةُ وإقامةُ المخيماتِ إلا في ١٩٦٩، سنة تظاهرة ٢٣ نيسان بعد الصدام بين الجيش والمقاومة الفلسطينية. إلا أنّ انشقاقَ العناصرِ الكتائبية التي أسَّسَتْ «التنظيم» كما سبق ان رأيْنا، يُوحي بأنّ تلك التدريباتِ كانت لا تزال محدودةً وبعيدةً عن أنْ تُلَبّي رغباتِ الشبّان الأكثرِ راديكالية. وفي ١٩٧٢ وُلِدَتْ فرقةُ الـ «ب. ج» التي أصبحت «الفرقةَ الوحيدة النظاميّة الحقيقيّة التي يُمكنُ ان تُعْتَبَرَ نواةَ القوّات اللبنانيّة».

في العام الثاني أصبحَتْ التدريباتُ أكثرَ جديّة، وهو العام الذي شَهِدَ مواجهاتِ أيّار بين الجيش والمقاومة[١٠٢]، وفي ١٩٧٥، ومع اندلاعِ الحرب، باتَ كلُّ قسمٍ حزبيٍّ يتولّى المواجهةَ في منطقتِهِ، باستثناءِ فرقة الـ «ب. ج» المركزيّة التي تتنَقّلُ بينَ الأقسام. لكن مع قدوم الرّدع السوري بنهاية حرب السنتين واتّضاحِ أنّهُ لن يعملَ على نزع السلاح الفلسطيني، أقدَمَ الكتائبيون «على التدريب الجديّ ووُلِدَت الثكناتُ المركزيّة، مثل ثكناتِ المغاويرِ والمدرّعات والمدفعية». إلا أنَّ الوجود السوري، معطوفاً على الفلسطيني، أفضى بدورِهِ إلى تلقّي المقاتلين «التدريبَ الحقيقيَّ في المخيمات والثكنات»، وفي أواخر السبعينات ظهرَ الاتجاهُ إلى «خلقِ جيشٍ منظّمٍ للدفاعِ عن كلّ أجزاءِ الوطن». وفي هذه المرحلة أيضاً وُلِدَت القوات اللبنانية في «شكلها الأوّلي».

بعد اشتباكات ١٩٧٨ حيث «تمرْكَزَ السوريون بين الأحياء السكنية»، بما في ذلك من دلالةٍ على استدخالِ الخطرِ الخارجي، كما كان الحالُ مع المخيّمات الفلسطينية المسلحة التي في المناطق الشرقية حتى ١٩٧٦، دخلت التدريباتُ طوراً «أسرعَ وأشملَ، لأن الخطر هذه المرة كان من الداخل». والحقُّ أنّ الأطوارَ التي شهدَتْ تنامي الخوفِ والقوّةِ، وهما في حال انضغاطٍ وتكثيفٍ، كانت هي نفسُها أطوارَ الصعود الذي باشرَهُ بشير الجميل وصولاً إلى الذّروة، كما سنرى لاحقاً.

امّا العلاقةُ بإسرائيل طلباً للحماية فهي، أيضاً، ما لم تَتُمّ من دون معاناة، كما أنّها لم تُبْنَ وتُعْتَمَدْ إلا بعد أنْ حوصِرَ الجبلُ المسيحي بما فيه بكفيا من قبل المسلحين الفلسطينيين وحلفائهم، فيما استحال الإنجادُ العربيُّ المحافِظ والغربيّ سواءً بسواء.

واقع الأمر أنّ الكتائب في ١٩٧٦، لهثَتْ وراء الرئيس كميل شمعون في هذه

(١٠٢) في رصده لنمو المقاومة الفلسطينية في لبنان يتوقف اديد داويشا عندما يعتبره المحطات الأساسية والتي هي بدورها محطات التوتر اللبناني ـ اللبناني السابق على اندلاع الحرب. من هزيمة ١٩٦٧ إلى معركة الكرامة وصولاً إلى العام ١٩٦٩ حين أصبحت المقاومة الفلسطينية «قوة سياسية وعسكرية شبه مستقلة في السياسة اللبنانية». Adeed I. Dawisha, *Syria and the lebanese crisis*, The Macmillan press Ltd., 1980, p. 21.

الوُجهة، إذ بعدَ اجتماعيْن بين الأخير ورئيس الحكومة الإسرائيلية يومذاك، إسحق رابين، وافق بيار الجميل على الإنضمام إلى هذه اللقاءات «من دون أن يُخفي حقيقةَ حزنِهِ بسبب اضطرارِهِ لمصافحة يد رابين: «إنّني اريد انْ اسيرَ في لبنان وراسي مرفوعٌ كمسيحي وكعربي» كما قال، واضاف «لقد أُجبِرْتُ على التّوجُّهِ إليكُم لكنّني مملوءٌ بالعارِ والخيبة». وحينما اختار رابين انْ لا يجيب على إهانتِهِ، انتهز الجميل صمتَهُ كدعوةٍ لمتابعةِ كلامِهِ العدواني: «إنّه خطأُ إسرائيل الذي دفع الفلسطينيين إلى الاستقرارِ في لبنان وحَمْلِ السلاح»، بحسب ما روى كاتبان إسرائيليان غيرُ متحمِّسيْن لتَبْييض صفحةِ الموارنة اللبنانيين او الكتائب(١٠٣).

والروايةُ نفسُها تقريباً، مع اختلافاتٍ في التفاصيل، يعيدُها كاتبٌ إسرائيليٌّ آخر: «وقد تكلَّم بيار الجميل كمن يشعرُ بالذنب. قال «اشعرُ بالخجل لكَوْني اجدُ نفسي مضطراً إلى رئيسِ حكومةِ إسرائيل طلباً للمساعدة. فقد تكلَّمتُ بحدّةٍ ضدَّ دولةِ اسرائيل لسنواتٍ طويلة. لقد رايتُ في قيامِها بدايةً لكارثةِ لبنان. فقد اضطُرِرْنا في أعقابِ تأسيسِ إسرائيل إلى استيعابِ عددٍ كبيرٍ من اللاجئين الفلسطينيين الذين يُهَدِّدوننا اليومَ ويحرِّضون المسلمين في بلدِنا. لقدْ رايتُ فيكم، انتم الإسرائيليين اصلَ البَلاء. فقد تَغَيَّرَ لبنان بسببكم. اختلَّتِ التركيبةُ الديموغرافيةُ وحلَّ الخرابُ في الدولة». واضافَ الجميل يقول: «اما الآن فقد تخلّى عنا العالمُ المسيحيُّ ولم يعُدْ احدٌ يهتمُّ بنا. ولأنني اريدُ أن أُواصِلَ العيشَ مرفوعَ الراس في لبنان، فلا مناصَ من أن اتوجَّهَ إليكم طلباً للمساعدةِ لأنّكم وحْدَكُم على استعدادٍ لِمُساعدتِنا وتستطيعون مساعدتنا»(١٠٤).

الدفع إلى الخوف

بطبيعةِ الحالِ كانت وجهةُ الخوفِ اقوى مما عداها، وكان الميلُ إلى التكتيلِ العشائريِّ الذي يرصُّ الصفوفَ ويؤكِّدُ على «اللُّحمةِ»، يُلْغي كلَّ اتجاهٍ للفرْزِ ضمنَ المجموعةِ المقابلةِ للكتائب. ولم تكتمِ الأخيرةُ، المهجوسةُ منذ ١٩٤٣ ببحثِها عن ندٍّ إسلاميٍّ لها، البرَمَ بأنَّ رئيسَ الحكومةِ (المسلم) «عرضةٌ دائمةٌ لضغطِ الشارعِ الذي

(١٠٣) Ze'ev Schief & Ehud Ya'ari, *Iseael's lebanon war*, Simon & Schuster, New York, 1984, p. 18-19.

(١٠٤) شيمون شيفر، كرة الثلج ـ اسرار التدخل الاسرائيلي في لبنان، لا ذكر للدار، ١٩٨٤، ص ٣٧. الجدير بالذكر انّه مع توافر خيار عربي عبرت عنه «قوات الردع العربية» عاد الخيار الاسرائيلي في الكتائب لينكمش، إلى ان اتضح انَّ السوريين ينوون إبقاء السلاح الفلسطيني وتحويل لبنان «ساحة» لمواجهة «المخطط الساداتي»، بذلك اضيف الخطر السوري إلى الخطر الفلسطيني. حول مصاعب إقناع بيار الجميل بالخيار الاسرائيلي، راجع ايضاً جوزيف ابو خليل، «حرب لبنان، مراجعة ونقد»، الحلقة ٥، في: الحياة ١٤/٧/١٩٨٩.

جاء الحُضورُ الفلسطينيُّ ليزيدَه غلياناً»(١٠٥). امّا في القاعدةِ الشعبيةِ العريضةِ فكان لسطوةِ السلاحِ انْ سَيَّدَ التنظيماتِ الشبابيةَ المسلّحةَ والملتحقةَ بالفلسطينيين، واَخَصَّها بالذكر «حركة المرابطون» على ما عداها من قوى سياسية معتدلة.

واستكمالاً للحصار لم تُجْدِ محاولات الإنفتاح على العالم العربي الذي تماسَكَ هو ايضاً، بدرجةٍ تَقِلُّ أو تزيد، مع الجماعة الفلسطينية ـ اللبنانية المناهضةِ للكتائب. ولَئِنْ بدا انّ ثمّة انظمةً عربيةً مُحافظةً (في الخليج خصوصاً) تُبدي بعضَ التعاطف مع مسألةِ المسيحيين في لبنان، إلا انّ التعاطف بَقِيَ مُضمَراً وضمنياً في الغالب لأسباب كثيرة في صدارتها فكرةُ «الجماعة»، وخوفُ الأنظمةِ من مصارحةِ «الجماهير» تالياً، فضلاً عن القداسة الخرافية التي تحظى بها المسألة الفلسطينيةُ في العالميْن العربي والإسلامي، من دون انْ تخلو من خَشْيةِ الإرهاب الانتقامي للمنظمات الفدائية. وهكذا اقتصرَتْ التأثيراتُ الخارجية على «دفع مسلحين فلسطينيين من سوريا إلى لبنان» وعلى «بيانات التأييد العربية للفدائيين وللقضية الفلسطينية»، والسّببُ، في عرف الكتائب، «انّ احداً من المسؤولين العرب لم يُرِدْ انْ يتفهّمَ صُلْبَ المشكلة»(١٠٦).

بدورهِ عَمِلَ ضعْفُ الثُّقافةِ السياسيّةِ الدستوريةِ وعدَمُ التسليمِ بنِهَائيَّةِ الكيانِ اللبناني بين المسلمين حتى ١٩٣٦، وبتَعَثُّر وتردُّدٍ بعد ذلك، على تعقيد مُشكلةِ «التفهّم والتفاهم»، التعبير الأثير لأحد رؤساء الحكومة، صائب سلام، فراحَتْ «العمل» تتساءلُ في صورةٍ عصبيّةٍ متكررة: «من يمثل المسلمين: ليبيا؟ العراق؟ سوريا؟ ابو عمّار؟ أم الزعامات المحلية في ظلِّ عجزِها حيالَ الشارع؟»(١٠٧).

وإلى الوجودِ الفلسطينيِّ المسلّح في لبنان وفي قلبِ المناطقِ الشرقيّةِ تحديداً(١٠٨)، عَمِلَ التحوّلُ الديموغرافي الذي تفرزُهُ نسبةُ الزيادةِ السكانية الأشد ارتفاعاً بين المسلمين من مثيلَتِها بين المسيحيين، معطوفاً على العدد الفلسطيني، على إغلاق حلقاتِ حصارِ الخوف، لا سيّما وانَّ الوعيَ العدديَّ (العشيري) كان يُحْكِمُ قبضتَه على رؤوس اللبنانيين جميعاً.

اضِفْ إلى ذلك انّ الكلام الذي كان يَهُبُّ «من الطرف الآخر»، كان لا يسمحُ إلا بتأويلٍ واحدٍ آحادي، من شعار «الفلسطينيون جيش المسلمين» إلى تحليلاتٍ لِلْيَسار شرعَتْ تظهرُ مع أواخر الستينات. فمنذ ١٩٧٠ لم يترك احدُ اليساريين اللبنانيين فرصةً للشّكِّ والتَّكَهُّنِ، إذْ حَسَمَ بأنَّ «تسليحَ الحُكْمِ لجماهير القرى الامامية ـ ومعظمُهم من

(١٠٥) من حصاد الايام...، سبق الاستشهاد، ص ١٤٢.

(١٠٦) انطوان عواد، «خمسون سنة في خدمة لبنان»، في: العمل ـ خمسون سنة...، سبق الاستشهاد.

(١٠٧) انظر: من حصاد الايام...، سبق الاستشهاد، ص ١٦٨ ـ ١٧٢.

(١٠٨) ومن بعده الوجود السوري في المناطق إيّاها.

الفــلاحيــن الصِّغــار والفقــراء ـ سيَـغْني قُـدْرَتَـهُمْ علــى الثــورةِ علــى مُضطـدِيــهـم ومُستغِلِّيهم»[١٠٩]. أمَّـا في ١٩٧٥ ومع انفجـار حرب السَّنتين، فلم يتـردَّدْ قياديٌّ وكـاتبٌ فلسطيني في تحديدِ «الأُسُسِ» التي بموجبها «تُحَلُّ قضيَّةٌ كقضيـةِ حزبِ الكتـائب»، ومن ذلك: «أوَّلاً: يجبُ النضالُ لعزْلِ حزب الكتـائب وطنيّاً ـ على صعيـد لبنان وعلى الصعيـد العـربي ـ ولِكَشْفِ جرائمِـهِ وتَعْرِيَـةِ عَمَالَتِـهِ. ثانيـاً: لا بدَّ من عَـزْلِ الكتائبِ في أوسـاط الموارنةِ أيضاً، وذلك بتوسيعِ القاعدةِ المارونيَّةِ المُتَحَرِّرَةِ من أوهامِ القرنِ التاسـعِ عشر ومن معاداة الفكرة الوطنيَّةِ العربية وأفكارِ التقدّم الاجتماعي»[١١٠].

ومـا فات الكـاتِبَيْن اليسـاري والفلسطيني، أكَّـدَهُ كـاتبٌ مسلمٌ وثيقُ الصِّلـةِ بـدار الفتـوى. فقد رأى حسين القـوتلي أنَّهُ «إمّـا أنْ يكونَ الحـاكمُ مسلمـاً والحكمُ إسـلاميـاً فيرضى عنه [المسلمُ] ويُؤيِـدُهُ، وإمّا أنْ يكـونَ الحاكمُ غيـرَ مسلمٍ والحكمُ غير إسـلاميٍّ فَيَرْفُضُهُ ويُعـارِضُهُ ويَعْمَـلُ على إلغائِـهِ، باللِّينِ أو القـوّة، بالعَلَنِ أو بـالسِّرّ [...]. إنَّ أيَّ تَنَازُلٍ من المُسلم عن هذا الموقف أو عن جُزءٍ منه إنَّما هو بالضـرورة تنازلٌ عن إسـلامِهِ ومُعتقَـدِهِ [...]. إنَّ ذلـك يعـودُ إلى سببٍ منطقي هـو أنّ الإسـلامَ نظـامٌ كـامـلٌ ومنطقٌ شامل»[١١١].

كـان ما يضغطُ هـذه العوامـلَ كلَّها في لبنـان أنَّ النتائـجَ التي أفضتْ إليها حـربُ تشرين الأول ١٩٧٣، تركَتْ النفوذيْن السوري والفلسطيني يحتقِنـانِ ويبحثان عن شـروطٍ لتحسينِ عناصر التسوية الإقليمية الموعودة، وعن «ساحةٍ» تجري عليهـا المحاولـة. وبكلِّ هذه المعاني بـدَتْ رياحُ العـروبة في ١٩٧٥ أقـوى منها في ١٩٥٨، إذْ تضـافَرَ الـوجودُ الفلسطينيُّ المسلحُ في الدواخل اللبنانية ـ والذي نجح في جرِّ «الطـوائفِ الإسلاميـة من أنْفِها إلى الحرب»[١١٢]، مع دعمٍ سوري مباشر، ولـو في أشكالٍ متفـاوتة، ونـزاعٍ أهلي استطاع قطبُهُ الآخر بزعامة كمال جنبلاط إقامةَ «جبهةٍ عربية مُسَانِدَةٍ للثورة الفلسطينيـة» وعلاقاتٍ وثيقَةٍ مع الاتحاد السوفيـاتي. ولم يكتُمْ جنبلاط رغبتَـهُ في «عَزْلِ الكتـائب» بعد حادثة عين الـرمانـة في نيسان ١٩٧٥، كمـا لم يكتُمْ، بعدَهُ، صـلاح خلف (أبو إيـاد) أنَّ «الطريق إلى فلسطين تَمُرُّ من جونيه».

في الآن نفسِهِ خَلَتْ العروبة السبعينية من الـوزن المصري الـذي كان عمـادَها في الخمسينات، أيْ أنَّها خلَتْ من الكَفَّةِ التي تستطيع، بِثِقةٍ نسبيةٍ، لَجْمَ الصراعاتِ عنـد حدٍّ معيَّن، والوصول تالياً إلى تسويةٍ ما.

(١٠٩) محمد كشلي، «لبنان والنماذج الثورية العربية»، في: آراء نخبة من رجال الفكر: **النظام السياسي الأفضل للإنماء**، مكتبة الفكر الجامعي، ١٩٧٠، ص ٢٢١.

(١١٠) ناجي علوش في مقابلة أجرتها معه مجلة **دراسات عربية**، العدد ٩، تموز ـ يوليو ١٩٧٥.

(١١١) **السفير** ١٨/٩/١٩٧٥، ونظراً للوقع الذي تركه هذا المقال على الوسط المسيحي أعادت الكسليك نشره.

(١١٢) أحمد بيضون، **ما علمتم وذقتم**، سبق الاستشهاد، ص ١٤٥.

لهذا استطاعت الناصريّةُ عبرَ هجومها على لبنـان في ١٩٥٨ أنْ تساعـدَ في إنشاءِ النِّظامِ الشّهابي شِبْهِ الاستبدادي. أمّا الضّعفُ والإحتقانُ السوريّان ـ الفلسطينيـان فلم ينجْم عن هجـومِهما على لبنـان في ١٩٧٥ إلا المسـاعـدة في إطـلاقِ العنف والفـوضى، وإنكاصِ الجماعات الطائفية كتلاً عشائريّـةً دمويّـةً تبحثُ عن «دولةٍ» هي كنـايةٌ عن قـوةٍ محضةٍ تنوبُ مَنابَ سائرِ وظائفِ الـدولةِ، كمـا تنوبُ، استطـراداً، عن المجتمع وتعقيـداتِ دورتِهِ.

قُصارى القول أنّ مناخَ انحطاط الكتـائب من حزبٍ مشـروعٍ على شتى الاحتمالات، إلى فِرَقٍ عسكرية مُتنابذَةٍ، هو نفسه مناخ انحطاط العروبـة من الناصـرية المصـرية إلى البعثية السورية والفلسطينية المُسَلَّحة ذاتِ الأنياب.

بشير الجميل أو بدء الانقلاب

إذا صَحَّ أنّ بشير الجميل وظاهرتَهُ كانا الترجمةَ المُشَخْصَنَـة لانتقال العـروبة إلى متن حـزب الكتائب، فهـذا ما لم ينفصـلْ عن تحوّلاتٍ ديمـوغرافيـة تعرَّضَتْ لهـا بيـروتُ الشرقية في الخمسينات والستينات، وبصورة متسارعةٍ وقسرية منذ ١٩٧٥.

فقد آلَتْ عملياتُ التهجير التي حصلَتْ مبكراً في قرى القاع وبيت ملات وتل عبـاس وغيرها، إلى استكمال انقلابٍ كان يَتّجِهُ إلى نقل الأطراف المسيحية إلى قلب المركز.

وفي مقابل الهجرة والتهجير اللـذين أصابـا مُسلمي المناطق الشـرقية مِمَّنْ أمُّـوها قَصْدَ العملِ والإقامةِ، حَلَّتْ أعدادٌ مسيحيةٌ ضخمةٌ فيها، فباتَتْ الكثافةُ السكانيـةُ للمناطقِ المذكورةِ في أوائل الثمانينات ١٢٤٤ شخصاً للكيلـومتر المـربع الـواحد، بينمـا لم يَتَعَدَّ متوسط الكثافة في سائر البقاع اللبنانية ٢٨٥ شخصاً(١١٣).

هؤلاء النازحون حملوا معهم إحباطَهُمْ وخـوفَهُمْ ورغبتَهُمْ في رَدِّ الخوفِ بـأيِّ شَكْلٍ عُنْفي مُمْكن، خصوصاً أنّ الكثيرين منهم جاؤوا وهم يَضُجون باستعـداداتٍ ثأريـةٍ وَفَّرَتْ الحربُ لها فرصةَ التحـوُّلِ إلى إمكانـات. زِدْ على ذلك أنّ صعـوباتِ الانخـراطِ في البيئة الجديدة، في ظلِّ مجتمعٍ تراتُبي ذي سلطاتٍ قاعديةٍ مفتتةٍ وثقافةٍ اهليّةٍ غير متسامحةٍ مع الغـريبِ والمختلف، جعلَتْ التكيُّفَ يَتُمُّ بالصفـة النضاليـة المزعـومةِ للمُتَكَيِّفِ، لا بحسب تعارفٍ طبيعيٍّ بين الجماعات بصفتها وأسمائها الفعلية.

بَيْدَ أنَّ المُهَجَّرين حملوا ايضاً، كما في كلِّ توزيعٍ قَسْـري للسكان، تَفَتُّتَ الـروابطِ المحلية العائليـة والمناطقيـة، التي صدروا عنهـا، بما دفَعَهُم إلى الانتسـاب، وصولاً إلى

(١١٣) Lewis W. Snider, *The lebanese forces...*, *op. cit.*, p. 142.

التماثُل، مع «الجماعة» المُتَشَكِّلَة حديثاً في المدينة على إيقاعِ الحرب وثاراتِها. وغنيٌّ عن القول إنَّ الرابطَ الجَمْعِيّ، «الجماهيري» أو العشائري ـ الدموي، هو المُسْتَعِدُّ دائماً لِتَلَقُّفِ مثل هؤلاء المتلهِّفين إلى إنتماءٍ ما(١١٤).

وقـد توصَّـلَ أحدُ الـذين درسـوا العـراقَ البعثي (سميـر الخليـل) إلى أنّ التَّفَتُّتَ والاقتلاعَ وما يصحبُهُما من خوفٍ، قابلةٌ لأن ترمي الجماعـةَ المفتتة والمقتلعـةَ في وحشةِ «الحالةِ الطبيعيّةِ» بمعناها الهوبسي (نسبة إلى Hobbes)، فتكون، على هذا النحو، شرطاً للتوتاليتارية وركيزةً لها في آن(١١٥)، أيْ أنَّ الحزبَ السياسي المرتبطَ تعريفاً بوجـودِ دولةٍ ومجتمـعٍ مُسْتَقـرٍّ وتقسيمِ عمـلٍ مـا، يعجَـزُ عن استقطـاب هؤلاء البـاحثين عن حلـولٍ راديكالية كبرى يتصدَّرُها «الخلاص» و«العودةُ»(١١٦). أمّا الحـزبُ الذي يُمكنُ لـه أنْ ينمو في هذا الوسط فهو الذي «لا يخاطبُ الجماعاتِ المهنيّةَ بصفتهـا تلك (العمـال، الفلاحين، الملاكين) بل يخاطبُ أساسـاً الأفرادَ المُتَـذَرِّرين والذين تَقَطَّـعَ مسارُهم، أو أولئـك الذين شعروا أنّهم مُهَدَّدُون بـالاقتلاعِ من جـرّاء النموّ السكـاني والتمدُّنِ والتحـديثِ وتَعَرُّضِ طريقةِ الحياةِ التقليديّةِ لهجومِ التحوّلاتِ الديموغرافيةِ ذات النطاق الواسـع. ففي أوضاعٍ كهذه يَحولُ الإحباطُ دون التركيز على أهدافٍ معيَّنة ومحدودة»(١١٧).

وبـرغم أنّ التحولات اللبنـانية، على الأقـل منذ ١٩٧٥، لم تَتَّسِمْ بـأيٍّ من أعمـالِ التَّمدُّنِ والتَّحديثِ التي يصفُها الباحث، يبقى أنّ وَصْفَهُ ينطبقُ جزئياً على موجاتِ الهجرةِ إلى بيروت قبل اندلاعِ الحرب، كما أنّ نتائجَ المواجهةِ بالبيئةِ الغريبـةِ بعدَ الحـرب تبقى مشابهةً لِما وَصَفَهُ الكاتبُ العراقيُّ لِجهةِ السَّعْيِ وراء العموميّات النضالية.

إلى ذلك يَلحظُ أحمد بيضون أثراً للتَّهجيرِ في داخلِ الجماعةِ المُهجَّرَة نفسِها، وهـو الأثَـرُ الذي لا يلبَثُ أن يُعَـزِّزَ عناصِـرَ التَّفـاوُتِ في قلب التَّـوحيـدِ القَسْـري على الغِـرار العشائري، إذ «يَنْضافُ حسدُ المُهَجَّر للمُسْتقِرِّين من حوله ـ أي من جماعته ـ فيخرجُ من بين المهجَّرين أشرسُ المقـاتلين، يتنازعُهُمْ ـ على تَسـاوٍ في الشراسـة ـ هَمُّ الدفـاع عن مُحيطِهِمْ الجـديد وهمُّ إضعـافِهِ. فَتَتِمُّ لأنـاسٍ لم يكُنْ لغايـاتِ الحرب السيـاسيّـةِ أهميـةٌ استثنائيّةٌ عندهم، المشاركةُ في وجهَيْ الحربِ الرئيسَيْن: وجهِ الصّراعِ ما بين الجماعاتِ المختلفةِ وَوَجْهِ الصّراعِ في الجماعةِ الواحدةِ وعليْها»(١١٨).

(١١٤) حول الصلة التي تعقدها حنّه ارندت بين تصدّع الروابط واليأس والتوتاليتارية، راجع: وضّاح شرارة، **تعبير الصور**، المركز الثقافي العربي، ١٩٩٠، ص ٥٥٤ ـ ٥٧١.

(١١٥) انظر Samir al-Khalil, *Republic of fear*..., *op. cit.*, p. 126-130.

(١١٦) مثّلت «العودة» في التجربة السياسية العربية موقفاً ثابتـاً وعصبياً، أكـانت عودةً في التـاريخ («البعث»)، أم في المكان («إلى فلسطين»، «إلى الاسكندرون»، مؤخراً إلى المناطق التي هُجِّر منها اللبنانيون).

(١١٧) Samir al-Khalil, *Republic of fear*..., *op. cit.*, p. 203.

(١١٨) أحمد بيضون، **ما علمتم وذقتم**، سبق الاستشهاد، ص ٢٣٢.

ينعكسُ مثلُ هذا الوضعِ الناشيء، بصورةٍ خاصةٍ، على الابناء الذين لم يُعَوِّضْهم عن اقتلاعِهم ايُّ زمنٍ مُسْتقرٌّ مديدٍ عَرَفَهُ اهلُهم، وايَّةُ علاقاتِ اختلاطٍ عاشوها. ولأنَّ اعْمَارَ المراهقة، وهي أعمارُ اضطراب وانتقالٍ ايضاً، اوْعيةٌ نموذجيةٌ لافكار إطلاقيَّةٍ وغير مُتَبَلْوِرَة، اتخذَ «العبورُ» إلى التنظيماتِ الراديكاليةِ المسلَّحةِ شكلَ تَنْحيةٍ جيلِ الآباءِ واستبعادِهِ. فالآباءُ مِمَّن لم تَبْلُغْهُمْ «الدعوةُ» الجديدةُ هُمْ في عُرْفِ ابنائِهم «أُمِّيونَ، ابتدائيون، غيرُ مبالين، عازفون عن الحياة والمجتمع وعمَّا يجري فيهما من احداثٍ جسام»، وهم إلى ذلك «تقليديون ومحافظون مقيمون على زمنٍ فائتٍ ذاوي الأفق، وقِلَّةٌ قليلةٌ مَنْ يُطيقُ مِنْهُم التجدُّدَ. وسبيلُ التَّجَدُّدِ هذا التَّتَلْمُذُ على أيدي ابنائِهم واتِّخاذِهِم مثلاً وقدوةً»[١١٩].

بدوْرِهِ لم يكنْ هذا الحدثُ مفصولاً عن مكانٍ بعَيْنِهِ. فقد نزل النازحون، واغلبُهم صادرٌ عن الوسَطِ الأدنى من الهرم الاجتماعي، او انَّ تَبْديدَ الهجرة انْزَلَهم إلى هذا الوسط، في دوائر سكن فقيرة من «مناطقَ مدينية خصوصاً الأحياء العمالية في بيروت»، حيث أحْرَزَتْ «القواتُ اللبنانية» اللاحقة، ومنذ نشأتِها، وجوداً ملحوظاً[١٢٠].

وفي مقابل هذه الكتلة الوافدة، أطلقَتْ حربُ السنتين حركةَ هجرةٍ إلى الخارج شَكَّلَتْ بدايةً للنَّزْفِ المتواصل الذي تعرَّضَتْ له كفاءاتُ اللبنانيين وأدمغتهم. فخلال ١٩٧٥ ـ ١٩٧٦ غادَرَ لبنان نحو ٦٠٠ الف شخص لم يَعُدْ منهم من عاد إلا بعد هدوء الاوضاع الذي ما لبث ان ثَبَتَ انَّهُ هدوءٌ موقت[١٢١].

مصدر الزعامة القوية ومآلها

كان قد سبقَ الحربَ بسنواتٍ عدة استمرارُ النزوحِ الرِّيفي من مناطقِ الأطرافِ إلى ضواحي بيروت، تبعاً لنموِّ الراسماليةِ اللبنانية، وتَوَسُّعِها في المركز البيروتي ـ الجبلي، فكان لهذه الوُجهة انْ عَوَّضَتْ وفاقَتْ بكثير وجهةَ «وفودِ العمّال الزراعيين السوريين (الموسمي أو المناوب) إلى لبنان الطَّرَفِي»[١٢٢]، حتى بَلَغَ، في أواسِط السبعينات، مستوى النموّ في لبنان ٥٥٪[١٢٣].

(١١٩) وضّاح شرارة، **المدينة الموقوفة ـ بيروت بين القرابة والاقامة**، سبق الاستشهاد، ص ١٥٩. يدرس الكتاب، كما يدل عنوانه الفرعي، مدينة بيروت من خلال ثنائية هذين القطبين: القرابة والاقامة.
عن ظاهرة النزاع بين الأهل والأبناء في حركة نضالية لبنانية اخرى، ولو اقل شأناً بكثير، هي «حركة التوحيد الإسلامي» في طرابلس، انظر: Michael Humphrey, *Islam, sect and state: The lebanese case,* Centre for lebanese studies, Oxford, 1989, p. 29 & 29 n.

(١٢٠) انظر Lewis W. Snider, *The lebanese forces..., op. cit.*, p. 137.

(١٢١) من مقابلة مع بطرس لبكي، في: **الحياة** ١٩٨٩/٩/٨.

(١٢٢) سليم نصر وكلود دوبار، **الطبقات الاجتماعية في لبنان**، سبق الاستشهاد، ص ٢٦٣ ـ ٢٦٤.

(١٢٣) عن سعد الدين إبراهيم، «مدن العالم العربي»، في **دراسات عربية**، سبق الاستشهاد.

ذلك أنْ نسبةَ سُكّان المدنِ ارتفعَتْ إلى مجموعِ عددِ السكان من ٣٩,٦٪ في ١٩٦٠ إلى ٥٩,٤٪ في ١٩٧٠ (وإلى ٧٤,٨٪ في ١٩٨٠ و٨٠,١٪ في ١٩٨٥ و٨٣,٤٪ في ١٩٩٠)[١٢٤]. وفي قراءةٍ لتوزيع السكانِ المُقيمين في بيروتَ والضواحي في العامِ ١٩٧٠، تَبَيَّنَ أنَّ «نسبةَ الذين وُلِدوا خارجَ مدينةِ بيروت وضواحيها تبلغُ حوالى ثلثِ السكانِ المقيمين في مدينةِ بيروت، ونحو ٩٠٪ من مجملِ السكانِ المقيمين في الضواحي». وبين الملامحِ الحديدةِ التي نجمتْ عن هذا التحوُّلِ «زيادةُ نسبةِ القوى البشرية ممن هم بين ١٥ و٤٩ سنةً من العمر، ومعظمُ هؤلاء من الريفيين الوافدين للبحثِ عن عمل»، فضلاً عن ارتفاعِ مستوى الإنجابِ ونسبةِ الأميةِ بين المقيمين في الضواحي[١٢٥].

وسطَ هذا الخضم، كان من الطبيعي أن تغرقَ البورجوازية الصغرى الجديدة في بيروت، والتي نَمَتْ في موازاةِ نُمُوِّ المدينة بقطاعاتِها وخدماتِها وثقافاتِها، في بحرٍ واسعٍ من مُرَكَّبِ البطالةِ والمِهَنِ القديمةِ أو المياوَمةِ ذاتِ الطابعِ العابرِ. وفي وجهِ الإجمالِ ارتفعَ عددُ ساكني بيروت ما بين ١٩٦٠ و١٩٧٥ من ٤٥٠ الفاً إلى ١,٤ مليون نسمة، وفيما قُدِّرَ أنَّ ثلاثةَ أرباعِ سكانِ العاصمة باتوا، عند اندلاعِ الحربِ الأهلية، «غرباء عنها»، قُدِّرَ عددُ الموارنةِ المقيمين في بيروتَ في السنةِ نفسِها بـ ٣٥٠ الف نسمة[١٢٦]. إلا أنَّ هؤلاء «الغرباء»، الذين ظلَّ النظامُ الانتخابيُّ يردُّهم إلى مساقطِ رؤوسهم، لم يجدوا في الروابط المهنية والنقابية الحديثة التي تجمع بعضَهم بالآخَر، ما يحلُّ محلَّ انقساماتٍ يُزكّيها تكوينُ المجتمعِ اللبنانيِّ وأفكارهُ الأهلية وتجدُّدُ صلةِ الوافدين بأريافِهم عبر طُرُقٍ لا تُحْصى. وما يقالُ في النزوح الماروني يُقالُ في نزوح سائر الطوائف. فإذا صحَّ، مثلاً، أنَّ غالبيةً ساحقةً من العمّال الشيعة عملت في بعض مصانعِ الضواحي المسيحية الشرقيّة، فهذا ما لم يُرَتِّبْ ظاهراتٍ سياسيةً إيديولوجيّةً تتعدى الإستثناءات اليساريةَ التي ما لبثت الحربُ ان أطاحتْها، بإرجاعِها الأفرادَ إلى كُتَلِهم المذهبيةِ و«أحزابِها»[١٢٧].

كانت هذه البيئةُ بيئةَ ضواحٍ، فلم يكن من المصادَفِ أن تندلعَ الحروبُ اللبنانية

(١٢٤) عن علي فاعور، **بيروت (١٩٧٥ ـ ١٩٩٠) ـ التحولات الديموغرافية والاجتماعية والاقتصادية**، المؤسسة الجغرافية، ١٩٩١، ص ٢٢.

(١٢٥) المرجع السابق، ص ٢٤.

(١٢٦) عن غسان سلامة، **المجتمع والدولة...**، سبق الاستشهاد، ص ٢٤٢ ـ ٢٤٤.

(١٢٧) راجع حول تجربة الهجرة الريفية إلى الضواحي وإقامة الريفيين كُتَلاً يُحَدِّدُها مصدرها العائلي والريفي فضلاً عن تَرَسُّخ ولاءاتها السابقة: Fuad Khuri, *From Village to Suburb: order and change in greater Beirut*, University of Chicago press. 1974.

وكذلك: وضّاح شرارة، **حروب الاستتباع او لبنان الحرب الاهلية الدائمة**، سبق الاستشهاد، بدوره يرى أحمد بيضون أنّ «هامش اللقاء الطبقي المتعدد الطوائف» يبقى عادة في الحال اللبنانية «في ما دون السياسة». **ما علمتم وذقتم...**، سبق الاستشهاد، ص ١٣٧.

المتناسلةُ انطلاقاً من الضواحي: من عين الرمانة والشياح، إلى أسواق طرابلس القديمة حيث نزل المهاجرون من عكار والضنية، وصولاً إلى حارة صيدا التي امَّها المهاجرون والمهجَّرون الشيعة الجنوبيون. ومع ثِقْلِ الضواحي على المدن وانبثاثِها فيها، لاحظ البرت حوراني أنّ كتائب ١٩٧٥ «استقت دعمَها الأساسيَّ من موارنةِ حديثي السكنِ في المدن، أو أولئك الذين يعيشون داخلَ حَيِّزِ التأثيرِ الاجتماعي المُتَّسِعِ للمدن من دون أن يتصالحوا معه تماماً، ومن دون أن يرتاحوا إلى تسويات النظامِ السياسي القائم»(١٢٨). ذلك أنَّ بيئة الضواحي هي تلك التي تهتزُّ فيها القيمُ الريفيةُ من دون أن تنشأَ وتتصلَّب قيمٌ مدينيةٌ مستقرة، بما يَلِدُ عصباً متوتّراً يبحث عن زعامةٍ قويّةٍ تنتقل به إلى الهجومِ و«الثأر». وليس من غير دلالة أن الرجلَ الذي شرع منذ معركة تل الزعتر في ١٩٧٦، حين صُرع المسؤول العسكري الكتائبي وليم حاوي، يلعبُ دورَ الزعيم البطلِ لهذه البيئة، هو الذي مثَّلَ التيارَ الأشَدَّ تصلُّباً في حزبه، استناداً إلى موقعِه الجديد في «القوات اللبنانية» التي تمَّ توحيدُها في ٣٠ آب ١٩٧٦(١٢٩).

فقد كان لتحالُفِ بشير الجميل مع جمهورِ الحربِ الوافدِ إلى الكتائب ان انتجَ هجوميةً مركّبةً في علاقتِها بالمجتمع والسياسة، فضلاً عن «العدد»، إنتَاجَهُ سعياً واضحاً إلى السلطة لم يكُنْ معهوداً في عزوف والده الشيخ بيار الجميل الذي تراوحَ بين إحالةِ السياسة إلى الدولة كنظريةٍ ثابتة، وبين السلوكِ الفالانجي في ١٩٣٦ ـ ١٩٤٣ و١٩٥٨ كأعلى درجاتِ الإخلال بتلك النظرية.

ولتقديرِ حجْمِ الفارقِ بين كتائبِ ما قبلَ بشير وجيلِه، لا بأس بالعودةِ إلى شهادةِ جوزيف أبو خليل الذي عايش، عن قربٍ، تجربةَ الطرفيْن وعَبَّر عنها بلغة لا تنقُصُها المرارةُ والدهشة:

«غريبٌ كيف تغيَّرَ هؤلاء الشبانُ وقد عرفْتُهم واحداً واحداً واحببْتُهم مقاتلين لا يسألون عن أيِّ مقابلٍ. بل غريبٌ ما صنعتْ فيهم الشهوةُ إلى السلطةِ وكم بدَّلتْ من فضائلهم! فطوالَ حياتي الحزبيةِ والسياسيةِ لم اعرفْ صراعاً على السلطةِ مثلَ الصراعِ الذي بدأ مع السلطةِ التي انشأها بشير الجميل في المناطقِ الشرقيةِ ولم ينتهِ بعد. وفي كلِّ حياتي الحزبيةِ والسياسيةِ لم اشهدْ احقاداً مثلَ الاحقادِ التي تُفرِّقُ بين ابطالِ هذا

(١٢٨) Albert Hourani, *The emergence...*, *op. cit.*, p. 177-178.

(١٢٩) بحسب رواية امين الجميل، يعود تأسيس «القوات اللبنانية» إليه وإلى داني شمعون على انْ تكون «قوات دفاع عن بيوتنا وارزاقنا وارواح اهلنا لا تنظيماً عسكرياً غرضه الوصول إلى السلطة». امين الجميل، «حوار وذكريات»، الحلقة ١٢، في: **الحياة** ١٢/١٥/ ١٩٩٠. وإذا صحّت هذه الرواية كان امين الجميل ـ من خلال عمله هذا ـ يحاول استعادة المرحلةِ الفالانجية والإقتصار عليها، حيث يطغى الدفاع والمهام المتواضعة على الهجوم.

الصراع وتُدوِّخُهم. وفي كلِّ حياتي الحزبيةِ والسياسيةِ لم أرَ جـرأةً في طلبِ السلطةِ مثـل جراتِهم. كنا في الماضي إذ هزَّ أحَدَنا طموحٌ إلى منصبٍ أو مركز نفوذٍ، استحى بطموحِه واحمرَّ وجهُه خجلاً. فعلى هذا الزهْدِ تربَّيْنا في الكتائب وعلى هذا الحياء. واذكُرُ أنَّ أحَـدَ المستقيلين من الكتائب قال مرّةً: «الكتائبُ مقبرةٌ للطمُوح»»(١٣٠).

بدورِهِ جاء الانتقالُ إلى الهُجوميةِ الصارخةِ انطلاقاً من الضواحي الفقيرة كالـرمَيْل والمدوّر، ما بين المرفأ والأشرفية(١٣١)، مروراً بمُواجهـاتٍ عسكريـةٍ وأعمالِ عُنفٍ وذبـحٍ على الهُويّةِ بلغت ذرْوتَها في «السبت الأسود» الشهير، ليَرُدَّ الخوفَ عن المسيحيين للمرّةِ الأولى، ويَنْقُلَهُ، فعليّاً ورمزيّاً، إلى جبهـة «الخصم». بهذا المعنى ارتبطَتْ ولادةُ كـاريزمـا بشير الجميل التي تعاظمَتْ لاحقاً، بكونِها تتعدّى مطالبـةَ المسلمِ بمنحِ الطمـأنينةِ، كمـا كان يفعلُ والدُهُ، كما تَتَعدّى الدعوة لانتزاعِ الطمـأنينةِ أو حتى انتـزاعِها فـالانجيّاً، وهي حدودُ النظاميّةِ شِبْهِ العسكريّةِ للكتـائب حتى ١٩٧٥. فالمطـروحُ هنا، في المقـابلِ، ليسَ أقلَّ من نَقْلِ مَوْضـعِ الخوفِ وتغييرِ مـوضوعِـه، والانطلاقِ، من ثَمَّ، نحـو مِنَصَّةِ السلطـةِ السياسيةِ(١٣٢) في بلدٍ لنْ تكونَ قُوَّتُه «في ضعفِهِ» بعدَ اليوم.

ولَئِنْ اقدَمَ بشير على تقديمِ تنازلاتٍ للسلطة إبَّانَ ضُعْفِهِ النِّسبي، كإقدامِهِ على حَلِّ «اللجان الشعبية» في ١٩٧٧(١٣٣)، فذلك لم يكُنْ غيرَ إملاءٍ فَرَضَهُ تجميعُـهُ لعناصـر القوة وأوراقِها. ففي السنة التاليةِ بداتْ الكتائبُ نفسُها تُوصَفُ بـ «تجـاذبِ تيارَيْن» أحـدَهما لا يخـرجُ عن النِّطاقِ الكتـائبي التقليدي الـذي يُـرْمَـزُ إليـه بـأمين بيـار الجميـل، والثـاني «البشيري» المتحالف آنذاك مع الرئيس كميل شمعون، والقائـل بمبدأ «الحكـومة القـوية» مـع تشدُّدٍ في معـارضة الـرئيس اليـاس سـركيس «ومن ورائِـهِ» السـوريين(١٣٤)، وكـان التحالفُ مع شمعـون دلالةً مبكـرةً إلى تغليبِ العملِ «الشعبي» للطـائفة وسيـاسَتِها وهـو بالضرورة عملٌ متطرّفٌ، على العمل الحزبي المتمايز بطبيعته.

ففي النِّطـاقِ الماروني، وبعـد استراتيجيـةِ قَضْمٍ تَـدريجيٍّ للمـواقـعِ العسكـريّـةِ

(١٣٠) جوزيف ابو خليل، «حرب لبنان،...»، الحلقة ٥٠، في: **الحياة** ١٩٨٩/٩/٥.

(١٣١) انظـر: بيرسي كـامب (تـرجمـة كـاتيـا سـرور)، **استـراتيجيـة بشيـر الجميـل**، الحلقـة ١، في: **السفيـر** ١٩٨٣/٣/١٥.

(١٣٢) يحمـل هذا الانتقـال على التذكيـر بالصـورة التي رسمها وليم رايـخ لرمـزية النقلـة التي تُحدِثُهـا الفاشيـة (السادية) قياساً بـالمسيحية (المـازوشية)، بحيث تحـلُّ القبضـةُ العضليـة المتجهة نحـو الخارج والمؤهلـة للضرب واللكم (والتي صارت من العدّة الإعلانيّـة للحركـات النضاليـة) محلَّ الأشـواك المغروزة في جبهـة المسيح وهو على صليبه.

انظر: Wilhelm Reich, *The mass psychology of fascism*, *op. cit.*, p. 118-119.

(١٣٣) Lewis W. Snider, *The lebanese forces...*, *op. cit.*, p. 152.

(١٣٤) انظر، مثلاً لا حصراً، مقابلة جريدة الراي العام الكويتية مع كريم بقرادوني في ١٩٧٨/٥/٢٥.

والسياسيّةِ في المناطقِ المسيحيّةِ بداتْ في ١٩٧٦[١٣٥]، واجَهَ بشير زعامةَ سليمان فرنجية في عقرِ دارِها في ما عُرِفَ بمجزرة ١٣ حزيران ١٩٧٨ في إهدن، حيث قُتِلَ النائبُ توني سليمان فرنجية وزوجَتُهُ وطفلتُهُ وبعضُ انصارِهِ، ردّاً على مقتَلِ جود البايع المسؤولِ في زغرتا.

وبدوْرها كانت معركةُ زغرتا، التي قادَها من جهة الكتائب الشابُّ البشرّاوي سمير جعجع وأحسَّ بنتيجتِها بشعورٍ كبيرٍ بالذّنب لأنَّ موارنةً يسيلون دماءَ موارنةٍ آخرين[١٣٦]، غنيّةً بالدلالاتِ على صعيدِ توجُّهاتِ الحزبِ الجديدة، او التي حُمِلَ عليها.

فمن ناحيةٍ باتَ توحيدُ الطائفة مَهمّةً مُلِحّةً، على انَّ المَهَمَّةَ نفسَها لم تبرأ من عناصر تفاوُتِها الخطيرة. ذلك أنَّ التوحيدَ القسريَّ للجماعةِ يَشي بمقدِّماتِ سلوكٍ عشائريٍّ باتَتْ تجمعُ حزبَ الكتائب، في حلَّتِه الجديدة، بزعامَةِ آل فرنجية، وسائرِ زعاماتِ المناطِقِ في خانةٍ واحدةٍ، حيث «الأعمالُ الثأريّةُ في الشّمالِ أعمالٌ رائجةٌ كما هو معروفٌ» بحسبِ تخوفِ أمين الجميل آنذاك. وفي محاولةٍ منه لتجنّب الصراع على أرضيةٍ واحدةٍ وبذهنيةٍ واحدةٍ حاولَ حزبُ الكتائب، تحت تأثيرِ ما تبقّى من نبضِه الحزبي، أن يضعَ «لانتشاره في الشمال ضوابطَ عديدةً تلافياً لأيِّ تصادمٍ مع الحزبيّاتِ المحليّةِ، أو بالأصحِّ تلافياً لأن يصبحَ هو نفسُه حزبيةً من هذه الحزبيّات»[١٣٧].

غير انّ قسريةَ التوحيد البشيريِّ وما تتوخّاه بالضرورة من هيمنةِ طرفٍ على آخر، راحا يُطلقان تناقضاتٍ قديمةً ومكبوتةً ومنافساتٍ أهليةً لا يبرأُ من مثلِها أيُّ تكوينٍ عشائريٍ، كالمنافسةِ الزغرتاويةِ ـ البشراويةِ في هذه الحال[١٣٨].

من ناحيةٍ أخرى، دلّتْ عمليةُ إهدن العسكريةُ إلى انَّ الكتائبَ في عهدِ بشير طلَّقتْ كُلِّياً سياسةَ الإحالة إلى الدولةِ والاقتصار على إضعاف الزعاماتِ المارونيةِ لمصلحتِها، وشرعت تتحولُ إلى الحزب المسيحي الأوّل، إن لم يكُنِ الأوحد، المتّجِهِ إلى السلطة عبر قضمِ المواقعِ في المجتمع. ولمّا كانت السلطةُ المطروحةُ على الاستيلاء ضعيفةً أو غائبةً، بَدَتْ الوُجهةُ البشيرية، كأنها «تخلق» الدولَة لحظةَ تستولي عليها.

غير أن الصدامَ بفرنجية ما لبثَ أن قادَ إلى الصدامِ بحلفائه السوريين الذين زاد في مخاوفهم حصولُ مذبحة إهدن في مناخِ إنشاء دويلةِ الضابط سعد الحداد في الجنوب بُعَيْدَ الاجتياحِ الإسرائيليِّ الأوّل. وباندلاعِ معاركِ الأشرفية، تخوّفتْ دمشق من

(١٣٥) راجع: بيرسي كامب، **استراتيجية بشير...**، سبق الاستشهاد.

(١٣٦) حول شعور جعجع بالذنب بعد مجزرة اهدن، انظر: حازم صاغية، **موارنة من لبنان**، سبق الاستشهاد، ص ١٦٧ ـ ١٦٨.

(١٣٧) امين الجميل، «حوار وذكريات»، الحلقة ١٢، سبق الاستشهاد.

(١٣٨) عن العداء التقليدي الزغرتاوي ـ البشراوي، راجع: حازم صاغية، **موارنة من لبنان**، سبق الاستشهاد، ص ١٦١ و١٦٧.

الصراع وتُدوِّخُهم. وفي كلِّ حياتي الحزبيةِ والسياسيةِ لم أرَ جراةً في طلبِ السلطةِ مثل جراتِهم. كنا في الماضي إذ هزَّ أحَدَنا طموحٌ إلى منصبٍ أو مركزِ نفوذٍ، استحى بطموحِه واحمرَّ وجهُه خجلاً. فعلى هذا الزهْدِ تربَّيْنا في الكتائب وعلى هذا الحياء. وأذكُرُ أنَّ أحَدَ المستقيلين من الكتائب قال مرّةً: «الكتائبُ مقبرةٌ للطمُوح»»[١٣٠].

بدورِهِ جاء الانتقالُ إلى الهُجوميةِ الصارخةِ انطلاقاً من الضواحي الفقيرة كالرمَيْل والمدوّر، ما بين المرفأ والأشرفية[١٣١]، مروراً بمُواجهاتٍ عسكريةٍ وأعمالِ عُنفٍ وذبحٍ على الهُويّةِ بلغت ذرْوتَها في «السبت الأسود» الشهير، ليَرُدُّ الخوفَ عن المسيحيين للمرّةِ الأولى، ويَنْقُلُهُ، فعليّاً ورمزيّاً، إلى جبهة «الخصم». بهذا المعنى ارتبطَتْ ولادةُ كاريزما بشير الجميل التي تعاظمَتْ لاحقاً، بكونِها تتعدّى مطالبةَ المسلمِ بمنحِ الطمأنينةِ، كما كان يفعلُ والدُهُ، كما تَتَعدّى الدعوة لانتزاعِ الطمأنينةِ أو حتى انتزاعِها فالانجيّاً، وهي حدودُ النظاميّةِ شِبْهِ العسكريّةِ للكتائب حتى ١٩٧٥. فالمطروحُ هنا، في المقابلِ، ليسَ أقلَّ من نَقْلِ مَوْضعِ الخوفِ وتغييرِ موضوعِهِ، والانطلاقِ، من ثَمَّ، نحو مِنَصَّةِ السلطةِ السياسيةِ[١٣٢] في بلدٍ لنْ تكونَ قُوَّتُه «في ضعفِهِ» بعدَ اليوم.

ولَئِنْ أقدَمَ بشير على تقديمِ تنازلاتٍ للسلطة إبَّانَ ضُعْفِهِ النِّسبي، كإقدامِهِ على حَلِّ «اللجان الشعبية» في ١٩٧٧[١٣٣]، فذلك لم يكُنْ غيرَ إملاءٍ فَرَضَهُ تجميعُهُ لعناصرِ القوة وأوراقِها. ففي السنة التاليةِ بداتْ الكتائبُ نفسُها تُوصَفُ بـ «تجاذبِ تيارَيْن» أحدَهما لا يخرجُ عن النِّطاقِ الكتائبي التقليدي الذي يُرْمَزُ إليه بأمين بيار الجميل، والثاني «البشيري» المتحالف آنذاك مع الرئيس كميل شمعون، والقائل بمبدأ «الحكومة القوية» مع تشدُّدٍ في معارضة الرئيس الياس سركيس «ومن ورائِهِ» السوريين[١٣٤]. وكان التحالفُ مع شمعون دلالةً مبكرةً إلى تغليبِ العملِ «الشعبي» للطائفة وسياسَتِها وهو بالضرورة عملٌ متطرّفٌ، على العمل الحزبي المتمايز بطبيعته.

ففي النِّطاقِ الماروني، وبعد استراتيجيةِ قَضْمٍ تَدريجيٍّ للمواقعِ العسكريّةِ

(١٣٠) جوزيف ابو خليل، «حرب لبنان،...»، الحلقة ٥٠، في: **الحياة** ٥/٩/١٩٨٩.

(١٣١) انظر: بيرسي كامب (ترجمة كاتيا سرور)، **استراتيجية بشير الجميل**، الحلقة ١، في: **السفير** ١٥/٣/١٩٨٣.

(١٣٢) يحمل هذا الانتقال على التذكير بالصورة التي رسمها وليم رايخ لرمزية النقلة التي تُحدِثُها الفاشية (السادية) قياساً بالمسيحية (المازوشية)، بحيث تحلُّ القبضةُ العضليةُ المتجهة نحو الخارج والمؤهلة للضرب واللكم (والتي صارت من العدّة الإعلانيّة للحركات النضالية) محلَّ الأشواك المغروزة في جبهة المسيح وهو على صليبه.

انظر: Wilhelm Reich, *The mass psychology of fascism*, *op. cit.*, p. 118-119.

(١٣٣) Lewis W. Snider, *The lebanese forces...*, *op. cit.*, p. 152.

(١٣٤) انظر، مثلاً لا حصراً، مقابلة جريدة الراي العام الكويتية مع كريم بقرادوني في ٢٥/٥/١٩٧٨.

والسياسيّةِ في المناطقِ المسيحيّةِ بدأتْ في ١٩٧٦[١٣٥]، واجَهَ بشير زعامةَ سليمان فرنجية في عقرِ دارِها في ما عُرِفَ بمجزرة ١٣ حزيران ١٩٧٨ في إهدن، حيث قُتِلَ النائبُ توني سليمان فرنجية وزوجَتُهُ وطفلتُهُ وبعضُ انصارِهِ، ردّاً على مقتَلِ جود البايع المسؤولِ في زغرتا.

وبدوْرِها كانت معركةُ زغرتا، التي قادَها من جهة الكتائب الشابُّ البشرّاوي سمير جعجع وأحسَّ بنتيجتِها بشعور كبيرٍ بالذّنب لأنَّ موارنةً يسيلون دماءَ موارنةٍ آخرين[١٣٦]، غنيّةً بالدلالاتِ على صعيدِ توجُّهاتِ الحزبِ الجديدة، أو التي حُمِلَ عليها.

فمن ناحيةٍ باتَ توحيدُ الطائفة مَهمّةً مُلِحّةً، على أنَّ المَهَمَّةَ نفسَها لم تبرأ من عناصر تفاوُتِها الخطيرة. ذلك أنَّ التوحيدَ القسريَّ للجماعةِ يَشي بمقدِّماتِ سلوكٍ عشائريٍّ باتَتْ تجمعُ حزبَ الكتائب، في حلَّتِه الجديدة، بزعامَةِ آل فرنجية، وسائرِ زعاماتِ المناطِقِ في خانةٍ واحدةٍ، حيث «الأعمالُ الثأريّةُ في الشّمالِ أعمالٌ رائجةٌ كما هو معروفٌ» بحسبِ تخوفِ امين الجميل آنذاك. وفي محاولةٍ منه لتجنّب الصراع على أرضيةٍ واحدةٍ وبذهنيةٍ واحدةٍ حاولَ حزبُ الكتائب، تحت تأثيرِ ما تبقّى من نبضِهِ الحزبي، أن يضعَ «لانتشاره في الشمال ضوابطَ عديدةً تلافياً لأيِّ تصادمٍ مع الحزبيّاتِ المحليّة، أو بالأصحِّ تلافياً لأن يصبحَ هو نفسُه حزبيةً من هذه الحزبيّات»[١٣٧].

غير أنّ قسريةَ التوحيد البشيريِّ وما تتوخّاه بالضرورة من هيمنةِ طرفٍ على آخر، راحا يُطلقان تناقضاتٍ قديمةً ومكبوتةً ومنافساتٍ أهليةً لا يبرأُ من مثلِها أيُّ تكوينٍ عشائريٍ، كالمنافسةِ الزغرتاويةِ ـ البشراويةِ في هذه الحال[١٣٨].

من ناحيةٍ أخرى، دلّتْ عمليةُ إهدن العسكريةُ إلى أنَّ الكتائبَ في عهدِ بشير طلّقتْ كُلّياً سياسةَ الإحالة إلى الدولةِ والاقتصارِ على إضعاف الزعاماتِ المارونيةِ لمصلحتِها، وشرعت تتحولُ إلى الحزب المسيحي الأوّل، إن لم يكُنِ الأوحد، المتّجهِ إلى السلطة عبر قضمِ المواقعِ في المجتمع. ولمّا كانت السلطةُ المطروحةُ على الاستيلاء ضعيفةً أو غائبةً، بَدَتْ الوُجهةُ البشيرية، كأنها «تخلق» الدولَة لحظةَ تستولي عليها.

غير أن الصدامَ بفرنجية ما لبثَ أن قادَ إلى الصدامِ بحلفائه السوريين الذين زاد في مخاوفهم حصولُ مذبحة إهدن في مناخِ إنشاء دويلةِ الضابط سعد الحداد في الجنوب بُعَيْدَ الاجتياحِ الإسرائيليِّ الأوّل. وباندلاعِ معاركِ الأشرفية، تخوّفتْ دمشق من

(١٣٥) راجع: بيرسي كامب، **استراتيجية بشير**...، سبق الاستشهاد.

(١٣٦) حول شعور جعجع بالذنب بعد مجزرة اهدن، انظر: حازم صاغية، **موارنة من لبنان**، سبق الاستشهاد، ص ١٦٧ ـ ١٦٨.

(١٣٧) امين الجميل، «حوار وذكريات»، الحلقة ١٢، سبق الاستشهاد.

(١٣٨) عن العداء التقليدي الزغرتاوي ـ البشراوي، راجع: حازم صاغية، **موارنة من لبنان**، سبق الاستشهاد، ص ١٦١ و١٦٧.

أن تكون هذه المعارك، بعد عمليّتيْ إهدن والجنوب، تمهيداً إسرائيلياً لاعمال اكبر، فاتّجه الرئيسُ حافظ الأسد إلى تعزيز جبهتِه في البقاع الذي هـو منفذٌ على دمشق(١٣٩). اي أنّ «الإستراتيجية» التي اتّبعها أو انساقَ إليها بشير الجميل، وجدت قنـواتِها المفتـوحةَ على معابرِ الطرقِ الإقليميةِ والدوليةِ بما لم يتيسَّر للكتائب من قبل.

لكنَّ القائدَ الكتائبيَّ الشابَّ الـذي اكسبتْه «حـربُ المئة يـوم» ونجاحُـه في إخراجِ الســوريين من عمق المناطقِ الشـرقيةِ، درجـةً بعيدةً من القـوةِ والهالـةِ، لم يعبـأ كثيـراً بـالإعتبارات الـدولية التي تعمـل لغيرِ مصلحتِـه، إذ عوَّضـه عنها التحـالُفُ الصريـحُ مع إسرائيل. ففي ايلول ١٩٧٨ لم يتردَّد أحَـدُ كبار مـوظفي الإدارة الأميركيـة في القولِ إن الأميركان ميّالون إلى تحميلِ مسؤوليةِ القتـال إلى «قوى اليمين المسيحي»(١٤٠). وبينمـا راح السفيرُ الاميركي في بيروت، ريتشارد باركر، يُحَمِّـلُ «الموازنـة» مسؤوليةَ مـا يجري، كـان مبعثُ قلقِ وزير الخـارجية الأميـركي سايـروس فانس «أن يفكِّـرَ الأسدُ بـأنَّ العنفَ الموجّه نحو القواتِ السوريةِ في لبنان عقابٌ موحى به أميركياً ردّاً على رفضِه تأييدَ كمب ديفيد»(١٤١).

خاض بشير، إذن، صداماً راسيـاً ضد الإعتبـاراتِ الاقليميةِ والـدوليةِ التي تعمـلُ ضدَّه، بما يُجافي المقوِّماتِ المعهودةَ للُبنانية التقليدية، وللكتائبية ايضـاً، الشيءُ الذي لم يكُنْ من الممكنِ تخيُّلُه من دون التحالفِ مـع إسرائيـل(١٤٢)، التي زاد في تعزيـزِ وضعِها خروجُ مصرَ من ساحةِ الصــراعِ في المشرق. ومضى بشيـر في طريقِ تحـدّيه هـذا بأن وصل إلى البقاع عن طريق انتقالِ مقـاتلين كتائبيين في كـانون الأول ١٩٨٠ إلى مـدينة زحلة، ليباشرَ في مطالعِ العام التالي شقَّ طريقٍ تربطُ المدينةَ البقاعيةَ بالجبل. وكما بـاتَ معروفاً جيداً، قصفَ السوريون، الذين لم يرُقْ لهم هذا الوجودُ المعادي في البقاع، مدينةَ زحلـة بقسوةٍ وضــراوةٍ، حتى إذا أسقطَ الإسرائيليـون مـروحيَّتَيْن ســوريَّتَيْن في أواخـرِ نيسـان، نقلَ الأسدُ صواريخَ «سام» إلى البقـاع بما أنتـجَ «ازمة الصـواريخ» ذاتَ البعـدِ الدولي.

وهكذا بدأتْ مهمّةُ المندوبِ الأميركي فيليب حبيب التي تحوَّلَ معها بشير إلى لاعب سياسي لا يُمكِنُ إهمالُه في حساباتِ القوى المَعْنِيّة، بحيث اعْتَبَرَ الفرد ماضي، الذي مثَّلَ القوات في الولايات المتحدة الأميركية آنذاك، أنّ أحداثَ زحلة «ترتَّبَتْ عليها نتائـجُ بالغـةُ

(١٣٩) Patrick Seale, Asad. *The struggle for the Middle East*, I. B. Tauris, 1988, p. 312.

(١٤٠) William W. Quandt, *Camp David. Peace Keeping and politics*, The Bookings Institution. 1989, p. 217. كذلك راجع عن حرب «المئة يوم» جوزيف ابو خليل، «حرب لبنان...»، سبق الاستشهاد، الحلقة ٩، في: **الحياة** ١٩/٧/١٩٨٩.

(١٤١) William W. Quandt, *Camp David...*, *op. cit.*, p. 267 & 268.

(١٤٢) حول تطور فكرة التعاون مع إسرائيل تحت وطأة الخوف، راجع الفصل الرابع.

الخطورة بينَها تدخُّلُ إسرائيل في لبنان إيذاناً بإعادةِ النّظرِ في الخطوطِ الحُمْرِ السوريّة - الإسرائيلية»، و«بدايةُ تحوُّلٍ، بل بدايةُ سياسةٍ اميركيةٍ في لبنان اخذتْ واشنطن تُعِدُّ لها خطوةً خطوةً. هذه السياسة انتهَتْ إلى دعمٍ مطلقٍ وكاملٍ لبشير الجميل في انتخاباتِ رئاسةِ الجمهورية»(١٤٣). لكنّها انتهَتْ ايضاً إلى تحوّل بشير الذي واجه السوريين، في الأشرفية والشمال والبقاع معاً، بطلاً مسيحيّاً للتحرُّر لا من الفلسطينيين فحسب بل من السوريين ايضاً، ايْ من «العشيرة» المُسلمةِ المقابلة، في شتّى صِيَغِها وتَفرُّعاتِها، منظوراً إليها من عينِ «العشيرةِ» المسيحيّةِ.

في ٧ تموز من العامِ نفسِه نَفّذ بشير ما عُرِفَ بمجزرة الصفرا، مُتَخَلِّصاً من الأداة العسكرية لـ «حزب الوطنيين الأحرار» الشمعونية، العمليةُ التي كَلّفَتْ بحسب الشمعونيين ١٥٠ قتيلاً(١٤٤). والابتعادَ القَسْريَّ لداني شمعون عن العمل السياسي والحزبي. إلا انّ العمليـة إيّاهـا، وإنْ خلّفَتْ الكثيـرَ من الأحقـادِ المـارونيـة - المـارونيـة، ادّتْ إلى ضَبْطِ السياسة والأمنِ معاً: فسياسيّاً تبلْوَرَتْ الزعامةُ الواحدةُ والزعيمُ الواحدُ اللذان ينهجانِ خطّاً متطرفاً كان في ما مضى خطُّ الرئيس كميل شمعون من حيث التوجّهات العامة لا من حيث الوسائل والأدوات. وفي ظل الصعودِ البَشيري، الأكْفَأ والأحدَثِ، لم يُعُدْ مطلوباً من شمعون غيرُ الإبقاءِ على غطائِهِ التاريخي، فيما اضْحَتْ ذراعُهُ العسكريّةُ زائدةً لا لزومَ لها او إضافة شبابية على حالة كهلة.

اما امنيّاً وخدماتيّاً فتمّ تأسيسُ النموذجِ الأرقى بين النماذجِ التي وفّرَتْها دويـلاتُ الحربِ اللبنانيةِ بشهادةِ الأرقام التي وَزَّعتْها «قوى الأمن الداخلي» الرسمية عن الأعمال الجريمية والمُخِلَّةِ بالقانون مـا بين ١ كانـون الثاني و٣١ كـانون الأول ١٩٨١. ففيمـا بلغ عددُ الجرائم في المنـاطقِ التي تُسيطرُ عليهـا قوى اخـرى ٤١٦ جريمـة بَلَغَ عـددُها في مناطق «القوات» ١٥ جريمة وفيما بلغَتْ السرقـات بملايين الليـرات اللبنانيـة في المناطق الأولى ٣٥٥٠٣ سرقات، بلغَتْ في المناطق الثانية ١٢٠٢ سرقة، والمعادلـةُ نفسُها تَصـحُّ في محـاولاتِ الاغتيال وأعمـالِ التّشليحِ والخطف والسطـو واشتباكـاتِ الشـوارع. ففي ١٩٨١، ايْ بعد التخلّصِ من حزب شمعون، شهدَت مناطق «القوات اللبنـانية» اشتبـاكَيْن مسلّحيْن ذهب بنتيجتهمـا ٤٧ قتيلاً و٥٤ جـريحـاً، لكنّ المنـاطق الأخـرى شهـدَتْ ٢٠٦ اشتباكات اوْدَتْ بـ ٧٢٢ شخصاً وجرحَتْ ٩٧٨(١٤٥).

(١٤٣) الفرد ماضي، «فلسفة الطنجرة، في لبنان»، في: الحياة ١٧/٩/١٩٨٩.

(١٤٤) Lewis W. Snider, *The lebanese forces...*, *op. cit.*, p. 132.

(١٤٥) 'الارقام منشورة في *Ibid.*, p. 143. بما خلّف إقراراً عاماً بتفوق النموذج القواتي واجهه خصومه بالكلام عن «القمع» و«الضبط الفاشي» للمجتمع، فيما كان اهل المناطق الغربية وعائلاتها يقصدون جونيه وبرمانا للنزهة او السهرة او المطعم او السينما.

ان تكون هذه المعاركُ، بعد عمليّتيْ إهدن والجنوب، تمهيداً إسرائيلياً لأعمال اكبر، فاتّجه الرئيسُ حافظ الأسد إلى تعزيزِ جبهتِه في البقاع الذي هـو منفذٌ على دمشق[١٣٩]. اي انَّ «الإستراتيجية» التي اتّبعها او انساقَ إليها بشير الجميل، وجدت قنـواتِها المفتـوحةَ على معابرِ الطرقِ الإقليميةِ والدوليةِ بما لم يتيسَّر للكتائبِ من قبل.

لكنَّ القائدَ الكتائبيَّ الشابَّ الـذي اكسبتْه «حـربُ المئة يـوم» ونجاحُـه في إخراج السـوريين من عمق المناطقِ الشـرقيةِ، درجـةً بعيدةً من القـوةِ والهالـةِ، لم يعبـأ كثيـراً بـالإعتبارات الـدولية التي تعمـل لغيرِ مصلحتِـه، إذ عوَّضـه عنها التحـالُفُ الصريـحُ مع إسرائيل. ففي ايلول ١٩٧٨ لم يتردَّد احَـدُ كبار مـوظفي الإدارة الأميركيـة في القولِ إن الأميركان ميّالون إلى تحميلِ مسؤوليةِ القتـال إلى «قوى اليمين المسيحي»[١٤٠]. وبينمـا راح السفيرُ الأميركي في بيروت، ريتشارد باركر، يُحَمِّـلُ «الموارنـة» مسؤوليةَ مـا يجري، كـان مبعثُ قلقِ وزير الخـارجية الأميـركي سايـروس فانس «أن يفكِّـرَ الأسدُ بـأنَّ العنفَ الموجَه نحو القواتِ السوريةِ في لبنان عقابٌ موحى به اميركياً ردّاً على رفضِه تأييـدَ كمب ديفيد»[١٤١].

خاض بشير، إذن، صداماً راسيـاً ضد الإعتبـاراتِ الاقليميةِ والـدوليةِ التي تعمـلُ ضدَّه، بما يُجافي المقوِّماتِ المعهودةَ للُبنَانية التقليدية، وللكتائبية ايضـاً، الشيءُ الذي لم يكُنْ من الممكنِ تخيُّلُه من دون التحالفِ مـع إسرائيـل[١٤٢]، التي زاد في تعزيـزِ وضعِها خروجُ مصرَ من ساحةِ الصـراعِ في المشرق. ومضى بشيـر في طريقِ تحـدّيه هـذا بأن وصل إلى البقاع عن طريق انتقالِ مقـاتلين كتائبيين في كـانون الأول ١٩٨٠ إلى مـدينة زحلة، ليباشرَ في مطالعِ العام التالي شقَّ طريقٍ تربطُ المدينةَ البقاعيةَ بالجبل. وكما بـاتَ معروفاً جيداً، قصفَ السوريون، الذين لم يرُقْ لهم هذا الوجودُ المعادي في البقاع، مدينةَ زحلـة بقسوةٍ وضـراوةٍ، حتى إذا أسقطَ الإسرائيليـون مـروحيَّتَيْن سـوريَّتَيْن في أواخـرِ نيسان، نقلَ الأسدُ صواريخَ «سام» إلى البقـاع بما أنتـجَ «أزمة الصـواريخ» ذاتَ البعـدِ الدولي.

وهكذا بداتْ مهمّةُ المندوب الأميركي فيليب حبيب التي تحوَّلَ معها بشير إلى لاعب سياسي لا يُمكِنُ إهمالُه في حساباتِ القوى المَعْنِيّة، بحيث اعْتَبَرَ الفرد ماضي، الذي مثَّلَ القوات في الولايات المتحدة الأميركية آنذاك، انّ احداثَ زحلة «ترتَّبَتْ عليها نتائـجُ بالغـةُ

(١٣٩) Patrick Seale, Asad. *The struggle for the Middle East*, I. B. Tauris, 1988, p. 312.

(١٤٠) William W. Quandt, *Camp David. Peace Keeping and politics*, The Bookings Institution, 1989, p. 217. كذلك راجع عن حرب «المئة يوم» جوزيف ابو خليل، «حروب لبنان...»، سبق الاستشهاد، الحلقة ٩، في: الحياة ١٩/٧/١٩٨٩.

(١٤١) William W. Quandt, *Camp David...*, *op. cit.*, p. 267 & 268.

(١٤٢) حول تطور فكرة التعاون مع إسرائيل تحت وطأة الخوف، راجع الفصل الرابع.

الخطورة بينَها تدخُّلُ إسرائيل في لبنان إيذاناً بإعادةِ النَّظرِ في الخطوطِ الحُمْرِ السوريّة ـ الإسرائيلية»، و«بدايةُ تحوُّلٍ، بل بدايةُ سياسةٍ اميركيةٍ في لبنان اخذتْ واشنطن تُعِدُّ لها خطوةً خطوةً. هذه السياسة انتهَتْ إلى دعمٍ مطلقٍ وكاملٍ لبشير الجميل في انتخاباتِ رئاسةِ الجمهورية»[١٤٣]. لكنّها انتهَتْ ايضاً إلى تحوّل بشير الذي واجه السوريين، في الاشرفية والشمال والبقاع معاً، بطلاً مسيحيّاً للتحرُّرِ لا من الفلسطينيين فحسب بل من السوريين ايضاً، ايْ من «العشيرة» المُسلمةِ المقابلة، في شتّى صِيَغِها وتَفرُّعاتِها، منظوراً إليها من عينِ «العشيرةِ» المسيحيّةِ.

في ٧ تموز من العامِ نفسِه نَفَّذ بشير ما عُرِفَ بمجزرة الصفرا، مُتَخَلِّصاً من الأداة العسكرية لـ «حزب الوطنيين الأحرار» الشمعونية، العمليةُ التي كَلَّفَتْ بحسب الشمعونيين ١٥٠ قتيلاً[١٤٤]، والابتعادَ القَسْريَّ لداني شمعون عن العمل السياسي والحزبي. إلا انّ العمليـة إيّاهـا، وإنْ خلَّفَتْ الكثيـرَ من الأحقـادِ المـارونيـة ـ المـارونيـة، ادَّتْ إلى ضَبْطِ السياسة والأمنِ معاً: فسياسيّاً تبلْوَرَتْ الزعامةُ الواحـدةُ والزعيمُ الـواحدُ اللـذان ينهجانِ خطّاً متطرفاً كان في ما مضى خطُّ الرئيس كميل شمعون من حيث التوجّهات العامة لا من حيث الوسائل والأدوات. وفي ظل الصعودِ البَشيري، الأكْفَأ والأحدَثِ، لم يُعُدْ مطلوباً من شمعون غيرُ الإبقاءِ على غطائِهِ التاريخي، فيما اضْحَتْ ذراعُهُ العسكريّةُ زائدةً لا لزومَ لها او إضافة شبابية على حالة كهلة.

اما امنيّاً وخدماتيّاً فتمَّ تأسيسُ النموذجِ الأرقى بين النماذجِ التي وفَّرَتْها دويـلاتُ الحربِ اللبنانيةِ بشهادةِ الأرقام التي وَزَّعتْها «قوى الأمن الداخلي» الرسمية عن الأعمال الجريمية والمُخِلَّةِ بالقانون مـا بين ١ كانـون الثاني و٣١ كـانون الأول ١٩٨١. ففيمـا بلغ عددُ الجرائم في المنـاطقِ التي تُسيطرُ عليهـا قوى اخـرى ٤١٦ جريمـة بَلَغَ عـددُها في مناطق «القوات» ١٥ جريمة وفيما بلغَتْ السرقـات بملايين الليـرات اللبنانيـة في المناطق الأولى ٣٥٥٠٣ سرقات، بلغَتْ في المناطق الثانية ١٢٠٢ سرقة، والمعادلـةُ نفسُها تَصِـحُّ في محـاولاتِ الاغتيال وأعمـالِ التَّشليحِ والخطف والسطـو واشتباكـاتِ الشـوارع. ففي ١٩٨١، ايْ بعد التخلّصِ من حزب شمعون، شهدَت مناطق «القوات اللبنـانية» اشتبـاكَيْن مسلّحيْن ذهب بنتيجتهمـا ٤٧ قتيلاً و٥٤ جـريحـاً، لكنّ المنـاطق الأخـرى شهـدَتْ ٢٠٦ اشتباكات اوْدَتْ بـ ٧٢٢ شخصاً وجرحَتْ ٩٧٨[١٤٥].

(١٤٣) الفرد ماضي، «فلسفة الطنجرة، في لبنان»، في: الحياة ١٧/٩/١٩٨٩.

(١٤٤) Lewis W. Snider, *The lebanese forces...*, *op. cit.*, p. 132.

(١٤٥) الارقام منشورة في *Ibid.*, p. 143 بما خلّف إقراراً عاماً بتفوق النموذج القواتي واجهه خصومه بالكلام عن «القمع» و«الضبط الفاشي» للمجتمع، فيما كان اهل المناطق الغربية وعائلاتها يقصدون جونيه وبرمانا للنزهة او السهرة او المطعم او السينما.

مهَّدَتْ هذه التحوّلاتُ لظهورِ لغةٍ كتائبية أخرى لا يتعفَّفُ صاحبُها عن استعراضٍ كاملٍ قِواهُ وقُدراتِهِ. ففي ١٩٨٠ وفي الذكرى الرابعة والأربعين لتأسيس الحزب، كانَ بشير نجمَ العديدِ من المهرجاناتِ مُتحدِّثاً في أحدها عن أنَّ المسيحيين «قِدِّيسو هذا الشرق وشياطينُهُ»، وفي آخر عن أنَّهُ «إذا كانت الدولةُ اللبنانيةُ لم تستطعْ أنْ تَخْلُقَ جيشاً، فهؤلاء الشبّان هم جيشُ لبنان»، وفي ثالث عن ظهورِ قضيةٍ للبنان لا تتمثّلُ في «الدفاع عن الاحتلال الفلسطيني [...] والمرحلةُ التاريخيّةُ تُحَتِّمُ إعلانَ المُسلمين عن قرارٍ صريح»(١٤٦).

وتعبيراً عن هذا الضجيج البشيري المتصاعد، وردّاً عليه، وعلى تداولِ فكرةِ «دور الكتائب في أيِّ حلٍّ وأيّةِ صيغةٍ»، كتبَتْ جريدةُ «السفير» آنذاك تَعْكِسُ أجواءً إسلاميةً وسوريةً، يساريةً وفلسطينيةً مهجوسةً بالنَّجْمِ الخطيرِ الصّاعد: «إنَّ حزب الكتائب، ممثَّلاً مرّةً جديدةً ببشير الجميل، ما زال يُمْسِك بِصَمّامِ الخطر، يتحدث إلى رئيس الجمهورية من موقع الآمر، ويتوجّهُ إلى المسلمين من موقع الناهي والمحذِّر، ويحدِّدُ للشرعية خطَّ تحرُّكِها أو شروطَهُ للحلّ، ويَرْهِنُ مصيرَ الوطن بمصيرِهِ ويُنَصِّبُ نفسَهُ راعياً لكلّ الأقليّات في الشرق»(١٤٧).

ولمّا كانَتْ الكلمةُ الأولى للحزب الأول، وهو هنا إلى حدٍّ بعيد الحزب الأوحدِ، انطلَقَ بشير من كلِّ هذا الذي راكمَهُ، انطلاقةً ممّا اخْتَزَلَهُ واستَبْعَدَهُ، إلى تحقيقِ طموحِهِ السياسي في بلوغِ رئاسةِ الجمهوريةِ. فكان ارتدادُهُ نحوَ سياسةٍ أشد اعتدالاً في الموقفِ من الدولةِ ورئيسِ الجمهوريةِ الياس سركيس، وذلكِ بعد خلافاتٍ سياسيةٍ ونزاعاتٍ ميدانيةٍ عدة. فقد سبق لبشير مثلاً أنْ عارض قمّة تونس العربية في ٢٣/١١/١٩٧٩ ومقرَّراتِها القاضيةِ بتنفيذِ مقرَّراتِ قِمَّتي الرياض والقاهرة»(١٤٨). وبعد أقلَّ من سنةٍ حصلَتْ اشتباكاتٌ بين «القوات» والجيش في عين الرمانة أدَّتْ إلى انسحابِ الثاني من بعض مواقعِهِ. ذلك أنَّ بشير، وبحسب صياغةٍ قواتيةٍ لاحقةٍ لخلافِهِ مع سركيس، لم يكُنْ يتحمل «الرجلَ الساكتَ الذي يُجَدِّدُ لـ «قوّاتِ الردعِ العربيةِ» لتُجَدِّدَ قَصْفَها على المسيحيين»(١٤٩).

لقد بدأ سركيس، اليائِسُ بدورِهِ من عدم تجاوب السوريين، يتعاملُ مع بشير تعاملَ

(١٤٦) انظر الصحف اللبنانية في ٢٢ و٢٣ و٢٤/١١/١٩٨٠.

(١٤٧) **السفير** ٢٤/١١/١٩٨٠.

(١٤٨) ففي ٢٤ تشرين الثاني، مثلاً، خطب بشير في مأدبة عشاء أقامها إقليم كسروان الفتوح في ذكرى تأسيس الكتائب ورأى أنَّ قمة تونس «كرّست الاحتلال السوري ـ الفلسطيني» وحذّر العرب وأميركا من أنَّ «إرهابنا سيكون أقوى» رافضاً «المال العربي للتعمير». الصحف في ٢٥/١١/١٩٧٩.

(١٤٩) انظر مقالة إيلي الحاج في مجلّة **المسيرة** ١٩/٩/١٩٨٧.

امـر واقع بـوصفهِ يمثّـلُ «وحدَةً» مسيحيي بيـروت والجبل، وبلـغَ التعاونُ ذروَتَـهُ في آب ١٩٨١ مع الاتفاقِ اللبناني ـ السوري ـ السعودي ـ الكويتي لترتيب انسحاب سـوري من لبنان وإنهاءِ العلاقةِ بإسرائيل(١٥٠) الذي اعتُبِـرَ بدايـةَ انطلاقـةٍ نحو «بـديلٍ» اميـركي ـ سعودي محتمَلٍ وظهورِ فرص حوارٍ مع بشير(١٥١).

تعدّتْ العلاقـةُ بين القائـدِ الكتائبي الشـابّ ورئيس الجمهوريـة الشهابي التنسيقَ السياسيَّ في خطوطِهِ العريضـةِ إلى التنسيقِ الأمني والجهازي حيث كـانَ جوني عبـده، رئيسُ الشعبة الثانية آنذاك همزة الوصْـلِ العملانيـة(١٥٢)، ولا يكتُمُ كريم بقـرادوني على مدى صفحاتِ كتابِهِ الذي أرَّخَ، بطريقتِهِ، لعهد سركيس، وجودَ ما يشبِهُ الغـرفةَ السـوداء طـوال الثّلث الثالِث من العهـد المذكـور تُناقشُ كـلُّ كبيرةٍ وصغيـرةٍ ضمنَ فريقَيْ عمـلٍ متكامليْن.

هنا بدا أنَّ العروبةَ المضادة بدأت تقترب من منصّةِ دولةٍ ذوى مُجْتَمَعُها.

(١٥٠) يبقى المـرجع الافضـل عن هذه المـرحلة ومـا سبقها وتـلاهـا: كـريم بقـرادوني، **السـلام المفقـود**، سبق الاستشهاد.

(١٥١) بحسب كريم بقرادوني كانت النتيجتان الاهم لـزيارة بشيـر إلى واشنطن في ١٩٨١ «اوّلاً: إعتراف اميـركي للكتائب في حلّ ازمة لبنان، ثانياً: ضمانة اميركية في تأمين مصلحة لبنـان من خلال اي حـل لأزمة الشـرق الأوسط، **العمل** ١٦/٨/١٩٨١.

(١٥٢) انظر: حازم صاغية، **موارنة من لبنان**، سبق الاستشهاد، ص ٢٨٢ ـ ٢٨٣.

الفصل الخامس

الانتفاضة

ثمَّ النموذجُ الذي أنشأهُ بشير الجميل ما بين ١٩٧٨ و١٩٨٢، معطوفاً على تجـربتِهِ السيـاسية حتى مصـرعه، عن نـزعةٍ ثـوريةٍ[١] لم تَعْـدِمْ واصِفيها وشـارِحيها، مِمَّنْ كـان المحامي كريم بقرادوني أبرزَهُم وأشدُّهم طلاقةً.

وفي الإمكانِ تلخيصُ هذه النزعةِ وتعبيراتِها، التي يمكنُ الـوقوعُ على مثيـلاتِها في سـائرِ حـركاتِ التحـررِ الوطني والقـوى التي تجمَعُ الإحتقـانَ إلى التخلُّفِ، في السِّمـات الآتية:

□ الرؤيويةُ التي لا تَتَّجِهُ إلى لحظةِ استقرارٍ لأن وَعْـدَها الخـلاصيَّ عنفيٌّ بالضـرورةِ يتمُّ البلـوغُ إليه من طـريقِ الاصطدامِ بـالمُعطياتِ المحليـةِ والاقليميـةِ والـدوليـةِ، فيمـا «الحـركةُ» عنـدها هي مـا يقـودُ إلى المعنى السيـاسي ويُشَكِّلُـه. فبشيـر، في عُـرْفِ بقرادوني، ليس صانعَ حرب فقط بل صانـعُ ثورة، علمـاً أنَّ الحروبَ الجيِّـدةَ هي التي تَجِدُ تتويجَها وتكامُلَها في الثورات[٢].

وفي مقابلِ الضمنيةِ الخَفِرَة لِلُغةِ الميثاقيـةِ التعاقـديةِ، حلَّتْ علنيَّـةٌ مبالـغٌ فيها في الإفصاحِ عن الوجودِ الطائفيِّ وحروبهِ الأقـربِ إلى القُدْسيـة، ذلك أنَّ «الـذين قرأوا عن ثورةِ الـ ٥٨ لم يعتبروها حرباً مع أنّها كانت حرباً. كانوا يقولون: «حوادث الـ ٥٨». بشير الجميل قال عن أحداثِ الـ ٧٥ «حرب السنتين» وبعدها «حرب الـ ١٠٠ يوم»[٣].

ومع رحيلِ بشير، ومِنْ وَحْيِهِ، مضى بقـرادوني في تطويـرِ هذه النظـريةِ الـدامجةِ للحروبِ والثوراتِ: «لماذا طالتِ المشكلةُ في لبنان؟ لأنّنا نقومُ بحروبٍ وليس بثورات. ومـا دُمْنا لا نُترجمُ حربَنا إلى ثورةٍ فستبقى الحروب مستمرة»[٤].

وفي تقييمٍ لاحق، وموفَّقٍ في تعبيرهِ عن رؤيويةِ بشير وجدودِها اللاعقلانية، يـذهب

(١) يستعمل تعبير «ثورية» هنا من غير أيِّ قصد امتداحي. فالمقصود، على العكس تماماً، تلـك النزعـة إلى اخلال بعملِ المجتمع ومؤسساته وفرض صورة ذهنية على الواقع في نحو قسري وتعسفي.
(٢) انظر مقال بقرادوني في **العمل**، العدد السنوي ٢٨/١١/١٩٨٢.
(٣) انظر محاضرة بقرادوني التي نشرتها **العمل** ٢٢/٤/١٩٨٣.
(٤) من مقابلة احمد عيّاش معه في **الكفاح العربي** ١٤/٥/١٩٨٤.

بقرادوني إلى القول إنَّ الأخيرَ لو بقِيَ ومارسَ الحكمَ لكان من الممكنِ أن يقودَ البلدَ «إلى حالٍ من الاستقرارِ والهدوءِ التامِّ والبحبوحة، وكان بالإمكانِ ايضاً ان لا يبقى حجـرٌ على حجر»[٥].

□ عسكرةُ المجتمعِ اللبنانيِّ، مع مـا يعنيه ذلـك ضمناً من تعـديلٍ في تـركيبِ الإقتصادِ الوطنيِّ في غير مصلحةِ الخدماتِ والترانزيت، مع إشاعة قيمٍ أخلاقيةٍ صارمةٍ لا عهـدَ للرخاوةِ اللبنانية المـدينية بهـا. فالفهمُ البشيـري للأمنِ يعني «تحـريرَ الأرض وقيـامَ جيشٍ قـادرٍ يضـمُّ مئةً وخمسين الفِ مقـاتل»[٦]. وفي تقييمٍ لاحقٍ للتـاريـخ اللبنـاني الحديث يجلو هذه الفكرة، يتحدَّثُ بقرادوني عن ارتكابِ «غلطةٍ كبيرةٍ» عام ١٩٤٢ «هي وضعُ نظريةِ قوةِ لبنـانَ في ضعفِه». ذلـك أننا، بحسبِ الشـارحِ، «نعيش في عالمٍ لا يؤمِنُ إلا بالقُوَّة، خصـوصاً في منطقـةِ الشرقِ الأوسطِ حيثُ تصـادمُ القوى والحـروبُ المستمـرة. نتيجـةَ هـذه النظـريـة بقي الجيشُ ضعيفـاً ومحـدوداً. لم يُنَفَّـذِ التجنيدُ الإجباريُّ ولم تتعاطَ الأجهزةُ الأمنيةُ أدواتٍ للحُكم»[٧].

تتكاملُ هذه العسكرةُ مع تعقيمِ الإدارةِ لإنجابِ الموظَّفِ النزيـهِ الكُفْءِ، موضـوعِ التغنِّي الدائمِ لكلِّ نزعةٍ شعبـوية[٨]. ولم يَكُفَّ بقـرادوني، المُنَظِّرُ الـذي انتقلَ إلى صفِّ بشير بعد الوقوفِ طويلاً ضدَّه في الحزب، عن التغنّي بأنَّ فارسَهُ «حرَّكَ الإدارةَ بِخِطـاب، وكاد أنْ يُعَبِّرَ الذهنيةَ الإداريـةَ في أقلِّ من شهـر. كان يـريدُ إدارةً نظيفـةً حيث الرشـوةُ توازي جريمةَ القتلِ وكان يريدُ إدارةً شابّة». امّا «حلمُه الأكبر» فإنشاءُ «قياداتٍ وكادراتٍ جـديدةٍ تُنفِـذُ لبنانَ من الـرتـابـةِ والتقليـدِ والعفـونـةِ وتشـدُّ بـه إلى النجـاحِ والتفـوُّقِ واللُّمَعان»[٩].

□ استيلادُ فكرةِ «الزعيم» المنقذِ التي لا سابقَ لها في التجربةِ السياسيةِ اللبنانيةِ خارجَ الحالةِ الإنقلابيّة التي مثّلهـا السوريـون القوميـون. والراهنُ أنَّ هـذه الفكرة ظلّتْ على الـدوامِ عربيـةً تَفِدُ إلى لبنـانَ وفادةَ استفـزازٍ وتحريـكٍ للحساسيّـاتِ الأهليةِ فتـدفعُ المسيحيين، في صورةٍ عابرةٍ ومؤقّتةٍ، إلى خلقِ زعيمٍ معبودٍ لهم (شمعون مقابلَ عبـد الناصر كأوضحِ الأمثلة).

انطوى هذا الإستيلادُ على الإستعاضةِ عن قوةِ النظـامِ الناجمـةِ عن قوةِ عنصـرهِ التسْوَوِي (بما في ذلك من مظاهرِ ضعفٍ، طبعاً وتعـريفاً، بقـوةِ الشـخصِ الكفيلِ بكبْـحِ

(٥) من مقابلة نقولا صيقلي معه في الصياد ١٩٨٥/٥/٨.
(٦) العمل، العدد السنوي ١٩٨٢/١١/٢٨.
(٧) من مقابلة معه أجرتها النهار العربي والدولي ١٩٨٥/٧/١٤.
(٨) راجع Lewis. W.Snider, *The lebanese forces...*, *op. cit.*, p. 119.
(٩) أنظر مقال بقرادوني في العمل، العدد السنوي، ١٩٨٢/١١/٢٨.

علاماتِ الضعفِ والتناقض[١٠]. ذلك انَّ «النظامَ السياسيَّ بعد بشير الجميل لا يمكنُ انْ يكون مثلَ النظامِ السياسيِّ الذي كان قبلَ بشير الجميل. في خلال ٢٠ يوماً، وفي محاضرةٍ في التلفزيون، استطاعَ ان يغيِّرَ ذهنيةَ دولةٍ بكاملِها»[١١].

وبالخِفَّةِ نفسِها التي تحتَسبُ التاريخَ واحداثَه الجسامَ بالأيّام، يتحدَّثُ بقرادوني عن بعضِ الكيفيّاتِ «السياسيةِ» المحكومةِ بمزاجٍ يكادُ يكون اعتباطياً، والتي كان سيتَّبِعُها بشير ـ الرئيس: «وليد جنبلاط وكلُّ اشتراكياتِه لا يتعاونُ معهم. المرابطون لا يتعاونُ معهم. «أمل» كان متردداً لكنّه كان يفضِّلُ كثيراً كامل الأسعد والمجلسَ الشيعيَّ الأعلى»[١٢].

هذا التصوُّرُ الزعاميُّ لم يغِبْ عن «القوات اللبنانية المُوَحَّدَة» منذ نشأتِها حيث تمَّ التجديدُ لبشير قائداً بالإجماعِ واستمرَّ التقليدُ معه[١٣]، ليصيرَ بعدَه عُرْفاً مكرَّساً، حيث جُدِّدَ لفادي افرام بـ ٧ أصواتٍ وورقةٍ بيضاء[١٤]، وانتُخِبَ فؤاد أبو ناضر بـ ٧ أصواتٍ وورقةٍ بيضاء أيضاً[١٥]، من دون انْ تتوافرَ لهما بالضرورة مواصَفاتُ بشير الذاتيةُ والشروطُ الموضوعيةُ التي أحاطتْ بصُعودِه، فيما كان البديلُ الأوحدُ لهذا الإجماعِ قيامَ «الإنتفاضاتِ»، كما سنرى لاحقاً.

□ دفعُ اللبنانيةِ إلى سَويةٍ قوميةٍ، ودفعُ المسيحيةِ من داخِلها إلى سويةٍ محوريّةٍ ناتئةٍ وضاغطة، وهما، طبعاً، مُهمّتان متناقضتان في آخر الأمر. فقد كان على بشير، تبعاً لشارحِه، «أن يخلقَ دولةً لبنانيةً على ١٠٤٥٢ كلم مربّعاً لكلِّ اللبنانيين [...] ولكنْ إلى جانبِ هذه الدولةِ، وداخلَ هذه الدولة، يخلقُ وطناً مسيحياً تعبيراً عن انَّ الوجودَ المسيحيَّ في هذا الشرقِ يجب انْ يستمرَّ. ولم يخجلْ من ذلك»، نافياً أن يكون هذا الوطن «وطناً قومياً مسيحياً»[١٦]. ومن نافلِ القولِ انّ هذا التصوُّرَ يُبقي علاقةَ المواطنِ بالدولة، وتالياً بالوطن، علاقةً ملتَبسةً لا يفوقُها إلتباساً إلاّ الصِّيَغُ التفصيليةُ والتنظيميةُ الناجمةُ عن التصوُّر المذكور: عملُ الدولة، عملُ الأجهزةِ ودرجةُ وَحدتِها ونشاطها المُتوازي إلخ...

وغنيٌّ عن القول إنَّ رصَّ ولحمَ أيِّ طائفةٍ كبرى، ومن ثَمَّ إطلاقَ حالتِها إلى مَداها الأقصى، تُخلُّ تعريفاً بالتركيبِ اللبنانيِّ التقليديِّ وحساسياتِه، حيث جعلت الصيغةَ «لا

(١٠) في سبيل ملامح صورة بشير «الرئيس القوي»، انظر محاضرة بقرادوني في العمل ١٩٨٣/٢/٢٢.
(١١) المرجع السابق.
(١٢) المرجع السابق.
(١٣) انظر، مثلاً، صحف في ١٩٧٨/١١/٢٨.
(١٤) صحف ١٩٨٣/٩/٢٠.
(١٥) صحف ١٩٨٤/١٠/١٠.
(١٦) محاضرة بقرادوني في العمل ١٩٨٣/٤/٢٢.

تحتملُ اتِّحادَ طائفةٍ من الطوائفِ الكبرى، لا على الدولةِ ولا معها»[١٧].

□ رفـعُ السياسـةِ ولغتِها إلى مَصـافِ «القضايـا» المصيريـةِ التي تجـانِبُ «الصغـائـر» والعادياتِ والتسوياتِ واللعب مما تُوْصَفُ به السياسةُ البرلمانية عـادةً. فللمرّةِ الأولى، تبعاً لبقرادوني، «استطاعَ بشير الجميل أن يُحوِّلَ النظامَ السياسيَّ اللبنانيَّ القائمَ على التسويةِ إلى نظـامٍ سياسيٍّ قـائمٍ على القضيّةِ. فلقـد أصبح النظـامُ السياسيُّ أداةً لخدمةِ القضيّة»[١٨]. ومن قَبيلِ الولَعِ بالقضايا ورَذْلِ التسويـات، يُصار إلى تصعيـدِ النبرةِ الشعبويةِ ضدَّ السياسيين، والتركيزِ على مفاهيمِ «الشعب» و«الجيـلِ الجديـد» وتقديسِ «الشهادة» بصفتِها شعاراتٍ مطلقة. فحين يُشيرُ الشارِحُ إلى المتغيِّراتِ التي أدخلَها بشير الجميل إلى النظامِ السياسيِّ اللبنانيِّ، يرى أنّه «انتصرَ بواسطةِ الشعبِ ومن دون السيـاسيين، وخلقَ شعبياً مبـاشراً [...] أهمُّ شيءٍ عَمِلَـه بشير الجميـل هو خلقُ مسؤوليـةِ جيل. هـذا الجيلُ تسلَّمَ المسؤوليـاتِ على الأرض. جيلُ بشيـر الجميل صارَ عنده وعيٌ، ومؤسَّسةُ أمانةٍ حملَها هي أمانةُ الشَهيد»[١٩].

تَنْبَني من هذه التصوراتِ والقيمِ خـرافيةٌ ثـوريةٌ لا تكتمُ بَـرَمَها بـالمنطقِ الشرعيِّ التـدريجيِّ الذي يَسُـودُ عمـلَ الـدولـةِ والمؤسَّسـات. فـالقـواتُ اللبنـانيـةُ التي نشـأتْ «كمقاومةٍ [...] تعوَّدْت على منطقِ الثورةِ المناقِضِ جوهرياً لمنطقِ الدولة [...] إنَّهـا تُعبِّرُ عن نزعةِ الشباب والتغييرِ في المجتمعِ المسيحي، وإنّها تيّارٌ نشأ بعد ١٩٧٥، فهي الإبنُ الشرعيُّ لهذه الحرب»[٢٠].

بدورِها لم تَكُنْ «نزعةُ الشباب» مجرَّدَ كلمةٍ لا مُسْتَنَدَ لها في الواقـعِ المادِّي. فمـع وصولِ بشير الجميل إلى الرئاسة في ١٩٨٢، في مناخِ الإجتياحِ الإسرائيليِّ للبنان، بدا أنّ التغييرَ المطروحَ يتجاوزُ تعديلَ النظامِ الطائفيِّ وميزانَه في صورةٍ كاسِحة، إلى مسألةِ الأجيالِ والتركيب العُمْريِّ لرُموزِ النُخْبةِ السياسيةِ اللبنانية. فبشير كان عمـرُه آنذاك ٣٤ سنـة، أما القـادةُ الذين خلَفُوهم على رأسِ القـوات كفادي افـرام وفؤاد أبو نـاضر وإيلي حبيقة وسمير جعجع فكانَ أكبرُهم في الثلاثين من عمره.

وكان هذا الجيلُ القياديُّ الذي فتح عينَيْه على «السياسةِ»، مع الحرب ومنها، يحملُ مجافاةً للبنانَ التقليديِّ كما عهِدناه بثوابتِـه ومقوِّمـاتِه ومعـادلاتِه، كمـا يعبِّرُ عن نكـوصِ الزعامةِ المارونيةِ المُجرَّبةِ والمدينيةِ والأكثرِ تعلُّماً. أبعدُ من ذلك أنَّ صعودَ الجيل المذكورِ شكَّلَ طعنةً لفكرةِ الحزبِ ولواقـعِ الكتائبِ في آنٍ معاً، برَدِّهما عمـلاً وممارسـةً، إلى مجرَّدِ

(١٧) أحمد بيضون، **ما علمتم وذقتم**، سبق الاستشهاد، ص ١٣٥.

(١٨) محاضرة بقرادوني في **العمل** ٢٢/٤/١٩٨٢.

(١٩) المرجع السابق.

(٢٠) من مقابلة مع بقرادوني أجرتها **النهار العربي والدولي** ٢٥/٣/١٩٨٤.

حال حربيةٍ تعبويةٍ لا تنفصلُ عن «المجتمعِ العسكريِّ» الذي شاركتْ سائرُ الطوائفِ المسلَّحةِ في بنائه وتعزيزه.

ولم يُخْفِ أمين الجميل، في استعراضِه اللاحقِ لمصادرِ خلافه مع شقيقِه الأصغر، مشكلةَ الأجيالِ هذه، لا من حيثُ اقتصارُها على الأعمار، بل أيضاً من حيثُ مضامينُها في التجاربِ السياسيةِ. فالفوارقُ، بحسبِ أمين، «عديدةٌ بيْني وبيْن بشير. فارقُ السِّنِّ أوّلاً ويبلغُ ستَّ سنوات، وهذا يعني أنَّها ستُّ سنواتٍ من عمرِ لبنانَ أيْضاً [...] إن جيلي هو جيلٌ مُخَضْرَمٌ إن جازَ القول. يعني أنني تتلمذتُ في السياسةِ على يدِ سياسيين وبعضُهم كان من طينةِ الأقْطاب [...] في المقابلِ يُعتبرُ أخي بشير من جيلِ الحربِ وإن كان قد وُلِدَ قبلَها. وهو في الحقيقةِ لم تنفتحْ عيناه على الحياةِ إلا ولبنان قد ضَيَّعَ هدوءه وتوازُنَه في مَهَبِّ العاصفة، والتشنُّجُ السياسيُّ والطائفيُّ في أوْجِه. ثم أنا نائبٌ منذ العام ١٩٧٠»[٢١].

المحاور الانقلابية

كان لا بُدَّ، تبعاً للمقدماتِ المذكورة، أنْ تنطويَ علاقةُ بشير بـ «الدولة»، فكرةً وواقعاً، على تناقضاتٍ والتباساتٍ سبقَ الإلماحُ إلى بعضِها، مصدرُها إزدواجُ التمثيلِ والوجهةِ على غيرِ صعيد. وإذا ما صدَّقْنا صحيفةَ «العمل»، فهذه التناقضاتُ والإلتباساتُ لم تكُنْ غائبةً عن همومِه، إذْ كان أوَّلُ سؤالٍ طرحَهُ بعد أن صارَ رئيساً منتخباً، «على نفسِه وعلى رفاقِه وأركانِ حزبِه، وفي أوَّلِ يومٍ من رئاستِه القصيرة: ماذا عن «القواتِ اللبنانية» في الوضعِ الجديد؟ لكنه «استشهد [...] قبل أن يكتشفَ الحل»[٢٢].

قبل ذلك وُجِدتْ حلولٌ عمليةٌ للمشاكلِ المُلِحّةِ كان لا بُدَّ أنْ تُساهِمَ كلُّها في إضعافِ الدولةِ، والنُّمُوِّ وظيفياً على حسابِ أدائها لوظائفِها. من ذلك مثلاً أنَّ تحصيلَ الضرائبِ في المناطقِ الشرقيةِ لتمويلِ آلةِ الحرب، وجهودَ التطويعِ في «القوات اللبنانية»، كانت «تستدعي بالتعريفِ بُنْيَةً شرعيةً بديلةً لتلك التي تملِكُها الحكومةُ المركزية»، فيما كانت إحدى «عاداتِ» القواتِ «تجاهُلَ أو تجاوُزَ سلطةِ الجيشِ اللبنانيِّ حينما يبدو أنَّ هذين التجاهلَ والتجاوزَ يخدمان أغراضَها»[٢٣].

وتقْضي الأمانةُ الإشارةَ إلى الكفاءةِ الملحوظةِ في أداءِ هذه الوظائفِ مُجْتَمِعةً[٢٤]،

(٢١) أمين الجميل، «حوار وذكريات»، الحلقة ١٢، في الحياة ١٥/١٢/١٩٩٠.
(٢٢) «من حصاد الأيّام»، العمل ٢٣/٣/١٩٨٥.
(٢٣) Lewis. W.Snider. *The lebanese forces...*, *op. cit.*, p. 139.
عن النظام الضريبي وكيفية تحشيل الموارد،
(٢٤) انظر، مثلاً لا حصراً، .*Ibid.*, p. 140

حيثُ أثْمَرَ التوحيدُ السياسيُّ القَسْريُّ كما أثَّرَ استخدامُ الكفاءاتِ المدنيّةِ التي راكمتْها الجماعاتُ الأهليةُ المسيحيةُ على نطاقٍ واسعٍ منذ عقودٍ خلتْ من السنين. بَيْدَ أنَّ النجاحَ نفسَه عزَّزَ الفكرةَ التقسيميّة، الشعبيةَ أصلاً بين القطاعاتِ المسيحيةِ الشابةِ والمُهَجَّرة: فالدولةُ التسوَويةُ، بحسبِ القناعاتِ الجديدةِ على ضوءِ هذا النجاح، لا بُدَّ أن تتخلَّفَ بنتيجةِ الشراكةِ مع المسلمين ممَّن يردُّون أداءَها إلى الوراءِ، بدَلالةِ أنَّ «دولةَ» القواتِ المقتصرةَ على المسيحيين ذاتُ أداءٍ أشَدُّ تقدُّماً من دويلاتِ الآخرين بما لا يُقاس[٢٥].

لم تعدَمْ هذه القناعاتُ أشكالاً تصوغُها وتنظِّمُها وتعيدُ إنتاجَها، فيما هي تلعبُ دورَها الخَدَماتيَّ الأصْليَّ في الصُلْبِ الاجتماعي. فلئن حاولتِ «القواتُ» تطويرَ «سياسةٍ خارجيةٍ» وصلةً بالمغتربين اللبنانيين[٢٦]، معتمدةً، منذ ١٩٧٦، في دفاعِها على إسرائيل، أكان على شكلِ معوناتٍ عسكريةٍ وذخائرَ أم تدريباتٍ[٢٧]، فإن المثيرَ للقلق، خصوصاً، تمثَّلَ في محاولةِ تكييفِ المجتمع من خلال إنشاءِ «لجانٍ شعبية» بلغ عددها في ١٩٨٢، ١٢٢ لجنةً تولَّت إدارةَ وربطَ القاعدةِ بالقيادة[٢٨].

ذلك أنَّ هذه اللجان مثَّلت، عند أحَدِ دارسي «القوات اللبنانية»، احتمالَ «إقامة بنيةٍ سياسيةٍ بديلةٍ قد تنطوي على تجاوزِ الولاءاتِ القديمة»[٢٩] في المجتمعِ والنظامِ السياسيِّ اللبنانيَّيْن. غير أن الحلَّ الذي «لم يكتشفْه بشير «كما قال كاتبُ افتتاحيةِ «العمل»، بدا شديدَ الوضوحِ لشارحِه الآخرِ الذي نسبَ إليه لوْناً من المزجِ بين الدولةِ و«القوات». فالحلُّ كان عند بشير واضحاً. فهو أصبحَ السلطةَ وكان يريدُ أن يُحَوِّلَ القواتِ أداةً من أدواتِ السلطةِ في السياسةِ والإدارةِ والعسكر، وأنْ يحاولَ الدمجَ بين القواتِ والدولة. كان يُريدُ أن يُدخِلَ العسكرَ في الجيشِ وتكونَ القواتُ الخَميرةَ في كلِّ الأجهزةِ العسكريةِ والسياسيةِ والمدنية»[٣٠].

(٢٥) من أجل نظرة إجمالية على سائر الخدمات العامة التي باتت تقدمها القوات، *Ibid.*, p. 141-144.

(٢٦) *Ibid.*, p. 145.

(٢٧) *Ibid.*, p. 146.

وقد زاد عدد مقاتلي «القوات» ثلاثة أضعاف بين ١٩٧٦ و١٩٨١: من ٤ إلى حوالى ١٢ ألف مقاتل، وشملت القدرة على التعبئة حوالى ١٥ ألف احتياطي. أبعد من ذلك أنَّ تركيبَها ونوعَ قدراتها العسكرية ونوع الحروب «التحريرية» التي أعدَّت نفسها لخوضها على نطاق وطني وبناءها جيشها الحديث، كلها كانت علامات تنذر بالخطر. *Ibid.*, p. 133-137.

(٢٨) انظر *Ibid.*, p. 147. من أجل وظائف اللجان *Ibid.*, p. 150-151.

(٢٩) *Ibid.*, p. 147. ويعتبر سنايدر أنَّ «القوات» لا تكمن قوتها في المليشيا، بل «في بُنْيتها التنظيمية وفعالية برامجها الإجتماعية وقدرتها على تعبئة السكان» p. 118 ممّا يطرح مرة أخرى، ولو على نطاقٍ أضيق بكثير، ما أثارته النازية والصهيونية القومية ـ الدينية من جمع بين مقدمات خرافية ودموية واستخدام حديث للآلة والتنظيم.

(٣٠) من مقابلة أجرتها مجلة المسيرة مع بقرادوني في ١١/١٠/١٩٨٦. وبهذا المعنى كتب أحد القواتيين: «مع انتخاب الشيخ بشير رئيساً كانت جدلية العلاقة بين الحكم القانوني والدستوري والحكم الشعبي انتهت إلى دمجهما في حكم واحد [...] ولم تكن مشكلة كبيرة على الشيخ بشير، في أيِّ حال، أن يجعل القوات فرقة

وفي الصورة التي جلاها بقرادوني لقائده، بدا «خطُّ» بشير «عكْسَ» صيغة ١٩٤٣[٣١]، ومن عناصرِ هذه المعاكسةِ أن الدولةَ لا تنهضُ على وفاقٍ وتسوياتٍ بل على مقاومة، وبهذا فإن لقاءَ «المقاومتيْن» المسيحيةِ والشيعيةِ هو ما يضعُ الإستقلالَ بعيداً عن التَسْوية[٣٢]. وعلى ضوءِ هذا النهجِ يُعادُ تَدْويرُ سائرِ المحاورِ وتياراتِ الاحداثِ اللبنانيةِ بما يُلْغي خصوصياتِها ويُعيدُ إدْراجَها في «المقاومة»، بحيث تصبح صِداماتُ «امل» والفلسطينيين التي سبقتِ الاجتياحَ الإسرائيليَّ «استمراراً للإنتفاضةِ اللبنانيةِ في العامِ ١٩٧٥»[٣٣].

كان من الواضحِ أنَّ الميْلَ الانقلابيَّ لـ «القوات» يتَّجهُ إلى معاقبةِ الطائفةِ السنيةِ ليس لأنها انجذبتْ وراء الفلسطينيين، عاطفياً وسياسياً، في ١٩٧٥، ولا للنقصِ في وعيها اللبنانيِّ، بل أيضاً لأنها امتنعتْ في قطاعاتِها العريضةِ عن المشاركةِ الميدانيةِ في الحربِ الأهليةِ ـ الإقليميةِ بما أظهرَها في مظهرِ الطائفةِ المحافظةِ والتقليدية[٣٤].

وإذا ما بدتْ هذه المُعَاقَبَةُ علامةَ مجافاةٍ للصيغة، خصوصاً أنّ السنّةَ هم الوسيطُ المباشَرُ لـ «وجه لبنان العربي»، فذلك ما لم ينفصلْ عن تحولٍ عميقٍ بدأ يُسَجِّلُهُ الوضعُ العربيُّ في تلك الحقبة. فالمركزُ السنِّيُّ العربيُّ الأوّلُ (القاهرة) أبعدَهُ الصلحُ مع إسرائيل عن التيارِ العريضِ للحركةِ السياسيةِ العربية، والمركزُ الثاني (بغداد) كان قد جرفتْه حربُ الخليج ضدَّ إيران الخمينية بعيداً عن التيارِ العريضِ إيّاه، فيما استحالَ على السياساتِ التوفيقيةِ للبلدان الخليجيةِ أن تُشكّلَ محوراً جاذباً بمعزلٍ عن التحالفاتِ الإقليميةِ مع هذا البلدِ العربيِّ أو ذاك.

بهذا المعنى كان النموذجان الثوريان المجاوران اللذان راحت «القوات اللبنانية» تتأثَّرُ بهما سلباً أو إيجاباً، هما النموذجُ السوريُّ حيث السلطةُ الفعليةُ في قبضةِ العسكريين المنتسبين إلى الطائفةِ العَلَوية، والنموذجُ الإسرائيليُّ الذي اندفعَ مع وصولِ ليكود إلى الحكم في ١٩٧٧ إلى اقتحامِ عاصمةٍ عربية (سنيّةٍ) للمرة الأولى، في ١٩٨٢. ولقد كان لهذا التأثُّر بنموذجيْن يتعارضان مع اللوْن السنيّ العربيّ السائدِ في المنطقة، أن تغذّى بمصادر الثقافةِ الإخلاقية، المعاديةِ للنفعيةِ ولطبيعةِ الإقتصادِ الراسماليِّ والخَدَماتيِّ، بما تُفْضي إليْه هذه الثقافةُ من تقليصِ الحاجةِ إلى الانتباهِ للعالمِ العربيِّ

خاصة في الجيش، أو إلى جانبه، ما دام هو القائد وهو الرئيس». إيلي حاج، في **المسيرة** ١٩٨٧/٩/١٩.

(٣١) **العمل** ١٩٨٤/٦/٢.

(٣٢) **العمل** ١٩٨٤/٢/١٠.

(٣٣) **العمل** ١٩٨٢/٢/٣.

(٣٤) تعبيراً عن بحث «القوات» عن بديل شيعي للسنة والهموم الناجمة عن ذلك، انظر:

Lewis. W.Snider, *The lebanese forces...*, *op. cit.*, p. 154-156.

ورساميله واسواقه(٣٥).

في السياسةِ الداخليةِ، كان إغفالُ العنصرِ السنيِّ قد تمثَّلَ أصْلاً في المعركةِ الرئاسية لبشير الجميل، حيث بدا بليغَ الدلالةِ أنَّ نواباً مسيحيين وشيعةً ودروزاً يـزبكيين هم الذين اقترعوا له فيما تحفَّظَ اغلبيةُ السنّةِ البرلمانيين عن ترشيحِه، من دون أنْ يشملَ التحفُّظُ أسماءَ آخرين موصوفين تقليدياً بـ «الإنعزالية»(٣٦).

واستطراداً، وعملاً بإخلالِه بأكثرِ من واحدٍ من وجوهِ الصيغة، عَنَتْ رئاسةُ بشير، بحسبِ شارحِه، أنَّهُ «لأوّلِ مرّةٍ وصلَ إلى رئاسةِ الجمهوريةِ منحازٌ للغرب ومن دون وساطةِ العرب. كلُّ رؤساءِ الجمهوريةِ وصلوا إمّا باسمِ عدمِ الانحيازِ (لا شرق ولا غرب) أو بموافقةِ العربِ أو الأكثريةِ الساحقةِ من العرب [...] وحْدَهُ بشير الجميل تجرّأ على أن يُعلنَ هُويّتَه وقالَ: «أنا مُنحازٌ للمُعَسْكرِ الغربيِّ والعالمِ الحرّ»(٣٧). ولا يُقَلِّلُ من صحّةِ وصفِ بقرادوني أنّ بشير بادَرَ قُبَيْلَ معركتِه إلى زيارةِ السعودية والتقرُّبِ إلى أبرزِ ممثلي السنيةِ السياسيةِ المحليةِ (صائب سلام)، إذْ ظلّ الاجتياحُ الاسرائيليُّ والصلةُ الحديثةُ العهدِ بالولاياتِ المتحدةِ الأميركيةِ(٣٨) السِّمَتيْن الطاغِيتيْن على المناخِ المحيطِ بمعركتِه الرئاسية.

داخلَ المناطقِ الشرقيةِ، وفي ما يتّصلُ بحياتِها السياسةِ، سار صعودُ البشيريةِ في موازاةِ تراجعٍ متعاظمٍ للسياسيين وأدوارهم، عبَّرَ عن نفسِه تارةً بذهابِهم مَذْهَبَ التطرُّفِ للُحاقِ به وبجمهورِه، وتارة أُخرى بالإنْزواء والإذْعان. اي أنّهم في المرّةِ الأولى كانوا يَدُلّون على استجابتِهم للخوفِ ذي المصدرِ الخارجيِّ المُفْضي بهم إلى الإلتحامِ مع جماعتِهم، وهو ما أصابَ الياس الهراوي ورينيه معوض وميشال المر وفؤاد بطرس وغيرَهم، وفي المرّةِ الثانيةِ كانوا يَدُلّون على استجابتِهم للخوفِ ذي المصدرِ الداخليِّ الذي نشأ ردّاً على الخوفِ الأوّلِ وكان من طينتِه نفسِها (وفي هذه الخانةِ يمكنُ إدراجُ أسماءِ السياسيين الذين ارهبَهُم او اهانَهُم او منعَهُم بشير من الترشيحِ للرئاسة). ولم ينفصلْ هذا المسارُ في الدائرةِ السياسيةِ العريضةِ للكتلةِ المسيحيةِ، عن تحوّلاتٍ بدأت

(٣٥) كان اختيار بشير، سليمان العلي لرئاسة حكومته الاولى من قبيل هذا العقاب للسنة، حيث جمع العلي بين موقف وطني متقدم من دون أنْ يكون تمثيلياً في طائفته، وبين رجعيّة سياسية واجتماعية تُواكب كونه من كبار الملاكين الزراعيين في منطقة عكار المتأخرة. جاء هذا الاختيار فيما كانت «المارونية السياسية»، ومن خلال بشير، تؤكد على ثورية لا هوادة فيها.

(٣٦) يعرف الذين عاشوا تلك الفترة قريباً من مصادر الحياة السياسية في بيروت كيف ابدى زعماء «السنية السياسية» استعدادهم للقبول بكميل شمعون او بيار الجميل لرئاسة الجمهورية.

(٣٧) كريم بقرادوني في محاضرته، العمل ٢٢/٤/١٩٨٣.

(٣٨) نضع جانباً الكلام اللاحق عن عمل بشير الجميل منذ وقت مبكر مع المخابرات المركزية الأميركية، لسهولة إصدار كلام كهذا ولصعوبة التحقق منه، مع تعدد المعاني التي يمكن أنْ ينطوي عليها عمل زعيم سياسي، أو مرشح لزعامة سياسية، في هذا النشاط.

تشقُّ طريقَها قبلَ خمسِ سنوات، وتحت وطأةِ تجربةِ «حرب السنتين»، في الوسطِ الأكثرِ تعبيراً عن النزعةِ الحربية. ففي كانون الثاني ١٩٧٦، انعقدتْ «خلوة سيدةِ البير» التي وُصفتْ مقرراتُها بالتصلبِ في طلبِ مراجعة الميثاقِ الوطني والتشديدِ على اللامركزيةِ أو الفيدراليةِ من ضمنِ الوَحْدة(٣٩). ومع هذه الخلوةِ تحوّلتْ «جبهةُ الحريةِ والإنسانِ» إلى «الجبهة اللبنانية» التي بات بشير الجميل يَحْضُرُ اجتماعاتِها.

فالجبهةُ الأولى التي أُسِّسَت في ١٩٧٦ ضمَّتْ من هم أعلى كعباً في المارونيتيْن السياسيةِ والفكريةِ، فكان في عدادِها سليمان فرنجية وكميل شمعون وبيار الجميل وشارل مالك (الأرثوذكسي) وجواد بولس وإدوار حنين وفؤاد إفرام البستاني وشربل قسيس رئيس «الرهبانيّات المارونية». ولئن شملتْ عضويتُها أيضاً الشاعرَ سعيد عقل مؤسِّسَ «حرّاس الأرزة» وفؤاد الشمالي قائدَ «التنظيم» ومارون خوري رئيس «حركة الشبيبة المارونية»، فممَّا لا شكَّ فيه أن ثِقْلَ رئاسةِ الجمهوريةِ (فرنجية) وكبارِ السياسيين (شمعون وبيار الجميل) كان الطاغيَ بلا مُنازِع. مع هذا ظلَّ غيابُ ريمون إدّه(٤٠) ومعارضتُه للجبهة يُضْعفانِ قليلاً زعمَها التمثيلَ السياسيَّ للمسيحيين، ناهيكَ عن اللبنانيين.

بَيْدَ أنَّ هذا الطابعَ العضويَّ الذي جمعَ السياسيين إلى المثقفين في جبهةٍ واحدة، وهو ما رأى فيه باحثٌ لبنانيٌّ علامةَ انتكاسِ عند المثقّفين «إلى ضربٍ من النرجسيةِ الطائفية»، حَوَّلَ أوهامَ التراصِّ العشائريِّ «مؤسَّسةً»، ما كان من الممكنِ من دونِها لزعامةِ بشير الشاملةِ أن تنشأ وتَقْوى(٤١).

أمّا الجبهةُ الثانيةُ فاقتصرتْ على شمعون والجميل وحنين ومالك وافرام البستاني وبولس نعمان الذي حلَّ مَحَلَّ شربل قسيس، ذلك أنَّ فرنجية خرج من الجبهةِ بنتيجة تفاقمِ خلافِه مع الكتائب وجَمَّدَ جواد بولس، الزغرتاوي، نشاطَهُ فيها، فيما كان لتوحيدِ التنظيماتِ المسلَّحةِ في «القوات اللبنانية» أنِ استبْعَدَ الحاجةَ إلى تمثيلِها المستقِل. غير أنَّ طغيانَ العاملِ العسكريِّ جعلَ وَحدةَ العسكريين تَزِنُ في الجبهةِ الجديدةِ ما لا تَزِنُهُ وَحْدَةُ السياسيين أو من تبقّى منهم في عِدادِها. فقادةُ الجبهةِ السياسيّون كانوا «ببساطةٍ يُوافقون على العمليّةِ العسكريّةِ بعد شنِّها»(٤٢).

(٣٩) راجع مقررات الخلوة في Lewis. W.Snider, *The lebanese forces...*, *op. cit.*, p. 135. وبحسب جوزيف ابو خليل (في المقابلة الشخصية معه) لم يوافق بيار الجميل على مقررات الخلوة إلا على مضض ومغلوباً على امره، وهو ما كَتَبَهُ لاحقاً وتكراراً ابو خليل.

(٤٠) بعد تعرضه لمحاولة اغتيال تعددت الشبهات الحائمة حول مصدرها.

(٤١) احمد بيضون، ما علمتم وذقتم، سبق الاستشهاد، ص ٤١.

(٤٢) Lewis. W.Snider. *The lebanese forces...*, *op. cit.*, p. 130.

هنا تضافرَ العملُ الهادئ عموماً، والعاصفُ في الصفرا، لوراثةِ شمعون وخطّه المبادرِ الهجوميّ، مع وراثة بيار الجميل الذي افقدتْه الحربُ على المسيحيين واحتدام مخاوفهم وجهَهُ التسوويَّ المستمرَّ في نجله الآخر امين الجميل. ومن التحفّظِ عن الصلةِ بإسرائيل إلى التحفّظ عن مقرّراتِ «سيدة البير»، أصبح الجميل الأبُ مجرّدَ مسجِّلٍ للتحفّظاتِ لا يلبثُ، مغلوباً على امره[٤٣] في البداية، ان يَمْضِيَ في الإتجاهِ الجديد ويدافعَ عنه.

وإلى هاتيْن الوراثتيْن، سَهَّلَ رحيلُ ريمون إدّه والنزاعُ مع فرنجية الذي وضعَه خارجَ دائرة المارونية الجبلية، وإذعانُ سياسيّي الصفِّ الثاني او انزواؤهم، كلُّ هذا سَهَّلَ لبشير طريقَه إلى الرئاسةِ تتويجاً لدورِه في الحرب.

وكما قضمَ القائدُ الكتائبيُّ الشابُّ الحياةَ السياسيةَ المارونيةَ ومواقِعَها، قضمَ حزبَ الكتائبِ موقعاً بعدَ آخر، وهو الحزبُ الذي كان قد عَقَدَ آخرَ مؤتمر له في ١٩٧٤، اي قبلَ اشهرٍ على اندلاعِ القتالِ الذي جعل المؤتمراتِ الحزبيةَ لزومَ ما لا يَلْزَم.

ففضلاً عن احتوانه والدَه المؤسِّس، عزلَ جوزيف شادر اوّلَ نائب كتائبيٍّ في البرلمانِ اللبناني، والليبراليُّ الذي كان إبّانَ الحربِ الاهليةِ ابرزَ من تصدّى له ولصُعودِه على قاعدةٍ عسكريةٍ، حتى سُمِّيَ «الخصمَ الألدُّ لبشير»[٤٤]. وإذا كانت معارضةُ شادر، ذي الأصلِ الأرمني المديني، قد عكستْ ممانعةَ التعدُّدِ اللبنانيِّ عن الإنضواء في مشروعٍ نضاليٍّ صَهْريٍّ ضَيِّقِ الضِّفاف، فما لا ينبغي نسيانُه انَّ القياديُّ الكتائبيَّ التاريخيَّ هو الذي وضعَ في الستينيات برنامجاً لبرلمانيي الكتائبِ «كان يطبِّقُه كلُّ وزراءِ الحزب»[٤٥].

لم يقتصِر الامْرُ على الجيلِ الاوّل، إذ تلقَّتْ رموزُ الجيلِ الثاني «المُخَضْرَم» ضرباتٍ لا يُستهانُ بها على يَدِ بشير قائدِ الجيلِ الثالثِ النافرِ من الوصاية، والناكرِ لجميل السابقين عليه في التمهيدِ له ولجيلِه. فجوزيف الهاشم مديرُ إذاعةِ «صوت لبنان» الكتائبيةِ مثلاً، تعرَّضَ للإبعادِ، بعد تبادُلِ شهرِ المسدّسات مع بشير، بفعل اعتداله واستمرارِ صلتِه بأمين الجميل[٤٦]. امّا إدمون رزق، ولأسباب مشابهة، فتمَّ تفجيرُ سيارتِه في مطالِعِ ١٩٨٠[٤٧].

(٤٣) ... ومؤخوذاً بعواطف ابوية حيال نجله الصاعد الذي يمثّل له وجهه الشبابي والمبادر. وبحسب ميشال ابو جودة، «تحفظه بيار الجميل عن ترشيح بشير للرئاسة بل «قيل إنّه عارض في البداية»، النهار ١٩٨٧/٩/٢٥.

(٤٤) برسي كامب، استراتيجية بشير الجميل، سبق الاستشهاد.

(٤٥) من مقابلة المسيرة مع كريم بقرادوني في ١٩٨٦/١٠/١١.

(٤٦) انظر: حازم صاغية، موارنة من لبنان، سبق الاستشهاد، ص ٢٤٦، وفي سياق خلافه مع الهاشم انشأ بشير «صوت لبنان الحر» كإذاعة ناطقة بلسان «القوات» وحدها.

(٤٧) المرجع السابق، ص ١٩٦.

ابْعَدُ من هذا، انَّ القرارَ الحزبيَّ لم يَعُدِ الحزبُ مصدرَه، إذْ نشأت غرفةٌ معتمةٌ من ثلاثةِ قياديين كتائبيين مقرّبين من بشير (جوزيف ابو خليل، كريم بقرادوني، انطوان نجم) كانت هي التي «تطبخ» السياساتِ التي على الحزب ان يتّخِذَها ثم تُقْنِعُ الشيخَ بيار الجميل بها، كما تتولّى حملَ الحزبِ على تبنّيها(٤٨). ولئن برَّرَ جوزيف ابو خليل هذا الاغتياب بأنَّ حركةَ بشير باتت اسرعَ بكثيرٍ من الحركةِ البطيئةِ لحزبٍ لم يُعِدْ نفسَه ولم تُعِدَّهُ الأحداثُ للتعاملِ مع تطوراتٍ إقليميةٍ ودوليةٍ كالتي شهدناها في ظلِّ بشير(٤٩)، فهذا لا يُلْغي إرساءَ عملٍ تآمريٍّ في الحزب، وعليه ما لبث أن تكرَّرَ، غيرَ مرّةٍ، في السنواتِ اللاحقة.

ويَصِفُ احَدُ تاريخيي الكتائب ما حصلَ آنذاك، حيثُ انَّ «الجمودَ والضعضعةَ والتواري» في الحزب بدأت «في أواسطِ السبعينيات بعد مصرعِ الشهيد وليم حاوي، قائدِ «القوات النظامية» في الكتائب (١٣ تموز/يوليو ٧٦) عندما سمح بشير ـ وكان نائبَ القائد وليم ـ لنفسِه بحرمانِ الكتائب ذراعَها العسكريةَ اي «القواتِ النظامية»، ثم حوَّلَها إلى «قواتٍ لبنانيةٍ» سرعانَ ما استقلَّتْ عن الحزبِ تفكيراً وتدبيراً، فمضت «تفتح» سياساتٍ وتُشهِرُ حروباً وتعقدُ تحالفاتٍ وتنقضُ مواثيقَ وتخطِّطُ لمصايرَ. والحزبُ آخِرُ من يعلمُ او يُستشارُ او يُوافق. وافادَ بشير من ظروفِ الحرب، وذرائعِها وفيها تعلو كلمةُ السلاح ايَّ كلمةٍ سواها بقدْرِ ما افادَ من تغاضي والدِه عنه [...] وما من مرّةٍ كان يُثارُ الوضعُ الناشىءُ بين الكتائبِ والقواتِ بانتقادٍ قاسٍ احياناً في الإجتماعاتِ الموّسعةِ والضيِّقةِ إلّا كنّا نسمعُ صوتَيْن: احدُهما للشيخ بيار وهو يعلن: «الا تثقون بي وببشير؟ اترُكوا الأمْرَ لي وله ولا يقلقنَّ لكم بالٌ فبشير كتائبيٌّ مُنْضَبِط [...] ثانيهُما لبشير»(٥٠).

وبلُغتِه، يروي امين الجميل كيف اصبح الحزبُ، بعد صعودِ بشير وجيلِه «تيّاريْن يتجاذبانِه: تيّارُ جيلِ الشبابِ او جيلِ الحربِ وتيّارُ جيلِ المُخَضْرَمين او ما قبلَ الحرب، ولا ذاكرة مشتركة تجمعُ بينهما. فقط سلطةُ الشيخِ بيار الجميل وهيبتُه كانتا وسيلةَ الربطِ والجَمْع»(٥١).

هكذا انتهى الأمرُ بكريم بقرادوني، وبعدَ إحكامِ السيطرةِ على الحزب، ان يعلنَ وبلُغةٍ ظافرية، انَّ «اليومَ في داخلِ حزب الكتائب خزاناً بشرياً كبيراً جداً خلقه بشير الجميل وعلينا نحن انْ نوظّفَه»(٥٢). والواقعُ انَّ ما خلقَه بشير، على صعيدِ الحزب، هو

(٤٨) من المقابلتين الشخصيتين مع جوزيف ابو خليل وكريم بقرادوني.

(٤٩) من المقابلة مع جوزيف ابو خليل، الذي يرى في مذكراته انَّ بشيرية انطوان نجم نجمت عن فقدان ثقة بالكتائب، الحلقة ١٦، الحياة ٢٧/٧/١٩٨٩.

(٥٠) الياس ربابي، «مذكرات العين الواحدة»، الحياة ٢٢/٩/١٩٨٩.

(٥١) امين الجميل، «حوار وذكريات»، الحلقة ١٢، الحياة ١٥/١٢/١٩٩٠.

(٥٢) من مقابلة الانوار معه في ٣/٤/١٩٨٤.

هنا تضافرَ العملُ الهادئ عموماً، والعاصفُ في الصفرا، لوراثةِ شمعون وخطِّه المبادرِ الهجوميّ، مع وراثة بيار الجميل الذي أفقدتْه الحربُ على المسيحيين واحتدام مخاوفِهم وجهَهُ التسوَويَّ المستمرُّ في نجله الآخر أمين الجميل. ومن التحفُّظِ عن الصلةِ بإسرائيل إلى التحفُّظ عن مقرّراتِ «سيدة البيره»، أصبح الجميل الأبُ مجرَّدَ مسجِّلٍ للتحفُّظاتِ لا يلبثُ، مغلوباً على أمره[٤٣] في البداية، أن يَمْضِيَ في الإتجاهِ الجديد ويدافعَ عنه.

وإلى هاتيْن الوراثتيْن، سَهَّلَ رحيلُ ريمون إدّه والنزاعُ مع فرنجية الذي وضعَه خارجَ دائرة المارونية الجبلية، وإذعانُ سياسيّي الصفِّ الثاني أو انزواؤهم، كلُّ هذا سَهَّلَ لبشير طريقَه إلى الرئاسةِ تتويجاً لدورِه في الحرب.

وكما قضمَ القائدُ الكتائبيُّ الشابُّ الحياةَ السياسيةَ المارونيةَ ومواقِعَها، قضمَ حزبَ الكتائبِ موقعاً بعدَ آخر، وهو الحزبُ الذي كان قد عَقَدَ آخرَ مؤتمرٍ له في ١٩٧٤، أي قبلَ أشهرٍ على اندلاعِ القتالِ الذي جعل المؤتمراتِ الحزبيةَ لزومَ ما لا يَلْزَم.

ففضلاً عن احتوائه والدَه المؤسِّسَ، عـزلَ جوزيف شادر أوّلَ نائبٍ كتائبيٍّ في البرلمانِ اللبناني، والليبراليُّ الذي كان إبّانَ الحربِ الأهليةِ أبرزَ من تصدّى له ولصُعودِه على قاعدةٍ عسكريةٍ، حتى سُمِّيَ «الخصمَ الألدَّ لبشير»[٤٤]. وإذا كانت معارضةُ شادر، ذي الأصلِ الأرمني المديني، قد عكستْ ممانعةَ التعدُّدِ اللبنانيِّ عن الإنضواء في مشروعٍ نضاليٍّ صَهْرِيٍّ ضَيِّقِ الضِّفاف، فما لا ينبغي نسيانُه أنَّ القياديَّ الكتائبيَّ التاريخيَّ هو الذي وضعَ في الستينيات برنامجاً لبرلمانيي الكتائبِ «كان يطبِّقُه كلُّ وزراءِ الحزب»[٤٥].

لم يقتصِر الأمرُ على الجيلِ الأوّل، إذ تلقّتْ رموزُ الجيلِ الثاني «المُخَضْرَم» ضرباتٍ لا يُستهانُ بها على يَدِ بشير قائدِ الجيلِ الثالثِ النافرِ من الوصاية، والناكرِ لجميل السابقين عليه في التمهيدِ له ولجيلِه. فجوزيف الهاشم مديرُ إذاعةِ «صوت لبنان» الكتائبيةِ مثلاً، تعرَّضَ للإبعادِ، بعد تبادُلِ شهرِ المسدسات مع بشير، بفعل اعتدالِه واستمرارِ صلتِه بأمين الجميل[٤٦]. أمّا إدمون رزق، ولأسباب مشابِهة، فتمَّ تفجيرُ سيارتِه في مطالعِ ١٩٨٠[٤٧].

(٤٣) ... ومؤخوذاً بعواطف أبوية حيال نجله الصاعد الذي يمثّل لـه وجهه الشبابي والمبادر. وبحسب ميشال أبو جودة، «تحفظه بيار الجميل عن ترشيح بشير للرئاسة بل «قيل إنّه عارض في البداية»، النهار ١٩٨٧/٩/٢٥.

(٤٤) برسي كامب، استراتيجية بشير الجميل، سبق الاستشهاد.

(٤٥) من مقابلة المسيرة مع كريم بقرادوني في ١٩٨٦/١٠/١١.

(٤٦) انظر: حازم صاغية، موارنة من لبنان، سبق الاستشهاد، ص ٢٤٦، وفي سياق خلافه مع الهاشم أنشأ بشير «صوت لبنان الحر» كإذاعة ناطقة بلسان «القوات» وحدها.

(٤٧) المرجع السابق، ص ١٩٦.

ابْعَدُ من هذا، أنَّ القرارَ الحزبيَّ لم يَعُدِ الحزبُ مصدرَه، إذْ نشأت غرفةٌ معتمةٌ من ثلاثةِ قياديين كتائبيين مقرّبين من بشير (جوزيف ابو خليل، كريم بقرادوني، انطوان نجم) كانت هي التي «تطبخ» السياساتِ التي على الحزب ان يتَّخِذَها ثم تُقْنِعُ الشيخَ بيار الجميل بها، كما تتولّى حملَ الحزبِ على تبنِّيها(٤٨). ولئن برَّرَ جوزيف ابو خليل هذا الاغتياب بأنَّ حركةَ بشير باتت أسرعَ بكثيرٍ من الحركةِ البطيئةِ لحزبٍ لم يُعِدْ نفسَه ولم تُعِدُهُ الأحداثُ للتعاملِ مع تطوراتٍ إقليميةٍ ودوليةٍ كالتي شهدناها في ظلِّ بشير(٤٩)، فهذا لا يُلْغي إرساءَ عملٍ تآمريٍّ في الحزب، وعليه ما لبث أن تكرَّرَ، غيرَ مرَّةٍ، في السنواتِ اللاحقة.

ويَصِفُ احَدُ تاريخيي الكتائب ما حصلَ آنذاك، حيثُ أنَّ «الجمودَ والضعضعةَ والتواري» في الحزب بدأت «في أواسطِ السبعينيات بعد مصرعِ الشهيد وليم حاوي، قائدِ «القوات النظامية» في الكتائب (١٣ تموز/يوليو ٧٦) عندما سمح بشير ـ وكان نائبَ القائد وليم ـ لنفسِه بحرمانِ الكتائب ذراعَها العسكريةَ اي «القواتِ النظامية»، ثم حوَّلَها إلى «قواتٍ لبنانيةٍ» سرعانَ ما استقلَّتْ عن الحزبِ تفكيراً وتدبيراً. فمضت «تفتح» سياساتٍ وتُشهرُ حروباً وتعقدُ تحالفاتٍ وتنقضُ مواثيقَ وتخطُطُ لمصايرَ. والحزبُ آخِرُ من يعلمُ أو يُستشارُ أو يُوافق. وافادَ بشير من ظروفِ الحرب، وذرائِعها وفيها تعلو كلمةُ السلاح ايَّ كلمةٍ سواها بقدْرِ ما افادَ من تغاضي والدِه عنه [...] وما من مرّةٍ كان يُثارُ الوضعُ الناشىءُ بين الكتائبِ والقواتِ بانتقادٍ قاسٍ احياناً في الإجتماعاتِ الموّسعةِ والضيِّقةِ إلّا كنّا نسمعُ صوتَيْن: احدُهما للشيخ بيار وهو يعلن: «الا تثقون بي وببشير؟ اتركوا الأمْرَ لي وله ولا يقلقنَّ لكم بالٌ فبشير كتائبيٌّ مُنْضَبِط [...] ثانيهُما لبشير»(٥٠).

وبلُغتِه، يروي امين الجميل كيف اصبح الحزبُ، بعد صعودِ بشير وجيلِه «تيّارَيْن يتجاذبانِه: تيّارُ جيلِ الشبابِ او جيلِ الحربِ وتيّارُ جيلِ المُخَضْرَمين او ما قبلَ الحرب، ولا ذاكرة مشتركة تجمعُ بينهما. فقط سلطةُ الشيخِ بيار الجميل وهيبتُه كانتا وسيلةَ الربطِ والجَمْع»(٥١).

هكذا انتهى الأمرُ بكريم بقرادوني، وبعدَ إحكامِ السيطرةِ على الحزب، أن يعلنَ وبلُغةٍ ظافرية، أنَّ «اليومَ في داخلِ حزب الكتائب خزاناً بشرياً كبيراً جداً خلقه بشير الجميل وعلينا نحن انْ نوظِّفَه»(٥٢). والواقعُ أنَّ ما خلقَه بشير، على صعيدِ الحزب، هو

(٤٨) من المقابلتين الشخصيتين مع جوزيف ابو خليل وكريم بقرادوني.
(٤٩) من المقابلة مع جوزيف ابو خليل، الذي يرى في مذكراته انَّ بشيرية انطوان نجم نجمت عن فقدان ثقة بالكتائب، الحلقة ١٦، الحياة ٢٧/٧/١٩٨٩.
(٥٠) الياس ربابي، «مذكرات العين الواحدة»، الحياة ٢٢/٩/١٩٨٩.
(٥١) امين الجميل، «حوار وذكريات»، الحلقة ١٢، الحياة ١٥/١٢/١٩٩٠.
(٥٢) من مقابلة الأنوار معه في ٣/٤/١٩٨٤.

بالضبط بدايةُ استبداله كجهاز بـ «القوات اللبنانية»، والتمهيدُ لاستبداله إيديولوجياً. اي أنَّ البشيريةَ كانت جسراً انقلابياً تمَّ العبورُ عليه من الكتائبيةِ، ضحيّةِ الإنقلاب، إلى القواتيةِ التي عادتْ عليها فوائدُه.

حتى تركيبُ «القوات التي شكّلَ المقاتلون الكتائبيون عمودَها الفقريَّ، ضمَّ التنظيماتِ المسلَّحةَ الأخرى التي سبق وصفُها بالمحلّيةِ والرمزيةِ والفحوليةِ والتعصّبِ الريفي، ونما الكثيرُ منها في سياقِ النزاعِ مع الكتائبِ أو الاعتراضِ عليها(٥٣).

ومن هذا المركّبِ الكتائبي اللاكتائبي نشأت «القواتُ» كجسمٍ متزايدِ الانقطاعِ عن الجسمِ الكتائبي، وذي ملامحِ هُويّةٍ مُتمايزة، بحيثُ اضحى من الخطأ أن «نفترضَ أنَّ القواتِ اللبنانيةَ هي مجرَّدُ امتدادٍ لأيٍّ من الأحزابِ السياسيةِ الأصليةِ أو الميليشياتِ التي انبثقتْ عنها. ولئن بدا حزبُ الكتائبِ العنصرَ المكوِّنَ المُسَيْطِرَ للقواتِ اللبنانية، فإنَّ المظهرَ يبقى أقوى من المضمون، إذْ نشأت القواتُ كمنظمةٍ مستقلةٍ عن الكتائب»(٥٤).

يصحُّ الأمرُ نفسُه حتى على المقاتلين ذوي الوَلاءِ المزدَوج، إذْ بَدَوْا أمْيَلَ إلى القواتِ بُحكمِ وظائفهم العسكريّةِ وأعمارهم سواءً بسواء. هذه مثلاً، كانتْ حالَ «انصار الكتائب»، وهم غالباً «إمّا مسيحيون عَرَّضَهم القتالُ للتهجير، وإمّا أنّهم انجذبوا أصْلاً إلى الكتائب حين كانت الأخيرةُ إحدى التنظيماتِ شِبْهِ العسكريةِ القليلةِ القادرةِ على إمْدادِ الكثيرين من اللبنانيين القلقين بالأسلحة والتدريب ليُدافعوا عن أنفسهم. إنَّ ولاء هؤلاء الناس للقوّاتِ اللبنانيةِ يُمكنُ اعتبارُهُ بديهياً، الشيءُ الذي لا ينطبقُ على ولائهم الكتائبي»(٥٥).

ضبط الانقلاب

لا يُلْغي الكلامُ عن تطرُّفِ بشير، التوقُّفَ عند محطّاتٍ ودقائقَ انطوتْ عليها سياستُه خصوصاً في ١٩٨١ ــ ١٩٨٢. ولئن لم يُتَحْ لهذه الدقائقِ أن تتطوَّرَ بفعلِ اغتيالِ صاحبها بعد عشرينَ يوماً على انتخابه رئيساً، إلاّ أنّها أشارت، مجدداً، إلى الإزْدِواجات الكتائبية، ولو كان مناخُ ظُهورها هذه المرة أكثرَ احتداماً بكثير من مناخاتِ ظهورها السابق. كذلك اشارت إلى أنَّ الإدزواجَ الكتائبيَّ هو ما ينكشفُ علناً في مختَبَرِ العَلاقةِ بالدولة ووظائفها، انكشافه أمام امتحان الخوف والطمأنينة.

(٥٣) راجع الفصل الرابع. جدير بالذكر أنَّ مجلس قيادة القوات ضم ٨ ممثلين عن الاحزاب والقوى الأساسية المشكلة لها، اي الكتائب والأحرار والتنظيم وحراس الأرز.

(٥٤) Lewis. W.Snider. *The lebanese forces...*, *op. cit.*, p. 137.

(٥٥) *Ibid.*, p. 139.

فقد رافقتِ المُصالحةُ مع السركيسيةِ ملامحَ اعتدالٍ لم يكُنْ مألوفاً قَبْلاً. صحيحٌ انَّ التَّحالفَ مع إسرائيل والتوجُّهَ نحو الولاياتِ المتحدةِ بقِيا الثابتيْن الحاكميْن لاستراتيجيةِ الرجل، إلا انّ التركيزَ على المَنْحى الثاني بدأ يتزايدُ في صورةٍ ملحوظةٍ(٥٦). وإلى خُطَب وتصريحاتٍ أقلَّ انقلابيةً راحتْ تظهرُ في سنتَيْ عمره الأخيرتيْن، جاء الانفتاحُ النسبيُّ على الزعامةِ السلاميةِ في بيروت، والمملكة العربيةِ السعودية، ليؤشّر إلى احتمالٍ، كان بشير ـ الرئيسُ ـ مُلْزَماً بتطويره في ما لو أتيحَ له أن يحكم.

بلُغةٍ أخرى، مثَّلَ القائدُ الشابُّ، نجلُ بيار الجميل، حالةَ ترجُّحٍ بين الكتائبية واللاكتائبية: الأولى، الضعيفةُ، تدفعُه إلى الاهتمام بالصيغةِ والعواملِ التعدُّديةِ والعربية، وهي على ضعفِها تكسبُ بعض النماءِ في موازاةِ اقترابها من الدولة والإطمئنان الناجم عن هذا الاقتراب. والثانيةُ، القويةُ، تقودُه إلى الإغفال عن التركيبِ الداخليِّ اللبنانيِّ والإملاءاتِ السياسيةِ العربية.

فقد اعتُبِرَ العامُ ١٩٨١ زمنَ الانتقالِ من «معركةِ التحرير» إلى «معركةِ التوحيد»، وفي ٢٩ تشرين الثاني، وفي الذكرى الخامسةِ والأربعين لتأسيسِ الكتائب، ألْقَى بشير «خطابَ الوعد» مفتتِحاً معركةَ رئاسةِ الجمهورية، طارحاً شِعارَ الـ ١٠٤٥٢ كلم مربعاً، ومطالِباً برئيسٍ قويٍّ وبفتحِ مَلَفِّ العَلاقاتِ اللبنانيةِ ـ السوريةِ ونقلِ النزاعِ من المجالِ العسكريِّ إلى السياسيِّ من ضمنِ تصورٍ عامٍّ للتسوية(٥٧). وقبلَ يومٍ واحدٍ كان بعضُ الزعماءِ المسلمين الموصوفين بالاعتدال، قد أدْلَوْا بتعليقاتٍ على عيدِ الكتائب شديدةِ التفاؤلِ والترحيب، فقال صائب سلام «إنَّ ما نراه هو إلحاحٌ على الوَحدةِ اللبنانية» واعتبرَ كاظم الخليل «أنَّ التضحيةَ صنوُ بيار الجميل»(٥٨).

انعكسَ التَّوجُّهُ الجديدُ هذا على أكثرِ من صعيد. ففي تفسيرِه الوثيقةَ التي قدَّمَها بشير بعدم التعاونِ مع إسرائيل تجاوباً مع مطلبٍ سوريٍّ وعربي، يرى بقرادوني «أنَّ الوضعَ الدوليَّ بات ملائماً أكثر. فالأميركيون يفهمون موقفَنا اليومَ في صورةٍ أفضل، وهم ربَّما مستعدّون لمدِّ يدِ العونِ لنا. ثمّ انّنا نعتقدُ بأنَّ المسلمَ اللبنانيَّ بدأ يدرك معنى التعايشِ مع المسيحيِّ اللبناني»، وهو يلاحظُ في المقابلةِ نفسِها التي أجرتْها معه «ليبراسيون» الفرنسية «يقظةٌ إسْلاميةٌ على اللبْننة»(٥٩).

(٥٦) ترافق ذلك مع تعويل مبالغ فيه على اميركا ودورها وقدرتها العربيين: من صعود ريغان ورئاسته القوية إلى خطته لتسوية أزمة الشرق الأوسط بعيد ترحيل المقاتلين الفلسطينيين من لبنان. وربما سهّل هذا العامل على بشير الجميل انتهاج سياسات اكثر اعتدالاً حيال العرب بمن فيهم سوريا، إذ احتلّ الفلسطينيون المرتبةَ الاولى في العداء إذّاك.

(٥٧) انظر صحف ١٩٨١/١١/٣٠.

(٥٨) انظر صحف ١٩٨١/١١/٢٩.

(٥٩) عن **العمل** ١٩٨١/٨/١٢.

وبحسبِ الروايةِ اللاحقةِ لـ «حصاد الأيام»، اصطدمَ بشير بعد انتخابه رئيساً «بالمقابلِ الذي تطلبُه الدولةُ العبريةُ وقد بدا له كبيراً جداً. قال لمخاطِبيه (الاسرائيليين): «ما يَقْبَلُ به رئيسُ حكومتي العتيدةِ اقبلُ به انا. فلبنانُ كلُّه يقرِّرُ الصلحَ معكم أو لا يقرِّره». وإذا كانت وقائعُ لقاءِ نهاريا قد باتت معروفةً، فإن افتتاحيةَ «العمل» التي تُضْفي على تقديمِها مِسْحَةً بطوليةً، تُسجِّلُ أنَّ بشير فوجىء في اليومِ التالي لانتخابه بمندوبِ التلفزيون الإسرائيلي «يسألُه رأيَه في مستقبلِ العلاقةِ بين لبنانَ وإسرائيل» فأجابَ بحدَّةٍ «أنا رئيسٌ لكلِّ اللبنانيين لا لبعضِهم فقط»، ولمّا بلغَه «نبأ الاشتباكاتِ المسلَّحةِ بين القواتِ اللبنانية والاشتراكيين في قبيع وجوارِها، اصْدَر أمرَه بسَحبِ «القوات» فوراً وهو يقول «لا أُريد حرباً مع الدروز ابداً»، ثم انتقلَ إلى الكحالة ليؤكِّد أمامَ حشْدٍ من مشايخِ الطائفةِ الدرزيةِ ما قالَهُ قبلَ ساعات».

وتختمُ «العمل» متطرقةً إلى العلاقةِ بسوريا التي «لم تَغِبْ عن ذهنِه ابداً [...] وخصوصاً في عزِّ الحصارِ الإسرائيليِّ للعاصمة، فأوفدَ ثلاثةً من معاونيه إلى دمشق، مرةً ومرتيْن وثلاثاً للتأكيد على ذلك»(٦٠).

ويعود جوزيف ابو خليل، بعد سنوات، إلى بعضِ تفاصيلِ لقاء نهاريا، حيث «واجه بشير إصرارَ بيغن على توقيعِ اتفاقِ سلامٍ مع إسرائيل، من غيرِ أن يحْظى بإجماع اللبنانيين أو أن يُراعيَ موقعَ لبنانَ العربي، فرفَض ذلك. كما رفضَ طلبَ بيغن إصدارَ بيانٍ يُعلنُ فيه عزمَه على توقيعِ الاتفاق. وقد انتهى اجتماعُ بشير وبيغن في نهاريا في ٩ أيلول بمشادّةٍ شتمَ فيها بيغن كلّاً من الرئيس شمعون والشيخ بيار وبشير نفسَه لعدم توجيهِهم الشُكْرَ إلى إسرائيل على اجْتياحِها لبنان»(٦١).

ويتولّى بقرادوني الحديثَ عن الصلةِ بالسوريين، وإنْ ظلّ يصعبُ وصفُها بالجِوار، إذْ جرى آخِرُ اتّصالٍ معهم «قبلَ اسبوعٍ من انتخابِ الرئيسِ الراحل»(٦٢). قبلَ ذلك «وفي عزِّ التقدُّمِ الإسرائيليِّ في لبنان [...] قُمْتُ بزيارتيْن إلى دمشقَ لنقولَ للقادةِ السوريين إنَّ دخولَ إسرائيل وتراجُعَ الجيشِ السوريِّ، لا يعنِيان إلغاءَ الدورِ السوريِّ ولا إلغاءَ العلاقاتِ اللبنانيةِ ـ السورية. وبالطبعِ كنتُ اذهبُ باسمِ بشير الجميل»(٦٣).

وتنوَّعت المُحاولاتُ البشيريةُ لإحداثِ اختراقاتٍ، مهما كانت طفيفةً، في النهجِ الذي رافقَ سنواتِه الأولى. فبحسبِ افتتاحيةِ «العمل» كان بشير «قبلَ استشهادِه بساعاتٍ يستعدُّ للمشاركةِ في القمَّةِ العربيةِ في الرباط، وقد دُعِيَ إلَيْها بصفتِه «الرئيس المنتخب»

(٦٠) العمل ١٩٨٥/٣/٢٤.
(٦١) الحياة ١٩٩٠/١٢/٩.
(٦٢) الانوار ١٩٨٢/١١/١٤.
(٦٣) انظر مقابلة الكفاح العربي معه في ١٩٨٤/٥/١٤.

لكلِّ لبنان»(٦٤). ويصلُ الأمْرُ ببقرادوني أنْ يَعْرِضَ على الاتحادِ السوفياتيِّ في كانون الأول ١٩٨١ «أن يقومَ بدورِ الشريكِ في حلِّ أزْمة لبنانَ عن طريقِ إدارة الحوارِ بين سوريا والكتائبِ من جهةٍ، وبين الكتائبِ و«منظمةِ التحريرِ الفلسطينيةِ» من جهةٍ ثانية»(٦٥).

إنَّ نظرةً إجماليةً إلى تجربةِ بشير الجميل منذ بداياتِه المتطرفةِ حتى نهاياتِه التي شابَ تطرّفَها قَدْرٌ من الاعتِدال، تشيرُ إلى أنّه مثَّلَ محطةً وُسْطى بين ما وصفناه قبلاً بالكتائبية واللاكتائبية، أي بين الحزبية الدستوريّة وبين العقلية والسلوك الثوريْن الآيلَيْن إلى دمارِ الحزب.

وبهذا المعنى فعندما رَحَلَ بشير، ترك وراءه نقاشاً معلّقاً تسكنه أزمةُ الحزب الكبيرة، فحزبيّو الحزب حرصوا على رسمِ صورةٍ له أقربَ إلى ملمحِهِ الجميلي، حيث أنّه، على رغم كونه «سيِّدَ الانتفاضات، لم يسمح لنفسِه مرّةً بالتعرُّضِ للمؤسسات الحربية. وقد استمرَّتِ الشرعيةُ عنده قُدْسَ الأقْداس»(٦٦)، بل إنّه كان في استطاعتِه وحْدَه «تسييرُ القواتِ في اتّجاهِ المصالحة» مع الحياةِ السياسيةِ ورموزِها بما فيها حزبُ الكتائب(٦٧). أمّا قواتيو الحزب فرسموا له صورةً أقربَ إلى ملمحِهِ الإنتفاضي إذ أنّه «ولأوّلِ مرّةٍ في تاريخ لبنان أوصَلَ المقاومةَ المسلَّحة إلى الحكم وبالطرقِ الشرعية [...] وإذا لم تصل المقاومةُ المسلَّحةُ فإنها تبقى في خارجِ الحكمِ مثلما تعرَّضنا له في السنة ١٩٤٣، يومَ كانت الكتائبُ والنجادةُ في الشارعِ ولم يَصِلا إلى الحكم، إذْ وصل مكانَ الكتائبِ بشارة الخوري ومكانَ النجادةِ وصلَ رياض الصلح»(٦٨).

واقعُ الأمْر أن كلاًّ من الطرفيْن قال نصفَ الحقيقة. فبشير لم يَكُنْ ذاك الطائعَ للمؤسسات، المُذْعِنَ لعملِها، في هجومِه على السلطة. كما أنّه لم يَكُنْ ذاك المنتفِضَ الكاملَ عليها من دون حسابِ لعائلةٍ أو تقليدٍ سياسي، كما رُحْنا نشهدُ مع ورثتِه. فارتباطُه ببيت بيار الجميل أبقى ارتباطَه، ولو مخفّفاً، بالصِّيغةِ التي شاء مرةً أن يدفنَها، وبلَوْنٍ من تركيبِ المجتمعِ اللبناني وتعدُّدِه. كما أنَّ وصولَه إلى الرئاسة خلقَ عندَه تفاؤلاً ساهمَ في تعديلِ توجُّهِه نحو الآخرين خلال أيّامِه الأخيرة، بما حمل أديباً وكاتباً ديمقراطياً لم يجمعْه مرةً موقعٌ واحدٌ ببشير الجميل، على أن يصِفَ التحوُّلَ الذي طرأ على صورتِه بين ما قبلَ انتخابِه رئيساً وما بعدَه، كتحوُّلٍ من صورةِ فرانكو لبناني إلى «صورة ديغول

(٦٤) **العمل** ١٩٨٥/٣/٢٤.
(٦٥) **العمل** ١٩٨١/١٢/٩.
(٦٦) **العمل** ١٩٨٥/٣/٢٤.
(٦٧) **العمل** ١٩٨٥/٧/٢٤.
(٦٨) محاضرة بقرادوني المنشورة في **العمل** ١٩٨٣/٤/٢٢ وفيها يرد تاريخ رغبة بشير في تغيير الشرعية بالطرق الشرعية، إلى العام ١٩٨٠.

لبنانيّ مَشوب بميتران [...] فهو يبدأ بالخمسةِ آلاف شهيدٍ وينتهي بالمئةِ ألفِ ضحية»[٦٩].

لقد كان بشير مؤسِّس الطريقةِ في زمنٍ من جُنوحِ الشرق الأوسطِ برمَّتِه نحو التطرُّف: حرب لبنان، وصول ليكود إلى السلطة في ١٩٧٧، كمب ديفيد التي فاقمت الاحتقانَ السوريَّ ـ الفلسطينيَّ، ثورة الخميني، رئاسة ريغان، وأخيراً، اجتياح ١٩٨٢.

والتلاميذُ، في العادةِ، يفوقون شيخَ طريقتِهم تطرُّفاً، خصوصاً حين تضعفُ تأثيراتُ الروابطِ البيتيةِ والتقليديةِ عليهم، فيما لا يكونُ وصولُهم إلى الرئاسةِ، أو أيُّ موقع دستوري سياسيٍّ، احتمالاً مطروحاً بالقَدْرِ الذي كان مطروحاً مع الأستاذِ المُؤَسِّس.

لم يؤدِّ الانفجارُ في مقرِّ الكتائبِ في الأشرفيةِ إلى مصرعِ بشير الجميل ورفاقِه فقط، لكنه أدى أيضاً إلى ترجيحِ كفةِ إحدى القناعاتِ المتداولةِ دائماً في أزمنةِ الخوفِ والقلقِ عند الكتائبيين والمسيحيين عموماً.

وهذه الحقيقة التي ساهمت أصلاً في إنتاج حزبِ الكتائب نفسِه، هي أنَّ «الدولة» ليست مصدرَ الاطمئنانِ الأخير، إذْ بعد وصولِ بشير إلى ذروتِها عادت الأمورُ إلى الصفر من جديد. واستطراداً، فإنَّ مصدرَ الإطمئنانِ وطردِ الخوفِ هو المجتمع، والقوةُ الأهليّة، الذاتية تالياً، أكان هذا المجتمعُ مقسَّماً بما يجعلُه معادِلاً لهذه القوة، ومَسْرحاً لها، أم موحَّداً تنهضُ وَحدتُه على غَلَبةٍ كاسحةٍ ونهائيةٍ تنعكسُ تالياً على الدولة.

ولئن كان أصحابُ هذا الرأيِ قادرين على إسنادِه بِعددٍ من الحُجَجِ التاريخيّة، كإفْضاءِ الإستقرارِ الشهابيِّ عبْرَ الدولةِ إلى الفوضى والتقاتلِ في أواخرِ الستينيات، فإن انتقالَ رئاسةِ الجمهوريةِ إلى أمين الجميل، الكتائبيِّ غيرِ القواتيِّ، لم يعُدْ كافياً لأنْ يطمئِن القواتيين وقطاعاً واسعاً من المفجوعين ببشير وتجربتِه. هذا إنْ لم نَقُلْ إن وصولَ أمين وما عبَّرَ عنه هذا الوصولُ من تجديدِ الثقةِ بالدولةِ كمصدرٍ للإطمئنانِ[٧٠]، كان له أثرٌ مُعاكس. ولمّا كان ما أطلقه المجتمعُ الأهليُّ المسيحيُّ، منْ خلال بشير، وفي أشكالٍ مُمَوَّهةٍ من صراعاتِ المناطقِ والأجيالِ والفئاتِ الاجتماعية، غيرَ قابلٍ لِلَّجْمِ والإلْغاء، بدا وكأنَّ شقيقَهُ الأكبرَ «سرقَ تضحياتِ القواتِ بذرائعَ عائليةٍ وتقليدية»[٧٠].

حتى النائبُ الكتائبيُّ الموصوفُ بـ «الاعتدال»، جورج سعادة، بات بعد تلك

(٦٩) عبّاس بيضون، عن بشير الجميل، في السفير ١٩٨٢/٩/١٧. واقع الأمر انّ بينات كثيرة عرفت بعدائها لبشير الجميل شرعت، خلال تلك الأيام، تُعيد النظر في طريقة حكمها عليه.

(٧٠) من المقابلة مع كريم بقرادوني (١٩٨٦) وهو ينقل جو «القوات» حينذاك. بدوره اعاد الياس ربابي خلاف الـ ١٩٨٥ بين الحزب والإنتفاضة إلى أمين وبشير ومآخذ البشيريين أو القواتيين على أمين. راجع المقابلة معه في مجلة الكفاح العربي ١٩٨٥/١٢/٩.

التجربة، وبحسب تعليقٍ متأخر لـه، من المعتقدين بـأن «الضمانـاتِ لم تَعُدْ كـافية». أمّـا «العمـل» فلم تتلكّأ في التشكيـكِ بعلامـاتِ السلم البارد الجـديد حيث لا يـزالُ الإطمئنانُ مربوطاً بالوجودِ الإسرائيليِّ المباشر، ولو أنَّ هذا الوجـودَ لم يعُدْ مضمـوناً بـالكامـل بعد تجربة حرب الجبل. كذلك لم تتردَّد «العمل» في استرجاعِ التجربةِ السابقةِ كلِّهـا من هذا المنْظور، إذْ أنَّ «الذين اجتمعوا في المصيطبة قبل أشهر لإطـلاقِ حركـةِ الإعتراضِ على ترشيحِ بشير الجميل للرئاسة لم يتورَّعوا عن اللجوءِ إلى سلاحِ العدوِّ ومنطقِـه [...] ومن ذلك أنَّ اللجوءَ إلى هذا «السلاح» واردٌ في أيِّ حين، وربما بعد أن يتمَّ إقصـاءُ إسرائيـل وجيشِها»(٧٢).

ولا يُؤْتى بجديدٍ حين يُقال إنَّ لحظاتِ الخوفِ والقلقِ تُرسـلُ أصحابَهـا إلى طريقـةٍ مهـووسةٍ ولا عقـلانيةٍ في التفكيـرِ والعملِ قـابلـةٍ لأن تصطـدَم بـالتَّـراتُبِ والمؤسسـاتِ والأنصبة وكلُّ مـا تمَّ التعارفُ عليـه(٧٣). فكيف بعد حـالةٍ من الاطمئنـانِ المشبعِ كـالتي حرفها الكتائبيون، والمسيحيون عموماً، مع بشير ورئاسةِ العشرين يوماً.

مـا فاقمَ هـذه العناصـرَ كلُّها أنَّ مصـرعَ بشير انـدرجَ في وجهةٍ عـامـة، داخليـةٍ وإقليميـة، لا تبعثُ إلّا على الخـوف. فـالإنكفـاءُ الإسـرائيليُّ المصحـوبُ بهـزيمـةٍ مُـرّةٍ للمسيحيين في الجبل، رافقه هجومٌ سوريٌّ من خلالِ حربِ الجبلِ وبعدَها، بلغ ذروتَه في «انتفاضة» ٦ شباط ١٩٨٤(٧٤) وحواراتِ جنيف ولـوزان في تشرين الثـاني ١٩٨٣ وآذار ١٩٨٤. ولم يَفُتْ أحدَ الكتائبيين الذين عاشوا تلك الأحداث عن قرب أن يُـلاحِظَ أنَّ مؤتمرَ لوزان «لم يَكُنْ مُتَوازناً ولا الحكومةُ التي انبثقتْ منه كانت مُتوازنة». وينطبقُ الوصف نفسُه على التسويةِ التي تَضمَّنها البيانُ الوزاريُّ للحكومـةِ المذكـورة. فمُقابـلَ نبيه بـري ووليد

(٧١) من مقابلة مجلة الشراع معه في ٢٢/٩/١٩٨٦.

(٧٢) **العمل** ١/١١/١٩٨٢.

(٧٣) يجد هذا السلوك جذوره الكتائبية البعيدة في اكثر المراحل الفالانجية حدّة، ففي خِضَمّ حركة انطون سعـادة الإنقلابية في ١٩٤٩، اندفعت «العمل» إلى المطالبة بإغلاق الجامعة الأميركية في بيـروت لانها تضم «أعداء لبنان». عن الدكتور مصطفى خالد والدكتور عمر فروخ، التبشير والاستعمار، المكتبة العصريّة، صيدا، لبنان، ص ٩١. ولا تلبث **العمل** إياها في ٢٨/٢/١٩٦٦ أي مع بدايات الصعود الفلسطيني المسلح وتفكك الدولـة الشهابية، أن ترى ان الجامعة اللبنانية «بحالتها الحاضرة ليس فيها من اللبنانية سـوى الإسم، وفيها كـل ما هو ضد لبنان، ضد كيانه، ضد استقلاله، وضد روحيته ورسالتـه». عن وضّاح شـرارة، **السلم الأهلي البارد**، سبق الاستشهاد، ج ٢، ص ٧٦٥.

(٧٤) عن ارتباط أوضاع الغربية وخصوصاً «انتفاضة» ٦ شباط بـ «انتفاضة» الشرقية بعد عام وشهر واحـد، انظر افتتاحية ميشـال ابو جـودة «توازن المعتـدلين» في **النهار** ١٦/٣/١٩٨٥. وعن دور تـزايد التطـرف الديني والسيـاسي في الغربيـة، راجع تحقيق مجلـة **التضامن** في ٥/٤/١٩٨٥. فبـخطابية وحمـاسية تتسم بهمـا كتاباته، علق جبران تويني على «الانتفاضة» وتسبب «الطرف الآخر» بها:

«اما انتم أيّها المتطرفون في «الجبهة الاخرى»، فانتم ايضاً بتشنجكم وتعصبكم ودعواتكم القرون وسطية تعملون على هدم لبنان الذي نـريد. ولـولا دعواتكم القـرون وسطية لمـا تفاقم الخـوف عند المسيحيين ولمـا تفاقمت هذه المشكلة الحزبية». مجلة **النهار العربي والدولي** ٣١/٣/١٩٨٥.

جنبلاط كان كميل شمعون وبيار الجميل في المؤتمر وفي الحكومة وفي التوقيع على التسوية. بل أكثر من ذلك، ففيما الفريقُ المعارضُ والثائرُ على النظام يتمثّلُ بجيلِ الحرب ـ إنْ صحَّ القول ـ كان الفريقُ الآخرُ المُوالي يتمثّلُ بجيلِ ما قبل الحرب أو جيل الأربعينيات. وبكلامٍ آخر، تمثَّلَ المُسلمون يومئذٍ بأصغرِهم عمراً فيما تمثيلُ المسيحيين ظلَّ مُقْتَصِراً على شيخَيْن من شيوخِ صيغةِ الأربعينيات»(٧٥).

إلى هذه الهزائمِ والتراجعاتِ رحلَ مُتعدِّدو الجنسيةِ في آذار ١٩٨٤ أي بعدَ أقلَّ من شهر على استيلاءِ المسلَّحين المُوالين لدمشقَ على بيروتَ الغربية، فيما كان التطرفُ الإسلاميُّ المَرْعِيُّ سورياً وإيرانياً يمارسُ أكثرَ من تأثيرٍ في الوُجْهةِ نفسِها ويَتَحَلَّى بشبابيّة انقلابيّة يستهوي المسيحيين تقليدها، فإلى الدعواتِ المتكاثرةِ إلى إنشاءِ «جمهوريةٍ إسلاميةٍ» في لبنان، حُوِّلَ هذا الأخيرُ ساحةَ عنفٍ وإرهابٍ لم يتردَّدْ في مباركتِها الاتحادُ السوفياتيُّ الطامحُ إلى الحدِّ من النفوذِ الأميركيِّ والأطلسيِّ في المتوسِّط. وبحسب أرقامِ جيرار شاليان جُعِلَ العامُ ١٩٨٣ أكثرَ أعوامِ الإرهاب إزدهاراً بالدمِ في العالَم بأسْره، حيث قضى من جرّائه ٧٢٠ ضحيةً بينَها الـ ٢٤١ جندياً أميركياً في بيروت والـ ٥٧ موظفاً في السفارةِ الأميركيةِ ممن أودَتْ بهم عمليتا تفجيرٍ قام بهما أصوليون إسلاميون(٧٦).

وفي مواجهةِ انقلابيةِ الطوائف الأخرى كان من «الطبيعي» أن تتعرَّضَ للإنقلابِ بقايا المواقعِ الدستورية عند المسيحيين، إذْ بحسب أحدِ الذين قادُوا «انتفاضةَ» آذار ١٩٨٥ على الكتائب: «لماذا يكون مسموحاً لدى الطوائفِ الأخرى بتغييرِ رئيسِها وليس مسموحاً لنا أن نفعل ذلك [...] عندما يستقبلُ السوريون الشيخَ سعيد شعبان في دمشقَ وهم يعرفون كيف يُسَيْطرُ على طرابلس، فإن ذلك بالنسبةِ إليهم لا يبدو مُتعارضاً مع استقبالِهم رشيد كرامي كأحدِ رموزِ الشرْعية»(٧٧).

ولغةٌ كهذه لم يَعُدْ يعوزُها الجمهورُ اليائسُ والمُحْبَط. فإلى الأفواجِ المتعاظمةِ من المهجَّرين، حملت مطالعُ العام ١٩٨٣ إلى المناطقِ الشرقيةِ مُهَجَّري الجبلِ المسيحيين ممَّنْ قُدِّرَ عددُهُم بـ ١٢٥ ألفِ شخص، الرقم الذي ما لبثَ أن تزايَدَ مع الكوارثِ اللاحقةِ في الشوفِ وشرقِ صيدا(٧٨). وبدَوْرِهِ أطلقَ الإجْتياحُ الإسرائيليُّ والظروفُ التي تَلَتْهُ موجةً جديدةً من الهجرةِ إلى الخارجِ «تمثَّلَتْ بمُغادرةِ اللبنانيين البلادَ بمعدَّلِ ٥٠ ـ ٦٠

(٧٥) جوزيف أبو خليل، «حرب لبنان ـ مراجعة ونقد ذاتي»، الحلقة ٤٧، في **الحياة** ١/٩ج١٩٨٩.
(٧٦) Gerard Chaliand, *Terrorism from popular struggle to media spectacle*, Saqi books, 1987, p. 89.
(٧٧) الكلام لإيلي أسود، في **النهار** ١٩٨٥/٣/٢٦.
(٧٨) عن غسّان سلامة، **المجتمع والدولة**...، سبق الاستشهاد، ص ٢٤٣.

الفِ شخص سنوياً[٧٩] بما زادَ في إضعافِ العَصَبِ الداخليِّ للمجتمعِ ومؤسساتِهِ وبنيتِه الذِّهنيةِ عموماً.

مقدمات الانتفاضة

كان الدرسُ الأساسيُّ الذي تعلَّمتْه «القوات» من حرب الجبلِ وهزيمتِها، التعويلَ على ضرورةِ «الوحدةِ المسيحية». ذلك انَّ السببَ «الواحدَ» للهزيمةِ، كما قرأها كريم بقرادوني، أن «المسيحيين كانوا مُنْقَسِمِين ومن دون حليفٍ، في حين أن الدروزَ كانوا متّحدين ومعهم اكثرُ من حليف»[٨٠].

ومن دون انْ تختفِيَ اسبابٌ تفصيليةٌ اخرى كان القُواتيون يوردونَها، كسياسةِ أمين الجميل وعدم إبرامِ اتفاقيةِ ١٧ ايار مع إسرائيل، بقيتْ مسألةُ الوَحْدة أُمَّ المَسائل. فإذا ما نُظِرَ إليها بعينٍ نَرْجسيةٍ ومُعْتَدّة بذاتها كعينِ القوات، أمكنَ القولُ أنَّ عدمَ إحرازِ هذه الوَحدةِ هو ما أتاحَ «في لحظةٍ ما» تلاقي المصلحتين «السورية والإسرائيلية ضدَّ الحكم»[٨١].

إلا ان هذه الوحدةَ، مَثَلُها مَثَلُ دعوةٍ إيديولوجيةٍ إلى الوَحدة، لا بدَّ أن تَمُرَّ بالفرز الحادّ، خصوصاً عن الجسدِ الأعرضِ الذي صدر عنه حَمَلَةُ الدَّعْوة. فبقرادوني مثلاً اشارَ قبلَ عامٍ على الانتفاضةِ إلى تبايُنٍ في الرأيِ بين القواتِ والشيخِ بيار الجميل حيث يرى الأخيرُ «ضرورةَ الرجوعِ إلى ميثاقِ ١٩٤٣، فيما نعتقدُ نحن بضرورةِ قيامِ ميثاقٍ جديد»[٨٢].

وفي تلك الفترةِ شرعتْ تتكاثرُ الدعواتُ والطروحاتُ الشعبويةُ حول الأجيالِ الجديدةِ وقوى التغيير، وهي تسمياتٌ للميليشياتِ المسلحةِ مداروةً أو مباشرةً، عملت على توفيرِ الغطاءِ «الفكري» للإنتفاضةِ ومن بعدها «الإتفاق الثلاثي». وما كانت تضمرُه هذه الدعواتُ تأسيسُ حوارٍ بين «وحداتٍ» شابةٍ فرضَها مقاتلو كل واحدةٍ من الطوائفِ على طائفتِهم وجماعتِهم، أيِّ السعيُ إلى توحيدِ «العشائر» التي وُحِّدتْ كُلٌّ منها قَسْراً، وعبرَ إطلاقِ قَدْرٍ لا حَصْرَ له من القَمْعِ والكَبْتِ والتَفَاوتِ في داخِلِها.

تَرافقَ هذا التوجُّهُ الجديدُ نحو الميليشياتِ مع كلامٍ جديدٍ عن سوريا ودورها، لعبت عناصرُ متعددةٌ في تشكيلِه. فالسوريون يرعَوْن في آخرِ الأمرِ التنظيميْن العسكريَّيْن (امل

(٧٩) من مقابلة مع بطرس لبكي اجرتها **الحياة** ١٩٨٩/٩/٨.

(٨٠) **العمل** ١٩٨٤/٩/٤.

(٨١) المرجع السابق.

(٨٢) **النهار** ١٩٨٤/٣/١٠. من اجل بعض بنود هذا البرنامج الجديد، راجع مقابلة **النهار العربي والدولي**، ١٩٨٤/٣/٢٥، معه عن الفيدرالية وغيرهما.

والاشتـراكي) اللذيْن تنـوي «القواتُ» محـاورتَهُما. ولئن انتقـلَ الإسرائيليـون، مع تسلُّمِ موشي أرينز وزارةَ الدفاعِ بدلاً من أرييل شارون، إلى سياسةٍ غيرِ تدخُّلِيّةٍ، في ما يتعدّى المناطق الحدوديّة، باتَ من الضـروريِّ أن تُبْنى جسورٌ مـع الطرفِ الإقليميِّ الـذي خرجَ منتصـراً في حربِ الجبـل. ولم تَعْدَمْ هـذه الحساباتُ عناصـرَها الضِّمْنِيَّـةَ وبينَها اثْنـان اساسيان، أوّلُهما أنَّ سوريةَ هي ايضاً بلدٌ تحكُمُه الثورةُ على التقاليدِ السياسيةِ والطبقاتِ المحـافظةِ، والحـزب الذي تمـرَّدَ على قيادتِـه العفلقيّة التـاريخية، والثـاني المتفـرعُ عن النـرجسيـةِ المسيحيـةِ عنـد «القـوات»، أنَّ الحـوار بينهم وبين السـوريين يُقنِـعُ دمشقَ بالتعاملِ معها بدلاً من حلفائها المسلمين، لا بل يجعلُ «القوات» موضِعَ تنافسٍ سوريٍّ ـ إسرائيليٍّ ما دامَ أنّها لم تقطعِ الصلةَ في صورةٍ نهائيةٍ مع الإسرائيليين.

هذه التّصوراتُ التي تَبيَّنَ لاحقاً أنّها ضـرْبٌ من الشطارة الخفيفـة، واكَبَتْها تعـابيرُ متفاوتة الصّـرَاحة. ففي ١٩٨٤/٤/٢٤ ايْ بعـد أيّام على ٦ شبـاط حين استولى مقـاتلو «أمل» و«الاشتراكي» على بيروت الغربيـة، اعلن بقرادوني أنّ «القـوات» تُحضِّرُ مشـروعَ تفاوضٍ جديٍّ مع التنظيمَيْنِ المذكورَيْن، نافياً أنْ تكون سوريا «طامعةً بأرضِنا»، إذْ كلُّ ما تريدُه هو أن يكونَ الجيشُ والسياسةُ في لبنـان «متعاطفيْن معهـا»[٨٣]. وتدريجـاً تطورتْ مواقفُه من سوريا التي هي «عقدةٌ لمُتجاهِليها» وهي «الحلُّ لمن يتعاملُ معها»[٨٤].

وفي مواجهةِ حكومةِ «الوحدة الـوطنية» الكـراميةِ التقليـدية، راح بقـرادوني يطرحُ تسويةَ القوى الميليشياويةِ الثلاث، والسلامَ الذي يقوم على «تشريع» الميليشيات وأمنِها، كـلٌّ واحـدةٍ في منطقتِهـا، زاعمـاً وجـودَ صيغـةٍ بهـذا المعنى تـمَّ نقلُهـا لـ «أمـل» و«الاشتراكي»[٨٥]. ولئن رفضَ ما اسماهُ «تعويم صيغة ١٩٤٣» مُتَحَدِّثاً عن حلٍّ ينجمُ عن تفـاهمِ الميليشياتِ ولا يتمُّ بمعـزلٍ عن سوريـا[٨٦]، فقـد ذهبَ بعيـداً في رسمِ «القيم» السياسيةِ للتسـويةِ المنشـودةِ بما يـوحي بأنَّ التسـامحَ الـذي يُبْديـهِ حيالَ الآخـرين لا يستبطِنُ الـوحدةَ اللبنـانيةَ قـدْرَ ما يستبطنُ فضَّ الشـراكـةِ بصيغـةٍ فيـدراليـةٍ أو ربّمـا كونفيدراليةٍ ما. في هذا المعنى تُصْبحُ القوى الأخرى، في عُرْفِ القواتِ، غيرَ مُطالبةٍ بأيٍّ من الشروطِ التي درجَتِ الكتائبُ على المُطالبةِ بتوافُرِها. فالسيدُ محمد حسين فضـل الله الموصوفُ بالأبّوةِ الروحيةِ لـ «حزب الله» اللبناني، هو من يُسَجِّلُ له بقرادوني «دعوتَه إلى حماية المسيحيين ونـداءَه إلى الحوارِ مـع جيل الشبـابِ من أجلِ التغييـر»، معتبراً أنّـه الرجلُ الذي «لا يُراوغُ في إسـلاميته»، ويـدعو إلى إقـامةِ حُكْمٍ إسـلاميٍّ في لبنان. على الأقلِّ هو رجـلٌ صريـحٌ يقولُ الحقيقـةَ التي يؤمِنُ بها، ونحن في المقـابلِ نقـولُ الحقيقةَ

(٨٣) العمل ١٩٨٤/٤/٢٥.
(٨٤) السفير ١٩٨٤/١١/٢٧.
(٨٥) انظر مقابلة الكفاح العربي معه في ١٩٨٤/٥/١٤.
(٨٦) انظر السفير ١٩٨٤/٧/٣٠ والعمل ١٩٨٤/٧/١٥.

ومستعدّون للحوار معه في كلّ شيءٍ وكلّ الوقتِ اللازم»[٨٧].

لم يَعْنِ هذا التوجُّه أنَّ اللُّغةَ التي سادت إبّانَ حرب الجبل، عن الفوارقِ الجوْهريةِ بين الطوائفِ وعن النزاعاتِ التاريخيةِ الضاربةِ دائماً وأبداً[٨٨]، قد طُويَتْ تماماً، فهي راحت تحتلُّ الموقعَ الضِّمْنِيَّ الذي لا تَتِمُّ تلبِيَتُه إلا بِحوارٍ يقودُ إلى كَسْرِ الوَحدةِ اللُّبْنانيةِ كما بُنِيَتْ في ١٩٢٦ و١٩٤٣.

وبهذا المَعْنى توهَّمَتِ الثوريةُ القواتيةُ وجودَ مَحطّاتٍ ثلاثٍ مُتكامِلة:

١ ـ تَصْديعُ ما تبقّى من وَحدةٍ مسيحيةٍ أنْشأها بشير الذي جمعَ السلطةَ إلى الميليشيا، لإقامةِ وَحدةٍ قويةٍ متراصّةٍ في ظل قيادتِها الراديكالية.

٢ ـ الحوارُ مع أطرافٍ مُشابهةٍ في الطوائفِ الأخرى، لكنّها مختلفةٌ «جوهَرياً» بسببِ صُدورِها عن طوائفَ أُخْرى.

٣ ـ إعادةُ بِناءِ لبنانَ ذي السلطةِ المركزيةِ الإسميةِ حيث لكلِّ جماعةٍ ثوريةٍ «سياستُها».

لم يَكُنْ مَطْلوباً، إذن، غيرُ رَحيلِ بيار الجميل الذي حاولَ إعادةَ الاعتبارِ لنَهْجِ إحالةِ السياسةِ إلى الدولةِ التي يَقِفُ نجلُه أمين في ذروتِها، وكانت له قدرةٌ على التوسُّطِ والحلِّ وثيقةُ الصِلةِ بدورِه التاريخِي. فالنهجُ المذكورُ لم يَعُدْ من المُمْكِنِ العَمَلُ به في ظلِّ صعودِ الجسمِ الجديد، القواتِ اللبنانيةِ، الذي نما على حسابِ الجسمِ الكتائبيّ، وشكّلَ العنصُرَ الطارِىءَ الكبيرَ على الحساباتِ التقليديةِ للكتائبِ وعلى إمْكانِ اعتِمادِها مُجَدَّداً.

وبرحيلِ المُؤسِّسِ لم يَبْقَ من قيدٍ ماديٍّ أو معنويٍّ يحولُ دون انفجارِ «الإنتفاضة» على حزبِ الكتائبِ المتَّهمِ بالخضوعِ للرئيس الجميل، من خلال شخصِ رئيسِه إيلي كرامة، وعلى سيطرةِ الحزب، والجميل تالياً، على «القوات»[٨٩].

الانتفاضة حدثاً

ترافقَ انفجارُ الإنتفاضةِ في ١٢ آذار ١٩٨٥ وهي التي أسمَتْ نفسَها «حركة القرارِ المسيحي» وطرحت شعارَ «أمنُ المجتمع المسيحي وحريَّتُهُ فوقَ كلِّ اعتبار» مع اقتراب

(٨٧) **العمل** ٢/٦/١٩٨٤. وفي العدد نفسه من الجريدة نفسها يقرر بقرادوني أنّ «أمامنا فرصة ٣ أشهر للتفاهم مع التقدمي وأمل».

(٨٨) كعيّنة على هذه اللغة، انظر: بول عنداري، **الجبل حقيقة لا ترحم**، ١٩٨٥، لا ذكر لدار النشر.

(٨٩) اعتُبر حلول فؤاد أبو ناضر، وهو ابن شقيقة أمين الجميل، محلّ فادي فرام في قيادة القوات عملاً تدخّلياً بدفع من رئيس الجمهورية الذي ضمن السيادة لخطه وتوجهاته، بعد أن ضمن له الشيء نفسه في حزب الكتائب انتقال الرئاسة إلى الدكتور إيلي كرامة بعد رحيل الشيخ بيار الجميل صيف ١٩٨٤.

الحكم من التوصُّل إلى تسويةٍ موصوفةٍ بالتوازُنِ النِسْبيِّ مع السوريين(٩٠). والتوازنُ هذا هو ما امْكَنَ تحقيقه برغم خروج الفريقِ المسيحيِّ مَهْزوماً في مواجهاتِ الأعوامِ الثلاثةِ الماضية، إلا أنّ بقاءَ الجيشِ على وَحدتهِ ونجاحَ الجميل في ربطِ الحزب والقواتِ بقرارهِ السياسيّ، فضلاً عن أنَّ العهدَ كان في بداياتِه الأولى، هي العواملُ التي سمحتْ بإنجاب تسْويةٍ مقبولةٍ.

وقد ترجمَ السيرُ نحو التسويةِ نفسَه في جلساتِ مجلسِ الوزراء في ٩ و١٠ آذار التي كانت مُخَصَّصَةً للوفاقِ الوطنيِّ وإجراءاتِه. فالصيغةُ المطروحةُ للحلِّ كانت تستدعي إزالةَ حاجزِ البربارةِ الذي يفصلُ الجبلَ عن الشمال قبل بَتِّ مسألةِ المهجَّرين الشماليين (وسائر المهجّرين) ممّن يلتفّون حول سمير جعجع(٩١). وفي ١١ آذار صدرَ قرارٌ للمكتبِ السياسيِّ الكتائبيِّ بفصلِ جعجع من الحزبِ لمعارضتِه السياسةَ التي يتبعُها، بعد رفضِه قرارَ إزالةِ حاجزِ البربارةِ الذي كانت مسؤوليتُه في عهدتِه، الشيء الذي تلا رسوبَ جعجع وبقرادوني في انتخاباتِ المكتبِ السياسيّ(٩٢).

هكذا، وفي ١٢ آذار أُطيحَ بفؤاد ابو ناضر من قيادةِ «القوات»، وتغيّرتْ طبيعةُ العلاقةِ التي ربطت الأخيرةَ بحزب الكتائب، فـ «انفرطَ التقليدُ وفقد الحزبُ الرابطَ الأخيرَ مع آلتِه العسكريةِ المتمرِّدة»(٩٣).

وبدورِها ضمَّت «الهيئةُ التنفيذيةُ» الجديدةُ للقواتِ كما سمَّتْها الإنتفاضة، وبحسبِ الترتيبِ الذي اعتمدتْه، كلّاً من: سمير جعجع، إيلي حبيقة، فادي فرام، كريم بقرادوني، انطوان بريدي، شارل غسطين، إيلي أسود، اتيان صقر، فوزي محفوظ، جورج عدوان(٩٤) مما يعني أنّ نصفَ المُنْتَفِضِين، وهم أصحابُ الأسماءِ الخمسةِ الأولى، كتائبيون، والنصفَ الآخرَ قوّاتيون ينتسبون إلى الأحزابِ والتنظيماتِ الصغرى.

لكنَّ الأكثرَ دلالةً مثَّلتْه «الهيئةُ التنفيذيةُ لقيادةِ القوات» إذ تمّ توزيعُ مَهامِّها بين ثلاثةِ كتائبيين هم سمير جعجع رئيساً لهيئةِ الأركانِ العامّة، وإيلي حبيقة رئيساً لجهاز الأمنِ القومي، وكريم بقرادوني رئيساً للدائرة السياسية والإعلامية(٩٥).

(٩٠) في سبيل ملامح هذه التسوية، انظر **النهار** ١٩/٣/١٩٨٥.

(٩١) انظر مقابلة **وكالة الانباء الصحافية** قبل يوم واحد على الإنتفاضة والمنشورة في الصحف يوم حصولها، ١٢/٣/١٩٨٥. وإنّه لذو دلالة ان يكون التمسك بـ «الحاجز» مناسبة الخلاف. فالحاجز عند الخائف هو الحائل والسد دون مصادر خوفه، مثله، في هذا المعنى، مثل «الحدود» عند الاقليات والجماعات الخائفة من جماعات اكبر.

(٩٢) انظر رواية نوفل ضو، في **النهار العربي والدولي** ٥/١/١٩٨٦.

(٩٣) راجع **الصياد** ٢٧/٣/١٩٨٥.

(٩٤) انظر تحقيق نقولا ناصيف في **النهار** ٣٠/١٢/١٩٨٥.

(٩٥) **النهار** ٢١/٣/١٩٨٥.

لقد مثَّلَ هـذا الثالـوثُ ما يشبـهُ الحلفَ بين التهجيرِ الـريفيّ (جعجع) و«الـرثاثـةِ» المدينيةِ (حبيقة) والإمتثالِ الثقافيِّ للبندقية وسلطتِها القائمةِ أو المـوعودةِ كمـا رمزَ إليـه محامٍ ارمنيُّ الأصلِ ذو مَنْبتٍ اجتماعيٍّ متواضعٍ نسبياً (بقرادوني). فجعجع الـذي نُقلَ إلى الجبل خلال الحرب، وحصدَ الهزيمةَ التي ارتبطتْ باسمِه[٩٦]، تسلَّمَ إبّان قيادةِ فـادي فرام للقواتِ رئـاسةَ «جهـازِ التعبئة»[٩٧]، وفي ٤/٣/١٩٨٤ أعلنَ بقـرادوني عن حصولِ تعييناتٍ جديدة «تستهدفُ زيادةَ الإلتحامِ بين صفوفِ «القواتِ اللبنـانيةِ» لِمُسـاندةِ قـائدِ هذه القواتِ السيد فادي فرام. وقد عُيِّنَ السيدُ انطوان بريدي مفتِّشاً عاماً للقوات والسيد إيلي حبيقة رئيساً للأمن والدكتور سمير جعجـع مسؤولاً عن القيادة العسكـرية»[٩٨]. لكنَّ جعجع الذي سبقَ لـه في ١٩٧٨ ان ارتكبَ مجزرةَ إهـدن، وقاد مُهَجَّـري الشمالِ جنـوباً نحو الجبلِ وبيروت، كان بمثابةِ الطريقِ المُتَخَوَّفِ من ايّةِ تسْويةٍ بين «آلِ» الجميل و«آلِ» فرنجية تتِمُّ على حسابه، والمتمسِّكِ، تالياً، بحاجزِ البربارة كحائلٍ فعليٍّ ورمزيٍّ دون هذه التَّسْوية. وكان لموقِعِه هذا انْ رفدَ اتجاهـاتِه الـراديكاليـةِ المعارضـةِ للتقليدِ وللسيـاسةِ و«لاعبيها» وعائلاتِها.

فبِمـا يَنِمُّ عن اللونِ التجمعيِّ والتهجيـريِّ لهذه الـراديكاليـة، أعلنَ صاحبُهـا منـذُ البدايةِ «معارضتَه لإزالةِ» حاجزِ البربارة «وتساءلَ عما يفعلُه بمقـاتليه ومعظمُهم مُهَجَّـرون من الشمال ومنشورون في تخومِ جرود جبيل والبترون وعلى الطريق الساحليِّ بين البربارة وجبيل»[٩٩]. ولم يَعُدْ سِرّاً ما عُرِفَ عن جعجع في الكتـائبِ من انَّهُ «على خـلافٍ مع قـادةِ الحزبِ السياسيين، وأنه اصطدمَ مع بشير الجميل نفسِه اكثرَ من مرّة. وهو يُشبِّهُ سيطرةَ آلِ الجميل على الكتائبِ بسيطرةِ آل فرنجية الإقْطاعيةِ في الشمال»[١٠٠].

وفي لوحةٍ كهذه لا يعودُ حاجزُ البربارةِ مجرَّدَ تفصيلٍ عـابر، حيث استطـاعَ جعجع انْ يحوِّلَ هزيمتَه الأولى في زغرتا موقعاً سياسياً جديـداً في الكتائب، أو بحسبِ جـوزيف سماحة، «مناسَبةً» لكي يغرفَ من مهجَّري الشمال عناصرَ مقاتلةً عديدةً ويشكِّلَ ميليشيـاه الخـاصة ضمن «القـوات» ويؤمِّنَ عن طريقِ حـاجز البـربارة والخُـوّاتِ المجموعـةِ عنـده مَصْدَراً ماليّاً يقيهِ ضغوطاتِ المركزِ في بيروت، سواءٌ تمثَّـلَ هذا المـركزُ في تيـار الجميل وحزبِ الكتائب، أم في بشير الجميل وقيادةِ القواتِ اللبنانية»[١٠١].

بَيْدَ ان الشابَّ الذي بدا نجمُه بالصعودِ مع تفكُّكِ الجبهةِ المـارونية، اي مـع دبيب

(٩٦) راجع: بول عنداري، **الجبل حقيقة لا ترحم**، سبق الاستشهاد.

(٩٧) انظر تعيينات «القوات» في **النهار** ١/٣/١٩٨٤.

(٩٨) **النهار** ٥/٣/١٩٨٤.

(٩٩) **الصياد** ٢٧/٢/١٩٨٥.

(١٠٠) من تحقيق فؤاد حبيقة في **الوطن العربي** ٢٨/٣/١٩٨٥.

(١٠١) **اليوم السابع** ٢٥/٣/١٩٨٥.

الخلافِ بين الكتائبِ وفرنجية، وبسببِه، لم يَعْدَمِ الأصـولَ الاجتماعيـةَ التي أهَّلَتْهُ أصـلاً لهذه الراديكالية.

فهو ابنُ عشيرةٍ كثيرةِ العَدَدِ لكنَّه ينتسبُ إلى أحد أجْبابها الفقيرةِ وإلى بيتٍ يجمعُ الأبَ الـذي خدمَ في الجيشِ إلى الأمِّ المؤمنـةِ الوَرِعـةِ التي تُرَبّي أبْنـاءها على تَعـاليمِ الكِتـاب المُقدَّس(١٠٢). ولئن قضى طُفـولَتَه وشبـابَه في عينِ الـرمّانـة، أبـرزِ الضـواحي البيروتيةِ التي أمَّها المهاجرون الريفيـون المسيحيون إلى بيـروت، فإنّـه درجَ على خدمـةِ القـدّاس الكَنَسِيِّ في كنيسةِ سيـدةِ لورد في عينِ الـرمّانـة كما في كنيسـةِ مار سـابا في بشـري إبّان العُطَـلِ الصيفية. أمّـا انتماؤه إلى حـزبِ الكتائبِ إبّـان دراسَتِـه الطِبَّ في الجامِعةِ الأميركيةِ في بيروت، فترافَقَ مـع ولائه لطُـروحاتِ كـريم بقرادوني آنـذاك والذي تـزعَّمَ «تيارَ الشبـاب» أو «اليسارَ الكتـائبي»، بحسبِ إحدى التَسْميـات، بما نمَّ عن رغبـةٍ مُبَكِّرةٍ في تحدّي «سلطة آلِ الجميل».

من ناحيتِه، وُلِدَ إيلي حبيقة في بسكنتا بقضاءِ المتنِ الشمـالي(١٠٣)، وعَمِلَ مـوظّفاً في فرعٍ تابعٍ لأحدِ المصارفِ في ضاحيةِ الدورةِ لينخرطَ في القِتالِ قبل إنجازِه الدراسةَ الثانوية. ويبدو أنه خلال عملِـه في المَصْرِفِ تعـرَّف بالسيـاسيِّ ورجلِ الأعمـالِ المتني ميشال المر الذي ربطتْه به صلةٌ تزلُّميةٌ (cliental) تـرتَّبَ عليها لاحقـاً الكثيرُ من الـذيولِ والنتائج.

لم يُعَبِّر التيارُ الذي التفَّ حول حبيقة عن ظاهرةٍ مُتماسكـةٍ سوسيـولوجيـاً بالمعنى اللبنانيِّ (الطائفي ـ المناطقي) للكلمة. فـإذا كان أبنـاءُ الأريافِ والجُـرودِ المارونيـةِ بين قياديي «القوات» (نادر سكر، جورج كسّاب) هم الأكثـرُ إحاطـةً بجعجع، فـالذين أحـاطوا بشريكِه كانوا في معظمِهم لا ينتمون إلى الطائفةِ المارونية (أسعد شفتـري، بول عـريس، نزار نجاريان) من دون أنْ تكوَن انتماءاتُهم المناطقية وطيدةً أو قديمةَ العهد. أمّا صـاحِبَا الإسميْن اللـذان درجت الصحافـةُ على تسميتِهما «مستشـارَيْن» لحبيقة (ميشـال المـر، وميشال سماحة) فأرثوذكسي وكاثوليكي من المتن الشمالي اختلطتْ «نصـائحُهما» لقـائدِ تنظيمٍ نضاليّ بمُركَّبٍ من المصـالحِ السيـاسيةِ والمـاليةِ التي لا تتّسِـعُ لها التنظيمـاتُ النضـاليةُ عـادة. فإذاً أضَفْنـا أنَّ حبيقة الـذي كان اسمُـه وثيقَ الارتِباطِ بـأجهزةِ الأمنِ القوّاتية، لم يُعْرَفْ بأي مَلْمَحٍ سياسيّ أو عقائدي، أمكنَ إدراكُ الحالةِ المائعةِ التي مثَّلَتها قياساً بالصلابةِ التي انطوى عليها تيّارُ سمير جعجع.

لمعَ اسمُ إيلي حبيقة بصفتِه مُنفِّذَ مذبحةِ صبـرا وشاتيـلا، المُخَيَّميْن الفلسطينييْن

(١٠٢) راجع حازم صاغية، موارنة من لبنان، سبق الاستشهاد، ص ١٥٨ ـ ١٦١.
(١٠٣) راجع المرجع السابق، ص ٤٢٨ وما يليها.

اللذين هوجما بُعَيْدَ مصرعِ بشير الجميل، فيما كان المَسارُ المُمْتَدُّ ما بين المجزرةِ وتنفيذِها والوصولِ إلى الإتفاقِ الثلاثيّ، مساراً نموذجياً في دلالتِه على فقدانِ الصبرِ الذي تتميَّزُ به القِطاعاتُ المدينيةُ الرثَّةُ والهامِشية. فالشبانُ الذين اتَّجهوا بقيادةِ حبيقة إلى المخيميْن المذكوريْن هم مِمَّن تبلورتْ نفوسُهم على بشير الجميل، فحين اغتيلَ بشير ودُمِّرَ مِثالُهم لجأوا إلى الحلِّ الذي يستهوي شباناً صغارَ السنِّ كانت رئاسةُ بشير قد وضعتْهم على قابِ قوسيْن من تحقيقِ ذواتِهم. فحين نُفِّذَ الإنتقامُ بدات تُلِحُّ ضروراتُ العودةِ إلى الإندراجِ في حياةٍ عاديةٍ ما.

بهذا المعنى جاءت حِدّةُ العنفِ الجَماعي، وبالمعنى نفسِه جاءت حِدّةُ الحاحِ على توفيرِ حِمايةٍ جديدةٍ بعد أن تمَّ تفريغُ شحنةِ الثأرِ والغضب، فكان التخلي التدريجيُّ عن البشيرية(١٠٤) الذي قادَ أصحابَه، بعد وقتٍ قصير، إلى «الإتفاق الثلاثي» وبلوغِ جنّةِ الخلاصِ السورية.

مناطق العشيرة

ركّزت الإنتفاضةُ على شعاراتِ «الوحْدَة المسيحية»، داعيةً إلى إنْشاءِ «مجلس مسيحي»(١٠٥)، ومؤكدة في بيانٍ مُبكِّرٍ لها على «بلورةِ الإنتماءِ المسيحي إثنِياً وثقافياً كهُويّةٍ جامعةٍ للمسيحيين فوق تمايزاتِهم الطوائفيةِ والمناطقيةِ والعائليةِ والسياسية»(١٠٦). كذلك اصرَّتْ على تَرْسيمِ «حدودِ» المجتمعِ المسيحي(١٠٧)، ولم تتردَّدْ في محاولتِها كسبَ أعرضِ جمهورٍ مسيحيٍّ، في التودُّدِ إلى «التقليديين» ما خلا الكتائب. فقالت بتشكيلِ هيئاتٍ مسيحيّةٍ موسعةٍ تشملُ سليمان فرنجية وريمون إدّه وتوفُّرُ غِطاءً مشروعاً للعملِ(١٠٨)، وفي هذا الإطارِ قامت بتسليمِ ثلاثةِ مخطوفين من «المردة» الزغرتاويين واستعادتْ عنصريْن قواتييْن منهم(١٠٩).

مع هذا بقيت الوَحْدَةُ الفعليةُ أبعدَ عن التحقُّقِ من أيِّ وقتٍ سابق، وسريعاً ما رصدَ

(١٠٤) بحسب رواية امين الجميل، بدا هذا التخلي مبكراً، واتخذ شكل خيانة ذا طابع بوليسي. فـ «بشير قتل داخل مكتبه، مما يعني انه لم يكن ممكناً اغتياله لو لم تحصل خيانة من الداخل ومن اقرب المقربين إليه [...] هناك مجموعة من معاوني بشير لا بدّ انها كانت قد سرّبت معلومات إلى المتآمرين، بعضهم عن مكان الاجتماع، وبعضهم الآخر عن توقيته، وآخرون عن مكان جلوس بشير. ونحن نعرف أنّ العبوة التي وضعت كانت فوق راسه تماماً، وزرعت في عملية حسابية دقيقة». امين الجميل، «حوار وذكريات»، الحلقة ١٣، **الحياة** ٩٠/١٢/١٦.

(١٠٥) راجع صحف ١٩٨٥/٣/١٦.

(١٠٦) **العمل** ١٩٨٥/٣/١٧.

(١٠٧) من امثلة ذلك خطاب جعجع في اليسوعية المنشورة في **السفير** ١٩٨٥/٣/٢٧.

(١٠٨) راجع مثلاً، الاقتراح الذي نقلته وكالة الانباء الصحافية في **النهار** ١٩٨٥/٣/٢٨.

(١٠٩) صحف ١٩٨٥/٣/٢٤.

مُحَلِّلُ جريدةِ «النهار» ظهور الالوانِ المناطقيةِ والتجمُّعيــةِ من خلال الانتفـاضةِ وبفعلِهـا. فبعد انْ يؤكِّدَ سيطرةَ الإنْتِفَاضِيِّينَ على معظمِ المنـاطقِ الشرقيـةِ، يلاحظُ وجـودَ «عقدة، هي المتنُ الشمـالي «الذي يفـاوضُ من خلالِـه حزبُ الكتـائبِ ويعتبـرُه العقبـةَ المؤجِّلـةَ الحَلَّ [...] ففي حينِ انَّ «الإنتفاضةَ» في واردِ «ابتلاع » هـذه المنطقةِ عسكـرياً من دون صـدامٍ دامٍ ، واستقطابِ قـاعدتِهـا الحزبيـةِ خطوةً خطـوةً في اقربِ وقتٍ ممكنٍ، يجعـلُ الحزبُ المتنَ الشماليَّ قاعدتَه العسكريةَ والحزبيةَ ليضيفها إلى المساحةِ الجغـرافيةِ التي لا يزالُ يُسيطِرُ عليها»(١١٠).

وبرغمِ الوجودِ العسكريِّ السوريِّ في بشرّي، فهذا ما لم يَحُلْ دون ظهورِ حمـاسةٍ للإنتفاضةِ وصفَها مراسلُ الجريدةِ المذكورةِ على النحوِ الآتي: «مئاتُ المسلحين من ابناءِ بشري انتشروا ليلَ الثلثاء ـ الاربعاء في البلدةِ وضواحيها واقاموا حـواجزَ طيـارةً. ووزَّعَ المسلحـون عشراتِ البيـاناتِ التي تُؤَيِّـدُ خطوةَ الـدكتور سميـر جعجع وتُنَـدِّدُ بسياسـةِ الارتِهانِ التي يَتْبَعُها (الرئيس) امين الجميل حيالَ سوريا»(١١١).

واقعُ الأمرِ انَّ شعارَ «امنِ المجتمعِ المسيحيِّ» الهادفَ إلى توحيدِ «العشيرة» وراء الإنتفـاضةِ لم يكُنْ من نتـائجه إلا إطـلاقُ التفاوتِ والتفتُّتِ إلى المـدى الأقصى على غيرِ صعيدٍ بما دلَّ على امريْن يحكمُهما التصادُم:

فقـد تبيَّن، من جهةٍ، انَّ «المجتمـعَ المسيحيَّ» بطـواقِمِـه العُلْيـا لم يكُنْ حتى تلـك اللحظـةِ قد انفصـلَ عن السياسـةِ او تخلّى عن بقايـا خيارِه السيـاسيِّ، وهذا هـو معنى المُمانعةِ التي وُجِّهَتْ بها الإنتفاضة.

كمـا تبيَّنَ، من جهةٍ اخـرى، انَّ الحربَ على المجتمـعِ المذكـورِ وسياستِـه، باسمِ التوْحيد، لن تَقِفَ عندَ حدٍّ معيَّن، وهو ما ستظهرُه احداثُ شرقِ صيدا والتطوراتُ اللاحقـةُ عليها.

فبُعَيْدَ الإنتفاضةِ سارعَ مُمَثِّلو البطاركـةِ الكاثـوليك والارثـوذكس إلى الإجتماعِ في القصرِ الجمهوريِّ والتصريحِ بأنَّ «امنَ الشرقيةِ وكلِّ لبنانَ يجبُ انْ يكونَ شـرعِياً»، مـع الدعوةِ إلى «عودةِ عجلةِ الوفاقِ ومسيرةِ الإنقاذِ بقيادةِ امين الجميل»(١١٢).

وفيما رفضَ البطريركُ الارثوذكسيُّ هزيم، المُقيمُ في سورية، الإنتفاضةَ وما اسْمـاهُ «تغطية الوجودِ الإسرائيلي»(١١٣)، بدتْ مواقِفُ كميل شمعون و«حـزب الوطنيين الاحـرار»

(١١٠) النهار ١/٤/١٩٨٥.
(١١١) النهار ١٤/٣/١٩٨٥.
(١١٢) السفير ١٦/٣/١٩٨٥.
(١١٣) تشرين ١٩/٣/١٩٨٥.

اقربَ إلى الرئيس الجميل وحزب الكتائب(١١٤)، بينما جاهَرَ داني شمعون بأنَّ «المُتَمَـرِّدين يلعبون بالنار» وأنَّ المسيحيين «سيواجِهون معهم اوْقاتاً خطيرة»(١١٥).

ولئن دعا مجلسُ البطاركةِ والاساقفةِ الكاثـوليك بعـد اجتماعِـه برئـاسةِ البطـريرك خريش «إلى المصالحةِ وخنقِ الفتنةِ والخلاصِ بالحفاظِ على الشرعيةِ ودعمِها»، مؤكِّداً أنَّ «العنفَ لا يحلُّ المشكلة»(١١٦)، انتقلَ الخلافُ حـول الإنتفاضــةِ وإصدار بيـانٍ بذلـك إلى داخِلِ «الجبهة اللبنانية» فوقفَ شمعون ورئيسُ الكتائبِ إيلي كرامــة ضدَّهــا، ووقفِ إدوار حنين وشارل مالك الطامِحان إلى التصدُّرِ السياسي، في مكانٍ مُتَمَـايزٍ من دون ان يكـونا حاسميْن في تأييدِها(١١٧). ولم يكتمْ بقـرادوني غَيْظَه حين علَّقَ على الإجتمـاعِ المسيحيِّ الـذي انعقدَ في بكـركي وأيَّدَ الشـرعية، بـالقولِ إنَّـه «مؤتمرٌ غيـرُ عادِيٍّ أتى بقـراراتٍ عادِية»(١١٨)، وهو ما اتبعَهُ لاحقاً بـآراء اخرى حملتْـه على اعتبارِ أنَّ بكـركي «تخلَّتْ» عن «دورِها التاريخِي»(١١٩).

ابعدُ من هذا كلِّه أنَّ «القوات» اقدمتْ على حلِّ «المجلسِ التمثيليِّ» لـلأحزابِ التي تشاركُ فيها واحلَّتْ محلَّها الهيئةَ التنفيذيةَ التي راسَها إيلي حبيقة(١٢٠)، وبدا أنَّ المطلوبَ تذريرُ وإضعافُ كافةِ القُوى السيـاسةِ العـاملةِ في النطـاقِ المسيحيِّ، فكانت «انتفـاضةٌ» اخـرى في «حزب الـوطنيين الاحرار» قـادَهَا مُمَثِّلـو الحزبِ المـذكورِ في قيـادةِ «القواتِ اللبنانية»(١٢١).

وفي هـذا المناخِ المُتَصـدِّعِ الذي اوجـدتْه «الانتفـاضةُ»، كـان المطلوبُ فقط أن تنضافَ مسـألةُ «الاتفاق الثلاثي» والخلافِ حولَها لكي يصبحَ الموتُ أُفُقاً وحيداً للعَـلاقاتِ السياسية. فأثناء انعقادِ «الجبهةِ اللبنانيةِ» في دير عوكر حصلْت محاولةُ اغتيالٍ جماعية، بسيـارةٍ مفخَّخة، لجميـع اعضائهـا المعارضين لـذاك الاتفاق (شمعـون، كـرامـة، داني شمعـون، حنين، افرام البستـاني)، ووسطَ الدخـانِ والغبارِ خـرجَ شمعون ليصـرُخَ امـامَ

(١١٤) تشرين ١٩٨٥/٣/١٩.
(١١٥) اللواء ١٩٨٥/٣/٢٢.
(١١٦) صحف في ١٩٨٥/٣/٢٣.
(١١٧) راجع صحف ٢٣ و٢٤ و١٩٨٥/٣/٢٥.
(١١٨) صحف ١٩٨٥/٤/١٠.
(١١٩) من مقابلة الكفاح العربي معه في ١٩٨٥/٩/٢٣.
(١٢٠) النهار ١٩٨٥/٥/٣٠. كذلك انظر اعتراض إيلي كرامة على هذا الإجراء في النهار ١٩٨٥/٦/١.
(١٢١) رداً على سؤال حـول اسباب دعم انتفـاضة «الاحـرار» قال بقـرادوني بلغة لا يـرقى الشـك إلى تضـامنهـا العشائري، بعد ان تمَّ تصديع العشيرة الكبرى التي أُريد توحيدها:
«لقد دعمنا انتفاضة حزب الوطنيين الاحرار، التي قام بها شارل غسطين وإيلي أسود وسيريـل بسترس، لأنَّ هؤلاء المُنْتَفِضين هم اعضـاء في الهيئة التنفيـذية للقـوات فكان من واجبنـا الطبيعي أن نـدعم من هم معنا». من مقابلة الكفاح العربي معه ١٩٨٥/٩/٢٣.

الصحافيين «بأنَّ إلغاء الطائفيةِ السياسيةِ يناقضُ تاريخَ لبنانَ وتقاليدَه والضماناتِ التي استحقّتْ للطوائفِ التي تعيشُ على أرْضِه»(١٢٢).

وسطَ هذه العُزْلةِ التي واجهتِ الانتفاضةَ منذُ قيامِها وحتى كانون الثاني ١٩٨٦، كانت أحداثُ شرقِ صيدا التي تلتْها مباشرةً، محاولةً وهميّةً لإنْجازِ أهدافٍ متعدِّدة. فمثلُها مثلُ الكثيرِ من ردّاتِ الفعلِ التي تترجَّحُ بين النزعةِ الإستبداديةِ والمَيْلِ الشعوري، أوكلتْ «الانتفاضةُ» لـ «الحركةِ» أهميةً قُصْوى في «تحريكِ» وضعٍ مسدودٍ وسلبي. وفي الحدودِ التي يمكنُ فيها الحديثُ عن «نظريةٍ» للانتفاضة، لا يمكنُ الإغفالُ عن هذا التركيزِ على «الحركةِ» وعلى «الجماهيرِ» أو «القيادةِ» التي تقومُ بها تطوُّعِياً وعلى عكسِ التيار.

فالإنتفاضةُ، بحسبِ بقرادوني، «حركةٌ ديناميكيةٌ متلاحقةٌ، خلقتْ انتفاضاتٍ متعددةً وستخلقُ انتفاضاتٍ متلاحقة. ونحن في ضوء ذلك نعيشُ حالةً من الانتفاضةِ الدائمة، وهذا ما أعطانا شرعيةَ تَمْثيلِ المُسْتَقْبَل»(١٢٣). أمّا سمير جعجع فتوقَّعَ، لو لم تحصلِ الإنتفاضةُ، «أن يسودَ المللُ والسأمُ مجتمعَنا إلى حدِّ اليأسِ في نفسِ كلِّ مواطن»(١٢٤)، وفي محاولةِ اقترابٍ من لينينيةٍ ما رأى أنَّه «ولا مرة في التاريخِ قامت الجماهيرُ بتحرُّك. ومن هنا اسمُها الجماهير. يجبُ أن تقومَ مجموعةٌ من الجماهيرِ بتحرُّكٍ معيَّنٍ حتى تقومَ هذه الجماهيرُ وتتحرَّكَ مثلَها»(١٢٥).

لقد شكّلت منطقةُ شرقِ صيدا مسرحَ «الحركةِ» التي نيطَ بها أن تخلطَ الأوراقَ من دون سابقِ تصوّرٍ وتصميمٍ، وأن تُحْدِثَ التفافاً مسيحياً حول الانتفاضةِ، فيما تُفْضي إلى إحكامِ العُزْلةِ على الرئيسِ الجميلِ وحزبِ الكتائب. كذلك نيطَ بـ «ساحةِ» الصراعِ الجديدِ أن تمتحنَ إسرائيل وإمكانَ استعادةِ دعمِها بعد تجربةِ الجبلِ المُرّة، خصوصاً أنَّ الإنتفاضيين تركوا جميع الأبوابِ مفتوحةً على الآخرين، ليكتشِفوا، كما سنرى لاحقاً، أنَّ

(١٢٢) صحف في ١٩٨٥/١١/١٤.
(١٢٣) من مقابلة الكفاح العربي معه في ١٩٨٥/٩/٢٢.
(١٢٤) المسيرة ١٩٨٦/٣/٨.
(١٢٥) انظر نص الخطاب في السفير ١٩٨٥/٣/٢٧. تلازمت هذه الحركية الرافضة للسأم والتي تستقي شرعية ذاتها من ذاتها، مع كلّ عدتها الفولكلورية من شعبوية وتقديس للموت والشهادة وتزمّت أخلاقي مُعَادٍ ضمناً للمدينة. فبعد الإنتفاضة ناشد جورج فريحة، أحد قياديي القوات ورئيس «الهيئات الشعبية»، المواطن في الشرقية كـ «عضو في الهيئات الشعبية، شدّ أم أبيت. وأوّل ما يجمعك معنا هو الجوع والظُفر والحرمان وتشويه طبيعة لبنان الحلو». (النهار ١٩٨٥/٣/٢٩)، وفي معرض شرح الإنتفاضة رأى أحد قادتها، انطوان بريدي، أنّ «انتفاضتنا كانت لكي نتمكن من النظر إلى أمهات الشهداء بعدما كنا نخجل من النظر إليهن لأنّنا عاجزون عن الإجابة عن تساؤلاتهن» (السفير ١٩٨٥/٣/٢٧). أمّا جورج عدوان رئيس «جهاز الأمانة العامة للهيئة التنفيذية»، فحدّد من «أسباب» الإنتفاضة، ما «وصل إليه المجتمع المسيحي من تخدير» متحدثاً عن «التراخي» و«الإنحلال السائد»، إذ انّ «المجتمع الذي نريد ليس مجتمع البينغو والكازينو والسيارات من دون لوحات» (النهار ١٩٨٥/٤/١).

الآخرين كانوا يوصِدونها الواحدَ بعد الآخَر. فإلى إشارات بقرادوني الوِدِّيـةِ تجاهَ سـوريا و«قوى التغيير» اللبنانية، تحدّثت «رويتر» عن اجتمـاعٍ تلا الإنتفـاضةَ بين إرييـل شارون ومُمَثِّلين عن «القوات»، لتربطَه بمخاوفَ من نزوحٍ مسيحيٍّ في منطقةِ جزين ـ روم[١٢٦].

قُصارى القول، إنَّ القُواتِ، في تمرينِها الأوّلِ بعدَ الانتفاضةِ، ارسلتْ عنـاصِرَهـا إلى شـرقِ صيـدا، وعلى مقـربـةٍ من «أمـل» و«الاشتـراكي» والمسلحين الفلسطينيين، فـانفجرتِ المعـاركُ في ١٧ آذار[١٢٧] وكانت مـوجةُ تهجيـرٍ آخَـرَ للمسيحيين على نِطـاقٍ جَماعِي.

استقبال الانتفاضة

اجمعت القِوى والأطرافُ التي خاطبتْها الإنتفاضة، وهي مُتَنَاقضةٌ في ما بينَها، على توفيرِ استقبالٍ يتفاوتُ بين الحذرِ والعداءِ الصريح. ولم يكُنْ للإندفاعةِ نحـو شرقِ صيـدا سوى انْ تَفَاقَمَ العداءُ عند كثيرٍ من هذه الأطراف. ففي لبنان رأى رئيسُ الحكـومة رشيـد كرامي أنَّ الإنتفاضيين «يريدونَ تنفيذَ المشاريعِ القديمةِ الجديدة» متسائلاً «كيف نُصدِّقُ انَّ إسرائيل ليست المستفيدة الوحيدة»[١٢٨]. وازدادتْ لهجةُ كرامي حِدّةً يـوماً بيـوم، إذْ بعـد مخـاطبتِـه رئيسَ الجمهـوريـة بـأننـا «نحن معـك لتحقيقِ الإنقـاذِ والمُخْلِصـون سيُكَافأون»[١٢٩]، دَعا إلى «تحدّي هذه الحُثالاتِ من البَشَر»[١٣٠]. ولم يكُنْ اهْلُ «التغييـر» افضلَ حالاً، فوجَّهَ سليمان فرنجية ووليد جنبلاط[١٣١] ونبيه بري نداءً مشتـركاً من دمشق يتَّسِمُ بالحِدّةِ حيالَ الانتفاضة[١٣٢]، ورأى بري انَّ «تَحرُّكَ جعجع ردٌّ إسـرائيليٌّ سنقاومُـه تسعين عاماً، وسوريا لا تحتـاجُ إلى طلبٍ لضربِ المنْحى التقسيمِي»[١٣٣]. وبـدورِهِ طالبَ محمد حسين فضل الله «بقرارٍ إسْـلاميٍّ في مواجهـةِ القرارِ المسيحي»[١٣٤]، فيمـا حذَّرَ المفتي حسن خالد والشيخ محمد مهدي شمس الدين من عـودةِ الحربِ الأهليـةِ معتبرين «أنَّ الظاهرةَ الطائفيةَ في الشرقيةِ تَصُبُّ في مخطَّطِ العَـدُو»[١٣٥]. أمّا «اللقـاءُ الإسلامي»

(١٢٦) انظر النهار ١٩٨٥/٣/٢٤.
(١٢٧) حول تدهور الأوضاع في صيدا وجوارها بعد الانتفاضة، راجع صحف ١٨ و١٩٨٥/٣/١٩.
(١٢٨) السفير ١٩٨٥/٣/١٩.
(١٢٩) السفير ١٩٨٥/٣/٢٢.
(١٣٠) السفير ١٩٨٥/٣/٣١.
(١٣١) وجد احد المقربين من كمال جنبلاط في الإنتفاضة مناسبةً لرفع شكواه إلى السياسي الراحل في يوم ذكرى رحيله: «هو نفسُه حبيقة يجيئنا اليوم في ذكراك ايّها القائد الشهيد، فيصبح لكثرة جرائمـه ولِجدّة فـاشيُته، قائد «انتفاضة» يُدافع عن «حرية» القرار المسيحي». فؤاد شبقلو في السفير ١٩٨٥/٣/١٦.
(١٣٢) راجع النهار ١٩٨٥/٣/١٧.
(١٣٣) النهار ١٩٨٥/٣/١٩.
(١٣٤) السفير ١٩٨٥/٣/١٨.
(١٣٥) السفير ١٩٨٥/٣/٢٢.

فطالَبَ بـ «تدابيرَ حاسمةٍ لوأدِ الفِتْنة»[١٣٦]، بينما بدات «مشاوراتٌ» بين الأحزابِ المؤيِّدة لسوريا لإنشاءِ «جبهة وطنية» اخرى للردِّ على الانتفاضة[١٣٧]، ودعا عاصم قانصوه، امينُ عام منظمةِ حزبِ البعثِ في لبنان، إلى «إقامةِ نـوعٍ من الاتحادِ الكـونفيدرالي بين لبنـان وسوريا»[١٣٨]. وحتى الرئيس صائب سلام حملَ على مـا اسْماهُ «انتفـاضة الشّـارونيين» معلناً بدايةَ نهايةِ حزبِ الكتائب[١٣٩].

ولئن لم تزعجْ مواقفُ التقليديين، كـالرئيسين سـلام وكرامي والمفتي خـالد، قـادةَ الإنتفاضة ولا حَمَلَتْهُم على الإستغراب، فإنَّ مواقفَ الأحزابِ الثوريةِ التي سبقَ لبقرادوني انْ ناشدَها، هي التي كانت مَثَارَ الإستغرابِ عند جعجع ما دامت انّها هي ايضـاً «احزابٌ داعيةٌ للتَغْيير»[١٤٠].

امّا دمشق التي اعتبرت الإنتفاضةَ موجَّهةً ضـدَّها وضـدَّ الإتفاقِ معهـا، فلم تكْتَفِ بتحريكِ جوقةِ المؤيدين في بيروت، بل اتخذت «إجراءاتٍ قُصْوى» بينَها إبْداءُ الاستعـدادِ للتـدخُّلِ العسكـري[١٤١]، وقيامُ القـواتِ السوريـةِ فعلاً بقطـعِ طريقِ المـدفونِ وتعـزيزِ مواقِعِها[١٤٢]. وقـد سارع العميـد خولي إلى تحـديدِ وجهـةِ النظرِ الـرسمية في مقـالٍ له في صحيفةِ «تشرين» حيث رأى أنَّ الانتفـاضةَ «ليست مسـألةً داخليـةً» بل عمـلٌ «يصبُّ في خدمةِ إسرائيل بالضرورةِ وبشكلٍ مباشَر إنْ لم يكن استجابـةً لرغبـةٍ إسرائيليـةٍ ولتنفيذِ مُهمّةٍ إسرائيلية»[١٤٣] فيما كانت الصحفُ اللبنانيةُ تنقُلُ بيـاناً صـادراً عن «منظمةِ حـزبِ البعث» في لبنان يدعو إلى تَحْييدِ الجيشِ ويطالِبُ بحسْمِ الصراعِ في الشرقيةِ لصـالِحِ «الخيارِ العربيِّ السوري»[١٤٤]. وفي خلال ١٢ ساعةً صَـدَر تحذيـرٌ سوريٌّ آخـرُ إذْ نقلتِ «الوكالةُ العربيةُ السوريةُ» (سانا) عن مصدرٍ رسميّ قولَه: «لن نقِفَ موقفَ اللامبـالاةِ من التحـركاتِ المشبـوهةِ في لبنـان»[١٤٥]، واعادتْ دمشق التـذكيرَ بـأنَّ الانتفاضـةَ «سعيٌ مجنونٌ لإعادةِ الإنفجـار»[١٤٦]، وجدَّدتْ صحيفـةُ «البعث» الدعـوةَ إلى مواجهـةِ «التحرُّكِ

(١٣٦) السفير ١٩٨٥/٣/٢١.
(١٣٧) السفير ١٩٨٥/٣/١٩ والنهار ١٩٨٥/٣/٢٢.
(١٣٨) الصياد ١٩٨٥/٣/٢٧.
(١٣٩) صحف ١٩٨٥/٣/٢٧.
(١٤٠) انظر، مثلاً، خطابه في المؤتمر الطلابي الكتائبي في النهار ١٩٨٥/٣/٣٠.
(١٤١) عن العـرض السـوري الـذي رفضـه امين الجميـل راجـع «حـوار وذكـريـات»، الحلقـة ٧، في الحيـاة ١٩٩٠/١٢/١٠.
(١٤٢) النهار ١٩٨٥/٣/١٧.
(١٤٣) تشرين ١٩٨٥/٣/١٦.
(١٤٤) صحف ١٩٨٥/٣/١٦.
(١٤٥) النهار ١٩٨٥/٣/١٦.
(١٤٦) السفير ١٩٨٥/٣/١٧.

المشبوه»[١٤٧]، وتولَّتْ سائرُ الصحفِ السوريةِ المطالبةَ بـ «استئصالِهم» لأنَّ «الحلولَ الوسطَ مع الخونةِ لا تُفيد»[١٤٨]. بدوره حاولَ أمين الجميل امتصاصَ التوتُّر والحؤولَ دون تدخُّلٍ سوريٍّ أوسعَ نطاقاً، فنقلَ للرئيسِ الأسد أنَّ «الأمورَ تُشيرُ نحو الأحسن»[١٤٩]، إلّا أنَّ دمشق مَضَتْ في التشديدِ على «استئصالِ التحرُّكِ المشبوهِ» وأعلنَ رئيسُ حكومتِها عبد الرؤوف الكسم أنَّ «إسرائيل وأعوانَها» لن تستطيعَ «عرقلةَ الخطواتِ الإيجابيةِ نحو الوَحدة»[١٥٠]، وحدَّدتْ صحيفةُ «البعث» مخاوفَ سوريا من أنْ يكونَ «التمرُّدَ على الشرعيةِ اللبنانيةِ لإيصالِ إسرائيل إلى الخاصرةِ السورية»[١٥١]. وكانت الحملةُ السوريةُ قد دفعتْ رئيسَ الجمهوريةِ للذهابِ إلى دمشق «لاستدراكِ ردّاتِ الفعل»[١٥٢]. ومن قَبيلِ التَمْهيدِ لِنجاحِ الزيارةِ عاجلَ الجميل في إلغاءِ وتعديلِ عددٍ من المراسيمِ الاشتراعيةِ كما سبقَ واتّفقَ على ذلك مع السوريين وحلفائهم اللبنانيين[١٥٣]، حتى إذا ما انتهتْ قِمّةُ الرئيسيْن نقلتْ صحيفة «السفير» أنَّ الجميل وعدَ باستيعابِ وإنهاءِ التمرُّدِ خلال شهريْن، وهو ما كرَّرَتْهُ وسائلُ إعلامٍ قريبةٍ من دمشق[١٥٤].

هكذا لم تفعلْ حركةُ القواتِ سوى إنزالِ المزيدِ من الضعفِ بالموقعِ التفاوضيِّ للشرعيةِ اللبنانيةِ حيالَ السوريين، إلا أنَّ الإدانةَ لم تقتصرْ على الأخيرين إذْ وصلتْ شظاياها السوريةُ إلى العالَمِ العربي، والاتحادِ السوفياتي أيضاً[١٥٥].

فقد كتبتْ، مثلاً، صحيفة «السياسة» الكويتيةُ في رسالةٍ لها من بيروت أنَّ أحدَ أركانَ الانتفاضةِ «يدعو المسلمين للرحيل إلى مكة»[١٥٦]، وبدوره صرّحَ من أثينا الأمين العام للجامعةِ العربيةِ الشاذلي القليبي بأنَّ «شقاقَ الكتائبِ مؤامرةٌ إسرائيلية»[١٥٧]، وما لبث «السفير» أنْ نقلت إدانتَه للقواتِ وتحذيرَه من «محاولةٍ إسرائيليةٍ للتقسيم»[١٥٨].

(١٤٧) النهار ١٨/٣/١٩٨٥.
(١٤٨) السفير ١٨/٣/١٩٨٥.
(١٤٩) العمل ٢٠/٣/١٩٨٥.
(١٥٠) السفير ١٩/٣/١٩٨٥.
(١٥١) عن النهار ٢٠/٣/١٩٨٥.
(١٥٢) العمل ٢٣/٣/١٩٨٥.
(١٥٣) راجع السفير ٢٣/٣/١٩٨٥.
(١٥٤) السفير ٢٤/٣/١٩٨٥.
(١٥٥) في سعيه وراء الحركة والمبادرة الذاتية، ركّز جعجع في شرحه الإنتفاضة على الحدّ من الإهتمام بالتحولات الخارجية والإقليمية والدولية. هذا الإفراط في التعويل على دور التدخل التطوعي في الواقع، ساهم في إنتاج «سياسة خارجية» اعتباطية ومُجْلِبَة للكوارث. انظر، مثلاً، خطابه في المؤتمر الطلابي الكتائبي في النهار ٣٠/٣/١٩٨٥.
(١٥٦) السياسة (الكويتية) ٣/٤/١٩٨٥.
(١٥٧) النهار ١٨/٣/١٩٨٥.
(١٥٨) السفير ١٩/٣/١٩٨٥.

وفي موسكو وصفت «برافدا» الإنتفاضةَ بلُغةٍ سورية، فقالت إنّها «فتنةٌ تهدّدُ مجدَّداً بخطرِ التقسيم»(١٥٩)، وكانت «النهار» قد لاحظتْ قبل ايامٍ «تركيزاً سوفياتياً على الوضْعِ اللبناني» من نتائجه اتهامُ موسكو الولاياتِ المتحدةَ بأنَّها «وراء المتطرفين في القواتِ وتحركِهم»(١٦٠)، وكانت «نوفوستي» رات ايضاً أن إسرائيل «تسعى إلى كانتونات في لبنان» وأن الإنتفاضة تندرجُ في هذا التصوُّر(١٦١).

ما زادَ بؤسَ الانتفاضةِ و«سياستَها الخارجيةَ» بؤساً أنَّ الولاياتِ المتحدةَ لم تكنْ إطلاقاً في هذا الواردِ. فهي نفسُها انضمّتْ، وفي وقتٍ مُبَكِّر، إلى المحذِّرين، إذْ عبَّر بيانٌ لوزارةِ الخارجيةِ تلاه الناطقُ باسْمِها إدوارد جيرجيان عن أنَّ احداثَ الشرقيةِ تُعَدُّ «تطوراً سلبياً»، مع تأكيدِه الدعمَ «للحكومةِ المركزيةِ بقيادةِ الجميل»(١٦٢)، وبعد اقلَّ من اسبوع جدَّدَ جيرجيان دعمَه حكومةَ الجميل واصفاً تطوراتِ الشرقيةِ بأنَّها «خطيرةٌ جداً على الوضعِ اللبناني»(١٦٣).

حتّى إسرائيل لم تَبْدُ مستعدةً للضُلوعِ في المغامرةِ التي عُزِيَتْ إليها، فلم يَفُتْ صحافتَها التذكيرُ، الذي ينطوي على استصغارٍ مُرْفَقٍ بالتَوْريط، بأنَّ «الجيشَ الإسرائيليَّ انقذَ جعجع عندما كان محاصَراً في ديرِ القمرِ في ايلول ١٩٨٣»، مضيفةً انّه «زار إسرائيل مراراً وبصفةٍ خاصةٍ في الآونة الأخيرةِ من أجلِ العِلاج»(١٦٤).

وإلى إحْراجِ الصحافة، ادْلى السياسيون بدلْوِهم نافضين اليَدَ من دمِ المَناطِقِ الشرقية، فقال رئيسُ الحكومةِ شيمون بيريز، وكان في واشنطن آنذاك، إنَّهم خارج المسألةِ تماماً مع تحذيره بأنّ سوريا تُحاولُ احتلالَ لبنان. امّا مديرُ عامّ الخارجيةِ ديفيد كيمحي فأكّدَ ان بلادَه تراقبُ التأثيراتِ على امنِها لكنّها لم تتدخَّلَ لِحمايةِ الميليشيات، فيما أعلن سكرتير مجلسِ الوزراء يوسي بيلين «انّنا بعيدون جداً عن المسيحيين في لبنان، وليست هناك ايّةُ اتِّصالات»(١٦٥).

ولئن اكتفى كيمحي بعد ثلاثةِ ايّامٍ بإبداء «التَّفَهُّم لدوافع» حركة جعجع(١٦٦)، فإنَّ صحيفة «دافار» الناطقة بلسان الهستدروت حكمت أنَّ الإنتفاضيين «يلعبون لعبة فاسدة سلفاً» وأنَّها رغم تفهُّم الدوافع تعتبرُ أنَّ «إحياء التحالف بين المسيحيين وإسرائيل فات

(١٥٩) السفير ١٩٨٥/٣/٣٠.
(١٦٠) النهار ١٩٨٥/٣/٢١.
(١٦١) انظر النهار ١٩٨٥/٣/٢٠.
(١٦٢) النهار ١٩٨٥/٣/١٤.
(١٦٣) النهار ١٩٨٥/٣/٢٠.
(١٦٤) السفير ١٩٨٥/٣/١٥.
(١٦٥) النهار والسفير ١٩٨٥/٣/١٨.
(١٦٦) السفير ١٩٨٥/٣/٢١.

اوانه»[١٦٧].

لقد حاول الإنتفاضيون امتحان رد الفعل الإسرائيلي بعد أنْ كانت الأحداث المُمْتَدَّةُ من مصرع بشير وحتى الإمتناعِ عن إبرامِ معاهدة ١٧ أيّار، قد وحَّدت الحكومةَ والرأيَ العامَّ على موقفِ الإبتعادِ عن «المُسْتَنْقَعِ» اللبناني. وبهذا دفعت الإنتفاضةُ، ومعها «العشيرةُ» المسيحيةُ، كُلْفَةَ التُهمةِ الإسرائيلية التي لم تُغْنِ المُتَّهَمِينَ بها ولم تُسْمِنْهُمْ من جوع.

(١٦٧) صحف ١٩٨٥/٢/٢١.

الفصل السادس

الحزب المستحيل

لم تتأخر الإنتفاضة التي أيّدتها التنظيماتُ الصغرى(١)، والجناحُ الأقَلّيُّ في «حزب الوطنيين الأحرار» وهو الذي نشــأ أصلاً كـ «تنظيم» لشعبيــة كميل شمعــون، في الإعلانِ عن ولادةِ منظمــةٍ باسم «منظمــة شباب الكتــائب» مؤيدةً لهــا(٢). وقد استمــرَّ هذا النهــجُ الإستبداليُّ على مدى الأشهرِ التاليةِ، فحاول إيلي حبيقة إنشاء «التجمع المسيحي للبنان الواحد» الذي ضمَّ بعض السياسيين ورجــالَ الأعمالِ المسيحيين بقصــد «إيجاد الهيئــةِ السياسيةِ البديلة من حــزب الكتائب، تحــاورُ بالنيــابةِ عنــه (أي عن حبيقة) ويختبىءُ هــو وراءَها(٣).

بدوره لم يتأخر إيلي كرامة رئيس حزب الكتائب الذي استشعــر المخاطــرَ المتعددة المصادر، في وصف الإنتفاضةِ بأنها «حركةٌ مسلحةٌ داخل الحزب وظاهرةٌ انقلابيةٌ خطيرةٌ جداً محذِّراً من أنَّ حزبَ الكتائب «في خطرٍ حقيقي»(٤).

وفي المهرجان التاسع والأربعين لتأسيس الحزب أتَّهَمَ كرامة القوات «بمحاولة منعِ إقامة الحزب لمهرجانه في انطلياس» ووضعِ سيــارة مُفَخَّخَةٍ وحــواجزَ في طــريقه(٥)، ولم يلبث كرامة أنْ أبــدى حِرْصَــهُ على «رفضِ التفاهم خــارج المؤسَّسات الحــزبية»(٦) التي تَعَرَّضَت لامتهان الإنتفــاضيين. والراهنُ أنَّ الأخيــريْن، خصوصــاً منهم كريم بقــرادوني، كانوا لا يكفّون عن تبديدِ كلِّ إبهامٍ حول أهــدافِ حركتِهم في مــا يتّصلُ بحــزبِ الكتائب. ففي تبرير «نظَريّ» للانتفاضاتِ داخلَ الأحزاب، رأى بقرادوني أنّ «من الضروريِّ جداً أن يهتزَّ (الحزْبُ) بعد رحيلِ مؤسِّســة. الأمثلةُ كثيــرةٌ على ذلك. وتُصبِــحُ «الهزَّةُ حتميَــةً لكي يَسْتَمِرُّ الحزْب. هذه هي سُنَّةُ الحيــاة، بل قُــلْ هي الحتميةُ التــاريخية». وإذا كــان التعبيرُ

(١) ومنها تنظيمات كان لا يظهر لها اسم إلا في الكوارث العــامة، كـ «الاتحــاد الديمقــراطي المسيحي» الذي رأى أنَّ «مبادىء حركة القرار المسيحي تتمحور حول مبدأين اساسيين هما: الديمقراطية ضمن المجتمع المسيحي والحق الطبيعي للشعب المسيحي في تقرير مصيره بنفسه». **النهار** ١٩٨٥/٣/٣٠.

(٢) **النهار** ١٩٨٥/٣/١٣. في سبيل متابعة التطورات الكتائبية على امتداد ١٩٨٥، انظر تحقيق نقولا ناصيف في **النهار** ١٩٨٥/١٢/٣٠.

(٣) حازم صاغية، **موارنة من لبنان**، سبق الاستشهاد، ص ٤٢٩.

(٤) **النهار** ١٩٨٥/٤/١٦.

(٥) انظر صحف ١٩٨٥/١١/٢٥.

(٦) **النهار** ١٩٨٥/١٢/٨.

الأخيرُ المُسْتقى من ماركسيةٍ عموميةٍ قد استهوى بقرادوني، فهو لا يلبثُ أن يرى أنَّ الانتفاضةَ عملٌ «يتوافقُ مع الحتْميةِ التاريخية»(٧).

وبعد أنْ يتحدَّثَ عن الطابعِ التغييريِّ في «القوات»، ولا سيما أثر الانتفاضة، يُلاحظُ بقرادوني «انّ المشكلةَ (هي) داخلَ المجتمعِ المسيحيِّ لأنه تقليديٌّ ومحافظٌ اكثرَ مما هو تغييريّ. ونحن نأملُ انْ ينتشرَ تيارُ التغيير، لأنَّ هناك مجموعةً كبيرةً من الشبابِ الذي كبروا في الحربِ فأصبحوا بعد عشرِ سنواتٍ من بدءِ هذه الحرب أصحابَ القرار»(٨). في هذا الاطارِ يتكاملُ الإستقلالُ السيَاسيُّ بأشكالٍ أُخرى من الإستقلالِ الماليِّ والإداريِّ والوظيفي، إذْ «قبْلَ الإنتفاضةِ كانت القواتُ اللبنانيةُ مُعْتَمِدَةً سياسياً وعسكرياً ومالياً على حزبِ الكتائب. لكنْ منذُ الإنتفاضةِ اصبحتِ القُوّاتُ مستقلةً»(٩). ويتولّى الياس ربابي بصياغةِ أرادَها «محايدةً»، التعبيرَ عمّا أرادَه الإنتفاضيون على صعيدِ التنظيم، وهو لا يَقِلُّ عن «إنشاءِ مجلسٍ تأسيسيٍّ أو هيئةٍ تأسيسيةٍ جديدة تحمل صفةَ الإهتمام بالطوارىء. ومفهومُ الطوارىء يكمنُ في ضرورةِ الإسراعِ في الإصلاحِ والتغييرِ لأنَّ الوضعَ لم يَعُدْ يتحمَّلُ المماطَلةَ والتسويفَ والتأخير. ويعهد للمجلسِ التأسيسيِّ مهمةً محدّدةً ترتكزُ اوّلاً على تخويلِه سلطاتٍ واسعةً لفترةٍ معينةٍ يكونُ مُطْلَقَ الصلاحياتِ والتصرُّفِ في كلِّ التدابيرِ التي يراها الحزبُ ملائمةً للتغييرِ بَدْءاً من تبديلِ مواقعِ الحزبيين حتى تعديلِ الأنظمةِ والقوانين»(١٠).

في غُضونِ ذلك ومع الحصادِ البائسِ لمُواجَهةِ شرقِ صيدا والاستقبالِ السيِّءِ الذي لاقتْهُ حركةُ ١٢ آذار، سارعت الإنتفاضةُ إلى الإعلانِ عن حوارٍ ومفاوضاتٍ مع الكتائبِ ما لبثَتْ انْ تبيَّنت شكليتَها وسعيَها لكسبِ الوقت، فيما صُيِّرَ إلى تشكيلِ «لجنةٍ مشتركةٍ» على غِرارِ سائرِ الحالاتِ الحربيةِ والصداميةِ التي عرفَتْها الحربُ اللبنانيةُ منذ ١٩٧٥.

بداتِ المفاوضاتُ في ١٩٨٥/٣/٢٦ فيما كانت تتصاعدُ أعمالُ قَضْمِ الحزبِ والدعواتُ التي تبرِّرُ هذا القضمَ. فالإنتفاضةُ تَرْمي في آخرِ المطافِ، بحسبِ تحليلٍ صحافيٍّ آنذاك، إلى «إفراغِ حزبِ الكتائبِ من مؤسَّساتِه وقواعِده من الداخِلِ مِن دون

(٧) من مقابلة **الصياد** معه في ١٩٨٥/٥/٨.
(٨) من مقابلة **الشراع** معه في ١٩٨٥/٩/٣٠.
(٩)
(١٠) **الكفاح العربي** ١٩٨٥/١٢/٩. كذلك راجع مقترحات حبيقة «للتوحيد والتغيير» في **النهار** ١٩٨٥/١٢/٨. وقد لا يكون عديم الدلالة أنَّ الياس ربابي، الكتائبي التاريخي، الذي تعاطف مع الإنتفاضة آنذاك، كان من القلّة الريفية في الرعيل الكتائبي الأوّل كما كان احد ابرز مؤسسي تقليد الخطابة العربية في الكتائب، راجع الفصل الثاني.

اللجوءِ إلى الصِدامِ الدامي»[١١]. وفي إشارتِها إلى هذا الطابعِ الانْقِلابيِّ تحدَّثَتِ «النهار» عن اسْتِقْطابِ «مَصْلحةِ الطلاب»[١٢] و«إحياءِ الهيئاتِ الشعبيةِ في الأشرفية» وعن أنَّ «بعضَ المسؤولين في «الإنتفاضة» استدعى عدداً من المَصْرِفيين الكبارِ في المناطقِ الشرقيةِ [...] وأفهمَهم ضرورةَ وضعِ حدٍّ لِسُلَّمِ التلاعبِ بسعرِ الدولار الأميركيِّ في سوقِ بيروت»[١٣].

هذا المشروعُ الناحي نحو العُضْويةِ بجمْعِه الطلبةَ إلى الهيئاتِ الشعبيةِ والمَصْرِفيين، وامْتِلاكِه القوّةَ العسكريةَ والمالَ، لا يمكنُ أن يتركَ مكاناً آخرَ لطرَفٍ آخر، ناهيكَ عن حوارٍ جَدِّيٍّ معه. فكيف حين يعلنُ الإنتفاضيون، بلُغةٍ كثيراً ما تردَّدت مفرداتُها في بيروتَ الغربيّة، أنَّ «المشروعَ الكتائبيَّ قد أوْصَلَ البلادَ إلى المأزِق. أوْصَلَ المسلمين والمسيحيين على السواء»[١٤].

كان الحوارُ، إذن، تعبيراً عن حاجةٍ قوّاتيةٍ إلى كَسْبِ الوقتِ سياسياً والعملِ على قضمِ الحزبِ بهدوء، قابلتْها حاجةٌ كتائبيةٌ إلى كسبِ الوقتِ أمنياً حفاظاً على الجسمِ الحزبي والمحازبين[١٥]. وفي هذه الحدودِ تكاثرتْ حركاتُ المَدِّ والجَزْر، فقرَّرَ المكتبُ السياسيُّ الكتائبيُّ برئاسةِ كرامة، تعليقَ العملِ بقرارٍ كتائبيٍّ سابقٍ يقْضي بوضعِ الوَحداتِ العسكريةِ الكتائبيةِ في إمْرةِ رئيسِ أرْكانِ القُواتِ[١٦].

مع هذا تَمَّ «الاتفاقُ» على دمجِ القوى العسكريةِ والأمنيةِ[١٧]، وقد نتجَ عنه تعيينُ ثلاثةِ أعضاءٍ جُدُدٍ في «الهيئةِ التنفيذيةِ» هم جورج قسيس وسامي خديري وأسعد شفتري[١٨].

بعيداً عن هذا كلِّه، كانت ساحةُ المجابهة الأكثرُ سخونةً افتتاحيات «حصاد الأيّام»

(١١) **النهار** ١٩٨٥/٤/١.

(١٢) حيث انعقد في ١٩٨٥/٣/٢٩، وبحضور جعجع، مؤتمر عام استثنائي لمصلحة الطلاب الكتائب بعد انقطاع دام سبعة أعوام في قاعة مدرسة القلبين الأقدسين، وقد أيد المؤتمر الانتفاضة واعتبرها «من قلب الحزب»، **النهار** ١٩٨٥/٣/٣٠.

(١٣) **النهار** ١٩٨٥/٤/١.

(١٤) من مقابلة مع بقرادوني اجرتها **كل العرب** ١٩٨٥/٤/١٠.

(١٥) قبل الانتفاضة باشهر، اغتيل رئيس إقليم الكتائب في جبيل غيث خوري، بحيث ربط اكثر من معلق بين مصرعه، وهو المعارض لـ «القوات»، وبين «هيمنة» سمير جعجع على منطقة جبيل. انظر، مثلاً لا حصراً، موفق مدني في **السفير** ١٩٨٤/١٠/١٥.

(١٦) **النهار** ١٩٨٥/٥/٣.

(١٧) راجع **العمل** ١٦ و١٩٨٥/٧/١٧، وكذلك تحقيق نبيل براكس ونوفل ضو عن هذه التسوية وحدودها في **النهار العربي والدولي** ١٩٨٥/٧/٢٨.

(١٨) انظر **النهار** ١٩٨٥/٧/١٩. بعد أشهر سمى صحافيو «القوّات» ذاك الحوار «حوار الطرشان». انظر تحقيق إيلي الحاج وروزانا الياس في **المسيرة** في ١٩٨٥/١٢/١٤، ومقال عيسى كفوري في **الجمهورية** في ١٩٨٥/١٢/١٤.

الأخيرُ المُسْتقى من ماركسيةٍ عموميةٍ قد استهوى بقرادوني، فهو لا يلبثُ أن يرى أنَّ الانتفاضةَ عملٌ «يتوافقُ مع الحتْميةِ التاريخيةِ»[٧].

وبعد أنْ يتحدّثَ عن الطابعِ التغييريِّ في «القوات»، ولا سيما أثر الانتفاضة، يُلاحظُ بقرادوني «أنّ المشكلةَ (هي) داخلَ المجتمعِ المسيحيِّ لأنه تقليديٌّ ومحافظٌ اكثرَ مما هو تغييريّ. ونحن نأملُ أنْ ينتشرَ تيارُ التغيير، لأنَّ هناك مجموعةً كبيرةً من الشبابِ الذي كبروا في الحربِ فأصبحوا بعد عشرِ سنواتٍ من بدءِ هذه الحربِ أصحابَ القرار»[٨]. في هذا الاطارِ يتكاملُ الإستقلالُ السياسيُّ بأشكالٍ أخرى من الإستقلالِ الماليِّ والإداريِّ والوظيفي، إذْ «قبْلَ الإنتفاضةِ كانت القواتُ اللبنانيةُ مُعْتَمِدَةً سياسياً وعسكرياً ومالياً على حزبِ الكتائب. لكنْ منذُ الإنتفاضةِ اصبحتِ القُوّاتُ مستقلةً»[٩]. ويتولّى الياس ربابي بصياغةِ أرادَها «محايدةً»، التعبيرَ عمّا أرادَه الإنتفاضيون على صعيدِ التنظيم، وهو لا يَقِلُّ عن «إنشاءِ مجلسٍ تأسيسيٍّ او هيئةٍ تأسيسيةٍ جديدة تحمل صفةَ الإهتمام بالطوارىء. ومفهومُ الطوارىء يكمنُ في ضرورةِ الإسراعِ في الإصلاحِ والتغييرِ لأنَّ الوضعَ لم يَعُدْ يتحمَّلُ المماطَلةَ والتسويفَ والتأخير. ويعهد للمجلسِ التأسيسيِّ مهمةً محدّدةً ترتكزُ أوّلاً على تخويلِه سلطاتٍ واسعةً لفترةٍ معينةٍ يكونُ مُطْلَقَ الصلاحياتِ والتصرُّفِ في كلِّ التدابيرِ التي يراها الحزبُ ملائمةً للتغييرِ بَدْءاً من تبديلِ مواقعِ الحزبيين حتى تعديلِ الأنظمةِ والقوانين»[١٠].

في غُضونِ ذلك ومع الحصادِ البائسِ لمُواجَهةِ شرقِ صيدا والاستقبالِ السيِّءِ الذي لاقتْهُ حركةُ ١٢ آذار، سارعت الإنتفاضةُ إلى الإعلانِ عن حوارٍ ومفاوضاتٍ مع الكتائبِ ما لبثَتْ أنْ تبيَّنت شكليتَها وسعيَها لكسبِ الوقت، فيما صُيِّرَ إلى تشكيلِ «لجنةٍ مشتركةٍ» على غِرارِ سائرِ الحالاتِ الحربيةِ والصداميةِ التي عرفَتْها الحربُ اللبنانيةُ منذ ١٩٧٥.

بداتِ المفاوضاتُ في ١٩٨٥/٣/٢٦ فيما كانت تتصاعدُ أعمالُ قَضْمِ الحزبِ والدعواتُ التي تبرِّرُ هذا القضمَ. فالإنتفاضةُ تَرْمي في آخرِ المطافِ، بحسبِ تحليلِ صحافيٍّ آنذاك، إلى «إفراغِ حزبِ الكتائبِ من مؤسّساتِه وقواعِده من الداخِل من دون

(٧) من مقابلة **الصياد** معه في ١٩٨٥/٥/٨.
(٨) من مقابلة **الشراع** معه في ١٩٨٥/٩/٣٠.
(٩)
(١٠) **الكفاح العربي** ١٩٨٥/١٢/٩. كذلك راجع مقترحات حبيقة «للتوحيد والتغيير» في **النهار** ١٩٨٥/١٢/٨. وقد لا يكون عديم الدلالة أنَّ الياس ربابي، الكتائبي التاريخي، الذي تعاطف مع الإنتفاضة آنذاك، كان من القلّة الريفية في الرعيل الكتائبي الأوّل كما كان احد ابرز مؤسسي تقليد الخطابة العربية في الكتائب، راجع الفصل الثاني.

اللجوءِ إلى الصِدامِ الدامي»[١١]. وفي إشارتِها إلى هذا الطابعِ الانْقِلابيِّ تحدَّثتِ «النهار» عن اسْتِقْطابِ «مَصْلحةِ الطلاب»[١٢] و«إحياءِ الهيئاتِ الشعبيةِ في الأشرفية»، وعن أنَّ «بعضَ المسؤولين في «الإنتفاضةِ» استدعى عدداً من المَصْرفيين الكبارِ في المناطقِ الشرقيةِ [...] وافهمَهم ضرورةَ وضعِ حدٍّ لِسُلَّمِ التلاعبِ بسعرِ الدولار الأميركيِّ في سوقِ بيروت»[١٣].

هذا المشروعُ الناحي نحو العُضْويةِ بجمْعِهِ الطلبةَ إلى الهيئاتِ الشعبيةِ والمَصْرفيين، وامْتِلاكِه القوّةَ العسكريةَ والمالَ، لا يمكنُ أن يتركَ مكاناً آخرَ لطَرَفٍ آخَر، ناهيكَ عن حوارٍ جَدِّيٍّ معه. فكيف حين يعلنُ الإنتفاضيون، بلُغةٍ كثيراً ما تردَّدت مفرداتُها في بيروتَ الغربيةِ، أنَّ «المشروعَ الكتائبيَّ قد أوْصَلَ البلادَ إلى المأزِق. أوْصَلَ المسلمين والمسيحيين على السواء»[١٤].

كان الحوارُ، إذن، تعبيراً عن حاجةٍ قوّاتيةٍ إلى كَسْبِ الوقتِ سياسياً والعملِ على قضمِ الحزبِ بهدوء، قابلتْها حاجةٌ كتائبيةٌ إلى كسبِ الوقتِ امنياً حفاظاً على الجسمِ الحزبي والمحازبين[١٥]. وفي هذه الحدودِ تكاثرتْ حركاتُ المَدِّ والجَزْر، فقرَّرَ المكتبُ السياسيُّ الكتائبيُّ برئاسةِ كرامة، تعليقَ العملِ بقرارٍ كتائبيٍ سابقٍ يقْضي بوضعِ الوَحداتِ العسكريةِ الكتائبيةِ في إمْرةِ رئيسِ اركانِ القُواتِ[١٦].

مع هذا تَمَّ «الاتفاقُ» على دمجِ القوى العسكريةِ والأمنيةِ[١٧]، وقد نتجَ عنه تعيينُ ثلاثةِ أعضاءٍ جُدُدٍ في «الهيئةِ التنفيذيةِ» هم جورج قسيس وسامي خديري وأسعد شفتري[١٨].

بعيداً عن هذا كلِّه، كانت ساحةُ المجابهة الأكثرُ سخونةً افتتاحيات «حصاد الأيام»

(١١) **النهار** ١/٤/١٩٨٥.
(١٢) حيث انعقد في ٢٩/٣/١٩٨٥، وبحضور جعجع، مؤتمر عام استثنائي لمصلحة الطلاب الكتائب بعد انقطاع دام سبعة أعوام في قاعة مدرسة القلبين الأقدسين، وقد أيد المؤتمر الانتفاضة واعتبرها «من قلب الحزب»، **النهار** ٣٠/٣/١٩٨٥.
(١٣) **النهار** ١/٤/١٩٨٥.
(١٤) من مقابلة مع بقرادوني اجرتها **كل العرب** ١٠/٤/١٩٨٥.
(١٥) قبل الانتفاضة بأشهر، اغتيل رئيس إقليم الكتائب في جبيل غيث خوري، بحيث ربط اكثر من معلق بين مصرعه، وهو المعارض لـ «القوات»، وبين «هيمنة» سمير جعجع على منطقة جبيل. انظر، مثلاً لا حصراً، موفق مدني في السفير ١٥/١٠/١٩٨٤.
(١٦) **النهار** ٣/٥/١٩٨٥.
(١٧) راجع **العمل** ١٦ و١٧/٧/١٩٨٥، وكذلك تحقيق نبيل براكس ونوفل ضو عن هذه التسوية وحدودها في **النهار العربي والدولي** ٢٨/٧/١٩٨٥.
(١٨) انظر **النهار** ١٩/٧/١٩٨٥. بعد أشهر سمى صحافيو «القوّات» ذاك الحوار «حوار الطرشان». انظر تحقيق إيلي الحاج وروزانا الياس في **المسيرة** في ١٤/١٢/١٩٨٥، ومقال عيسى كفوري في **الجمهورية** في ١٤/١٢/١٩٨٥.

في جريدةِ «العمل». فقد اغتنمَ كاتبُها جوزيف أبو خليل، الذي أحاطَ ببشير الجميل حتى مصرعِه ليعودَ ادراجَه إلى الحزب، فرصةَ الإنتفاضةِ ليُثيرَ سجالاً غنياً ضدُّ اشكال الوعي التوتاليتاريِّ والانقلابي.

هكذا سجَّلت «العملُ» مُبَكِّراً أنَّ في الإنتفاضةِ «كلَّ ملامحِ الحركةِ الانقلابيةِ، والغرضَ منها هو الإستيلاءُ على السلطةِ، سواءٌ في حزبِ الكتائب او في «القواتِ اللبنانية»»[١٩]. وفي اليومِ التالي ساجلتِ الإنتفاضيين دفاعاً عن «الصيغةِ» وعن أنَّ حزبَ الكتائب هو «حزبُ الصيغة»[٢٠]، لتصفَ الإنتفاضةَ بأنها «مشروعُ لامركزيةٍ سياسيةٍ وامنيةٍ لا يُنَفَّذُ إلاّ بالحرب وقوةِ السلاح، ولا يؤدّي، نتيجةً لذلك، إلاّ إلى التقسيمِ الفِعْلي»[٢١]. ولا تلبثُ زاويةُ «من حصاد الايام» أن تطرحَ فكرةَ التسليمِ للدولةِ إذْ أنَّ «إحياءَ الدولةِ مستحيلٌ من دونِ التنازلِ لها سلفاً، وهي لن تكونَ أبداً إذ لمْ تُسَلَّفْ سلطاتٍ واموالاً وصلاحياتٍ وقدراتٍ، وخضوعاً ايضاً لدستورِها وقوانينِها»[٢٢].

وفيما قارنَ آنذاك بعضُ المعلِّقين الحياديين «الإنتفاضة» بالصَحْواتِ الدينيةِ الأصوليةِ، ذاهبين إلى أنها تنطوي على صحوةٍ دينيةٍ مسيحيةٍ[٢٣]، طرحت «العمل» الخيارَ بين لبنانَيْن، واحدٍ من الناقورة إلى النهرِ الكبير، والآخرُ الذي هو «لبنان سمير جعجع» من المدفونِ إلى كفرشيما[٢٤]. وسريعاً ما أُطلقتِ الشَكْوى من اضطرابِ حبلِ الأمنِ في المناطقِ الشرقيةِ حيث أنَّ «أمنَ المجتمعِ المسيحي» الذي رفعتْهُ الانتفاضةُ شعاراً، «لا يتحققُ فقط على خطوطِ التَّماس، بل ايضاً في داخلِه ومن خلال العلاقةِ بين الإنسانِ والإنسان»[٢٥]. وطورتِ «العمل» سجالَها لتتناولَ اللجوءَ إلى الأحْوالِ الإستثنائيةِ في الإنتفاضاتِ وتمهيدِها للديكتاتوريةِ ولإفقارِ الصراعِ على السلطةِ من كلِّ مضمونٍ سياسي[٢٦]. وفي تمييزِها بين «جيلِ الحربِ القواتي» و«جيلِ ما قبلِ الحربِ الكتائبي»، أشارتْ إلى «نظرةِ جيلِ الحربِ إلى لبنان الذي لم يعرفْ منه إلاّ نصفَه، على عكسِ ما هي حالُ الجيلِ الآخر، وقد ظلت الذكرياتُ تربطُه بلبنانَ ما قبلَ الحربِ وبالحنين إليه ايضاً، فبدا الأوَّلُ كما لو انه جيلٌ تقسيميٌّ فيما الثاني هو توحيدِي»[٢٧].

(١٩) **العمل** ١٩٨٥/٣/١٩. راجع ايضاً مواقف الكتائب، كما عكستها صحيفة الحزب، من المحاور الإيديولوجية والسياسية التي اثارتها الإنتفاضة وصِلَة ذلك بمسائل الوفاق اللبناني ـ اللبناني في **العمل** ١٩٨٥/٣/١٥.

(٢٠) **العمل** ١٩٨٥/٣/٢٠.

(٢١) **العمل** ١٩٨٥/٣/٢١.

(٢٢) **العمل** ١٩٨٥/٣/٢٣.

(٢٣) انظر، مثلاً، مقالة وفائي دياب في **الصياد** ١٩٨٥/٣/٢٧.

(٢٤) **العمل** ١٩٨٥/٣/٢٨.

(٢٥) **العمل** ١٩٨٥/٦/٢٧.

(٢٦) انظر **العمل** في ١٩٨٥/٧/١٣.

(٢٧) **العمل** ١٩٨٥/٧/١٤.

وبعد صدورِ صحيفتي «عمل» متنافستيْن، ظلت «العمل» الكتائبيةُ تتساءلُ بجرأةٍ ملحوظةٍ، وكأنها تبحثُ عن مصادرِ السياسةِ التي غيَّبَتْها الحرب: «من اين تستمدُّ الهيئةُ التنفيذيةُ سلطتَها؟ ومن هي الهيئةُ الانتخابيةُ التي انتَخَبَتْ أعضاءها؟ وكيف يصيرُ التغييرُ فيها إنْ لم يكُنْ بـ «الإنتفاضاتِ» المتلاحقة؟ وهل قراراتُها قراراتٌ ديمقراطيةٌ وبأيِّ مِقْدار؟»[٢٨].

وفيما كان السِّجالُ ضدَّ «القواتِ» على أشدِّه، اقتحمَ مسلَّحو «القواتِ» مبنى جريدةِ «العمل» في ١٩٨٥/١٠/٢٤، بعد أن كانت قد صُودِرَتْ إذاعة «صوت لبنان» الكتائبيةُ وأُقْصِيَ مديرُها العامُّ جوزيف الهاشم، ليُعَيَّنَ بدلاً منه نبيل عون القُوَّاتي[٢٩].

هكذا اعتُقِلَ رئيسُ التحريرِ جوزيف أبو خليل ثم أُودِعَ الإقامةَ الجبريةَ التي لم تُرْفَعْ عنه إلا في ١٩٨٥/١١/٢، لم يتردَّدْ في التصريح بُعَيْدَ إطلاقِ سَراحِه بأنَّ الكتائبيين مسؤولون عن ماردٍ خلقوه ويُريدُ ابتلاعَهم، مُعْلِناً تخوُّفَه من أنّ الإنتفاضيين «يُريدون فرضَ ديكتاتوريةٍ لإقامةِ لبنان، كما يتصوَّرونه، لكنهم لا يُدْرِكون أنْ لا وجودَ للبنان من دون حرية»[٣٠].

وحين جددت «العمل» صدورَها لتوزَّعَ بصورة سِرِّيَّة[٣١]، وذلك قبل أيامٍ قليةٍ على إطلاقِ رئيسِ تحريرِها، دَهَمَتِ «القُواتُ» مجلةَ «لوريفاي» لتمنعَ إصدارَ «العملِ» الكتائبيةِ

(٢٨) **العمل** ١٩٨٥/١٢/١٠. في تحديد يحاول أنْ يكونَ جامعاً للفوارق بين الكتائب والقوات، لاحظت الجريدة نفسها «اكثر من تناقض واحد. يكفي أنْ نتذكر أنْ «القوّات» هي من مواليد الحرب لكي ندرك عظم الفوارق بينها وبين حزب ولد قبل الحرب ومارس «الأصول» في حلّ النزاعات. هذه الأصول تحتاج إلى إعادة نظر؟ لا مانع من ذلك. لكن لا سلطةَ لأحد على الناس من دون أصول». **العمل** ١٩٨٥/١٢/١٢. وبحسب رواية أمين الجميل للانتفاضة: «هناك حرب أجيال في حزب الكتائب، وربما حرب مناطق [...] وعندما توفي الشيخ بيار صعدت كل هذه المشاعر إلى السطح وبدأت تتفاعل. ومنها أنْ جيلاً كان يُحاول البروز على حساب جيل آخر. وهناك الذين كانوا يعتبرون أنّهم من مناطق محرومة فضلاً عن الطامحين والمغامرين. والمؤسف أنْ السلاح المنتشر في أيدي الجميع ساهم، مع عامل المال، في فرض إرادات على إرادات». أمين الجميل، «حوار وذكريات»، الحلقة ٧، **الحياة** ١٩٩٠/١٢/١٠.

(٢٩) انظر **النهار العربي والدولي** ١٩٨٦/١/٥.

(٣٠) انظر صحف ١٩٨٥/١٠/٢٥ و**السفير** في ١٩٨٥/١١/٢.

(٣١) تولّى رئاسة تحرير «العمل» القواتية سجعان قزي الذي هو «كتائبي ملتزم منذ العام ١٩٧٢». بحسب المعلومات التي وزعتها القوات. انظر صحف ١٩٨٥/١٠/٣٠. وبدوره كانت لقزي آراؤه حول المؤسسات الكتائبية التي استولت عليها القوات، إذْ «التفاوض يجب أنْ يكون على ما بقي وليس على ما حصل (...) إنّ القضية قضية تغيير ستشمل كل شيء». من حوار **النهار العربي والدولي** معه في ١٩٨٥/١٢/٩. يسير هذا الميل إلى السطو على الغنائم والاسلاب مع ميل وحدوي مؤكد. حيث أنْ «الحل» ـ كما تكتب العمل القواتية ـ «يعني مؤسسة توحد الكتائب والقوات». ذلك أنّ الانتفاضة «لا بدّ أنْ تلد حزباً كتائبياً بثوب عصري يفتح يديه وابوابه ونوافذه لاستقبال كلّ الوافدين وكلّ الكفايات وكلّ المسيحيين عشيّة استعداد شعبنا لولادة يسوع». **العمل** (القواتية). ١٩٨٥/١٢/١٠.

من مطابعِها كما نصبتِ الحواجزَ وفتّشتِ السياراتِ بحثاً عن النَشْرةِ السِّرِّيَّة[٣٢].

وفي وصف جوزيف أبو خليل لِمَا أنزلَه إيلي حبيقة بالحزبِ الذي انتسبَ إليه، فإنّـه «ضيَّقَ على حزبِ الكتائب إلى حدِّ «الإقامةِ الجبريةِ في «بيتِ الكتائب» المركزي. بـل أكثر من ذلك، وضعَ على هذه القيادةِ مُراقبةً دائمةً بواسطةِ عُمَلاءِ ومُخْبرين سريين، وبـواسطةِ أجهـزةِ التقاطٍ حـديثةٍ كـان كل شيءٍ يَـدُلُّ على أنهـا معلّقـةٌ في أمكنـةٍ معيّنـةٍ من «بيتِ الكتائب» لكنّها لا تُرى ولا تقعُ عليها عينٌ أو نَظَر»[٣٣].

مجتمع الانتفاضة

لم تَكُفَّ الإنتفاضةُ عن توليدِ الإنتفاضاتِ المتلاحقةِ، كما يحصلُ دائماً في الأعمالِ الثوريةِ التي لا تعبأ بالاحتكامِ إلى شرعيّة دستورية. ولا يُؤْتى بجديـدٍ حين يقالُ إن هـذا المَسارَ قد آلَ في حصيلتِه الإجماليةِ إلى نتائجَ كارثيـةٍ لا على حزبِ الكتـائبِ أو الموارنـةِ والمسيحيين وحدَهم، بل على لبنانَ بأسْرِه.

فالقاعـدةُ التقليديـةُ للدولـةِ والمؤسّساتِ أضحتْ منطقـةً عربيـةً أُخرى من منـاطقِ الثوراتِ والتفتّت الدموي، حيث الريفُ يـرزحُ على صدرِ المـدينة، والميليشيـا على صدرِ الحزب، وفورةُ الغضبِ والحماسةِ على صدرِ الانتظامِ المؤسَّسي. ولمّـا استحالَ أن يُنتـجَ التفتتُ الثوريُّ في المَناطقِ المسيحيةِ نظامـاً استبداديـاً قويـاً وقادراً على الإمتـدادِ إلى سائرِ البقاعِ اللبنانية، كان أثره الوحيدُ مزيداً من التفتّتِ والفوضى اللذْين أضعفا الموقعَ التفاوضيَّ للمجتمعِ والحكمِ اللبنانييْن سواءً بِسَواء.

فبعملٍ تآمريٍّ أصبحَ الرجلُ الثـاني في الإنتفاضـة، إيلي حبيقة، رجلَهـا الأولَ، إذْ سُمِّيَ في ٩ أيار ١٩٨٥ رئيساً لـ «الهيئةِ التنفيذيةِ» في القوات، وذلك بعد إحْبـاطِه عمـلاً تآمرياً، هو الآخرُ، قام به شريكاه سمير جعجع وكريم بقرادوني[٣٤]، وتمثّلَ برسالةٍ سريـةٍ منهما إلى أمين الجميل[٣٥].

ولم يتبـاطأ القـائدُ الجـديد، البـاحثُ عن كنفٍ يقيه متـاعبَ الحربِ والصـراعِ مع المنافسين الكُثُرِ وسطَ عزلةٍ متعاظمةٍ ومسلسلاتِ فصلٍ متلاحقةٍ، في السيرِ نحو «الخيـارِ

(٣٢) في وصفه لمكتبه في العمل، بعد عودته إليه، يستعمل أبو خليل تعابير تليق بالقبائل الغازيـة، إذ «أعملت فيه يد السبي والنهب والتخريب كأنه مكتب أو مقر لعدو». جوزف أبو خليـل، «حرب لبنــان...»، سبق الاستشهاد، الحلقة ٥٢ **الحياة** ١٩٨٩/٩/٧.

(٣٣) المرجع السابق، الحلقة ٤٧، **الحياة** ١٩٨٩/٩/١.

(٣٤) راجـع التفاصيـل في صحف ١٩٨٥/٥/١٠، وفي مجلة **الكفـاح العربي** ١٩٨٥/٥/٢٠. كـذلك انظـر حوار **السفير** التليفوني مع جعجع في ١٩٨٥/٥/١٠.

(٣٥) نشرها أمين الجميل في مذكراته، «حوار وذكريات»، الحلقة ٧، **الحياة** ١٩٩٠/١٢/١٠.

السوري»، وصولاً إلى ما أسمْاه أحدُ المعلَّقين «سِلْم العسكر» لا سِلم السياسيين[٣٦].

فمثّلَ هذا الحسم هو ما يَضَعُ حداً للتناقضاتِ التي اتّسمت بها الإنتفاضةُ منذ ولادتِها العشوائية، وفي رأسِها التناقضُ بين الرغبةِ في الإنفتاحِ على سوريا وحلفائها اللبنانيين، والرغبةِ في تجديدِ الصلةِ بإسرائيل و«وقفِ التنازلاتِ لسوريا».

هكذا اجتمعت «الهيئةُ التنفيذيةُ» برئاسةِ حبيقة للمرةِ الأولى في ١٣ ايار[٣٧]، ثم اصدرت قرارتِها بإقفالِ المكتبِ التمثيليِّ في إسرائيل والترحيبِ بنشرِ قوةٍ من الجيشِ في جزين والدعوةِ إلى وقفٍ نهائيٍّ للنار[٣٨].

لقد كانت الصورةُ الشائعةُ عن «القوات اللبنانية» أحَدَ العناصرِ الدافعةِ في سبيلِ التوصُّلِ إلى السلامِ كيفما اتّفق. فقد اضْحَتِ الصورةُ المذكورةُ، كجسمٍ وَرَمِيٍّ مُتَضَخِّمٍ وككيانٍ طُفَيْليٍّ لا تحولُ دعواتُه إلى الصرامةِ الأخلاقيةِ دون الإصطدامِ بحياةِ الناسِ ورغباتِهم وأذواقِهم، صورةً ضاغطةً على بعضِ الجسمِ القياديِّ الذي اصابَهُ البَرَمُ بالحرب، فأرادَ أن يحافظَ على مكاسِبَ وامتيازاتٍ تحت غطاءٍ سلميٍّ ومشروع. ذلك أنَّ القواتِ أصبحت «ملجأً لكُلِّ العاطلين عن العملِ وقبضاياتِ الأحياءِ، بل الإطارَ لصالحِ لتجميعِ كلِّ الذين جعلتِ الحرب منهم مقاتلين قُساةَ القلوبِ لا يسألون لا عن قيمةِ الإنسانِ ولا عن حياته»[٣٩].

وبكثيرٍ من التعرُّج، آلَ هذا المَسارُ إلى المفاوضاتِ التي انتهت بتوقيعِ «الإتّفاقِ الثلاثي» في دمشقَ بين «القوات» و«أمل» و«الحزب التقدمي الاشتراكي»، فيما وقَّع وزيرُ الخارجيةِ السوري عبد الحليم خدام كشاهدٍ على تواقيعِ الأطرافِ الثلاثة. لكن لئن أثارَ التكتُّمُ حول المفاوضاتِ ريبةً مسيحيةً واسعةً وتخوّفاً من نتائجَ يَتِمُّ فرضُها على المسيحيين من وراءِ ظهورِهم، خصوصاً أنَّ الصورةَ الطاغيةَ لحبيقة كرجلِ أمنٍ كانت تُذْكي هذه المشاعِرَ، فإنَ الإعلانَ عن الإتّفاقِ لم يعملْ على تهدئةِ المخاوفِ بل زادَها تأجُّجاً.

فلا «العلاقاتُ المميَّزةُ» مع سوريا و«إعادةُ تأهيلِ الجيشِ» اللبنانيِّ ولا تقريبُ التربيةِ والتعليمِ اللّبنانيَّينْ من مثيلَيْهما السوريين، شعاراتٌ جذابةٌ عند المسيحيين. أمّا ما أراده حبيقة، بحساباتٍ عَصْبَوِيّةٍ ضيقةٍ، تجاوزاً لأمين الجميل، فعَنى في هذه الحالِ تجاوزاً للشرعيةِ الدستوريةِ ودورِها، الأمرُ الذي يُشبهُ إنقلابيةَ «الإتفاقِ الثلاثي»[٤٠]

(٣٦) انظر نقولا ناصيف في النهار في ١٩٨٥/٥/١١.

(٣٧) صحف ١٩٨٥/٥/١٥.

(٣٨) صحف ١٩٨٥/٥/١٩.

(٣٩) جوزيف ابو خليل، «حرب لبنان...»، سبق الاستشهاد، الحلقة ٤٧، الحياة ١٩٨٩/٩/٢.

(٤٠) من العلامات الأخرى على هذه الإنقلابية استبعاد الطائفة السنية كلياً، واختزال الطائفة الشيعية بالمحامي

واطـرافـه ورعـاتـه من دون أنْ يَلْقى التـرحيبَ في مـا تبقّى من تقليـدٍ سيـاسيِّ عنـد المسيحيين.

وإذا كانت تعهداتُ حبيقة المكتوبةُ وغيرُ المكتوبةِ للسـوريين، قد زادَتِ القلق، فـأنَّ استبـدالَ السوريين وحلفـائهم أوصافَ «الـزمرة الإسـرائيلية» ومـا شـاكلَهـا في وصفِ «القوات»، بأوصافِ «المُحاور الأساسي و«الطرفِ القويِّ على الأرض» إلخ... مـا كان لـه غيرُ مفاقمةِ التوجّس، خصوصاً أنَّ هذا التحولَ هو ما انتجتْهُ قنواتٌ خَفيّةٌ واتصالاتٌ كـان الناسُ كلُّهُم في منأىً عنها.

بهذا، فحينُ وُقِّعَ الاتفاقُ في ١٩٨٥/١٢/٢٨، بعد الاجتمـاعِ الفاشـلِ الذي دعـا إليه قبلَ يومٍ واحدٍ المدبِّرُ الرسوليُّ المطران إبراهيم حلـو للوصـولِ إلى موقفٍ مسيحيِّ موحَّد[٤١]، كان من الواضحِ أن العملَ الجديدَ لـلإنتفاضـةِ سيتسبَّبُ في مذبحـةٍ مسيحيةٍ أخرى ينتقلُ معها التفتُّتُ إلى داخلِ «القوات اللبنانية» نفسِها.

فالإقدامُ على تـوقيعِ الاتفـاقِ الذي اعتبـره كثيرون من المسيحيين بمثـابةِ خيـانةٍ وطنيـة، لم يكُنْ لينفصلَ عن المجتمـعِ الذي حـاولت الإنتفاضـةُ أن تقيمَه قسْـراً ولا عن السياسةِ العشوائيةِ التي اتَّبَعَها.

ففي أواخِر ١٩٨٥ تحدّثت «النهار» عن استنفار لـ «القـوات» واشتباكـاتٍ ليليةٍ في المناطِقِ الشرقية[٤٢]، لتتحدثَ بعد يومٍ واحدٍ عن اشتباكاتٍ مَوْضِعِيَّةٍ حصلت بين انصارِ حبيقة وانصارِ جعجع، كما بين الأوّلين والجيش[٤٣].

داخـلَ «القوات» صـادرَ مسلَّحو حبيقـة عددَ مجلـةِ «المسيرة» بسببِ تـأييـدِه خطَّ جعجع الرافضَ لـ «الاتفاقِ الثلاثي»، من خلال مقالِ الغلافِ الذي حمـل عنوانَ «الاتفـاق على نهر الموت» وقد كتبه إيلي الحاج ناقلاً النقاشاتِ الداخليةَ في «القوات» حول الإتّفاقِ المذكورِ والتصويتِ عليه[٤٤].

فإذا كان حبيقة، وللأسبابِ التي سبقت الإشارةُ إليها، رجلَ الحلِّ كيفما اتّفق، فـإن جعجع هو رجلُ تعقيدِ الحلِّ وتصعيبه لأسبـاب لا تَخْفى. فالجَمْهـرةُ المُهَجَّرَةُ التي يُمَثِّلُهـا جعجع تعرفُ أنَّ عودتَها إلى مناطقِها الأصليّـةِ لا تُؤْتى بالإنتصـارِ والغَلَبة، فـإذا حَصَلَتْ بغير ذلك كان الذلُّ الذي يهون حياله احتمالَ شظفِ الحربِ و«الصمودِ» وسائر القيم التي

نبيه بري، فضلاً عن تمثيل المسيحيين كلهم بحبيقـة الذي، كمـا كتبت العمل، «ليس بيـار الجميل ولا بشـارة الخوري أو كميل شمعون». **العمل** ١٩٨٦/١/٢١.

(٤١) انظر صحف في ١٩٨٥/١٢/٢٨.

(٤٢) **النهار** ١٩٨٥/١٠/١٥.

(٤٣) **النهار** ١٩٨٥/١٠/١٦.

(٤٤) **المسيرة في** ١٩٨٦/١/١٤.

لا يملكُ مثلها شبانُ المدنِ وأطرافُ الأحياء. فكيف حين نُضيفُ صدورَ جعجع عن مارونيةٍ سابقةٍ على التعايُشِ وسابقةٍ، تالياً، على المدن(٤٥)، من دون أنْ تكونَ معنيّةً على الإطلاقِ بالإعتباراتِ الإقتصاديةِ (التي تحتقرها) للوفاقِ مع الجوارِ العربي.

إنَّ ما كان مُمْكِناً ضبطُه داخلَ البشريةِ من أجسامٍ جنينيـةٍ ونواتيـةٍ لم يَعُدْ قـابلاً للضبط بعد رحيلِ القائدِ وما فعلتْهُ الحربُ «التوحيديةُ» من مفاقمةِ التفاوتِ داخلَ التركيبةِ الواحدة.

هكذا تمادى العنفُ وراحَ ينمـو تدريجـاً، فأُطلقتِ النـارُ على موكبِ أسعـد شفتري رئيسِ «جهازِ الأمنِ القوميِّ» في القـوّات، وعلى موكبِ رئيسِ الجمهـوريةِ أمين الجميـل. وفيما سادَ حالٌ من التوتُّرِ في المناطقِ الشرقيةِ التي قُطِعَ بعضُ طُرقاتِها، اعتبرتْ صحيفةُ «الجمهورية» المقرّبةُ من حبيقة(٤٦) أنّ محاولةَ اغتيال شفتـري «استهدفتْ حبيقـة» الذي انفصلَ عنه في جـونيه. ولئن حمّلت «القـوّات» جهازَ أمين الجميـل» المسؤوليةَ(٤٧)، اتَّهمَ حبيقة «مرتزقةَ صـاحبِ القصر»(٤٨)، لتنـدلعَ اشتبـاكاتٌ بين أنصـار الاثنيْن خلَّفت «قتلى وجرحى وحرائقَ»(٤٩) فضلاً عن احتراقِ خزّانيْن في الدورة.

في غضونِ ذلك، وفي ١٠ كانون الثاني، اقتحمَ مسلَّحون صحيفةَ «الجمهوريـة» كما مُنِعَ توزيعُها في المتن ودوهِمَتْ مطابعُها وأُصيب ثلاثةٌ من موظَّفيها(٥٠). وتلاحقَ التـدهورُ بصورةٍ مُتَسَارعة، فحاولتْ قوّاتُ حبيقة التقدَم نحو المتنِ الشمالي، الأمرُ الذي حوَّلَ هـذه المنطقةَ إلى مسرحٍ لاشتباكاتٍ تـرافقت مع التهيّـوء للقمة اللبنـانية ـ السـورية الحـاديةَ عشرة. وبعد يوميْن، أي في ١٥ كانون الثاني دخلت قـواتُ جعجع(٥١) في معـاركَ واسعةِ النطاقِ ضدَّ قواتِ حبيقة آلتْ إلى سقوطِ مواقِعِه كلِّها ومغادرتِه لبنان مع عددٍ من معاونيـه وأتْباعِه(٥٢). وقد وصفتْ «غرفة العملياتِ في الصليب الأحمر اللبناني» الأكلافَ الإنسانيةَ للمعركةِ الأخيرة بما يلي: «نَقْلُ ١٦١ جريحاً، ١٣٢ مريضـاً، تَكْفينُ ١٢٨ جثة، تـأمينُ ٤٤ وحدة دمٍ وُزِّعتْ على المستشفيات، إخلاءُ ٤٧ مدنيـاً حُوصِـروا في أماكِنَ عِـدة، وتعرُّضُ ثلاثةِ مُسْعِفِين لإطلاق نارٍ وإصابتهم بِجُروح»(٥٣).

(٤٥) راجع الفصل الأول.
(٤٦) **الجمهورية** في ١٩٨٦/١/٣.
(٤٧) **صحف** ١٩٨٦/١/٣.
(٤٨) **النهار** ١٩٨٦/١/١٤.
(٤٩) بحسب **الجمهورية** ١٩٨٦/١/١٤ بلغت «كلفة الفوضى في المتن» ٢٠ قتيلاً و٦٠ جريحاً.
(٥٠) **الجمهورية** و**النهار** ١٩٨٦/١/١١.
(٥١) في أيار وحين تولّى حبيقة القيادة، احتفظ جعجع برئاسة هيئة الأركان ممـا ترك لـه «العسكر» ذوي الغـالبية الشمـالية، وفيمـا انصرف حبيقـة إلى السياسـة مُوليـاً الأمن لأسعد شفتـري، انصـرف هـو إلى الإهتمـام بالمقاتلين.
(٥٢) عن **السفير** ١٩٨٦/١/١٧، حول الدمار والخسائر المادية، انظر **النهار** في اليوم نفسه.

ولئن لـوحظَ وقوفُ انطـوان بـريـدي، مسؤولُ الأشـرفيـة وابن إحـدى عـائـلاتهـا الارثوذكسية «العريقة» واحدُ أبرزِ قادة الإنتفاضة، على الحِياد[٥٤]، فهذا ما لم يَكُنْ عديمَ الـدلالة على أنّ الجيبَ الأشـدُّ صلةً بـالمدينـةِ والذي لم تكن لـه يـومـاً اليـدُ العُلْيـا في «القوات»، لم يَعُدْ يجدُ له أيَّ مكانٍ في الصراعِ الـدائرِ بين جنـاحَيْ المُهَجَّرين الـريفيين وأطرافِ المدن[٥٥].

لقد أُعلنَ عن هيئةٍ تنفيذيةٍ جديدةٍ جاء تركيبُها يعكسُ المصالحةَ العابـرةُ مع حـزبِ الكتائبِ والرئيس الجميل ، بسببِ اللقاءِ لـذي جمعَ بينهم ضـدَّ «الاتفاق الثـلاثي». وهكذا ضمَّت إلى جعجع، كُلاًّ من كريم بقرادوني وجورج قسيس وسامي خويري وجورج فريحـة وجورج عدوان وشارل شرتوني وجورج كسّاب ونادر سكـر ووليد فـارس وجان غـانم[٥٦]. وإذا كـانت «العمل» مضت تُسَمِّي مـا حصل «انقـلابـاً على الإنقـلاب»[٥٧]، في مقـابـلِ استعارةِ بقرادوني لغـةَ «الحركـات التصحيحية» واعتبـاره أنّ «ما حصـل في ١٥ كانـون سببُه انحرافاتٌ عن ١٢ آذار»[٥٨]، فإنَّ جعجع ما لبثَ انْ وضـع يدَه على جـرح المناطقِ والعصبياتِ حين قال: «كلُّ منا اتى من منطقـة ومن حزب معيّن. كـلُّ منا يجب أن يفتخـرَ بحـزبه ومنطقتِـه [...] لكنْ يجبُ الَّا يكـون لهـذا ايُّ تـأثيـرٍ على المُمَـارَسَـةِ العمـلانيـة المؤسَّسية»[٥٩].

صحيحٌ انَّ السياسةَ تغيَّرتْ لكنَّ مسلسلَ الانتفاضـاتِ لم يتوقَّفْ بعـد التخلُّص من حبيقة. ففي ١٠ آب ١٩٨٦ انتفضَ مارون مشعلاني قائد «ثكنة الشحـروري» ضد إعـادة التـأهيلِ وتحـويلِ القـواتِ جيشاً نظـامياً، وهي الفكـرةُ التي مثَّلتْ لمن تبقَّى من شبيبةِ الأشرفية في «القـوّات» قدْراً من الصـرامةِ والقسـوةِ الريفييْن اللـذين تمجُّهُما المـدنية. وبدورِها عدَّدَت «المسيرة»، وبنبرةٍ أخلاقيـة راحت تتزايـدُ مع إحكـام قبضةِ جعجـع على القوات، الأطرافَ التي تقفُ وراءَ الحملةِ على القائد، فرأت فضلاً عن حبيقة ومن اعتبرتْهم متضـررين من الإنتخابـاتِ الحـزبيـةِ «شبِّيحـةَ» الكـازينـوهـات والنـوادي التي أقفلتْهـا القوّات»[٦٠] و«التجّارَ الذين يتحكمون بالسوقِ اللبنانية» و«زعمـاءَ الأحياء» الـذين اعتادوا

(٥٤) انظر، مثلاً، **النهار العربي والدولي** ١٩٨٦/١/٢٦.

(٥٥) راجـع اسماء دفعـات المغادرين مـع حبيقة حيث تكـاد تنعدم الأسمـاء الشماليـة والطرفيـة في **النهـار** ١٨ و١٩٨٦/١/١٩.

(٥٦) انظر **السفير** ١٩٨٦/١/٢٥ نقلاً عن مصادر القوات.

(٥٧) انظر **العمل** ١٩٨٦/١/١٧.

(٥٨) **النهار** ١٩٨٦/٢/١.

(٥٩) **النهار** ١٩٨٦/١/٢٠. اما حبيقة فنقل مجلس قيادته إلى زحلة التي تقع تحت النفـوذ السوري، انظـر أسماء مجلس قيادته في **السفير** ١٩٨٦/٩/٢٧.

(٦٠) في الفتـرة نفسهـا حصلت اعتـداءات «القـوات» على «حليقي الـرؤوس» الـ (Punks) والتعبئـة ضـدهم في الشرقية.

قيادةَ السيارات الفخمة»(٦١)، لكنَّ القوات، مع هذا، سمَّتِ الحـركةَ «انقـلاباً فـاشلاً ضـدّ القيادة»(٦٢). وبينما انتهزت «العمل» الكتائبية فرصةَ ثكنةِ الشحروري لِتُعَبِّرَ عن مخاوفِها من احتقـانِ الحياةِ السيـاسيةِ وتمـادي العنفِ، داعيةً في سلسلـةٍ من الإفتتاحيـات، إلى «قيامِ الشرعية عندنا دون أيِّ مُنازِع»(٦٣). رأى معلِّقُ «النهـار» في تمرُّدِ مشعـلاني «بروزَ نوعٍ من الصراعِ «الإقليمي» داخلَ القوات، نتيجةَ وضعِ عنـاصرَ من منطقـةٍ معيّنة، في المـرحلةِ الأولى على الأقـلّ، في المراكِـزِ المهمّةِ في الثكنِ والأجهـزة، وتحديـداً عناصـر يَطْمَئِنُّ إليها الدكتور جعجع لأنَّها من الشمال أو من بشري، الأمْرُ الذي أثارَ حفيظة شباب من مناطِقَ أخرى»(٦٤)، وعندما عاد المعلِّقُ نفسُه بعـد أيامٍ إلى الحـدثِ المذْكـور، سجَّلُ الفراغَ الذي بـاتت تنطوي عليـه الحياةُ السيـاسيةُ في المنـاطقِ الشرقيـةِ وهو مـا سمحَ لجعجـع بتصفيةِ مشعـلاني وسطَ «الغيـاب الكـامِـلِ للفـاعليـاتِ المسيحيـةِ السيـاسيـةِ والروحية»(٦٥).

واقِعُ الحالِ أنّهُ منذ ١٢ آذار، وخاصةً منـذُ انتفاضـةِ حبيقة على جعجـع في أيّار، انعطفتِ «القواتُ» انعطافاً راديكالياً عن ذاك الثابتِ المـارونيِّ ـ الكتائبيِّ الـذي هو تمتينُ الصلةِ برئاسةِ الجمهورية والدفاعِ عنها. فالخصُومَةُ الحادّةُ مع الرئاسةِ أضْحَتْ أحَدَ أبرزِ حوافزِ التحرُّكِ السياسيِّ لـ «القـوات»، إذ المطلوبُ، بين أمـورٍ أُخرى، «أن يعـودَ الحزبُ حـزبَ الشعبِ بعدمـا جُعِلَ حـزبَ الدولـة» كما كتب سجعـان قُزي في افتتـاحيتـهِ الأولى لـ «العمل» القواتية بعد استيلاءٍ على «العمل» الكتائبية الأصلية(٦٦).

وتبعاً لهذا التوجُّهِ تمَّ تعميمُ القوةِ المحضةِ في «المجتمـع المسيحي»، بحيثُ راحتِ «القوات» تُوَسِّعُ بيكارَ تدخلها في المؤسسـات والحياةِ الثقـافية في نحـو قَسْري، وراحت أجهزةُ الدولة، بدورها، تردُّ على هـذا التوسُّـعِ بسلوكٍ مشـابِهٍ في ظـلِّ أنعدامِ المعـاييرِ والأنصبةِ والوسائلِ اللازمةِ لإقامةِ الشرعيّة.

وفي هـذا السِباقِ المحمـومِ على السيطرةِ خُطِفَ الممثِّـلُ اليـاس اليـاس(٦٧) وتمَّ الإعتداءُ على المذيعِ التلفزيوني جاك واكيم الذي فُجِّرَ منزلُه في الحازمية(٦٨)، وصِيرَ إلى مصادرةِ عددٍ من المُؤَسَّساتِ والوظائف المهنيةِ والنقابيّة، حتى أنَّ «جهـازَ النِقابـات» في

(٦١) **المسيرة** ١٦/٨/١٩٨٦.
(٦٢) انظر مقابلة **المسيرة** مع توفيق الهندي في ٢٣/٨/١٩٨٦.
(٦٣) مثلاً، **العمل** ٢٠/٨/١٩٨٦.
(٦٤) سركيس نعوم في **النهار** ١٢/٨/١٩٨٦.
(٦٥) **النهار** ١٧/٨/١٩٨٦.
(٦٦) انظر **العمل** (القوّاتية) ٣١/١٠/١٩٨٥.
(٦٧) راجع صحف في ٦/٧/١٩٨٥.
(٦٨) صحف في ١٢/٧/١٩٨٥.

القوات حين نفى وجودَ «اتّحادِ عُمّالٍ مسيحيين»، ردَّ عليه هذا الأخيرُ ببَيانٍ اسْتِغْرابي، مُعْتبراً أنَّ النفي «يتناقضُ مع الإنتفاضة»[٦٩]. وعندما اعتُدِيَ على «العمل» واحتُجِزَ رئيسُ تحريرِها جوزيف أبو خليل، رأى إيلي حبيقة في ردٍّ على النقيب ملحم كرم أنَّ القضيّةَ «سياسيةٌ حزبيةٌ، وبالتالي مُنَحّاةٌ في بعض وجوهِها عن الجانبِ المِهَنِي»[٧٠].

وفي سياقِ الإنتفاضةِ صادرتِ الهيئةُ التنفيذيةُ لـ «القوات» جزءاً أساسياً من الدَوْرِ التَحْكيميِّ للنقاباتِ والاتحاداتِ المِهَنِيّة، مُعلِنَةً أنَّ «جهازَ الشؤونِ الاجتماعيةِ والنقابات» في الهَيْئةِ، هو وَحْدَهُ المُخَوَّلُ بالتعاطي مع الشؤون النِقابيّةِ والعَلاقاتِ مع أربابِ العمل[٧١].

صحيحٌ أنَّ نَهْجَ تقديسِ الحركةِ وتعميمِ القوّةِ على حسابِ السياسةِ والمؤسّساتِ هو ما بدأ مع بشير الجميل، إلا أن الفوارقَ التي جعلتْ مشروعَ الأخيرِ مُتَفائلاً وصاعداً، ومشروعَ ورثتِه مُنْحَسِراً وآيلاً إلى التمزيقِ الشامل، أكثرُ من أن تُحْصى. فبشير، كما سبقت الإشارة، لم يَقْطَعْ بالكاملِ مع المؤسّساتِ والتقليدِ كما وجدَ طَريقَهُ مَفْتوحاً إلى سُدّةِ الدولة. كذلك عَمِلَ الاقْتناعُ بِمَشْروعِه، الذي أَثْمَرَ خلال فسحةٍ زمنيةٍ قصيرةٍ نِسْبياً، على الحَدِّ من العُنْفِ والقوةِ، والحدِّ من التفسُّخِ تالياً. وهذا ما بات يستحيلُ تجنُّبُه مع استطالةِ الحربِ الأهليةِ ـ الإقليميةِ، خصوصاً بعد الإحباطِ المسيحيِّ العامِّ بتجربةِ بشير. أضِفْ إلى ذلك أنَّ صعودَ الأخيرِ قد وازى السياسةَ الإسرائيليةَ المتَّجهَةَ إلى التخلُّصِ من «منظمة التحرير الفلسطينية» وواكَبَها، بينما سَبَحَ مشروعُ الوَرَثَةِ في بحرٍ إقليميٍّ تتضاربُ أمواجُهُ ولا تستقرُّ على حالٍ ووِجْهة.

بكلِّ هذه المعاني استوردت الإنقلابيةُ القواتيةُ إلى داخِلِها قَدْراً كبيراً من التبعثُرِ وفقدانِ الإستمرارية.

فقد عرفت «القواتُ» منذ نشأتِها حتى ١٩٨٦ تعاقُبَ خمسةٍ من القادةِ في ستةٍ من «العهود» (بشير، فادي فرام، فؤاد أبو ناضر، جعجع، حبيقة، جعجع)، حلَّ أربعةٌ منهم في القيادةِ بين ١٩٨٢ و١٩٨٦، أي بمعدَّلِ قائدٍ كلَّ سنة. وفيما اتسمتْ ثلاثُ عملياتِ انتقالٍ للسُلطة بـ «الإنتفاضات»، كُتِبَ الفشلُ لانتفاضةٍ أخرى على الأقل.

وبدورِها تغيرتْ صِيَغُ القِيادة[٧٢] من «حركةِ القرار المسيحي» بعد آذار ١٩٨٥ إلى «هيئةِ طوارىء» بعد أيامٍ قليلةٍ فإلى «هيئة تنفيذية» في ٢٠ آذار ما لبثت في ٩ أيار أنْ انتقلت إلى قيادةِ حبيقة وحْدَه، وفي ٣٠ أيار انتهى العمل بـ «المجلس التمثيلي» للأحزابِ

(٦٩) انظر **السفير** في ١٩٨٥/١٠/٢٠.
(٧٠) **الجمهورية** ١٩٨٥/١٠/٢٥.
(٧١) راجع صحف ١٩٨٥/١١/١٥.
(٧٢) راجع نقولا ناصيف في **النهار** ١٩٨٦/١٢/٩.

المُشَارِكَةِ، فانسحبَ رئيسُه فؤاد أبو ناضر من القوّات التي سَبَقَ له أن تولّى قيادتَها وعاد كُلّياً إلى حزبِ الكتائب. وفي ١٥ كانون الثاني ١٩٨٦ ومع تصفيةِ حبيقة وجماعتِه عُمِلَ بصيغةٍ جديدةٍ هي هيئةٌ تنفيذيةٌ موسّعة، أُبْعِدَ عنها في ١٠ آب سامي خوري وسط تكهُّناتٍ حول تعاطُفِهِ مع حركة مشعلاني، تلا ذلك إنشاءُ «مجلس قيادة» يقفُ على رأسه سمير جعجع.

غنيٌّ عن القول إنَّ بُنْيَةً كهذه لا يجمعُهَا من صلاتِ النسبِ بحزبِ الكتائب إلا القليلُ القليل؛ فعندما انعقدتِ القيادةُ لجعجع بعد تخلُّصِهِ من شراكةِ حبيقة، افْتُتِحَ فصلٌ جديدٌ في الصراعِ على الحزبِ، الذي كان ضحيَّتَه المُطْلَقة.

الميليشيا وعجز الدولة

على صعيد الأفكار كما على صعيد الواقع، اندفعت الإتّجاهاتُ الاستبداديةُ في البشيريّة إلى حدودِها القصوى بعد بشير، خصوصاً بعد أنْ أُطيح بحبيقة وكُتِبَت «الزعامةُ» لسمير جعجع وحده.

هكذا نشأ وتعاظم تضخيمُ «الزعيم»، وعبادَتُه تالياً، وهو التَّضَخُّمُ الذي كُنَّا رأيناه جَنينيّاً، كثيرَ العفويةِ وقليلَ التنظيم، مع بشير وهجوميّتِهِ. وبدوره آل هذا التَّضخيمُ، في ظلِّ أفكارٍ تنبُذُ الاستمراريَّةَ ولا تَتَّسِعُ زعامتُها لغيرِ زعيمٍ واحدٍ، نَبْذاً لبشير نفسه وتناقُصاً يوميّاً لصوَرِه التي ترفَعُهَا «القوّات اللبنانية» على ثُكَنِها ومراكزها وآليّاتها(٧٣).

فكريم بقرادوني رأى، في معرضِ التمييز والمقارنة، أنَّ بشيراً كان سياسياً «يربطُ المسائلَ بالواقع السياسي» فيما جعجع عقائديٌّ «يربط المسائل بالخلفيّاتِ التاريخية والعقائدية»(٧٤). ولا يُخْفَى، في وَسَطٍ نضاليٍّ وشبابيٍّ ضئيلِ الخُبُرَةِ، تَقَدُّمُ العقائدي على السياسي، وسحرُهُ الناجمُ، خصوصاً، عن كونِهِ مُنَزَّهاً عن السياسة.

وما لا يستطيعُ أنْ يقولَهُ بصراحةٍ «مسؤولٌ» كبقرادوني، ذَهَبَ بعيداً في تورُّطِهِ البشيري، وفي صوغِ صورة بشير الجميل، يقولُه بصراحةٍ أكبر كاتبٌ قوّاتيٌّ يرى أنَّ «المقصود أخطاء الشيخ بشير من حيث العمل العسكري والسياسي طيلةَ الفترةِ التي عرفناهُ فيها مقاوماً سياسياً ورئيساً [...] قد يكون ذلك أنَّ الخطأ الذي وقع فيه بشير الجميل هو اعتمادُ الزمنِ الآتي فرصةً مُمْكِنَةً لتسويةِ بعضِ المشاكلِ العالقةِ. فالتخطيطُ والبرمجةُ اللذان نَسَّقَ لهما بشير من الناحية العسكرية كانا ناجحين لكنهما سيبقيان دون

(٧٣) هذا فيما تخلى الشق الذي قاده حبيقة كلياً وعلنياً، تنظيمياً وفكرياً، عن البشيرية ليؤسس حبيقة في وقت لاحق ما اسماه «حزب الوعد».

(٧٤) راجع مقابلة النهار العربي والدولي معه في ١٩٨٦/١١/٣.

وَضْعِ خطّة واضحةٍ لاستعمالها مع أخذ الإحتياطات لاحتمالاتٍ قريبةٍ أو بعيدةٍ [...] ولعلَّ من الأخطار أيضاً التي فرضها الشعبُ نتيجةَ عاطفته الزائدةِ القاتلةِ في بعض المرّات على المشروع الحلم، هو تَعَلُّقُهُم ببشير الرجل وعدم الإهتمام ببشير المؤسسة التي تجسّدت في «القوّات اللبنانية» [...] ومن الأخطاء التي يُمكننا أنْ نستخلِصَهَا عدمُ التمييز عند بشير بين العلاقات السياسية والعلاقات الشخصية(٧٥).

ولئن سَمّى بقرادوني فارسَه الجديدَ «راهباً سياسياً»(٧٦)، فهو لم يتردد في القول الذي يُحاكي الكلام على الآلهة، إنّه «لو لم يكن سمير جعجع موجوداً لَـوَجَبَ أنْ نخلقَ سمير جعجع»(٧٧)، وفي هذا الاحتفال المنقطع النظير بجعجع، سِيمَ الرجلُ مفكراً(٧٨)، وَرُسِمَ على أغلفةِ الكتبِ كما تُرْسَمُ صور القديسين(٧٩). وإلى الزعامة وتعظيمها مارست «القوات» تعويلاً مُبَالَغاً فيه على «العقيدة» و«العقائدية»، مُنْشِئَةً في كانون الأول ١٩٨٦ «معهد التنشئة السياسية» الذي سُلِّمَتْ رئاستُهُ لشارل شرتوني، فيما دعا جعجع عند افتتاحه إلى إعادة تأهيلٍ سياسيٍّ بعد انتهاءِ عملية التأهيل العسكري(٨٠).

وفي الوُجْهَةِ نفسِها حصل لقاحٌ واضحٌ بين الخطاب السياسي للقوات وبين سِقْطِ مَتَاعِ الأحزاب التوتاليتارية ومثالاتها(٨١)، كان من نتائجه إنتاجُ تصوّر أحاديٍّ للبنان وسياستِهِ وجماعاتِهِ، لا يكتفي بالوقوف عند الثنائيةِ القطبية (المسيحيّة ـ الإسلاميّة) كما ترسمها الكتائبيّة الكلاسيكيّة طاردة كلَّ مستوى آخر للنشاط الإنساني، بل يدفعها إلى مصافِ مطلقٍ(٨٢). ومِنَ الأمثلة الكثيرةِ على ذلك ما كتبه أحد القواتيين تعليقاً على خَطْف الملازم الأول ماجد كرامة إحدى طوّافات الجيش اللبناني: «كان أمام الملازم الأول ماجد

(٧٥) من مقابلة جورج عبدالله براكس في **النهار العربي والدولي** في ١٩٨٧/٩/٢٨. هذا النقد كان أشد حدّة وعقائديةً وتماسكاً عن التنظيمات الصغرى.

(٧٦) انظر مقابلة **المسيرة** معه في ١٩٨٦/١٠/١١.

(٧٧) المرجع السابق. وبلغة تُقارب التبشير الديني وانتظار المهدي يرى بقرادوني «أنَّ أهم إنجاز حققته الإنتفاضة داخل القوات اللبنانية أنّها وجدت القائد وكلكم يعرفه وهو قريب منكم الآن، ولو معتكف، وهو سمير جعجع»، الذي اعتكف لأنّه «يمر بمرحلة إعادة حساب [...] وهذا ما يستلزم العزلة الذاتية فضلاً عن أنَّ الدكتور جعجع شعر بأنه «قرفان» من كثير من السياسيين». من محاضرته في عمشيت التي نشرتها **الأنوار** ١٩٨٧/٥/٣١.

(٧٨) راجع المقابلة «الفكرية» والسياسية المطولة معه في **المسيرة** ١٩٨٨/٤/٤.

(٧٩) راجع، مثلاً لا حصراً، بول عنداري: **الجبل حقيقة لا ترحم**، ١٩٨٥، لا ذكر للدار، وعنداري، بحسب **المسيرة** ١٩٨٦/٣/٨ قائد «الوحدات الخاصة» في القوات (التسمية التي لا تخفي مصدر استلهامها).

(٨٠) راجع صحف ١٩٨٦/١٢/١٢.

(٨١) من العينات الكثيرة على ذلك، وصولاً إلى حدوده الفولكلورية، أنَّ كريم بقرادوني حين تحدث عن «المقاومة» استشهد بتكامل دوري الجيش والمقاتلين في الجزائر وفييتنام حيث تمَّ «الدفاع عن الحدود وتعبئة المجتمع». من مقابلة **المسيرة** معه في ١٩٨٦/١٠/١١.

(٨٢) ربما كان أحد أفضل تعبيرات هذه النظرة افتتاحيات فيفيان صليبا داغر التي حملت عنوان «القوات اللبنانية مشكلة أم حل؟» في أعداد مجلة **المسيرة** لأشهر تشرين الثاني ١٩٨٧ ـ كانون الثاني ١٩٨٨.

كرامة خيانة من اثنتين: إمّا أنْ يخونَ الدروز، إمّا أنْ يخونَ الجيش. فاختار الخيانةَ الثانيةَ بسبب منطقيٍّ هو انَّه يُمْكِنُـهُ انْ يكونَ عسكـرياً في ايِّ جيشٍ لكنَّـه لا يستطيع الَّا يكـونَ درزياً»(٨٣).

واكبَ هذا اللقاحَ احتـلالُ بعضِ العقائـديين المُنْسَحِبين من احزابِهِم واتجـاهاتهم «العلمانيّةِ»، كنادر سكّر السوري القومي وتوفيق الهندي ووليد فارس الماركسيين، مواقـعَ اساسية في «القـوات»، فيما كـان يصب في الوُجْهَـةِ إيّاهـا الضغطُ الذي تُمـارِسُه كُتْلَـةُ المُهَجَّـرين بصفتها الكتلـةَ الأوْزَنَ والأعلى يداً في «القـوّات» بعـد تطهيـرهـا من حبيقـة ومؤيديه.

فالمُهَجَّرونَ، في ظلِّ جعجع، لم يعودوا مجرَّدَ بندٍ في السياسـةِ المعمولِ بهـا. ذلك انَّ القـوات، وبحسب أحد بيـاناتهـا، جدّدت «العهـدَ لهم على انْ تبقى درعَهُم وضميـرَهُم وبندقيَّتَهُم وحاملةَ لواءِ قضيَّتِهِم حتّى يستعيدَ كلُّ واحدٍ منهم أرضَهُ وبيتَهُ وحقَّهُ في الحياةِ الحُرَّةِ الكريمةِ في إطارٍ وطنيٍّ جامعٍ وشاملٍ»(٨٤).

أمّا كريم بقرادوني فأسماهم «العائلةَ الكبرى» للقوات، ورأى أنَّ ثمَّة بندين رئيسيين في أيِّ مفاوضةٍ مع الآخرين هما «إنهاءُ الإحتلالات وعودةُ المهجرين».

لكنَّ هؤلاء الأخيرين لم يدفعـوا نحوَ «حـلٍّ» على الأرض فحسب، إذ كانت للسمـاء حصتها. فبانتصار جعجع كسبت دعوى «الوَحْدَة المسيحية» مزيداً من الإهتمام والتركيز، كما زاد الإهتمامُ بالفولكلوريات المسيحية والطقسيات شبه الصوفيـة. فحين أُقيم في ١٢ آذار ١٩٨٦ مهرجان للقوات في برج حمـود لمناسبـة الذكـرى الأولى لـ «انتفاضـة» ١٢ آذار، إستُهِلَّ، بعد النشيد الوطني و«مـوسيقى تكريم الشهـداء» و«لحن الموت»، بقـدّاس ديني(٨٦). وحين تُقيم «إذاعة لبنان الحر» القوّاتية إحتفالاً، تُقيمُهُ في عيد القـديسة ريتـا «شفيعةِ الإذاعة»، ويتخلَّلُ الإحتفالَ قدّاسٌ يَرْأسُـهُ الأباتي بـولس نعمان حيث يُلقي عِظَـةً دينية(٨٧). وحين تجتمعُ «خلوة المغتربين» في مقر قيادة القوات اللبنانيـة، فإنَّ اجتمـاعها

(٨٣) امجد اسكندر، «بين الجيش والدرزية»، في المسيرة ١٩٨٨/١/٩. لم يكن لهذه العـدة الفكريـة أن تتجانس وتصير وجهة وسياقاً. فالموقع الأقلي وما تبقى من تـراث ديمقراطي دستـوري عند الكتلـة المسيحية، جعـلا الإلحاح على «التعددية» يواكب استعراضات القوة والسيطرة. غير ان هذه المـواكبة افضت، والحـال على ما هي عليه، إلى ما يسميه احمد بيضون «تعددية الاحتقار» التي تدين الآخر مسبقاً وتتعالى عليه، فتجافي بهذا «مثيلتها» الغربيـة التي تقوم على احتـرام الآخر والاعتـراف بخصوصيـاته وثقـافاتـه. انظر أحمـد بيضون، الصراع على تاريخ لبنان...، سبق الاستشهاد، ص ٢٣٧ ـ ٢٤١.

(٨٤) من بيان صادر في ١٩٨٦/١٢/٣٠ عن مجلس قيادة القوات اللبنانية.

(٨٥) الشراع ١٩٨٧/١١/٢.

(٨٦) انظر النهار ١٩٨٦/٣/١٢.

(٨٧) انظر النهار ١٩٨٧/٥/٢٢.

يُفْتَتَحُ «بقدّاس إلّهي في كنيسةِ المقر»[٨٨].

وهذا الزعمُ المسيحيُّ هو ما لا يني كريم بقرادوني يشتقُّ منه نتائجَ سياسية، حيث «انَّ تجاربَ الماضي يجبُ انْ تُعَلِّمَ الجميع بأنَّ وَحْدَتَنَا في النهاية أهمُّ من كلِّ الباقين. وما ينفعُ الإنسانَ إذا خسر جماعَتَه وربحَ جميع الآخرين»[٨٩].

بَيْدَ انَّ هذا الزعمَ العشائريَّ لا يُطلَقُ، على الأرض، إلاَّ عكسُه ونقيضُه.

فمرّةً أخرى يتوازى الإفراط في الكلام عن الوَحْدَةِ المسيحية مـع إفراطٍ في التَّفَتُّتِ المسيحيِّ لا مثيلَ له في السابق.

لقد ظهرت إلى السطح قِوىً وتنظيمـاتٌ وأحزابٌ تجمـعُ بين الشعبويّـة الراديكـالية وبين البحثِ عن مصادرَ لها أثريةً (اركيولوجية) ولا تاريخيـةً. يتمُّ معها تحـويلُ الهُـويَّاتِ الصغرى والماضوية إلى شعاراتٍ مستقبليّةٍ ومَهَامٍ مُطْلَقَةٍ[٩٠].

ولئن أفادت هذه القِوى الجديدةُ من غياب الحياةِ السياسيـة والأحزاب، فقـد عبَّرت عن غربتِها المطلقةِ حيالَ التكوين اللبناني التقليدي الذي بُنِيَ حـولَ التعايش المسيحي ـ الإسلامي»[٩١].

فبحسب تعـدادٍ في «النهار» للتنظيمـاتِ الصغرى التي شـاركت في نـدوة عقـدهـا «الإتّحاد الديمقراطيُّ الاشتراكيُّ المسيحيُّ»، نقرأ، فضلاً عن «الإتّحاد» المذكور، الأسماء التالية «الإتّحاد العام للعمّال المسيحيين في لبنان»، «حركة التضـامن المسيحي»، أمينُها العام المهندس جوزيف باسيل، «الإتّحاد الـديمقراطي لشبيبـة الروم الكـاثوليـك»، رئيسه ديفيـد عيسى، «اللجنـة المشـرقيـة»، أمينُهـا العـام سـامي فـارس، «تجمّـع السـريـان الكاثوليك»[٩٢]، رئيسُهُ الدكتور فـادي زرازير، «الحـزب القبطي الديمقـراطي»[٩٣]، رئيسه

(٨٨) **المسيرة** ١٩٨٧/١٠/٢٤.

(٨٩) **الانوار** ١٩٨٧/٥/٣١.

(٩٠) هنا يُستعاد لون «لبناني» مُفْتَّت عن قـومية سـورية جـامعة، مصـادرها هي ايضـاً في الطبيعة والآثـار. إنّها، بمعنى ما، مصـالحة الأرياف الخالصة مع ذاتها. راجع الفصلين الثاني والثالث.

(٩١) كعينة على هذه التنظيمات التي راحت في ١٩٨٦ ـ ١٩٨٧ تحتل مساحات متزايدة في التغطيـات الإعلاميـة، يمكن الرجوع إلى بعض مواقف «اللجنة المشرقية» التي تتسم بتسرع في المطالبة بترسيم «امـاكن الوجـود الديموغرافي والجغرافي للمسيحيين والمسلمين». انظر **النهار** ٢/٢٨ و٣/١٨ و١٩٨٧/٣/٢١.

(٩٢) هناك ايضاً «الرابطة السريانية» التي يرأسها حبيب افرام، وهو من أصدر جعجع في تموز ١٩٨٧ قراراً قضى بإنشاء «جهاز العلاقات العامة» في القوات، على أن يكون برئاسته. انظر **النهار** ١٩٨٧/٧/٢٥.

(٩٣) بحسب أحد الكتّاب المصريين فإن «الهيئـة القبطية» المتطـرفة ذات الحضـور في الولايـات المتحدة وكنـدا واوستراليا واوروبا، تتعاطف مع «الجبهة اللبنـانية» كمـا تنشر في مجلتهـا مقالات لكتـاب صهيونيين دون أنْ تكفَّ عن دعوة اقباط مصر ومسيحيي الشرق إلى «المـوت» الذي هـو «أفضل من العبـودية» لأنَّ «المسيحيـة تُبيحُ الدفاع عن النفس والحقوق». أبو سيف يوسف، **الأقباط والقومية العربية (دراسة استطلاعية)**، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٧، ص ١٨٣ ـ ١٨٥.

إدوار بيباوي، «الحزب الوطني الأشوري الديمقراطي»، أمينُه العام إبراهيم ماربـو، «حزب بيت نهرين الديمقراطي»، مُمَثِّلُهُ في لبنان يعقوب يوخانا»(٩٤).

إمتدَّ هذا التعيين الجرمي، بالمعنى السوسيولوجي للكلمة، ليشملَ المناطقَ اللبنانية في صـورة ناتئـةٍ ولافتةٍ للنظـر. فحين يُطْلِقُ جعجع بعضَ عنـاصـر حبيقـة الـزحـلاويين ويُسَلِّمُهُم إلى أسـاقفة زحلـة، لا يَنسى إبـداءَ أسفِـهِ لِبُعْـدِهِم «كـلَّ البعـدِ عن التقـاليـد الـزحلية»(٩٥)، وحين يُلقي خطـاباً يُـذَكِّرُ المُجتمعين بـأنهم «عمشيتيين كنتم أم جبيليين، جبيليين كنتم أم متنيين، سـاحليين أم جبليين، شمـاليين أم جنـوبيين، مسلمين كنتم أم مسيحيين...»(٩٦).

توتاليتارية وهمية

إنطـلاقاً من تـوحيد «القـوات اللبنانيـة» في ظلِّ التصـورات المُتَشَدِّدَةِ التي سبقت الإشـارةُ إلى بعضها، ومن التَّبَعْثُـرِ الفعلي الواسـعِ في المجتمع والمصحـوب بالتَّـردّي الكبيرِ الذي أصابَ الحياةَ والتقليدَ السياسيين، امْكَنَ لقيادةِ جعجع أنْ تَتَقَدَّمَ نحوَ محاولةٍ وهميةٍ لإقامة نظامٍ توتاليتاري وهميٍّ هو الآخر.

وَوَهْمِيَّةُ المحاولة، الناجمةُ عن عواملَ مختلفةٍ منها صِغَرُ الـرقعةِ الجغـرافية، وعـدم

(٩٤) النهـار في ١٩٨٧/٩/٢٦. جمعت الكلمات التي تليت في هـذه الندوة بين القـومية المسيحيـة والراديكـالية الاجتماعية والنضالية الجماهيرية، من دون أنْ تخلو من مراجعات نقدية لبشير الجميل و«تقليديته».
وهكذا بتنا، مثلاً، نقرأ في الصحف أخباراً من نوع:
«في معلومات وزعت في بيروت أنَّ اجتماعاً مشتركـاً عقد في لنـدن بين وفد يمثـل فرع الاتحـاد الماروني العالمي في بريطانيا وأمانة الإعلام والتعبئة في الاتحاد برئاسة الـدكتور رشيـد رحمة، ووفـد يمثل «الاتحـاد الآشوري العالمي» و«المؤتمر الآشوري العالمي» برئاسة الدكتور سرغون داديشو وفلاديمير توما.
وبحث المجتمعـون في سبل التعـاون الإعلامي والثقـافي بين الاتحادين. واتفقـوا على تأليف لجنـة عمل لمتابعة الاتصال بين الطرفين». النهار ١٩٨٧/٩/٢٢.

(٩٥) النهار ١٩٨٧/٣/٤.

(٩٦) من خطاب القاه بدعوة من «هيئة التنسيق لاندية جبيل «في ملعب نادي عمشيت في ١٩٨٧/٨/٢٢. وإذا كان الحضـور الإسلامي في منطقة جبيل قد أملى المخاطبة الأخيرة («مسلمين كنتم أم مسيحيين»)، فـإن التعداد المتكرر كثيراً ما يستحضر الزجليات اللبنانية في شكلها السياحي او التوفيقي.
والراهن أنَّ حدة نفور هذا التـوحيد الفـولكلوري هـو من نتاجـات العجز الفعلي عن التـوحيد، إذ الحـرب الاهلية لم تعمل على توحيد «أيَّة من الطوائف الكبرى توحيداً مطلقاً في الواقع. ولكنّها انشـات لبعضـها تيارات يسعها الزعم ـ زعماً مسلحاً ـ في الوقت الحاضر، انها قيـادات كلية الطـوبى لطوائفهـا». احمد بيضـون، ما علمتم وذقتم، سبق الاستشهاد، ص ١٤١.
ويقدم باحث غربي إضافة «عملانية» إذ يرى أنّه بسبب استدعاء السيطرة العسكرية «سيطرة على الأرض والجماعات، نزولاً إلى مستوى القرية والحي، او الشارع، تعززت سلطة القادة المحليين في صورة ملحوظة».
Michael Humphrey, *Islam. sect, and state: The lebanese case*, centre for Lebanese Studies, Oxford, 1989, p. 5.

كونها دولةٌ ناجزةٌ، والإضطرارُ إلى التّسليم بوجود شرعيةٍ وبـ «تعددية» ولو كانت «تَعَدُّدِيَّةِ الإحتقار»[٩٧]، لا تحولُ دون رَصْدِ هذه المحاولة التي اتَّجَهَت إلى الإمساك بالمجتمع في سياسته واقتصادِه وأمنه وثقافتِه وخدماته، ومِنْ ثَمَّ تَوَهُّمُ الهيمنةِ عليه.

□ سياسياً: تمَّ تصعيدُ النَّبرَةِ البشيرية الشعبوية حيالَ الدولة والسياسيين، من دون بشير ومشروعِه المُتَّجِهِ نحوَ مِنَصَّةِ السلطة. بهذا المعنى صارت «القوّات» تُخَيِّرُ رئيسَ الجمهورية بين رئاسَتِه وبين وَحْدَةِ التَّجَمُّعِ الطائفي، فيأملُ كريم بقرادوني من أمين الجميل «أنْ يقبلَ استقالةَ الرئيس كرامي بسرعة حتى نعودَ إلى ما كُنَّا عليه من وَحْدَةِ الموقف وَوَحْدَةِ الصفِّ وَوَحْدَةِ القيادة»[٩٨].

وتذهب النَّبرةُ الشبعويَّةُ محطَّةً أبعدَ مع افتتاحيةٍ لـ «المسيرة» تتساءل:

«لماذا الدولة أصلاً إذا كانت لا تدعمُ الفقيرَ المحتاجَ وتترُكُهُ لمصيره وَلِنَزَقِ التجّار والمحتكرين وجَشَعِ الطامعين؟ ولماذا الدولةُ أصلاً إذا كانت ترى الشعبَ مهدداً بالموت وتغضُّ النظر؟ ولماذا استقتلوا ليصبحوا نوّاباً عن الشعب ما داموا لا يحسبون له حساباً ولا يهتمون بما يُصيبُه من أهوالٍ كلَّ يومٍ لدى سماعِ أنباء البورصة؟»[٩٩].

واقعُ الأمر، أنَّ القواتِ وصلت في ظلِّ جعجع، خصوصاً بعدما طوى الموتُ كميل شمعون بعد بيار الجميل، إلى الإستفراد بالساحة السياسية المسيحية التي تكرَّسَ خروجُ سليمان فرنجية وريمون إدّه عنها، كلٌّ بطريقته. فيما وُضِعَ أمين الجميل في حَيِّزٍ يتراوحُ بين «الخارج» الشرعيِّ والمحاصرةِ داخلَ أسوارِ المتن.

ولئن أُخْضِعَ حزبُ الكتائبِ لمنافسةٍ ضاريةٍ ما لبثت «القوّات» أنْ كسبتها، كما سنرى لاحقاً، فإنَّ المهندس داني شمعون ابتعد «ليُصْبِحَ كأنَّه يتحرّك خارجَ «الجبهة اللبنانية» أو كأنّه تركها»[١٠٠]. أمَّا إدوار حنين، الذي يُسَمِّيه ميشال أبو جودة، «آخر كبار» الجبهة فاستقالَ هو أيضاً مع إغراقِ الأخيرةِ بالأسماء والتنظيمات إبَّان تفاقم أزمة الإستقالاتِ والتعيينات في حزب الكتائب[١٠١].

(٩٧) ما لبث ظهور قائد الجيش ميشال عون كمنافس لجعجع على زعامة المناطق الشرقية، أنْ عبَّر عن وهمية المحاولة، اي عن استحالة العيش خارج النظام السياسي اللبناني وايديولوجيته، او ما تبقّى منهما.

(٩٨) **الانوار** ٣١/٥/١٩٨٧.

(٩٩) **المسيرة** ١٧/١٠/١٩٨٧.

(١٠٠) ميشال ابو جودة في **النهار** ١٧/١٠/١٩٨٧.

(١٠١) تعلّق **المسيرة** (١٧/١٠/١٩٨٧) على استقالة حنين من الامانة العامة للجبهة اللبنانية بطريقة آمرة ناهية محذرة: «لا شكَّ في أنَّ لاستقالة الامين العام من الجبهة اللبنانية وقعاً مهماً. لكنَّ الجبهة تمثّل المقاومة والمقاومة استمرار وعطاء»، وبعد أنْ تغمز من قناة الصلة بين حنين والرئيس الجميل وطموح حنين في تسلم رئاستها بعد رحيل شمعون وبعض الاعتبارات المُفْتَرَضَة الاخرى، تنقل أنَّ مصدراً في الجبهة «افاد المسيرة أنَّ اركان الجبهة كانوا يفضلون لو بقيت الاستقالة من ضمن الإطار الطبيعي لها، ولم تُرَوَّج عبر وسائل الإعلام».

إلى ذلك شابت علاقةُ «القوّات» بالسياسيين والنواب رداءةٌ ملحوظة، مَهَّدَتْ لها دعوةُ «تجمُّع النواب الموارنة المستقلين»، إثْر تصفيةِ مجموعة حبيقة، إلى توحيدِ «الصّفّ الوطني» وإدانتِهِ «الممارساتِ ضدَّ المواطنين العُزَّلِ والأبرياء»[١٠٢]، وفاقمَهَا اتِّضَاحُ حجم التأثيرِ الضئيلِ لـ «القوات» على أعضاء البرلمان وقراراتهم[١٠٣]. كذلك لم تكن العلاقةُ بالمراتب الدينية المسيحية أفضلَ حالاً، إذْ بَلَغَ الأمر بالمطارنة الموارنة أنْ تحدَّثوا عن «التَّفَسُّخ في القوّات اللبنانية» نفسِها[١٠٤].

□ امنيّاً: لم يتردد بقرادوني في «تنظيم» ترتيب للمسؤوليات بين الجيش والقوّات في المناطق الشرقية، إذْ راى أنَّ الأوَّل «يتولّى الآن الدفاع عن ٦٠ في المئة من الجبهات ونحن نتولّى الدفاع عن ٤٠ في المئة [...] (و) تتولّى القوات ٨٠ في المئة من المَهمَّات الأمنية و٥٠ في المئة من المهمات الإستخباراتية»[١٠٥].

لكن يبدو أنَّ «القوات» لم تَتَقَيَّد دائماً بهذا الترتيب، فمِنْ إقالة قائدِ الجيش ميشال عون المُقَدَّمَ بول فارس قائدَ اللواء الخامس، قبل مُشاركة الجيش في صدِّ اختراق حبيقة في أيلول ١٩٨٦[١٠٦]، إلى مصرع العقيد خليل كنعان في منزلِه بُعَيْدَ الصدِّ بأيام يَلُوح انَّها كانت تُحاول باستمرار توسيعَ «حِصَّتِها» على حسابِ «حِصَّتِه».

وإذا صدّقنا أرقام بقرادوني، كان من الطبيعي أنْ يتَّجِهَ الوحشُ العسكريُّ الذي خَلَقَتْهُ «القوات» إلى التَّوسُّع. فبحسب أرقامه هذه باتت «المؤسَّسة العسكرية» القوّاتية في آذار ١٩٨٧ «متكاملةً، عددُها أكثر من ١٤ ألف مقاتل محترف عدا القوات الإقليمية التي أُنشئت مؤخراً [...] بالإضافة إلى الإحتياط»[١٠٧].

□ إعلاميّاً وثقافيّاً: لم تَعُدْ «القوّات» ضئيلةَ التأثير بعد تطويرها «إذاعةَ لبنان الحر» ومجلةَ «المسيرة» الأسبوعيَّةَ، وخصوصاً محطَّتَهَا التلفزيونية «إل. بي. سي» التي حَدَّثَت نسبياً الأداء التلفزيونيَّ في لبنان من دون أنْ تتقيَّد في عرضِها للأخبار والبرامج الأجنبية بأيٍّ من الإعتباراتِ التجارية وحقوقِ الملكية. فإذا أضفنا التأثيراتِ

(١٠٢) **النهار** ١٨/١/١٩٨٦.

(١٠٣) انظر الحملة على البرلمان والنواب في مقالات **المسيرة** ٢٤/١٠/١٩٨٧.

(١٠٤) بين امثلة كثيرة راجع صحف ١/١٠/١٩٨٦ حيث تَرِد «القوات» على بيان المطارنة وحول حساسيات العلاقة ببكركي وانظر مقابلة **المسيرة** مع بقرادوني في ١١/١٠/١٩٨٦.

(١٠٥) انظر مقابلة «**المسيرة**» معه، المرجع السابق، وفي معرض امتداح زعيمه يرى أنْ «سمير جعجع عقله عسكري ويحب الجيش بترتيبه ومعظم اصدقائه في الجيش. ومؤسسة الجيش هي المؤسسة التي يطمح إلى أنْ يتمثل بها»، المصدر نفسه.

(١٠٦) حتى أنْ **المسيرة** (٢٢/٧/١٩٨٧) سألت بقرادوني عن «صحة الحديث عن انقلاب كانت تحضّر له «القوات اللبنانية» مع بول فارس».

(١٠٧) من محاضرته في عمشيت. في **الأنوار** في ٣١/٥/١٩٨٧.

القواتيَّةَ المبثوثةَ في بعض الصحفِ الصادرة في المناطق الشرقية، تبيّن لنا وجودُ آلةٍ إعلاميّةٍ من دون منافسٍ رسمي أو غيرِ رسمي في لبنان.

الجديدُ أنَّ «القوات» شرعت في عهدِها البادىء مطالعَ ١٩٨٦ تتسلَّلُ إلى النشاطات الثقافيَّةِ، فتُشارك، مثلاً، في تكريم ميخائيل نعيمة عند بلوغه الثامنة والتسعين، وكذلك في تكريم توفيق يوسف عوّاد لدى نَيْلِهِ «جائزة صدام حسين للآداب».

وفي المناسبة الأخيرة، يتحدث بقرادوني عن كتاب عوّاد «الرغيف» بلغة «الواقعيين الاشتراكيين» وموظفي «الأدب الثوري»، فيرى فيه «عملاً فنياً نضالياً ضدَّ الإحتلالِ العثماني والإستغلال الاجتماعي. ففي لبنان بالذات كانت التربة التي فجَّرت المقاومةَ، ومن لبنان بالذات ينهمر «غيثُ» التحرر...» وبعد أن يتحدث عن المقاومة.«بالسياسة والبندقية» و«بالكلمة والأدب»، يُضيف:

«هُنا يلتقي الفنُّ الملتزم والسياسة المقاومة في معركة كونية وخصوصية واحدة...»(١٠٨).

□ خدميّاً ومؤسَّسياً: باتت «القوات» في أواخر ١٩٨٧، بحسب بقرادوني ايضاً، «اكبرَ مؤسَّسة عاملةٍ في هذه المنطقة (أي الشرقية) وتضمُّ ١٧ الف عاملٍ لديها بشكل مستمر»(١٠٩). وفي تقييم للنقلة التي حققتها منذ ١٢ آذار ١٩٨٥، يرى أنَّه قبل ذاك التاريخ «لم يكن في القوّات اللبنانية سياسةٌ اجتماعية ولا بُعْدٌ اجتماعي. كانت القوّات تُؤَمِّنُ بعضَ الخدمات الاجتماعية لعناصرها وللمعاقين ولأهل الشهداء. امّا اليوم فالقوّات اللبنانية تتحول إلى حركةٍ اجتماعية بأهدافٍ اجتماعية لمواجهة الحرب الإقتصادية»(١١٠).

وفي هذا الإمساك بخيوطِ المجتمع رُبطَتِ المدارسُ بها من خلال ضَبْطِ قوائم الطلبة المُسَجَّلين واحتمالِ استدعائهم إلى الخدمة الإحتياطية(١١١)، كما من خلال الروابط ونقاباتِ المعلمين، بحيثُ امْكَنَ لأحد القوّاتيين انْ يكتبَ تعقيباً على إضراب المعلمين، أنَّ «رئيس جهاز التربية في القوات اللبنانية الدكتور شارل شرتوني اعترض

(١٠٨) انظر **النهار** ١٧/١٠/١٩٨٧ و**المسيرة** ٢٤/١٠/١٩٨٧.

(١٠٩) «**الشراع**» في ٢/١١/١٩٨٧.

(١١٠) **الأنوار** ٣١/٥/١٩٨٧. ويمضي بقرادوني مُعَدّداً بعض بنود «البرنامج والانجازات» كـ «مراقبة الاسعار ومكافحة الغلاء والغش عن طريق المداهمات، وقف نوادي [القمار والبينغو، تسيير النقل المشترك وقريباً سيزداد عدد «بوسطات» النقل بكل الاتجاهات ولكل المناطق. التضامن الغذائي الذي يبدأ في ١٥ حزيران ويغطي ما يقارب ٨ آلاف عائلة لبنانية، التضامن الصحي الذي سيبدأ قبل نهاية هذا العام وسيغطي اكثر من ٨ آلاف عائلة لبنانية، التعاضد التربوي... إلخ.

(١١١) وهو احد بنود الخلاف الذي انفجر لاحقاً مع الجيش وقائده ميشال عون.

على فكـرةِ الإضراب المفتـوح الذي اعلَنَتْـهُ نقابـةٌ لم تَعُـدْ تُمَثِّـلُ إلاَّ الجـزءَ اليسيـرَ من المعلمين [...] رابطةُ أساتذة التعليم الحر اتخذت موقفاً مُنَاقضاً لقرار النقابة [...] إنَّنا لا نعترفُ للمتكلمين باسم المعلم من نُقَبَاء ومُمَثِّلين بأيِّ صفةٍ شرعية»(١١٢).

□ مالياً واقتصادياً: لم يكتم بقرادوني ارتفاعَ موازنةِ القوّاتِ الشهريَّةِ من ٢٠ مليون ليـرة لبنانية قبل ١٢ آذار إلى «اكثر من ١٢٠ مليـون ليرة» بعـدها(١١٣). وفي تفنيـدٍ لبعضِ مصادر هذه الموازنة، قُدِّرَ انَّ القوات تجني ٣٧٠ مليون ليرة سنوياً من كازينو لبنـان، ومليـون ليرة يـوميّاً من الحـوض الخـامس، و١٢ مليـون ليـرة شهـريـاً من العقـارات والسيارات، و٥ ملايين شهرياً من الضريبة على البنزين والغاز و١٢٥ الف ليرة يوميـاً من المتاجرة بالقمح(١١٤).

لقد بات في وُسْـعِ بقرادوني انْ يتحـدَّث عن «برنـامج للتنميـة الزراعيـة بمساعـدة الدولةِ الإيطالية» وعن امتلاكِ «شبكةِ اتصـالاتٍ ديبلومـاسية مُنَظَّمَـةٍ مع الكثيـر من الدول الغربية والشـرقية والعـربية المعنيـة مباشـرةً أو بصورة غيـر مباشـرة في الأزمة»(١١٥). وأخطر من ذلك ما عبَّرت عنه بدايةُ انبثاقِ لغةِ الاقتصادِ المُـوَجَّهِ في الخطـاب الإقتصادي للقوات التي باتت ترى «ضرورةً في تشجيعِ المبادراتِ الإقتصـاديّة المنتجـةِ. إنَّها تعمـلُ الآن على دَعْمِ المشاريع الاقتصاديّة. على سبيل المثال، هي (القوّات) ترى أنَّ الفـرصةَ سانحةٌ لتحويل لبنان من دولة خدمات إلى دولة صناعية»(١١٦).

□ في السياسة الخارجية: لئن اهتمت «القوّات» منذ نشـأتها بـالشؤون الخارجيـة، فهذا الاهتمامُ لم يَعُدْ، بعد بشير، يحتلُّ اهميّتَهُ السابِقَةَ نفسها أكان ذلك في ظلِّ إيلي حبيقة الذي عوَّل تعويلاً وحيَد الجانبِ على السوريين، أو في ظلِّ سمير جعجع الـذي تزامنت قيادتُهُ مع تراجعِ الإهتمامِ الغربيِّ (والاسرائيلي) بلبنان.

غيرَ أنَّ «القوات» ركَّزت تركيزاً ملحوظاً على المُغْتَرِبين لا بالمعنى الكتائبي التقليدي الـذي يدور حـول إعطاءِ «حقـوقٍ» للمغتـربين في لبنـان، بـل بمعنى مطـالبـةِ الأخيـرين بـ «واجباتهم» حيالَ الوطن الأم. ومن هذا المُنْطَلَق سعت «القـوّات» وعبر جهـازٍ تابـع لها اسْمَتْهُ «مؤسَّسة التضامن الاجتماعي»، إلى انْ «تربطَ» مئةَ الف عائلة مغتربةٍ بمـائة الف عائلة مُقيمَةٍ(١١٧)، بحيثُ تتولّى العـائلاتُ الأولى المشـاركةَ في إعـالةِ العـائلاتِ الأخيـرة

(١١٢) **المسيرة** ١٧/١١/١٩٨٧.
(١١٣) **الانوار** ٣١/٥/١٩٨٧.
(١١٤) من مقابلة مع عدنان الحاج (محرر اقتصادي في جريدة السفير) في بيروت ١٩٨٦. جدير بالذكر أنَّه لو اتيح لمشروع مطار حالات انْ يتحقق، لدرَّ دخلاً إضافياً هائلاً.
(١١٥) **الانوار** ٣١/٥/١٩٨٧.
(١١٦) بقرادوني في **المسيرة** ٢٢/٧/١٩٨٧.
(١١٧) انظر، مثلاً لا حصراً، افتتاحية **المسيرة** ١٧/١٠/١٩٨٧.

ودعم «صمودها». وَوَجْهُ الخطر في هذا التوجه انَّ قوميَّتَهُ المُضْمَرَةَ تفترضُ ضمناً عدم اندماجِ المهاجرين في مجتمعاتِهم الجديدة، أو أنَّها تعمل على تعقيد مثلِ هذا الإندماج بذريعةِ «الواجب» حيالَ المصدر الأصلي.

عود على بدء

في مقابل هذا المسار القوّاتي، شكَّل وصول أمين الجميل إلى رئاسةِ الجمهورية[١١٨]، بعد مصرع شقيقه الأصغر، إطلاقاً لمسار آخر آيلٍ إلى تضارب لا مهرب منه مع «القوّات»، فيما تُرِكَت «الكتائبُ» موضوعاً لنزاعٍ ضارٍ ولتجاذبٍ آلَ إلى تبديدها.

وما ينبغي تسجيلُه، بادىء ذي بدء، انَّ مجرَّدَ ترشيح كتائبيٍّ آخر من آل الجميل إلى رئاسة الجمهورية، بعد الصدمة التي أصابت المسيحيين عموماً، بضمانات الدولة، هو من قَبيل العودة إلى النظرية الكتائبية «الكلاسيكية» في الإحالةِ إلى الدولة. وهذا ما كان يتنافى مع النظرية القوّاتية حول الإحتكامِ إلى القوّة الذاتية أو التَّجَمُّعِيَّةِ في المجتمع الأهليِّ، والاعتمادِ ثانياً، وفي حدودٍ قصوى، على الدعم الخارجي لهذا البلد المجاورِ أو ذاك.

والحقُّ انَّ أمين الجميل، وفي توجُّهاتِهِ العامْةِ، التزمَ تماماً نظريةَ الإحالةِ إلى الدولة، خصوصاً وقد بات على رأسها، وكانت لالتزامِه هذا أكلافٌ لا بُدَّ من تسديدها.

فالمُرَشَّحُ الذي انتخبه عددٌ كبيرٌ من النوّاب المُسلمين، سُنَّةً وشيعةً، ورعى صائب سلام معركَتَهُ الرئاسيةَ بِقَدْرٍ من الحماسة، كان مضطراً إلى انْ يعمل على فَصْلِ ما ومَنْ يُمَثِّلُ عن ايَّة شبهةٍ إسرائيليَّة، عِلماً انَّ فصلاً كهذا لَمْ يَكُنْ عمليةً بسيطةً. وتَبَعاً لرواية جوزيف ابو خليل انَّ أرييل شارون كان بُعَيْدَ مجزرة صبرا وشاتيلا قد طَلَبَ إلى الكتائبِ إصدارَ بيانٍ بمسؤوليتها عن ذلك، عَلَّ بياناً كهذا يُبْرِىءُ ساحَتَهُ. لكنَّ الكتائبَ امتنعت حِرصاً على توفير الشروطِ اللازمة لمعركةِ أمين الجميل الرئاسية[١١٩].

ومؤدّى هذه الروايةِ انَّ الحزبَ فضَّل خيارَ الدولةِ اللبنانية، ولو أدّى إلى بدايةِ التدهور في العلاقة مع الإدارةِ الليكودية، على التَّمَسُّكِ بالدعم الإسرائيلي للموارنة والذي وَصَفَهُ شارون بأنَّه «ضمانَتُكُم الفعليّة».

(١١٨) بحسب رواية امين فإنّه عارض، منذ ترشيح بشير، ترشيخ اي فرد من آل الجميل للرئاسة بسبب الصبغة الحزبية، لكن «اغتيال بشير بعد انتخابه، قد وضع المصير على كف عفريت، وقام اعتقاد بأن خلافتي لبشير قد تساعد على تأمين الانسحاب الإسرائيلي بأخفّ الأثمان». امين الجميل، «حوار وذكريات»، الحلقة ٢، في **الحياة** ٥/١٢/١٩٩٠.

(١١٩) بحسب رواية جوزيف ابو خليل (المقابلة الشخصية معه).

ومن زيارته وليد جنبلاط بعد محاولة اغتيالٍ تعرّض لها ومشاركته في مهرجان جمعية المقاصد الإسلامية في بيروت، إلى التّوجه إلى طرابلس وصيدا وزيارة المفتي حسن خالد والرئيس شفيق الوزان، بدا الرئيس الجميل حريصاً، ولو في الظاهر، على نفي الطابع الثأري عن عهده وإبداءِ الحرصِ على لونٍ من التوازن اللبناني ـ اللبناني.

كذلك جاءت حكومةُ العهد الأوّل، وفي ظلِّ تعذُّرِ تشكيل حكومةِ «اتحادٍ وطني» جامعةٍ، لتُكَرِّرَ ما فعلَهُ فؤاد شهاب بعد ١٩٥٨ حين عهد إلى رشيد كرامي بتشكيل حكومة فنّيين وإداريين هي التي قامت في وجهها «الثورة المضادة» للكتائب. فإلى تكليف شفيق الوزّان برئاستها، وهو سياسيٌّ بيروتي تولّى رئاسةَ الحكومة في عهد الياس سركيس، جيء بوزراء هم في غالبهم فنِّيُّون ونقباءُ مهنيون كبهاء الدين البساط نقيب المهندسين، وروجيه شيخاني نقيب المحامين، وعصام خوري النقيب السابق للمحامين والمهندس بيار خوري.

وفي الوَسَطِ المسيحي العريضِ لم يتلكأ أمين الجميل، مُسَلَّحاً بدعمِ والده، عن خوضِ معاركَ متواصلةٍ مع الخطِّ الذي تنتهجُهُ «القوات». ومن أبرز أمثلةِ ذلك، خلوة سيدة البير التي عُقِدَتْ في أواخر العام ١٩٨٢ وضمّت «حوالي أربعين شخصاً يمثّلون الفعاليات التالية: حزب الكتائب، الجبهة اللبنانية، القوات اللبنانية، الكسليك، اليسوعية، اللجنة الاستراتيجية في «بيت المستقبل»، والمقدم سامي الشدياق («زميل» سعد حداد) وعدداً من الأكاديميين. وبين الذين حضروا الخلوة التي دامت يومين: جورج شرف، انطوان نجم، أنطوان معربس، أنطوان مسرّة، ميشال عوّاد، الأب سليم عَبُو، يوسف مَيْلا، جان شرف، العميد إبراهيم طنّوس، العقيد ميشال عون، الأب عبدالله داغر، الأب توما مهنا، وليد الخازن، روبير عبده غانم، خيرالله غانم، كريم بقرادوني، جوزيف أبو خليل، فادي افرام، سمير جعجع، شارك مالك، د. دعد عطاالله، د. نبيه كنعان عطاالله»(١٢٠). واللافت في هذه الخلوةِ المُوَسَّعَةِ والتي شملت هذا العددَ من الفعاليات المسيحية، أنَّ التيّار المؤيِّدَ لرئيس الجمهورية كان مُتَمَسِّكاً بشعار «الـ ١٠٤٥٢ كلم مربع» بصفته «وصيَّةً» بشير الجميل، إلَّا أنَّ الأكثرية كانت ترى «أنَّ» مشروع بشير» لن يستمر [...] (و) أنَّ الحكمَ لا يُشَكِّلُ ضمانةً وَحْدَهُ، وأنّه يجبُ أنْ تُضَافَ إلى الضمانة السياسية التي يُمَثِّلُهَا، ضمانةٌ «جغرافية أو جيو ـ استراتيجية» تُطَمْئِنُ المسيحيين، وأنَّ ذلك لن يكونَ بغير استمرار «القوّات اللبنانية»، وبغير التّوصُّل إلى صيغةٍ جديدةٍ هي نوعٌ من الفيدرالية»(١٢١).

هذا الرجوعُ إلى نظرية إحالةِ السياسة إلى الدولة لا يعدَمُ مصادِرَهُ في شخصِ

(١٢٠) جوزيف سماحة، «الكتائب والسلطة»، الحلقة ١، السفير ١٩٨٣/٤/٧.

(١٢١) المرجع السابق، حيث يتحدث الكاتب عن «نقاش حاد» جرى بين عضوي المكتب السياسي كريم بقرادوني وإبراهيم نجار المؤيد لخط أمين الجميل.

امين الجميل وتجربتِـهِ. فنجل مؤسس الكتـائب الذي وُلِـدَ في ١٩٤٢ ودرس في مدرسـة الآبـاء اليسوعيين لِيَتَخَـرَّجَ محاميـاً من الجامعـة اليسوعيـة، تَفَتَّح وعيُـهُ في زمن صعود الشهـابية ونجـاحِها الظـاهري. فسنـواتُ حكم فؤاد شهاب (١٩٥٨ ـ ١٩٦٤) هي مُعْظَمُ سنوات الجميل في التعليم الثانوي العالي والجامعي. وإذا كان شقيقُهُ الأصغرُ بشير قـد شاركَهُ التَّدَرُّجَ في مكتب المحامي والقُطب الشهابي فؤاد بطرس، إلَّا أنَّـه اختلفَ عنه في أنَّ سنواتِه الجامعية تلازمت مع تَفَسُّخِ الشهابية وصعودِ المقاومة الفلسطينيـة والفوضى التي صاحَبَتْهَا، ومن ثَمَّ دخولِ العنفِ إلى الحَرَمِ الجامعي عن غير طريق.

قُصارى القول إنَّ كتائبية أمين في زمن الإسترخاء الشهابي بَدَتْ كتائبيةً مُسْتَرْخِيَةً تُتِيحُ، إلى التأثُرِ بالوالد الشيخ بيار، تَأَثُّراتٍ متعددةٍ أخرى، ومتضاربةٍ احياناً. فالتفاؤلية التي اتَّسَمَت بها الشهابيةُ وَفَّرَتْ لِحِـزْبِيٍّ شاب مِثْلَـهُ انْ يُفَكِّرَ في معـابرَ للتَّـرقي موازيـةٍ للمعبر الحزبي، وانْ يعيشَ في «مجتمعاتٍ صغرى» تتعدّى البيئةَ الحزبيةَ الضيقةَ.

مِنْ ذلـك اقترانُ امين بجـويس تيّان المتفـرعةِ عن بيتٍ تجـاريٍّ في مقابـل اقترانِ شقيقه بشير بصـولانج تـوتنجي المناضلـةِ الحزبيـةِ الصادرةِ عن بيتٍ كتـائبيٍّ في ولائه وأهوائه. ولئن عُرِفَ بشير بصداقاته في أوساط مُجَايليه الحزبيين، عُرِفَ أمين بصداقاتِـهِ في أوسـاط المُحامين والمهنيين، ولاحقـاً رجالِ المـالِ والأعمالِ والسيـاسةِ. أمَّـا أبـرز مُستشاريه إبَّان حُكْمِهِ، كوزير خارجيته إيلي سالم ووديع حداد وغسّان تويني، فكان يُؤتى بهم من الجامعةِ والصحافةِ والسياسةِ أكثرَ مِمّا مِنَ الحزب. وكما كان الإعتبارُ الجغرافي ـ السياسي، وأهمُّ ما فيه تحسينُ شروطِ الصلة بالولايات المتحدة كَمَخْرَجٍ يُجَنِّبُهُ الخيارين السوري والاسرائيلي، هو ما يُملي اختياراتِهِ في ميدان السياسةِ الخارجيةِ، كانت النـزعةُ المُؤَسَّسِيَّـةُ تَجِدُ عنـدَهُ تعويـلاً يذهبُ إلى حـدٍّ مبالـغٍ فيه لِجِهَـةِ الإغفالِ عن العنـاصر الإيديولوجية والثقافية المحليّة [(١٢٢)]. وفي الحالين اتَّسمت الأمينيّة بلونٍ من الحـداثيّة البـرّانيّة التي لا تستطيع دائماً أنْ تُفكِّرَ مُجْتَمَعَها بذاتِه وتاريخه وتراكيبِهِ.

إلى ذلك كان للإنخراط المُبَاشَرِ في الحياة البرلمانية منذ ١٩٧٠ انْ تَرَكَ تأثيراتٍ لم يَكُفَّ امين الجميل عن الإشارة إليها والتوكيدِ عليها. ففي العام المذكور توفِّيَ خالُه القطب الكتائبي موريس الجميل الذي كان يَشْغَلُ احد المقاعدِ النيابية عن دائرة المتن الشمالي، فاختير أمين ليخوضَ المعركةَ الفرعيةَ عن الكتائب وهي التي اوصلته مُذَّاك إلى البـرلمان،

(١٢٢) في ٢١ تشرين الثاني ١٩٧٩ نشر امين الجميل مقالاً في العمل بعنوان «الكتائب كمؤسسة ومدى مـلاءمتها لظروف ما بعد الحرب» حيث اكَّدَ على الطابـع المؤسسي للحزب، وعلى دور المؤسسـات لا في الكتائب فقط بـل في الوطن. هـذا المقال الـذي يشي بتصور تعـاضدي (كوربورالي) يتكـرر فيه وبصـورة لافتة تعبيـراً «مؤسسة» و«مؤسسي».

لاحقـاً انشأ الجميـل عدداً من المؤسسـات التي انضوت في إطـار مؤسسة ام دعيت «اسـرة مؤسسات الإنماء للبنان ـ انماء» في سبيل تعداد لهذه المؤسسات، انظر جريدة **الحياة** ١٩٩٠/١٢/٤.

ليخوضَ بعد سنتين معركةَ القضاءِ نفسِه من ضمن الانتخاباتِ العامة التي جرت في ١٩٧٢.

غير أنَّ انتخابات ١٩٧٠ كانت لها أهميَّةٌ خاصةٌ في صِلَتِهَا بالكتائب وبأمين الجميل على السواء. وقد قُيِّضَ لها ان تُلَخِّصَ عدداً من التناقضاتِ التي لازمت الحزبَ خلال سنواتٍ مديدةٍ. فمن ناحيةٍ جاء اختيارُ أمين الجميل لِشَغْلِ المقعد الذي شَغَرَ بوفاة موريس ليدُلَّ أصلاً على حدودِ الحزبيةِ الكتائبيةِ واصطباغِها بالإعتباراتِ العائلية المحلية، الشيء الذي رأيناه يتفاقم على نحوٍ خطيرٍ في سنواتِ الحربِ الأهلية. ذلك أنَّ نجلَ بيار الجميل وابنَ شقيقةِ موريس الجميلَ حلَّ في المكانِ الذي كان، حزبياً، من حَقِّ المحامي منير الحاج رئيس إقليم المتن الشمالي الكتائبي(١٢٣).

ومن ناحيةٍ أخرى، وَجَدَ أمين الجميل نفسَهُ في ١٩٧٠ يستأنفُ الخطَّ الشهابيَّ في ترجمتِهِ وتحالفاتِهِ المتنية. فالقوى التي أيَّدت معركَتَهُ هي التي وَقَفَتْ وراء التحالف الشهابي ـ الكتائبي في ١٩٦٠ مُمَثَّلاً بجميل لحود وموريس الجميل، أمَّا القوى التي أيَّدت خصْمَهُ فؤاد لحود فهي قوى «الحلف الثلاثي» في ١٩٦٨ بعد إنقاص الكتائبيين منها وإضافة القوميين السوريين إليها(١٢٤).

بلُغَةٍ أخرى، وَجَدَ أمين الجميل نفسَه في ١٩٧٠ في مواجهةِ التكتلِ الموصوفِ تقليدياً في المتن بـ «التطرف» المسيحي، والذي يَضُمُّ الشمعونيةَ من خلال فؤاد لحود، والكتلويةَ التاريخيةَ من خلال ألبير مخيبر والقوميَّةَ السورية من خلال أسد الأشقر.

وكان لتمثيله المتنَ في البرلمان أنْ أضافَ إلى ما وصفناهُ بكتائبيته المُسْتَرْخِيَةِ جُرْعَةً أخرى من استرخاء. فالمنطقةُ التي يَقُومُ هَرَمُهَا الإجتماعيُّ على بورجوازيةٍ متوسطةٍ هي أعرضُ مثيلاتها في المناطق اللبنانية، تَضُمُّ إلى اكثريتها المارونيةِ كتلةً أرثوذكسيةً كبرى نسبياً وأخرى أرمنيةً كان حزبُها الأقوى، حزبُ الطاشناق، حليفاً ثابتاً للكتائبِ والشهابية.

زِدْ على ذلك كله تأثيراً آخرَ وَفَدَ على أمين الجميل من طريقِ العائلةِ والحزبِ، وهو الذي تَرَكَهُ خالُه موريس الجميل.

فهذا الأخير مَثَّلَ اللقاحَ الشهابيَّ ـ الكتائبيَّ خصوصاً لجهةِ ما سُمِّيَ بالثورية الدستورية أو الإنقلابيةِ من ضمن المؤسسات، وهي التي حَمَلَت في داخلها جرعةً كبيرةً

(١٢٣) تبعاً لجوزيف ابو خليل (المقابلة الشخصية) إنْ ما أملى موقفه وموقف كتائبيين آخرين كون أمين الجميل كمرشح مؤهلاً للفوز اكثر بكثير من منير الحاج.

(١٢٤) في ١٩٦٨ وبموجب تسوية غير معلنة تم الاتفاق على انْ يُطْلَق سراح القوميين السوريين الذين اعتقلوا بسبب محاولتهم الانقلابية في ١٩٦١ مقابل تصويت الحزب للمرشحين الشهابيين.

من الطّوباويّة والتبشير في النُّظَرِ إلى وَحْدَةٍ لبنانيةٍ يتمُّ البلوغُ إليها بالتقنية.

ولم يكن موريس الجميل بعيداً عن مصادر تكوينه عن إتّجاهاتٍ إنقلابيةٍ سَبَقَ انتسابُهُ إليها انتسابهُ إلى الكتائب، إذ انضمَّ في أوائل الثلاثينات إلى الحزب السوري القومي الذي غادره إلى «حزب الإستقلال الجمهوري» الأشدّ تصالحاً مع الواقع اللبناني، حيث أصبح نائباً لأمين سرّه(١٢٥).

وإلى تعويلِهِ على المؤسّسات والتخطيطِ، والشبيبةِ والتحديث، شَابَ علاقةَ موريس الجميل بقريبه بيار قَدْرٌ من الإرتجاجِ والمُنَاكَفَةِ، بعضُهُ شخصيٌّ، وبعضُهُ الآخر من طينةِ النفورِ المعروفِ بين التأمليين والعمليين في السياسةِ والأفكار(١٢٦).

غير أنَّ تلك المقوماتِ وهذا النفورَ هيأت موريس الجميل لأنْ يرعى رعايةَ الأبِ الروحي ما عُرف بـ «تيّار الشباب» في الكتائب أواخر السّتينات، وهذا التيّار الذي كانَ أمين الجميل قريباً منه، قرّبَهُ من والده وخالِه على السواء، هو الذي جعل الحزبَ في ١٩٦٨ ـ ١٩٦٩ يعقد ندوتي «أسبوع الفكر الملتزم» لأهداف منها: «محاربةُ الطائفية» و«التقنيةُ» و«التحديثُ» و«تطويرُ المؤسسات» و«امتصاصُ إمكانيات الثورة العمالية والطلابية» وإبداءُ الإستعداد لـ «تعديلِ الدستور» على الطريق إلى «القضاءِ على الطائفية» و«عَلْمَنَةِ الدولة».

لكنَّ التيارَ المذكورَ الذي طمح أبرزُ قادتِهِ، كريم بقرادوني، إلى الحدِّ من سلطةِ بيار الجميل، لم يَخْلُ من تلك النظرةِ التبسيطية إلى «الجوار العربي»، التي كانت تَشُقُّ على الدوامِ قنواتٍ من الشطارةِ القابلةِ لأنْ تصيرَ انتهازيةً سياسيةً أو لوناً من السذاجة والتسليم.

ففي الفترة إيَّاها التي كانت تُسَجِّلُ صعودَ المقاومةِ الفلسطينيةِ وأحزابِ اليسار في لبنان، توجَّهَ بعضُ أفراد «تيّار الشباب» إلى المخيمات الفلسطينية في الأردن بِقَصْدِ إنشاءِ علاقةٍ مع ياسر عرفات تُقْنِعُهُ أنَّ الصلةَ بالمسيحيين في لبنان في استطاعَتِهَا أنْ تَحُلَّ مَحَلَّ الصلةِ بالمسلمين وتُقَدِّمَ لثورته الخدماتِ نفسها. ولم يكن مُصادفاً أنْ يُسْتَعَادَ هذا النهجُ، في صورةٍ مُوَسَّعَةٍ ومن خلالِ الأشخاصِ انفُسِهِم، حينَ أصبحت العلاقةُ بدمشق هي الموضوعُ المطروح.

أبعدُ من ذلك أنَّ المطالبَ التنظيميةَ والداخليةَ التي رفعها بقرادوني في ١٩٦٨ و١٩٦٩ كرئيسٍ لمصلحة الطلاب في حزب الكتائب سريعاً ما تحققت، بحيثُ أصبح

(١٢٥) راجع جان سرور، **جمعية التضامن الادبي**...، سبق الاستشهاد، ص ٤٢.

(١٢٦) من المقابلتين الشخصيتين مع جوزيف أبو خليل وكريم بقرادوني، تصحُّ النسبة نفسها في الكلام اللاحق عن «تيار الشباب»، كذلك راجع مقابلة «**المسيرة**» مع بقرادوني في ١١/١٠/١٩٨٦.

بقرادوني في ١٩٧٠ عضواً في المكتب السياسي للحزب، وأمْكَنَ إشراكُ الطلاب عبر مُمَثِّليهم في صُنْعِ القراراتِ السياسية الحزبية استناداً إلى مُشاركتِهم في ارفعِ هيئاتِهِ.

قُصارى القولِ إنَّ أمين الجميل هو أيضاً وريثُ تفاؤليّةٍ ساذجةٍ سادت حياةَ الحزبِ في ازمنةِ السلمِ، وَبَرْهَنَتْ لأصحابها على وجودِ قُدْرَةٍ تَطوريَّةٍ هائلةٍ على تذليلِ المصاعبِ وامتصاصِها. ومثْلُ هذه التفاؤليةِ لا تعدمُ جذورهـا واسبابَهـا السابقـةَ على تجربـةِ «تيّار الشباب»، ففي ١٩٥٢، وبُعَيْدَ انتقالِ الكتائبِ من «منظمـةٍ» إلى «حزب» بحسب تحقيبهـا الـرسمي، امكن لبيار الجميـل أنْ يمتصَّ تياراً معـارضـاً في وسط المُثقفين ويَتَحَـوَّلَ من «رئيسٍ أعلى» إلى «رئيس»[١٢٧].

بعدت سنواتٍ بـدت العدّة التي استقبلت بهـا الكتائبيـةُ المُسْتَرْخِيَـةُ، مُمَثَّلَةً بـأمين الجميـل، حربَ ١٩٧٥، تَحْمِـلُ في داخِلِها كـلَّ اصنافِ تلـك التعارضـاتِ المتـراكمـةِ عن المراحلِ السابقةِ المذكورة.

فقد انخرط امين في الحرب لكنّه انخرطَ دفاعياً، كما اقتصـرَ مسرحُ مشـاركَتِهِ على منطقـةِ المتن وجوارهـا، فلم يذهب للحـرب «في طرابلس أو صبـرا أو الشـوف أو شـرق صيدا»[١٢٨]. ولئن عبَّرت حدودُ هذا الإنخراط عن التناقضِ الموروثِ في الكتائبيـةِ التقليديـة، فهي أيضاً كشفت كيفَ يُمْكِنُ لـ «الإعتدالِ» الدفاعي أنْ يحتوي في داخله استعداداً للتراجع عن «الوطنِ» إلى «الجماعةِ» و«المنطقة».

(١٢٧) من الذين دفعوا آنذاك إلى هذا التحول: جوزيف مغيزل وادوار صعب ونديم دكاش ونخلة المطـران ومخايـل عون (من المقابلة الشخصية مـع ابو خليـل). الجديـر بالـذكر أنَّ أوَّل الخمسـة بات من مؤسسي «الحـزب الديمقراطي» والثاني امتهن الصحافة واحترفها والرابع والخامس بـاتا من قيـاديي تنظيم ماركسي صغيـر. بدوره وجد «تيار الشباب» في اواخر الستينات من يسميه «يسار الكتائب».

وإلى هذه السمة شبه الإنقلابية التي احتواها الحزب في الحالتين، جمعت بين حركتي أوائل الخمسينات واواخر الستينات سِمَتَان اخريـان: أنَّهما ظهـرتا في الـوسط الطلابي ووسط المثقفين، وأنَّ قيـادتهما كـانت متعددة الطوائف المسيحية وليت مارونيتية حصراً فضلاً عن تعددهما المناطقي. وتحمل هذه السمة الأخيرة على التذكير بتيار إيلي حبيقه في اواسط الثمانينات الـذي انضوى فيـه ميشال سمـاحه الكـاثوليكي المتني ممن قادوا «تيّار الشباب». من ناحية اخرى يوجز ج. انتليس في مقالة لـه التحولات التنظيميـة التي تعرض لها الحزب منذ ١٩٥٢ واستوعبها، ودلالة تلك التحولات على قـدرته التطـورية. ففي ١٩٥٢ أصبـح «القسم» الوحدة ـ الركيزة في التنظيم بعد ان كانت «الميليشيا» في المرحلة الفالانجية، كما حصـل انتقال في العـام نفسه إلى «ديمقراطية مركزية» يتعايش فيها التعيين والانتخاب. انتقال القيادة المركزية للحزب من «مركـزية اوتوقراطية» إلى «مركـز اوليغارشيـة». وفي ١٩٥٦ بدا «المؤتمـر العام» بـالانعقاد لكنـه تعطّل خـلال حرب ١٩٥٨ ليُعَاود الانعقاد مرة كل سنة بدءاً بـ ١٩٥٩. ومرة أخرى كان لحرب ١٩٥٨ والخوف الذي اطلقتـه انْ أدّت إلى إنشاء «الفرقة» شبه العسكرية كوحدة تنظيمية معبرة عن انبعـاث المرحلـة الفالانجيـة من جديـد. انظر: John.P.Entelis, «Structural change and organizational develoment in the lebanese Kataéb party», *The Middle East journal*, vol. 17m no.1 Winter 1973. كـذلك راجـع الفصلين الثالث والـرابع في هذا الكتاب.

(١٢٨) امين الجميل، «حوار وذكريات»، الحلقة ٣، الحياة ٦/١٢/١٩٩٠.

كائناً ما كان الحالُ، فإنَّ هذا الاستعدادَ الـذي حَمَلَ امين الجميـل على نَزْعِ بـزَّتِهِ العسكريةِ بمجرّدِ انتهاءِ حرب السنتين، والرهانِ على العملية السياسية، سُـرْعانَ مـا دَفَعَ به إلى المبالغةِ في التعويلِ على الدور السوري، إذْ، وَتَبَعاً لـروايته هـو، عن موقِفِـه إبَّان حرب ١٩٧٨ ضد السوريين: «خرجتُ وحدي من هذا الإجمـاعِ المعادي لسـورية (ضمن «الجبهـة اللبنانيـة») واتخذتُ مـوقفاً معـارضاً منـه. واصبحتُ في مواجهـةٍ سياسيـةٍ مع الجميع وخصوصاً مع الفريقِ السياسي الذي كان اقربَ الناس إليّ»(١٢٩). وما كان يقـولُهُ امين الجميل باقتصادٍ وحذر، كان يقولُهُ بعلنيةٍ واحتفاليةِ المحـامي كريم بقـرادوني الذي دَرَجَ اعتبارُهُ آنذاك من السائرين في خطِّ امين داخـلَ الحزب، الشيء الـذي لم يتغيّر إلاّ بُعَيْدَ صعودِ بشير اللاحقِ(١٣٠).

فبقـرادوني حينـذاك لم يَتَمَلَّكُـهُ العجبُ «من انْ يكـونَ في لبنـان تيّـاران كبيـران، موجودانِ في كلِّ الطوائف المسيحية والإسلامية، وفي كلِّ الأحزاب اليمينية واليسارية.

هذان التيّاران هما التيّار الإسرائيلي الذي يُريد التقسيمَ والتوطينَ، والتيّار السوري الذي يُريدُ التوحيدَ والسيادةَ»(١٣١).

بِلُغَـةٍ اخـرى، إذا كـانت البشيـريـة، في وجـهٍ اسـاسيٍّ منهـا، هي الصـراعُ مـع الفلسطينيين الذي استأنفَ نفسَه صراعاً مع السوريين، بالتحـالفِ مع الإسـرائيليين في المرّتين، فإنَّ الأمينيّة كانت لحظةً دفاعيةً ضدَّ الفلسطينيين وجدت تتويجَهَـا في ١٩٧٦ - ١٩٧٧ في التحالفِ مع السوريين الذين تدخّلوا لمصلحةِ المسيحيين ولِقَطْعِ الطريقِ على التدخّل الإسرائيلي.

ولم يَكُنْ لهذه التناقضات كلِّها إلاّ انْ تظهـر إلى العلن مع تحـوّل الموقفِ السـوري

(١٢٩) المرجع السابق، الحلقة ٩، **الحياة** ١٢/١٢/١٩٩٠.

(١٣٠) بحسب جوزيف ابو خليل (المقابلة الشخصية) كان هو من اقنع بشير انْ كريم «طاقـة يجب كسبها» وهكـذا بدأ بقرادوني التحول من معسكر امين في الحزب إلى معسكر شقيقه.

(١٣١) في سبيل التهليل الغزلي بالإنقاذ السوري للبنان وبشخص الرئيس الأسد، انظر مقالاً كتبه كـريم بقرادوني في ١٩٧٧ ولم ينشر آنذاك إلى انْ نشرته مجلـة **المستقبل** ٩/١١/١٩٨٥ تحت عنـوان «كيف انقذ الأسـد لبنان؟».

بلغ هذا التهليل أن قال بقرادوني في مقابلة صحافية عقب فيها على محـاولة لاغتيـال الوزيـر عبد الحليم خدام في ١٩٧٦: «الواقع أن شخصية الوزير الإنساني عبد الحليم خدام شخصية جديرة بالاحتـرام. فهـو اكثر الدبلوماسيين تنسكاً إذْ اعتاد انْ يقوم في الساعات القليلة التي تسمح بها ظروفه بمشـوار في سيارتـه مع زوجته. الواقع انَّ الوزير خدام يعيش في مكتبه ١٨ ساعة وينام في منزله ٦ ساعـات لدرجـة أنّه عنـدما تشكلت الوزارة السورية الأخيرة كانت رغبة زوجته وابنه انْ يتـرك الوزارة، لأنَّ ابنـه الثاني جهـاد قال لـه: «اشعر بأنني يتيم فإنّك لا تهتم بنا». وقد تأثر ابو جمال بكـلام ابنه واخـذ يصرّ في المـرحلة الأخيـرة على تكريس ولو ساعة في الأسبوع للعائلة، وتلك الساعة التي كرسها في الأسبوع الفائت كـانت ساعـة محاولـة اغتياله». من مقابلة مريم شقير ابو جودة معه في مجلة **الصياد** ٩/١٢/١٩٧٦.

في مُقابل الضَّعْفِ المُتنامي للدولـةِ اللبنانيـة وتزايـدِ التَّجَذُّرِ واتِّسـاعِ الجَيْبِ الريفي في الوَسَطِ المسيحي.

الضبط المستحيل

كان العملُ بمبدأ الإحالـة إلى الدولـة يستدعي ظهـورَ أمين الجميل بمظهـر الرمـز القوي في طائفته وتنظيماتِها الأهلية، وفي هذا الإطار كان التَّمَسُّكُ بإيلي كرامة على رأس حزبِ الكتائب وَدَفْعِ فؤاد أبو ناضر إلى قيادة «القوات اللبنانية» بعـد مرحلـةِ الإضطرابِ والتجاذبِ والانتكاساتِ التي تَلَتْ رحيلَ بشير، حين كان فادي فرام قائداً لها.

لقد مرَّت القوّاتُ حينذاك، وفي مُـوَازَاة حصادِهـا التدريجي لمـراراتِ حربِ الجبـل والتخلي الإسـرائيلي، بمراحـلَ ثلاثٍ قصيـرةٍ لم تَدُمْ الـواحدةُ منهـا غيرَ أشهـر: الأولى، مرحلةُ التطـرف اللفظي والإصرار على البقـاءِ والتمايـزِ عن خطِّ أمين الجميل ـ الكتـائب. وربما كان الإحتفال الذي جرى في كنيسة ديـر مار اليـاس بأنطليـاس في أواخر تشـرين الثاني ١٩٨٢ خَيْرَ تعبيرٍ عن هذه المرحلةِ ونـزاعاتِهـا العلنية. آنـذاك اعتُبِرَت كلمـةُ فرام نافرةً برغم توكيدها مِنْ قبيل رَفْعِ العتب على حُسْنِ الصلـةِ مع رئيس الجمهـورية الـذي «هو مِنّا ونحن له». وكانت أبرزَ عناصرِ النفور مسألَتَا «المحاكاةِ الحضارية والعـلاقات بين كلِّ أقليّات المنطقة»، وأنَّ القوّات، والمسيحيين بالتالي، لن يستمرّوا «في معاداةِ إسرائيل من أجل الفلسطينيين»(١٣٢).

وفي مقارنةٍ مع «خطاب الـوعد» الـذي ألقاه بشيـر الجميل بُعَيْـدَ انتخابِـهِ للرئـاسة وتحدّث فيه عن الـ «١٠٤٥٢ كلم²»، لم يَفُتْ أحدَ المُراقبين تسميـةَ خطاب فـرام «خطاب الوعيد» واعتبارَهُ علامةَ تَذَبْذُبٍ «بين بشير ما قبل الرئاسة وبشير ما بعدها»(١٣٣).

لكنَّ التيّار القواتي لم يَسْتَطِـعْ خلال تلـك المرحلـةِ أنْ يكتُمَ إخفاقـاتِهِ وإحبـاطاتِـهِ ومصاعبِهِ، ومِنْ أهَمِّها «أنَّ بيار الجميـل ليس معه وإنْ كـان لا ينوي الإصطـدامَ به [...] (و) أنَّه يفتقدُ إلى رمز قيادي [...] (و) أنَّهُ يفتقدُ إلى برنامج مرحليٍّ وإلى برنامـج»(١٣٤). تلازمت هذه المرحلةُ مع أعمالِ خطفٍ وانتقـاماتٍ قـام بها قـوّاتيون وعسكـريون مُـوالون للقوات، في بيروت الغربية عَمِلَتْ على إضعافِ مِصْدَاقِيَّةِ العهدِ إسـلامياً، وعلى التَّشكيـك بعلاماتِ اعتدالِهِ الكثيرةِ، كما أمْكَنَ استعمالُها في وقتٍ لاحقٍ كـذريعةٍ لانقضـاض دمشق ومؤيّديها على النظامِ اللبناني.

(١٣٢) راجع الخطاب في صحف ١٩٨٢/١١/٢٩.
(١٣٣) انظر جوزيف سماحة في السفير ١١/٣٠ و١٩٨٢/٢/١.
(١٣٤) جوزيف سماحة، في السفير ١٩٨٣/٤/٨.

بدورها كانت المرحلةُ الثانيةُ مرحلةَ الإنكفاءِ أمام أمين الجميل والتراجعِ أمام رهانٍ مُسْتَجِدٍّ على السلامِ في أوساطٍ واسعةٍ في المجتمعِ اللبناني. في هذه المرحلة أمْكَنَ للجيش الذي أقام «بيروت الكبرى» أنْ يَتَسَلَّمَ الحوضَ الخامس في المرفأ من القوّات، فيما كان كريم بقرادوني يُعلن أنَّ خيارَهُ الوحيدَ هو أمين الجميل وأنَّ «الواجبَ يقضي» أنْ يكونَ في تَصَرُّفِه(١٣٥)، لا بل إنَّ مشكلةَ الجميل «هي مع الأطراف الأخرى وليست مع حزبِهِ أو قوّاته، وأنا اعتبرُ أنَّ الكتائبَ حزبُ أمين الجميل والقوّاتَ اللبنانيةَ هي قوّات أمين الجميل. إذن هو يأمرُ هذه القواتِ ولا يتفاوضُ معها. يتفاوضُ مع الآخرين وليس مع حالِه»(١٣٦).

اتّسمت هذه المرحلةُ بمحاولةِ تلوين الجميل بلونِ القوّات، على ما يُمكنُ أنْ يَنُمَّ عنه ذلك من توريطٍ وتعزيزٍ لحُجَجِ الطاعنين بالشرعيةِ وحيادِها ولا حِزْبِيَّتِها. غير أنَّ هذا التناولَ لم يُخْفِ أزمةً وجودِ القوّات نفسِها، وهي الأزمةُ التي دفعتها إلى الإختباءِ وراء واجهةِ حزب الكتائب الباحثِ عن صيغةٍ معقولةٍ لاستيعابها. وفي هذه الحدودِ صِيْرَ إلى تشكيل «هيئةٍ تنفيذيةٍ تَضُمُّ رئيسَ الحزب (بيار الجميل) ونائبَ رئيس الحزب (إيلي كرامة) والأمينَ العام (جوزيف سعادة) والقوّات (فادي فرام) وأحدَ النواب الحزبيين (جورج سعادة) ورئيسَ الأمانة العامة (جوزيف ابو خليل) أهمُّ أهدافها إعادةَ تنظيم العلاقةِ بين الحزبِ والقوّات(١٣٧).

أما المرحلةُ الثالثةُ فبدأت في أواسط ١٩٨٣، ومع اتّضاح المصاعبِ السورية والإسرائيلية، وتالياً الداخلية، التي تُواجِهُ مشروعَ الدولة وإعادةَ استنهاضِها. هنا عادَ التباينُ مع الحكم لِيَطْغى ويتعاظَمَ، بحيث يُدينُ رئيسُ الحكومة شفيق الوزان «بشدة» قصفَ «القوّات» لشحيم في إقليم الخروب، فيردُّ عليه فرام بأنَّ القصفَ لم يَكُنْ غيرَ دفاعٍ عن النفسِ وردٍّ على الاشتراكيين(١٣٨). وصولاً إلى تقييم إجمالي للعام ١٩٨٣ بوصفه «عام خيباتِ الأمل» وأنَّ «القوّة الذاتيةَ اللبنانيةَ وحدَهَا قادرةٌ على تحوير أيِّ حدثٍ لمصلحةِ هذا الوطن»(١٣٩). والقوّةُ الذاتيةُ هي، كما لا يَخْفَى، القوّةُ التَّجَمُّعِيَّةُ التي يُصارُ إلى وَضْعَها في مقابل الدولة.

كان لا بدَّ، مع التَّقَدُّمِ نحو «استحقاقاتٍ» اكثرَ جديَّةً وذاتِ طابعٍ إقليميٍّ، من حسم «الإشكال القوّاتي» عبر الدولةِ ونفوذِ رئيسها في الحزب. فالجميل، بعدَ كلِّ حسابٍ، قليلُ

(١٣٥) **الأنوار** ١٩٨٣/٣/١٤.
(١٣٦) **الأنوار** ١٩٨٣/٤/٣.
(١٣٧) انظر جوزيف سماحة، في **السفير** ١٩٨٣/٤/٨.
(١٣٨) انظر **العمل** ١٩٨٣/١٢/٢٩.
(١٣٩) كريم بقرادوني في مقابلة أجرتها معه **العمل** ١٩٨٤/١/١٢.

الحرص على استقلالية القوّات قِلّةُ شعورِهِ بالدَّيْنِ حيالَهَا في وصولِهِ إلى الرئاسة[١٤٠].

هكذا أدّى وصولُ أبو ناضر إلى إحلالِ مزيدٍ من الإنسجام بين توجهاتِ القوّات والحزبِ والدولةِ، كما بدات تَسُودُ لغةُ إيجابيّةٌ في الكلامِ والمواقفِ القوّاتيين، كأنْ تؤيّدَ «القوّاتُ» البيانَ الصادرَ عن اجتماعِ مجلسِ البطاركةِ والمطارنةِ الكاثوليك في ١١/١٢/١٩٨٤، وتُشيدُ «بالمواقفِ المسؤولةِ والجريئةِ التي تتَّخِذُها المراجعُ الروحية المسيحيةُ في لبنان والمشرقِ والفاتيكان»[١٤١].

لكن فيما سارعت «من حصاد الأيام» إلى التَّعليق الإنتصاري على انتخابِ فؤاد أبو ناضر حيث أنَّ «ما بعد بيار الجميل هو هذا الذي تأسَّس على صخر لا على رمال. فالكتائبُ في خير والقوّات اللبنانية في خير»[١٤٢]، تبيَّنَ منذُ البداية أنَّ هذا الإملاء الدُّوْلَتِي على «القوّات» يُجافي الطبيعةَ القوّاتيةَ المتعاظمةَ، وأنَّ الأمورَ لن تبقى طويلاً على «خير». فمع «انتخابِ» أبو ناضر تساءلت جريدة «السفير» عن المصير «المجهول» لسمير جعجع[١٤٣]، وكانت قبلَ يومٍ واحدٍ تحدَّثت عن «صراعِ مصيري» بينَهُ وبينَ أبو ناضر استعداداً للإنتخابات التي تُرافِقُها «استنفاراتٌ مسلحةٌ في منطقتي جبيل وجونيه» وإقفالُ معابر[١٤٤].

في ١٢ آذار ١٩٨٥ كانت «الإنتفاضة» التي أطاحت ابو ناضر واعلنت استعصاء «القوّات» القويّةِ على أنْ تنضَبِطَ بدولةٍ ضعيفةٍ وحزب اضعف، حتّى إذا ما انتهت ولايةُ الجميل الرئاسيّةُ وَجهَّتَ القوّات ضربةً مباشَرَةً له ولاحتمالِ عملِهِ السياسي مُسْتَقبَلاً، وكان ذلك في اقتحامِهَا العسكري للمتن الشمالي في ٣ ـ ٤ تشرين الأول ١٩٨٨[١٤٥].

مع الحزب اتَّخَذَت الأمورُ منحًى مختلفاً. فقد وَجَدَتِ الكتائبُ نفسَها، بعد أنْ تماسكت «القوّات» في ظلِّ جعجع، موضوعاً للتجاذبِ بين طرفين كلُّ منهما كتائبيٌّ لا كتائبي في الوقت عينه:

«القوّات» بميلها إلى التَّوَسُّعِ والقضمِ ونزعتها إلى الحاقِ الحزبِ بها، وأمين الجميل بقوَّة موقِعِهِ على راس الدولة بمعزلٍ عن هذا الضُّعف الذي يشوب هذا الموقعُ ضعيفاً.

(١٤٠) راجع تحقيق فؤاد حبيقة في الوطن العربي ٢٨/٣/١٩٨٥.

(١٤١) انظر النهار ١٨/١٢/١٩٨٤.

(١٤٢) العمل ١٠/١٠/١٩٨٤.

(١٤٣) السفير ١٠/١٠/١٩٨٤.

(١٤٤) السفير ٩/١٠/١٩٨٤. راجع كذلك الجريدة نفسها في ٧/١٠/١٩٨٤ من اجل رؤية «غربية» عن نزاعات الشرقية».

(١٤٥) انظر رواية أمين الجميل في مذكراته، «حوار وذكريات»، الحلقة ٣، في الحياة ٦/١٢/١٩٩٠. وفي الحلقة نفسها يتهم جعجع بالعمل على قتله عند انتهاء ولايته.

وبدورهِ لم يَكُنْ الأخيرُ، الذي هو مُلْتَبِسُ الحزبيَّةِ اصلاً، قليلَ الرغبةِ في مصادرةِ الكتائبِ استناداً إلى المِنصَّةِ السُّلطويةِ في خارجها. فرغبَتُهُ في إحالةِ السياسةِ إلى الدولةِ فاقَمَهَا الهجومُ المُتَعَدِّدُ الأطرافِ على الدولةِ إيَّاها، فيما بدا الإمساكُ بالكتائبِ مقدمةً ضروريةً للإمساك بكلِّ ما عداها.

غير انَّ طبيعةَ الهجومِ الخارجي، مصحوبةً بالظروف المُتَرَاكِمَةِ للحرب الأهلية التي عَمِلَتْ في صورةٍ متعاظمةٍ على تفريغ السياسةِ والحزبيةِ من معناهما، تَرَكَتْ بصماتِها على «استراتيجية» أمين الجميل في إلحاق الحزب. فإذا صحَّ أنَّ الأخير لم يمتلك القوَّةَ التي امتلكتها القوّاتُ «على الأرض»، إلَّا أنَّ سلوكَهُ الإلحاقيَّ حيالَ الحزبِ لم يختلفْ كثيراً عن سلوكِها. ذلك أنَّ الدولةَ، تحت وطأةِ الهجومِ الخارجي وظروفِ الحربِ الأهليةِ، دُفِعَتْ هي ايضاً إلى أنْ تصيرَ طرفاً يُطالِبُ بـ «حصَّةٍ» له ويُحاولُ جاهداً توسيعَ هذه الحِصَّة.

وإذا ما صدَّقنا روايةَ الياس ربابي عن ظروفِ ترشيح أمين للرئاسة، بدا واضحاً كيف أنَّ ذلك لم يخرج عن قرار حزبيٍّ شَرَعَ الجميل يتنصَّل منه بعدَ رحيل والده(١٤٦): فقد «كان مساء الأحد ١٩ أيلول ١٩٨٢ يومَ جاء درايبر إلى منزل الشيخ بيار في بكفيا، لتقديمِ التعازي (ببشير) والتباحثِ في ترشيح أمين. وكانت خلوةٌ التقى فيها الشيخ بيار ودرايبر وأنا، ولفت الشيخ بيار أنَّ درايبر ما انفكَّ «بارداً» في ترشيح أمين فقال له ما مُجْمَلُهُ: «لماذا الحذر؟ وإلى متى التردد؟ إنَّ أمين ليسَ مرشحاً مستقلاً. وإذا نَجَحَ في الإنتخاب لن يكونَ حرّاً في التَّصَرُّف على كَيْفِهِ وهواه. إنَّهُ مرشَّحُ حزبٍ هو المسؤولُ عنه».

ويُضيف القطبُ الكتائبيُّ حتَّى ذلك الحين:

«كان من المُتَوَاضَعِ عليه انْ تُعْقَدَ اجتماعاتٌ دوريَّةٌ بين أمين والمكتب السياسي (كلَّ ثلاثة أو أربعة أسابيع) للتشاورِ والتنسيق، أُسوَةً بما تَتَمَشَّى الأحزابُ عليه. وأنْ تُؤَلَّفَ لجنةٌ كتائبيةٌ قليلةُ العدد، كضابطِ ارتباطٍ بين الرئيس والحزب. ورُوعِيَ التزامُ التَّقيُّد بالشأنين: شأنِ الإجتماعات وشأنِ اللجنة في الثُّلْثِ الأوَّلِ من الولايةِ، أيْ إلى أنْ غاب الشيخ بيار، وتدريجاً سَقَطَ الإلتزام»(١٤٧).

غير أنَّ الامورَ لم تَكُنْ تماماً في مثل هذه البساطة. فمحاولةُ الجميل في مرحلةِ الوفاقِ مع الحزب، أيْ المرحلةِ الأولى من ولايَتِهِ، تطويقَ «القوّاتِ اللبنانية» ومحاصَرَتَها، رافَقَهَا تعويضٌ جزئيٌّ للكتائب وَاجَهَتْهُ المعارضةُ الإسلاميةُ المدعومةُ سورياً بحملةِ نقدٍ

(١٤٦) من ناحية أخرى، وكما سنرى لاحقاً، كان هذا التنصل مطلوباً من امين الجميل كرئيس للجمهورية، وذلك فيما كانت كل الجماعات ترفع مطاليب قصوى يصعب التوفيق بينها.

(١٤٧) الياس ربابي، مذكرات العين الواحدة، في الحياة ٢٢/٩/١٩٨٩.

وتشكيكٍ واسعةٍ. ففي هذه الوُجْهَـةِ، مثلاً، هبَّت الحملـةُ على تعيين الكتائبي ديـاب يونس مُحافظاً للبقاع، علماً أنَّ الإداراتِ الـرئاسيـةَ السابقـةَ على الجميل كـانت كُلُّها تـأخُذُ في الإعتبار وجودَ «حِصَّةٍ» كتائبيةٍ.

وتَبَعاً لرواية جوزيف سماحة التي لم تُحْجِم جريدةُ «السفير» عن نشرِها برغم غُلُوِّها في مُعارَضَةِ عهد الجميل، كان الأخيرُ «وهو يُجَدِّدُ رهـانَهُ على «لبنـان الكبير»، مُلْتَقِيـاً في ذلك مع رغبةٍ إسلاميـةٍ لا شكَّ فيهـا، يعملُ على تعـزيزِ وجـودِ حزب الكتـائب في إداراتِ الدولة تحقيقاً لهدفين: طَمْأنَةُ المسيحيين «الخائفينَ» ربَّما من «إعادة تكبير لبنـان» وسعياً وراءَ كسبِ الحـزبِ من أجـل مـواجهـةٍ أفضــل مـع التيّـار «الـراديكـالي» في الـوَسَطِ المسيحي»[١٤٨].

في ما يتعلَّقُ بالمرحلةِ التاليةِ التي وَصَفَهَا ربابي، اي مـرحلةِ التَّنَصُّـلِ من الإلتزام تجاه الحزب، يبدو أنَّ الجميل ضَمِنَ، عبر رئاسةِ إيلي كرامة، استتباعَ الحـزب للدولـة من دون التزاماتٍ تُؤَدِّيها الأخيرةُ لـه بما يُثيـرُ حفيظةَ المعـارضةِ الإسـلامية ويُشَكِّـلُ ذريعةً للتحريض السوري.

إلّا أنَّ حزيران ١٩٨٦، حين كانت «القوّات» في ذُروةِ هجومِها على حكومة كـرامي، وعلى «تَرَدُّدِ» الجميل ضِمْنـاً، حَمَلَ تغييـراتٍ لم تَكُنْ في مصلحةِ رئيس الجمهـورية. فقـد تَقَاطَعَ التَّـوَسُّعُ القـوّاتيُّ مع رغبـةٍ عند بعض الكتـائبيين، ما لَبِثَتِ الأحـداثُ اللاحقـةُ أن بَرْهَنَتْ على وهمِيَّتِهَا، في إحداثِ قَدْرٍ من الإستقلاليةِ عن الدولةِ ورئاسةِ الجمهورية. وكان لهذا التقاطع أنْ عبَّر عن نفسِه في انتخابـاتِ رئاسـةِ الحزب التي جَـرَت حينذاك، حـاملةً نائب رئيس الحزب جورج سعادة إلى السُّدَّةِ التي جَلَسَ فيها إيلي كرامة مُنْـذُ رحيل بيـار الجميل[١٤٩].

وما لَبِثَ الجسمُ الحزبيُّ أنْ دَخَلَ في عمليةِ تَصَدُّعٍ مديـدةٍ بلغت ذُروَتَهَا في أواسط ١٩٨٧ حين صدرت تعييناتٌ حزبيةٌ اعتبرَهَا مُؤَيِّدو أمين الجميل غيرَ شرعيةٍ، مُشَكِّلِينَ في أواخر العام «حركةَ انقاذ»[١٥٠] يُعيدُ اسمُها إلى الأذهان عشراتِ الحركاتِ «التصحيحية» و«الإنقاذية» العربيةِ.

ولئن رأى جوزيف أبو خليل، أحد قادة التحرك، أنَّ علاقةَ الحـزب بـ «القوّات» هي، مُنْذُ «انتفاضة» آذار ١٩٨٥، «غيرُ طبيعية وغيرُ مستقرّة وغيرُ محكومةٍ بأيِّ اتفاقٍ خطيٍّ أو

(١٤٨) السفير ١٩٨٣/٤/٩.
(١٤٩) يومذاك راجت تقديرات بأن كرامة «سيحجزه الرئاسة لأمين إلى أنْ تنتهي مدته في رئاسة الجمهورية».
(١٥٠) أكّد جوزيف أبو خليل أنّه وأصحابه لم يعتمدوا هذه التسمية لكن إذاعة «صوت الحق» (التي انشأها مؤيدون للجميل في المتن) هي التي اعتمدتها، من مقابلة مجلة الشراع معه في ١٩٨٧/١٠/١٩.

ميثاقٍ او دستورٍ او ايِّ شيء. وهي ما زالت تُدارُ بطريقةٍ استِنْسَابيّةٍ. هذا رغم معرفتِنَا الأكيدةِ [...] انَّ «القوّات اللبنانية» اصبحت مؤسّسةً تختلفُ كُلَّ الإختلافِ عن مؤسَّسة حزب الكتائب»(١٥١). فهذا لم يُلْغِ ظهورَ اصواتٍ مقابلةٍ تُصِرُّ على تَعَرُّضِ الحزب للإمتهان من موقعٍ آخر، هو موقعُ رئاسةِ الجمهوريةِ، إذْ بعد فوزِ سعادة وسقوطِ كرامة، كان ما فَعَلَهُ الجميل، بحسب الياس ربابي، انْ «اعلَنَ الحربَ على سعادة، دون رِفقٍ او هوادةٍ، كما يُقال: نادى بالقطيعة واللاإعتراف بالرئيس الكتائبي الجديد. مَنَعَ الأقسامَ الكتائبيةَ في المتن الشمالي من ايِّ تَعَاطٍ مع الرئيس سعادة وإداراتِهِ: فلا تَلَقّي لأيِّ تعليماتٍ، ولا ردَّ على ايِّ مكاتباتٍ، ولا رَفْعَ لأيِّ صورةٍ لسعادة في بيوت الأقسام. ولا حضورَ في ايِّ مهرجانات عامّةٍ يُقيمُها الحزبُ... حتى ولا اشتراكَ في حفلة إحياءِ ذكرى الشيخ بيار في «بيت المستقبل».

وإمعاناً في التعبير عن الغضب لم يُفْسَحْ لرئيس الكتائب الدكتور سعادة ان يُلقي كلمةَ الحزب في مهرجان إزاحةِ الستار عن تمثال الشيخ بيار في بكفيا (آب ـ اغسطس ١٩٨٧). وليس هذا فحسب، فإنَّ بطاقاتِ الدعوة إلى المهرجان كانت خاليةً من ايِّ ذِكْرٍ لـ «الكتائب». وثالثةُ الأثافي كانت في إقصاءِ رئيس الكتائبِ عن ايِّ اجتماعٍ كبيراً كان او صغيراً، يدعو امين إليه وتُبْحَثُ فيه شؤونُ البلاد، وذلك ما بين حزيران ١٩٨٦ ـ تاريخ ترئيس الدكتور سعادة ـ وايلول ١٩٨٨ ـ تاريخ انتهاء ولاية الشيخ امين... مع انَّ كثيرينَ مِمَّنْ ليسوا في العِير ولا في النَّفير كانوا يُدْعَوْنَ إلى تلك الاجتماعاتِ»(١٥٢).

وكائنةً ما كانت الحالُ بقيت المساجلاتُ الإتِّهاميَّةُ صورةً دقيقةً عن دخول التفتت (ولغته) إلى متن حزب الكتائب الذي انكمشت حِزْبِيَّتُهُ وضمرت سياسيته.

فإذا ما علّقت «المسيرةُ» القوّاتيةُ على رموز «حركة الإنقاذ» بأنَّهم «من منطقة واحدةٍ لها منطقٌ خاص بها»(١٥٣)، ردَّ امين الجميل مُعَلِّلاً:

«امَّا إذا قيل بأنّني جعلتُ من منطقة المتن التي كُنتُ مسؤولاً عنها منطقةً مُسْتَقِلَّةً عن الحزب فكلامٌ يحتاجُ إلى تصحيح. انا لا أُنكر انّني كنتُ على قَدْرٍ من التمرد والاستقلالية من هذا القبيل، لكنَّ ذلك لم يَكُنْ إلاّ عندما بدا الحزبُ نفسهُ يفقدُ استقلاليَّتَه والمناقبيّةَ التي عُرفَ بها ويُصْبِحُ تحتَ سيطرةِ السلاح وسُلْطَةِ الميليشيات حتّى لَيَصُحُّ القولُ إنَّ منطقةَ المتن مَثَّلت الأصوليةَ الكتائبيةَ بعدما ابتعَدَ الحزبُ في مناطقَ عديدةٍ عن

(١٥١) المرجع السابق، راجع كذلك المؤتمر الصحافي الذي عقده الأمين العام السابق للحزب شارل دحداح داعياً فيه إلى المعارضة العلنية لرئاسة سعادة، في النهار ١٩٨٧/١٠/٢٣.

(١٥٢) الياس ربابي، مذكرات العين الواحدة، سبق الاستشهاد.

(١٥٣) امجد اسكندر، في المسيرة ١٩٨٧/١١/١٧.

مشروعِهِ الوطني الديمقراطي تأثُراً بمنطقِ السلاحِ والذهنية الميليشياوية»[١٥٤].

وإذا ما سَجَّل الجميل أنَّ الحزبَ شهدَ، بعد انتهاءِ ولايته الرئاسيةِ، «تجريدَ كلٍّ من يَمُتُّ إليـ [ـه] بصلةٍ من مسؤولياته الحزبيةِ كمقدمـة لتعييناتٍ جـديدةٍ تمّت بعـد حين بما يصحُّ اعتبارُه «مسخرةً ديمقراطيةً»، كونَ البعضِ منها، على الأقلّ في المتن مثـلاً، تمَّ في ظلِّ الإحتلال القوّاتي للأقســام الكتائبيـة»[١٥٥]، عَلّق رفيق غانم، عضـوُ المكتب السياسي وهيئة الشورى في حزب الكتائب، على مُراجعة جوزيف أبو خليل[١٥٦] لتجربَتِـهِ الحزبيـةِ، بلغةٍ تَرُدُّ إلى محاكِمِ التفتيش، إذ «إنَّ النقدَ الذاتيَّ الجَامِعَ هذا، يصيـرُ تهوّراً يؤدّي إلى فقدان الإيمان بالقِيَمِ والثوابتِ المدقوقةِ وشماً بالدمِ والفداءِ على جِباه أجيالنا»[١٥٧].

واقعُ الأمر أنَّ جـورج سعادة، بتكـوينه وتجـربته، ليس تـابعاً لسميـر جعجع قـائدِ «القوات اللبنانية»، وتَبَعاً لروايته كان أحدَ أسبابِ خوضِهِ معركـةَ الرئـاسة تـلافي ترشيـح جعجع لهذا المنصب[١٥٨]. لكنَّ مشروعَ استقلالية الحزب لم يُقَيَّض له إلّا أنْ يكون وهمـاً بعد سنواتٍ على يقظةِ الريف وزحف العروبة وامتشاقِ السلاح على أوسع نطاقٍ في حرب كان لنتائجها، بَحسْبِ احدِ دارسيها، ان «زَكت أُطُرَ التضامنِ الأهلي الضيقةَ على حسـابِ الأُطُرِ الواسعـةِ، وهي الأقربُ إلى دائـرةِ السياسـةِ، فانتعشت العـائلةُ، تليها القريَـة أو المدينة بجماعةِ أهلِها الأصليين، وتَلِيهما الطائفةُ وذوو الوطن. واجتاحت الأُطُـرُ التقليديـةُ أيضـاً، بعضاً من الأطُـر الوسيطـةِ المناسبـةِ لمثالِ الـوطن ـ الـدولـة بحُكْمِ حـداثتهـا المشتركة، ومنها الحزبُ والنقابةُ»[١٥٩].

الهجوم السوري ـ الإسرائيلي

لم يسبغْ صِدامُ امين الجميل ودولَتِهِ، وسميـر جعجع وقـوّاتِهِ، في فـراغ، فهو كـان امتداداً ومُوَاكَبَةً لعنصر آخر زادَهُ حِدَّةً واحتقاناً. ذلك أنَّ الجميل وَجَدَ نفسَه بُعَيْدَ تَسَلُّمِهِ رئـاسَةَ الجمهـوريـة مطـالبـاً بـأنْ يُـرضي المسلمين ويُطَمْئِنَ المسيحيين، البـاحثين عن الإطمئنان في مكانٍ آخر فقط، بل ايضاً بأنْ يستعيدَ الأرضَ ووجهَ لبنـان العربيَّ ومعهمـا السيادةَ والصيغةَ والميثاقَ والإعتدالَ الخارجيَّ والبرلمـانيَّةَ في الـداخلِ، كـلُّ ذلك دفعـةً واحدةً.

(١٥٤) امين الجميل، «حوار وذكريات»، في **الحياة** ٥/١٢/١٩٩٠.

(١٥٥) امين الجميل، «حوار وذكريات»، في **الحياة** ٦/١٢/١٩٩٠.

(١٥٦) التي نشـرت على حلقات في الحيـاة في النصف الثاني ١٩٨٩، ثم جمعهـا صاحبهـا في كتاب حمـل عنوان «قصة الموارنة في لبنان».

(١٥٧) **الحياة** ١٤/٩/١٩٨٩، وقد لـوحظ في رده الإنشائي الـذي نشر على حلقـات أنْ دفاعـه عن «القوّات» فـاق دفاعه عن الكتائب.

(١٥٨) انظر روايته في: حازم صاغية، **موارنة من لبنان**، سبق الاستشهاد، ص ١٣٢ ـ ١٣٣.

(١٥٩) احمد بيضون، **ما علمتم وذقتم**، سبق الاستشهاد، ص ٧٩.

وإذا جازَ التشبيهُ بالشهابيةِ التي كانت أقلَّ سياسيَّةً، فإنَّ الشهابيَّةَ كانت بالتأكيد أكثرَ قوّةً من السلطةِ التي تَسَلَّمَهَا الجميل(١٦٠) فيما بدت التناقضاتُ الإقليميةُ أقلَّ اضطراماً وأقلَّ استدخالاً في الوضعِ اللبناني في آنٍ معاً.

إنَّ العلاقاتِ الإيجابيةَ بسورية في مقابلِ التَّحفُّظ عن إسرائيل لها مقدِّماتٌ سبقت الإشارةُ إلى بعضِها في شخصِ امين الجميل وتكوينِهِ. ويروي جوزيف ابو خليل كيف أنَّ امين لم يكتمْ منذُ ترسيحه للرئاسة مُعارضَتَهُ للخطِّ الإسرائيليِّ الذي اتَّبَعَهُ شقيقُهُ الراحل:

«لقد حاول الجانبُ الإسرائيليُّ، وحاولتُ انا شخصياً ـ ولم يَكُنْ الشيخ امين، بعدُ، إلّا مرشحاً للرئاسة ـ حَمْلَهُ انْ يكونَ مُكَمِّلاً لِمَا بداه «بشير». وبقيتُ الاحِقُهُ ايّاماً حتّى نزلَ عند رغبتي في استقبال الوزيرين الإسرائيليين، شامير وشارون. وكنتُ أراهِنُ على هذا الإتّصالِ الشخصي في إزالةِ هذا الحذرِ المُتَبَادَلِ بينَهُ وبينَ الإسرائيليين. وقد ندمْتُ لاحقاً، على ما فعلتُ، إذْ تضاعَفَ الحذرُ من اللقاءِ بدلاً من انْ يَخُفَّ ويتضاءلَ. والجديرُ بالذكر في هذا المجالِ أنَّه فيما كان المسؤولان الإسرائيليان يحاولان الحصولَ على تسميةٍ فوريةٍ للمفاوضِ اللبناني، وعلى انْ تكونَ المفاوضاتُ على مستوى سياسيين ووزراء، كان الشيخ امين يحاولُ، من جهتِهِ، النزولَ بهذه المفاوضاتِ إلى المستوى العسكريِّ والأمني فقط. ولشدَّ ما كانت خيبةُ شامير وشارون وخيبتي أنا عندما تنازلَ الشيخ امين ووعد بانتداب موظفٍ من مُوَظَّفي الخارجية اللبنانية ليكونَ من أعضاءِ الوفدِ العسكريِّ المفاوضِ. ويُعَبِّرُ هذا الموقفُ عن حرصٍ لدى امين الجميل، وقبلَ أنْ يُصْبِحَ رئيساً للجمهوريةِ، على عَدَمِ تجاوزِ الإطارِ الأمنيِّ والعسكري لاتِّفاقِ الهدنةِ، إتّفاقِ ١٩٤٩»(١٦١).

ولئن راهن العهدُ الجديدُ على «الخيار الأميركي» المُزَكّى ضِمْناً من المُحَافظين العرب في المحور السعودي ـ المصري(١٦٢)، بديلاً من الخيارين السوري والإسرائيلي، فهذا ما لم يَدْفَعْ الجميل مرّةً إلى المساواةِ بين الطرفين اللذين باتا يملكان حضوراً واسعاً في لبنان.

غير أنَّ هذه المعاملةَ لم تكن هي المرغوبةُ من قِبَلِ دمشق التي أخافَهَا الموقعُ الجديدُ الذي احرزته الولاياتُ المتحدةُ في جوارها المباشر، خَوْفَهَا من إفلات «الساحةِ اللبنانية» قبل العثورِ على تسويةٍ ملاءمةٍ لها على جبهتي الجولان والمسألةِ الفلسطينية.

تدريجاً ومع النَّهج الإنسحابي الذي اعتمدته الولاياتُ المتحدة والقوّاتُ متعددةُ

(١٦٠) في هذا الملمح كانت البشيرية اقرب إلى الشهابية، إلّا أنّها كانت شهابية مقلوبة من حيث تحالفاتها.

(١٦١) جوزيف ابو خليل، «حرب لبنان، مراجعة ونقد ذاتي»، الحلقة ٥٥، الحياة ١١/٩/١٩٨٩.

(١٦٢) هذا التوجه نحو مراكز السنية العربية (واللبنانية) كان موضوع اختلاف آخر عن القوات. راجع الفصل السابق.

الجنسية. بدا أنَّ «الحلَّ» الذي يُطالِبُ أمين الجميل بتقديمِهِ هو في يَدِ سورية وحدَهَا، اي أنَّ المبايعةَ لدمشق لم تنفصلْ عن ظروفِ التَّسليمِ الاميركي ـ العربي المُحَافِظِ بالدَّور السوري الأوحدِ. فيما الكتلة المسيحيةُ أسيرةُ هزيمتها المرَّةِ في الجبل، والدولةُ اللبنانية تَئِنُّ تحتَ وطأةِ عجزها عن ممارسةِ سُلْطَتِهَا على عاصمتها(١٦٣).

وتكررت لقاءاتُ الجميل بالرئيس السوري حافظ الأسد أو بكبار مُسَاعديه منذ قِمَّة نيودلهي في ١٩٨٣ وحتى اجتماع ٢١/٩/١٩٨٨ قُبَيْلَ انتهاءِ الولايةِ الرئاسية، كما تكررت المبادراتُ التي قام بها عددٌ من الشخصيات اللبنانية والعربية والدولية(١٦٤)، غير أنَّ الثابتَ بقي ثابتاً وهو أنَّ المطلوبَ في آخر الأمر نقلُ السيادةِ والقرارِ اللبنانيين إلى خارج لبنان. ولمَّا كان توازنُ القوى اللبناني ـ السوري قد اختلَّ تماماً لصالحِ الطرفِ الأخيرِ تَبَعاً للإنسحاب الاميركي وانتفاضاتِ «القوّات اللبنانية» ونجاحِ حُلفاء سورية اللبنانيين في استئنافِ الحروبِ الأهليّة، لم يكن هناك بدٌّ امامَ الجميل سوى اتِّباعِ سياسةٍ من المماطلةِ والتسويفِ والمراهنةِ على تَغَيُّرِ العناصرِ السياسةِ مع الزمن، الشيءُ الذي أكسَبَهُ، في عُرْفِ الكثيرين، وَجْهَ المراوغةِ والإلتفافِ على الأمور.

في سياق الحملة السورية المُتَـوَاصِلَةِ والتي ادَّت إلى هَلْهَلَـةِ السلطةِ الشرعية اللبنانية قوّةً ودوراً ووجهاً ورموزاً، كانت هناك محطتان بارزتان، إحداهُما في ١٩٨٣ وقد دُشِّنَتْ بها العلاقةُ مع عهد الجميل، والثانية في ١٩٨٦ حيث أُغلِقَت كلُّ الأبوابِ امامَ احتمالِ انْ يُنْجِزَ العهدُ المذكورُ شيئاً.

فمع اتِّفاق ١٧ أيار لاستعادةِ الأراضي اللبنانيةِ المحتلةِ مِنْ إسرائيل بأقلِّ كلفةٍ مُمْكِنَةٍ شَنَّت دمشق عبر إعلامِها وحلفائِها هجوماً مُتَعَدِّدَ الجبهاتِ. وبرغم أنَّ الإتفاقَ هذا كان أقلَّ وأدنى بكثيرٍ من معاهدةِ الصلحِ، كما أنَّه لم يُفْضِ إلى أيِّ تَنَصُّلٍ من علاقاتِ لبنانَ بمحيطِهِ العربيِّ، فإنَّ الرغبةَ في إبقاءِ «ساحةِ» الجنوب مفتوحةً ومربوطةً بأزمةِ الشرقِ الأوسط غَلَبَتْ كلَّ اعتبار آخر. هكذا خِيضَت المواجهاتُ الداميةُ في الجبل وبيروت والضاحية الجنوبية فيما كان النُفوذُ الإيرانيُّ يَجِدُ في لبنانَ ميداناً فسيحاً له تحتَ يافطةِ مقاومةِ إسرائيل.

ويَصِفُ الجميل لاحقاً ذاك الحلفَ العريضَ والقويَّ الذي واجهته الدولةُ حينذاك، إذْ كانت «إيران تتحرك ودخلت جماعاتٌ أصوليّةٌ إلى لبنانَ بمساعدةِ سوريةِ. فَتَكَوَّنَ في مطلع سنة ١٩٨٣ حِلْفٌ رباعيٌّ بين موسكو ودمشق وطهران وطرابلس الغرب لمواجهةِ الوضع

(١٦٣) بمعزل عن الحملة التشهيرية لم يكن «القمع» الذي وُجِّهَت به حركة ٦ شباط مما يستحق ذكره قياساً بالقمع العربي في إبادات المدن.

(١٦٤) انظر مذكرات امين الجميل، «حوار وذكريات»، الحياة ١٢/١٢/١٩٩٠، ومذكرات جوزيف ابو خليل في الجريدة نفسها في ٨/٩/١٩٨٩.

في لبنــان. وكان الاتِّحــادُ السوفيــاتيُّ مُتَضايِقــاً من وجودِ قــوّاتٍ أطلسيّةٍ في لبنــان. امَّا سورية فبسبب مفاوضاتِ لبنان مع إســرائيل، وطهــران استغلّت الأمر لمــواجهةِ الــولاياتِ المتحدة على أرض الآخرين (السيارات المفخخة والرهائن) والليبيون «في كلِّ عــرس لهم قرص»»[١٦٥].

كانت الحملةُ على الحكمِ شَرسَةً قاسيةً عزَّ فيها الدعمُ الخارجيُّ فيما حالَ الإرهــاب الداخليُّ دون ظهورِ اصواتٍ مسلمةٍ تَضَعُ الأمورَ في نِصــابها[١٦٦]، وذلـك كلُّه فيمــا أمين الجميل منشغلٌ أيضاً «بتخليصِ الساحةِ المسيحية من دورِ انصار شقيقه بشير»، بحسب الرواية التي ذَكَرَ منح الصلح أنَّه سمِعَها من الجميل[١٦٧].

ولم تتــوقّف الحملــةُ[١٦٨] نسبيــاً إلاّ مــع وصــولِ اميـن إلى دمشــق لِيُعْلِـنَ في ٢٩/٢/١٩٨٤، اي بعد ٢٣ يوماً على سقوطِ العاصمةِ، استعدادَهُ لإلغاء معاهدة ١٧ أيار، وهو ما فَعَلَهُ بعد خمسةِ أيّام لِتُــوَاجِهَهُ عــاصفةٌ مسيحيــةٌ مقابلــةٌ تقضي على ما تبقّى من صورةِ الحكم وهيبَتِه.

تَكَرَّرَ الأمرُ مع «الإتّفاق الثلاثي» الذي لم تتم إحاطةُ الجميل كرئيسِ للجمهورية بما يجــري في مفاوضــاته. ولئن ابــدى الإستعدادَ لإحــالــةِ مشــروعِ الإتِّفــاق على المجلس النيابي، فهذا ما بدا شديدَ القصورِ قياساً بما تَطْلُبُهُ رغبةٌ انقلابيةٌ جارفةٌ في عدائها لكــلِّ ما هو دستورٌ أو عرفٌ أو تقليد. ولم يتردّد يومذاك عصام النايب وزير الدولــة السوري في انْ يقولَ للجميل عند زيارتِهِ إلى دمشق في ٢/١/١٩٨٦ «انَّ رئيسَ الجمهوريــة لا سُلْطَةَ

(١٦٥) امين الجميل، «حوار وذكريات»، الحلقة ، الحياة ٨/١٢/١٩٩٠.

(١٦٦) خلال عهد الجميل وبعد إخراج «جيشه» من بيــروت الغربيــة سقطت رؤوس كثيرة لسيــاسيين ورجالات دين مسلمين اغتيالاً.

(١٦٧) الحياة ٧/٩/١٩٨٩.

(١٦٨) في ٣٠/١/١٩٨٤، مثلاً، كتب رئيس تحرير جريدة السفير متنبئاً بشكل بيــروت الغربيــة بعد تحــريرهــا من نفوذ امين الجميل:

«بــالحب وإرادة البقاء، والإنتصــار على مصاعب العيش، سَنُحَــوِّلُ كلَّ بنــاية إلى اســرة واحدة متكــافلة، متضامنة، تتقاسم الرغيفَ الواحد إذا لـزم الامر، تتنــاوبُ تامينَ الميــاه بالصفــائح «المستــوردة» من أحياء اخرى وتشترك في دفع ثمن المولد الكهربائي (بغضِّ النظر عن نسب ارباح المتاجرين بالعتم، فيوم حسابهم آت ولو بعد حين).

سنخترع ملعباً آمناً لاطفالنا داخل الشقة او حتى داخل الملجا وسَيُدَرِّسُ الجــارُ ابناء جــاره، وستساعــد الزوجة جارتَها المريضة، ولسوف يعالجُ الطبيب اهل حَارته بتعرفة مخفضة، ومجاناً حيث تدعو الحاجة.

ستُنَظِّفُ كلَّ شبر، ولن تبقى قمامة في الشوارع، وعند المنعطفات وسنصون المرافق العامة، وكأنها غرفة اطفالنا وحوائجهم الحميمة،

سنهتمُّ بامن الجميع، المواطن والاجنبي، وسنحمي بأهداب العين مراكزَ العلم والتعليم ودور العبادة وكلَّ ثوابت وحدتنا وحقيقة انتمائنا إلى وطن واحد وامة واحدة».

بعد اسبوع واحدٍ فقط كان ٦ شباط وتحققت الطوبى على الأرض. انظر كَمِّيَّةٍ تحريضية كثـرت مثيلاتهــا افتتاحيات سلمان التي جمعها في كتاب إلى اميرة اسمها بيروت الصادر عن المركز العربي للمعلومات.

له على الأرض، وإنَّ المجلسَ النيابيَّ لا يتمتَّـعُ بأيِّ صفـةٍ تمثيليةٍ لـه وإنَّ الجيشَ مُعَطَّلٌ والإقتصادَ مُنْهَارٌ، هذا فيما الميليشياتُ وحدَهَا التي تملكُ سلطةً على الأرض وتمثِّلُ الناسَ والقواعدَ الشعبيةَ، الأمرُ الذي يُعطيها صِفَـةَ الشرعيـة الثوريـة التي هي أهمُّ من شرعيـةِ رئيسِ الجمهورية وباقي المؤسَّسات [...] لذلك اعتبرنا الشرعيةَ الثـوريةَ هي التي تُعطي الإتفاقَ الصِّفَةَ الشرعيةَ والبُعْدَ الوطني»(١٦٩).

وكما في ١٩٨٣ تَعَدَّتِ الحملةُ كلَّ الحدودِ(١٧٠) مع سقوطِ «الإتّفاق الثـلاثي»، واتَّبَعَ رئيسُ الحكومة وبعضُ الوزراء «سياسةَ» مقاطعةِ رئيسِ الجمهوريـة التي آلت إلى تعطيلِ الحكمِ تماماً ما بين أوائل ١٩٨٦ وأيلول ١٩٨٨، وذلك في مـوازاةِ دعواتٍ متـواصلةٍ إلى الإقالةِ والإسقاطِ وتقصيرِ الولايةِ، تُواكِبُهَا محـاولاتُ «القوّات اللبنـانية» تـوطيدَ سيطـرتها على المناطق الشرقية وما تبقّى من حياتِها السياسيةِ والحزبية. أمَّا النموذجُ الذي أقامتـه «الشرعيةُ الثوريةُ» في بيروت الغربيـة فكان بـدوره مسرحـاً لصراعـاتٍ لا حدودَ لهـا بين أطـرافِ «الصفُّ الواحـد»، ممَّـا استـدعى الـدخـولَ العسكـريَّ السـوريَّ المُبَـاشـرَ في ١٩٨٧/٢/٢١ إلى العاصمةِ المُتَمَرِّدَةِ على حُكْمِ أمين الجميل(١٧١).

بدوره لم يكن اللقاءُ الواسعُ الذي سجَّلَتْهُ حربُ الجبلِ دعماً وتأييداً لرئيس «الحزب التقدمي الاشتراكي» وليد جنبلاط، غير تعبيرٍ عن المصلحةِ الموضوعية الواحدةِ لأطـرافٍ كثيـرين مُتَبَاعـدين. وهذه المصلحـةُ تستدعي مَنْـعَ الحلِّ اللبنـاني ما دام كـلُّ واحدٍ من الأطراف لم يَتَوَصَّل إلى أغراضِهِ من خلالِ «الساحة اللبنانية»(١٧٢).

(١٦٩) أمين الجميل، «حوار وذكريات»، الحلقة ، الحياة ١٩٩٠/١٢/١١. وتبعاً لروايةٍ أخرى يقول جوزيف أبـو خليل أنَّ الرئيس السوري قال للجميل إبَّان القمة الحاديـة عشرة «مـا معناه، رداً على تمسُّـك الرئيس الجميـل بالأصول الشرعية والدستورية: أين هي هذه الشرعية... إنَّما الشرعية هي في هذه القوى الثلاث المتحـالفة والمُتَّفِقَة على تصوّرٍ معين... إنَّهـا حال ثـورية متى استتبت كـانت هي الشرعيـة الجديـدة [...] ورداً على ملاحظات الرئيس اللبناني في موضوع «العلاقات المميزة» قال الرئيس السوري مـا معناه: «الأجـواء أجواء وَحْدَوِيَّة عندكم وعندنا، والاتفاق المطروح لا يعكس إلَّا القليل القليل من هذه الأجواء». مذكرات جوزيف أبـو خليل، في الحياة ١٩٨٩/٩/٧.

(١٧٠) وكما في ١٩٨٣ كان الفسـاد المنسوب إلى الجميـل أحد بنـود الحملة، لكن حتى لـو صـحَّت دعوى الفسـاد الذي يصعب التأكد منه، يبقى أنَّ الفساد لم يكن غرض الحملة كما أنَّ المشاركين فيها كـانوا كلهم عـرضة لاتهامات مشابهة. ومن عاش في بيروت الغربية آنـذاك لمس فعاليـة الآلة الإشـاعيّة المُنَظَّمَـة ذات الرؤوس والأدوار المتعددة.

(١٧١) حول محاولـة التسويـة الأخيرة مـع الأسد للحؤول دون مـأزق دستوري بعـد الاتفاق السـوري ـ الاميركي، راجع: أمين الجميل، «حوار وذكريات»، الحلقة ، الحياة ١٩٩٠/١٢/٥. حيث أثناء الإجتمـاع سلَّم الأسد ورقة «فقرأها ثم مدَّها إليَّ وفيها خبر اجتماع وزارة الـدفاع بين ميشـال عون وسميـر جعجع والـذي وصفه بالانقلاب على اجتماع دمشق. عندها تبدلت المعادلة برمتها وتغيَّر تماماً جو الاجتمـاع وبدا الـرئيس الأسد أكثر تصلباً، واستمرّت المحادثات سطحيّة ونظرية، وكان الإجتماع هو الأقصر من بين كل الاجتماعـات التي عقدت طوال ولايتي».

(١٧٢) يروي الجميل أنَّ الوزيرين الإسرائيليين شارون وارينز كانا «يقولان من جهة، عبر الصحف، أنَّهمـا لن يَدَعَـا

فالجميل الذي عَوَّل الكثيرون من المُعَارضين التقليديين للكتائب على أنَّ وصولَهُ إلى الـرئاســةِ كفيلٌ بـإخراجِ الإسـرائيليين من لبنان، لم يكن في وُسْعِهِ أنْ يُمَـارسَ التَّـرَفَ والعزوفَ الكاملَ حيالَ دولةٍ تحتلُّ مساحاتٍ كبيـرةً من الوطنِ، وتُحَـاصِرُ قُـوَّاتُهَا العـاصمةَ وأبوابَ القصر الجمهوري.

ومنـذُ البدايـة حاولت إسـرائيل من خـلال حربِ الجبـل كمـا من خـلال «القـوّات اللبنانية»(١٧٣)، انْ تضغطَ على العهد كي يُوَقِّعَ اتفاقَ سَـلامٍ كامـلٍ، حتى إذا ضمرَ هـذا الإحتمالُ بدأت المشادَّةُ حولَ مكانِ التفاوض ومستوى التمثيل، فـرفض الجميل أنْ تكـونَ القـدسُ المحتلةُ مكـاناً وانْ يكـونَ الوفـدُ المفاوضُ سيـاسياً، ومن قَبِيـل تخفيف الطبيعة المباشَرَةِ للمفاوضات طَلَبَ إدخالَ الولايات المتحدة طرفاً أساسياً فيها، حتى بدا أنَّ وزيـرَ الخارجية الأميركية جورج شولتس هو مُهَنْدِسُ اتّفاق ١٧ أيّار.

بَيْدَ أنَّ النتائجَ التي لم تُرْضِ إسرائيل ولم تُشَكِّل مُعَادِلاً مقبلاً لأكلافها في الحرب، وهي التي أرادت «مكـافأةً» من المسيحيين اللبنـانيين، حَمَلَتْ تل ابيب على التَّنَصُّـلِ من ١٧ أيّار والإستعاضةِ عن العلاقـةِ بدولـةٍ لبنانيـةٍ واحدةٍ بعـلاقاتٍ متعـددةٍ مع الأطـرافِ والطوائفِ اللبنانية. وهكذا التقت إسرائيل ومقـاوَمَتُها على تعليقِ الـدولة اللبنـانية وتفتيتِ مجتمَعِها، فيما كانت «القوّات اللبنانيةُ» تضغطُ من جهتها للقفزِ فوق سائرِ هذه التعقيداتِ، وصولاً إلى حسمٍ بسيطٍ ووُجْهَةٍ واضحةٍ!(١٧٤).

واقعُ الأمرِ أنَّه بِقَدْرِ ما لَخَّصت تجربةُ أمين الجميل استحالةَ السياسةِ في ظلِّ يقظةِ الريفِ والعروبةِ، وحروبِها العصبية، لَخَّص المصيرُ الذي آل إليه حزبُ الكتـائب استحالـةَ

الرئيس الجميل يحكم خارج قصر بعبدا. وكان السيد عبد الحليم خدّام يقول من جهـة ثانيـة: «على الجميل ان يمشي او بيمشي»... اي انَّ على الـرئيس انْ يقبل بشـروط سوريـة او ان يـرحـل». المـرجـع السـابق، الحلقة ، الحياة ١٢/٩/١٩٩٠.

(١٧٣) من رواية للجميل عن تلك الفترة:

«اذكر انني كنت مرّة قد تفاهمت مع فادي فرام يوم كان قائـد «القوات اللبنـانية» على بعض الإجـراءات الرامية إلى فتح الطريق الساحلية في اتجاه الجنوب. وبعد قليل جاءني احد الاصدقاء يقـول إنَّ فادي فـرام اتصل به وطلب منه إبلاغي انَّ ما اتفقنا عليه قد تعرقل. وبدأت اسأل ما القصة، واخيراً عرفت انَّ ضغـوطاً إسـرائيلية حملت «القـوات» على تغيير مـوقفها، وافهمـوها انَّ هـذا فخ لهـا وقضـاء على نفـوذهـا وخطهـا السياسي».

(١٧٤) من هذا الكلام التبسيطي شرح جعجع لبعض اسباب «انتفاضة» آذار ١٩٨٥:

«لا نملـك الآن، كمجتمعٍ مسيحي وحـزب، ايَّ مشروعِ حـل يكون هـدفاً لنضـالنا وتضحيـاتنـا. نُطـالب بالفيدرالية في لوزان ونتمسَّك بالصيغة في بيروت. نتكلم عن تعزيز «القوّات اللبنانية» ودعمها ونعمـل يومياً على قضمها وتحجيمها. وافقنـا على اتفاق ١٧ ايـار ومن ثُمَّ باركنـا إلغاء هـذا الإتفاق فتـرانا نطلب الشيء وعكسه في آن واحد». عن: جوزيف الخوري طوق ـ إقليم الجبة ـ بشري، مكتب التوثيق، الانتفاضة، لا ذكر للتاريخ او الدار، ص ٢٣. علماً انَّ الحسم الذي يجعل صـاحبه معبـود طائفتـه هو «حـلٌ» سهل كمـا برهنت الحروب اللاحقة للعماد ميشال عون.

الحـزبيّةِ في ظـلِّ الظروفِ المـذكورة. والظـروفُ هذه، في إفضـائهـا إلى تَغْييْبِ الـدولـةِ والإحتكامِ إلى الحالاتِ الشعورية، كالخوفِ الذي ينقُلُ أهْلَهُ إلى عراءِ الطبيعـةِ ووحشَتِها، ليست بحالٍ من الأحوال ظروفاً عابرةً أو استثنائيةً في هذا الشرقِ، حيث حصلت، في ظُلِّ يافطاتِ الوَحْدَةِ، أوسعُ عملياتِ التفتيت والتدمير.

فهرس الاعلام


فهرس

على إلمامها بتاريخ حزب الكتائب إلمامات وإفادتها مما يوفّره البحثُ الاجتماعيُّ، فهذه الصفحات ليست بتاريخ له على معنى الإحصاء والإحاطة ولا بتاريخ اجتماعيّ: إنْ هي فتتبّعُ المعاني المَلابِسة مسارَهُ.

فحزبُ الكتائب اللّبنانيّة الذي انطلقَ انطلاقةً شبهَ مدينيّة محفوفةً بالتّناقضات ومُشرَعةً على احتمالات عدّة، بما فيها الاحتمالُ المسيحيُّ الديمقراطيُّ، لم تلبَثْ يقظةُ الرِّيف المسلّح والمحبِط على السياسة أنْ «غزتْه» في ما «غزت» بأنْ أناطت بالخوف إمامةَ السياسة فأشاعت العنفَ ونحّت الدَّولةَ وردّت الطائفةَ المارونيّةَ، في سياق الارتداد اللبنانيّ العامّ، إلى السَّويّة الدمويّة العشائريّة المغايرة الطائفيّة والرّسملة والسّياسة.

كذلك، فَحدُّ فضاءٍ يحقّ عليه اسمُ العروبة، امتناعُ السّياسة من القيام والأحزاب من التّرعرُع وَفشوُّ حضٍّ منقطعِ النّظير على وحدة الجماعة قرينةَ تفتيت، إلى ما لا نهايةَ لها.